

أفواه دعائنا حاربناه لاسيما مشركى العرب الذين بالغوا فى عداوة الإسلام ، ودعوتنا إلى الإسلام أولا تكون بالحكمة والموعظة الحسنة .

لهذا لانعجب إن رأينا آيات فى القرآن تحثنا على الدعوة إلى الإسلام بالحسنى وآيات تأمرنا بالقتال وتحث عليه ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم .. الآية ﴾^(١)

قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾

فى هذا النص الكريم توجيه وإرشاد لنا معشر المسلمين كما أن فيها حثا على مجادلة من أراد الاستبصار من أهل الكتاب بالحسنى كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾^(٢) وكما قال جل ذكره لموسى وهارون ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أى : حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال ويقاثلون بما يمنعهم ويردعهم قال الله - عز وجل - ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾^(٤) . قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف ، قال مجاهد : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية .

وقوله تعالى : ﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ﴾ أى : إيماننا إجماليا بالذى لم يدخله التحريف أو التبديل وفى السنة المطهرة أحاديث ترشد إلى هذا الإيمان الإجمالى والمعنى : إذا أخبروا بما لانعلم صدقه ولا كذبه فهذا لانقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقا ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلا ولكن نؤمن به إيماننا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا . قال البخارى رحمه الله حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »^(٥) وهذا الحديث تفرد به البخارى وقال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن عمرو وأخبرنا يونس عن الزهرى أخبرنى ابن أبى غنم أن أبا غنم الأنصارى أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود فقال يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ « الله أعلم »

(١) سورة التوبة من الآية : ٥

(٢) سورة النحل الآية : ١٢٥

(٣) سورة طه الآيتان : ٤٣ - ٤٤

(٤) سورة الحديد الآية : ٢٥

(٥) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ١٣٦ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول للنبي : لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء من رواية أبى هريرة .

قال عثمان بن عفان رضى الله عنه : « سابقنا أهل جهادنا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وظالمنا أهل بدونا ، لا يشهدون جماعة ولا جمعة »

وقيل : الظالم : المقصر فى العمل بالقرآن ، والمقتصد العامل به فى أغلب الأوقات ، والسابق الذى يضم التعليم والإرشاد إلى العمل . وقال الحسن : الظالم : من خفت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته . والسابق من رجحت حسناته على سيئاته . وقد اختلف فى هذه الأصناف على نيف وأربعين قولاً ، ثم عقب سبحانه وتعالى الآيات المذكورة بقوله - سبحانه - تعالى : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ والظاهر أن الضمير المرفوع فى (يدخلونها) عائد على الأصناف الثلاثة . وهو قول عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى الدرداء ، وعقبة بن عامر ، وأبى سعيد ، وعائشة ، ومحمد بن الحنفية ، وجعفر الصادق ، وغيرهم - رضى الله تعالى عنهم - .

وقال الزمخشري : هو عائد على السابق فقط ، ولهذا جعل ذلك إشارة إلى (السابق) المفهوم من قوله : (سابق) ، قال : وفى اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم . والسكوت عن الآخرين مافيه من وجوب الحذر ، فليحذر المقتصد ، وليملك الظالم لنفسه حذراً ، وعليها بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ، ولا يغتر بما رواه عمر - رضى الله عنه - ، عن رسول الله ﷺ : « سابقنا ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له »^(١) فإن شرط ذلك صحة التوبة ، لقوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾^(٢) وقوله تعالى : ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾^(٣) ولقد نطق القرآن بذلك فى مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ، ولم يعلل نفسه بالخدع .

فإن قلت : ما الحكمة فى تأخير السابق وتأخير الظالم : أجيب : لئلا يعجب السابق ، ويأس الظالم من رحمته . ولما كان الظالم له ذلة ، والسابق له صولة ، يرفع تعالى ذلة الظالم بقوله : (لنفسه) وكسر صولة السابق بقوله : (بإذن الله) كأنه يقول : يا ظالم - ارفع رأسك ، ظلمت ولكن على نفسك ياسابق - اخفض رأسك ، سبقت ولكن بإذن الله - تعالى - وفى قوله فى بقية الآية : ﴿ إن ربنا لغفور ﴾ إشارة إلى دخول الظالم لنفسه الجنة ، و ﴿ شكورا ﴾^(٤) إشارة إلى (السابق) ، وأنه كثير الحسنات . و (دار المقامة) هى الجنة ، لأنها دار مقامه لا يرحل عنها .

وقوله تعالى قبل هذه الآية : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾^(٥) أى يقرأونه ويدأومون على تلاوته ، وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير :

(١) انظر تحف السادة المتقين ج ٨ ص ٦٠٠ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث عمر

أنظر كنز العمال ج ٢ ص ٤٨٥ من سورة فاطر - حديث رقم ٤٥٦١ ، ٤٥٦٣

(٢) سورة التوبة من الآية : ١٠٢

(٣) سورة التوبة من الآية : ١٠٦

(٤) سورة فاطر من الآية : ٣٤

(٥) سورة فاطر من الآية : ٢٩

هذه آية القراء ، والمراد : يتبعون كتاب الله فيعملون بما فيه . وقال الكلبي : يأخذون بما فيه .
وقال السدي : هم أصحاب الرسول ﷺ . وقال عطاء : هم المؤمنون . ولما ذكر الله تعالى وصفهم
بالخشية ، وهي عمل القلوب ، ذكر أنهم (يتلون كتاب الله) وهو عمل اللسان ، و (أقاموا الصلاة)
وهي عمل الجوارح ، (وأنفقوا) ، وهو العمل المالى وقوله : ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ خبر إن ،
أى : لن تكسد ، ولن يتعذر الربح فيها ، وهو إشارة إلى الإخلاص ، أى يفعلون تلك الأفعال من
التلاوة وإقام الصلاة والإنفاق ، يقصدون بذلك وجه الله ، لا الرياء والسمعة . وقوله (ليوفيهم)
متعلق بـ (يرجون) ، أو بـ (لن تبور) ، أو بمضمر تقديره : فعلوا ذلك . أقوال .
وقال الزمخشري : وإن شئت جعلت (يرجون) فى موضع الحال ، أى : أنفقوا راجين ليوفيهم ،
أى فعلوا جميع ذلك لهذا الغرض .

وخبر إن قوله : ﴿ إنه غفور رحيم ﴾ على معنى : غفور لهم ، شكور لأعمالهم ﴿ ويزيدهم من
فضله ﴾ قيل : بتشفيهم فيمن أحسن إليهم . قاله أبو وائل وفى الحديث . بتضعيف حسناتهم .
وقيل : بالنظر إلى وجه الله الكريم .

وفى قوله : ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾^(١) مع قوله : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من
عبادنا ﴾ إشارة ؛ كأنه تعالى قال : إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر ، فاصطفينا عبادة ثم أورثناهم
الكتاب .

وفى الصحيحين من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خيركم من
تعلم القرآن وعلمه »^(٢) وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله أهلين من
الناس ، قالوا : من هم يا رسول الله .. ؟ قال : أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته »^(٣) ، رواه
النسائي والحاكم . أى حفظة القرآن ، العاملون به ، هم أولياء الله ، والمختصون به ، إختصاص أهل
الإنسان به ، وليس من أهله من حفظ لفظه وضيع حدوده .

وسئل ذو النون المصرى عن حملة القرآن ، فقال : هم الذين مطرت عليهم سحائب الأشجان ،
ونصبوا ركبهم والأبدان ، وتسربلوا بالخوف والأحزان ، وشربوا بكأس اليقين ، وراضوا أنفسهم
رياضة المتقين ، كحلوا أبصارهم بالسهر ، وغضوها عن النظر ، فقاموا ليلهم أرقا ، وتبادرت دموعهم
فرقا ، حتى ضنيت منهم الأبدان ، وتغيرت منهم الأبدان ، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة ، وشفاه
ذابلة ، ودموع وابلة ، وزفرات قاتلة ، فحال بينهم وبين نعيم المتنعمين ، وشغلهم عن مطامع

(١) سورة فاطر الآية : ٣١

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٥٨ عن رواية عثمان بن عفان سطر ١٩ .
وانظر صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٣٦ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه والحديث مروى عن عثمان بن عفان .
وانظر تحف السادة المتقين للعلامة الزبيدى ج ٤ ص ٤٦٤ قال العراقى رواه البخارى من حديث عثمان بن عفان .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨ من رواية أنس .

الراغبين ، فاضت عبراتهم من وعيده ، وشابت ذوابهم من تحذيره ، ﴿ أولئك الذين هدامهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾^(١)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : (الم) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »^(٢) رواه الترمذى وصححه . وروى السلفى فى البلدانيات عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا هريرة تعلم القرآن وعلمه الناس ، فإنك إن مت وأنت كذلك زارت الملائكة قبرك كما تزور البيت العتيق »^(٣) .

وعن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ : « أبشروا إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله . وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً »^(٤) رواه : (الطبرانى فى الكبير) وعنه ﷺ : « كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض »^(٥) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ هو كتاب الله ، وهذا من أبلغ الاستعارات ، والطف بالإشارات لما كان يتوصل بالحبل والسبب إلى نيل الأغراض استعير للقرآن الموصل إلى نيل السعادة الدنيوية والأخروية . وعن ابن مسعود قال :

قال رسول الله ﷺ « إن هذا القرآن مادية الله فاقبلوا مآدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، نجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعجب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقض عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، أتلهو فإن الله يأجركم على تلاوته . كل حرف عشر حسنات ؛ أما إني لا أقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »^(٦) . رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن إبراهيم الهجرى ، عن أبى الأحوص عنه ، وقال : تفرد به صالح بن عمر عنه ، وهو صحيح .

وفى فتاوى ابن الصلاح قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها البشر ، فقد ورد أن الملائكة لم يعطوا ذلك ، وأنها حريصة لذلك على استماعه من الإنس

(١) سورة الزمر الآية : ١٨

(٢) انظر إتحاف السادة المثقين للعلامة الزبيدى ج ٤ ص ٤٦٥ من رواية ابن مسعود .

وانظر كنز العمال الباب السابع فى تلاوة القرآن وفضائله ج ١ ص ٥٣٤ رقم ٢٣٩٤ بلفظ عوف بن مالك

وانظر الترمذى فى أبواب فضائل القرآن باب ١٦ ماجاء فى من قرأ حرفاً من القرآن ج ٤ ص

٢٤٨ برقم ٣٠٧٥ قال : حديث حسن صحيح غريب عن رواية عبد الله بن مسعود .

(٣) انظر اللآلء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ج ١ ص ١١٥ فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل لأبى هريرة :

(٤) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٢٢ ص ١٨٨ حديث رقم ٤٩١ رواية عن أبى شريح الخزاعى فيه زيادة فى أوله ولفظه :

« أبشروا أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، قالوا : بلى قال : « إن هذا القرآن .. الخ .

(٥) انظر كنز العمال ج ١ ص ١٨٨ حديث رقم ٩٥٦ برواية (ش وابن جرير عن أبى سعيد)

(٦) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب أخبار فى فضائل القرآن جملة .. ج ١ ص ٥٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله

ابن مسعود .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتبع فيه وهو عليه شاق ، له أجران »^(١) وفي روايه : « والذي يقرأ القرآن وهو يشتد عليه له أجران »^(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ له ، وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، والسفرة : جمع سافر ، ككاتب وكتبه والسافر . الرسول والسفرة الرسل ؛ لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله تعالى . وقيل : السفرة : الكتبة ، والبررة : المطيعون ؛ من البر : وهو الطاعة . والماهر : الحاذق الكامل الحفظ ، الذي لا يتوقف ، ولا تشق عليه القراءة ، لجودة حفظه وإتقانه . قال القاضي عياض : يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة أن له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقا للملائكة السفرة ، لاتصافه بصفاتهم ، من حمل كتاب الله تعالى . قال :

ويحتمل أن يراد أنه عامل بعملهم ، وسالك مسلكهم . وأما الذي يتتبع فيه فهو الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه ، فله أجران . أجر القراءة ، وأجر تعب ومشقته . فإن قلت : يلزم أن يكون المتتبع أفضل من الماهر ؛ من حيث إن له أجرين ، ولم يذكر للماهر أجرين ؟ أجيب : بأنه ﷺ قد ذكر لكل واحد فضيلة ، ليكون حثا له على القراءة ، فذكر للمتتبع أجرين ، وللماهر كونه مع السفارة ، والكون مع السفارة لا يتقاعد على حصول الأجرين . وقال القاضي عياض : ليس معناه أن الذي يتتبع له من الأجر أكثر من الماهر به ، بل الماهر أفضل وأكثر أجرا ، فإنه مع السفارة ، وله أجور كثيرة ، وكيف يلتحق به من لم يعتن بكتاب الله ، وحفظه وإتقانه ، وكثرة تلاوته ودراسته ، كاعتناؤه به حتى مهر فيه .

وفي الأصل التاسع من نواذر الأصول لأبي عبد الله الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبي الدرداء . قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن بيوتات المؤمنين لمصابيح إلى العرش ، يعرفها مقربو السموات السبع ؛ يقولون : هذا النور من بيوتات المؤمنين التي تنال فيها القرآن »^(٣) .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل الماهر بالقرآن » .. الخ .. ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ فقد ورد الحديث برقم ٧٩٨ / ٢٤٤ برواية عن عائشة بلفظه

وانظر سنن الترمذي « أبواب فضائل القرآن » باب ماجاء في فضل قارئ القرآن : ج ٤ ص ٣٤٤ حديث رقم ٣٠٦٨ فقد ورد الحديث عن عائشة غير أنه جاء في آخره « والذي يقرأه - قال هشام - هو شديد عليه وقال شعبة وهو عليه شاق له أجران » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل الماهر بالقرآن » .. الخ .. ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ فقد ورد الحديث برقم ٧٩٨ / ٢٤٤ بلفظه من رواية وكيع .

وانظر سنن الترمذي - أبواب فضائل القرآن ، باب ماجاء في فضل قارئ القرآن ج ٤ ص ٣٤٤ لحديث عائشة .

(٣) انظر كنز العمال الباب السابع في تلاوة القرآن وفضائله الاكمال من الفصل الأول ص ٥٥٤ برقم ٢٤٨١ بلفظ أبي هريرة وأبي الدرداء

وانظر نواذر الأصول للحكيم الترمذي الأصل التاسع في مرتبة روح المؤمن ص ١٦ فقد ورد هذا الحديث من رواية لأبي هريرة .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ القرآن فاستظهره ، فأحل حلاله ، وحرم حرامه ، أدخله الله الجنة ، يشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار »^(١).

ورواه الترمذى وأبو عيسى . وقال حديث غريب ، وخرجه أبو داود ، وصححه الحاكم ، من حديث معاذ بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس والده يوم القيامة تاجا من نور ، ضوءه أحسن من ضوء الشمس ، في بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذي عمل بهذا »^(٢) . وروى الحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ، من حديث بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن وتعلمه ، وعمل بما فيه ألبس يوم القيامة تاجا من نور ضوءه مثل ضوء الشمس ، ويكسى والديه حلتان ، لا يقوم بهما الدنيا ، فيقولان : بم كسينا هذا ! ؟ فيقال بأخذ ولدكما القرآن »^(٣) . وروى الترمذى وحسنه ، من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يجيء صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يارب - حله ، فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول يارب زده ، فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يارب ارض عنه فيقال : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة »^(٤) وروى الترمذى أيضا ، وصححه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها »^(٥).

قال الخطابي فيما نقله عن الحافظ عبد العظيم المنذرى وغيره : جاء في الأثر « أن عدد آي القرآن على قدر درج الجنة ، فيقال للقارئ : إرق في الدرج على قدر ماكنت تقرأ من آي القرآن ، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درجة الجنة في الآخرة ، ومن قرأ جزءا منه كان رقيه في الدرج على قدر ذلك . فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة .

قوله تعالى : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أى ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغشى ضوء الشمس بالوصائل وهيهات ، ثم قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك ﴾ أى : قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتى بهذا القرآن عمرا لاتقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أُمى لاتقرأ ولا تكتب وهكذا صفة

(١) انظر سنن الترمذى أبواب فضائل القرآن ، باب ماجاء في فضل قارئ القرآن ج ٤ ص ٢٤٥ حديث رقم ٣٠٦٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن علي بن أبي طالب - وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه

(٢) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب « ذكر فضائل وآي متفرقة » ج ١ ص ٥٦٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه ، وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

(٣) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب « ذكر فضائل وآي متفرقة » ج ١ ص ٥٦٧/٥٦٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن بريدة الأسلمى عن أبيه : وقال هذا الحديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن » باب ماجاء في من قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر ج ٤ ص ٢٤٨ حديث رقم ٣٠٧٦ فقد ورد الحديث برواية عن أبي هريرة .

(٥) انظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن » باب ١٨ ج ٤ ص ٢٥٠ حديث رقم ٣٠٨١ فقد ورد الحديث بروايته عن عبد الله بن عمرو .

في الكتب المتقدمة كما قال تعالى :

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾^(١) الآية .

وهكذا كان رسول الله ﷺ دائما إلى يوم القيامة لا يحسن الكتابة ، ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه - عليه السلام - كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى : ثم أمر فكتب . ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في محافلهم : وإنما أراد الرجل - أعني الباجي - فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال ﷺ إخبارا عن الدجال : « مكتوب بين عينيه كافر » .

وفي رواية : « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن » وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له ، قال الله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو ﴾ أي تقرأ ﴿ من قبله من كتاب ﴾ لتأكيد النفي ولا تخطه بيمينك تأكيدا أيضا وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إذا لارتاب المبتلون ﴾ أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا هذا مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾^(٢)

قال الله تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ﴾^(٣) الآية وقال ههنا : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمرا ونهيا وخبرا يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا كما قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾^(٤) وقال رسول الله ﷺ : « ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا »^(٥) .

وفي حديث عياض بن حماد في صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان »^(٦) أي لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٥٧

(٢) سورة الفرقان آية : ٥

(٣) سورة الفرقان من الآية : ٦

(٤) سورة القمر الآية : ١٧

(٥) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٤٥١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي هريرة وانظر صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم ج ٩ ص ١١٣ برواية أبي هريرة .

(٦) انظر صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ج ٤ ص ٢١٩٧ حديث رقم ٢٨٦٥/٦٣ فقد ورد حديث طويل عن عياض ورد فيه الحديث كجزء منه مع اختلاف في بعض الألفاظ

المحل لأنه قد جاء فى الحديث الآخر : « لو كان القرآن فى إهاب لما أحرقتة النار »^(١) ولأنه محفوظ فى الصدور ميسر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظا ومعنى ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة فى صفة هذه الأمة أنا جيلهم فى صدورهم ، واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ بل العلم بأنك ماكنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابا ولا تخطه بيمينك آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ، ونقله عن قتادة وابن جريج وحكى الأول عن الحسن البصرى فقط قلت : وهو الذى رواه العوفى عن ابن عباس ونقله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾

أى : ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون أى : المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾^(٢).

* ذكر بعض الشبه والرد عليها *

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٨﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

معانى المفردات

(شهيذا) يشهد بصدقى (أجل مسمى) معلوم محدد (بغته) فجأة (يغشاهم) يصيبهم .

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ١٥٤ / ١٥٥ فقد ورد الحديث عن عقبه مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) سورة يونس الأيتان : ٩٦ - ٩٧

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن ذكر الدليل على أن القرآن من عند الله وليس بمفترى من عند محمد ﷺ أردف هذا شبهة أخرى لهم ، وهى أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يأتى لهم بمعجزة محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كتناقة صالح وعصا موسى ، فأجابهم بأن أمر ذلك . إلى الله لا إليه ، فلو علم أنكم تهتدون بها لأجابكم إلى ما طلبتم ، ثم بين سخف عقولهم وطلبهم الآيات الدالة على صدقه بعد أن جاءهم بالمعجزة الباقية على وجه الدهر وهى القرآن يتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار ، فيه خبر من قبلهم ونبا من بعدهم وحكم ما بينهم ، وفيه بيان الحق ودحض الباطل وفيه ذكرى حلول العقاب بالمكذبين والعاصين .

ثم أبان أن الله شهيد على صدقه وهو العليم بما فى السموات والأرض .
ثم هدد الكافرين بأن كل من يكذب رسل الله بعد قيام الأدلة على صدقهم ، ويؤمن بالجبت والطاغوت فقد خسرت صفقته ، وسينال العقاب من ربه جزاء وفاقا على جحوده وإنكاره .
أخرج الدارمى وأبو داود عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال النبي ﷺ - « كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم »^(١) فنزلت : ﴿ أو لم يكفهم ﴾ الآية وأخرج البخارى عند تفسير الآيات قوله ﷺ ليس منا من لم يتغن بالقرآن^(٢) أى يستغنى به عن غيره . وعن عبد الله بن الحارث الأنصارى قال : دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال هذه أصبتها

مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك . فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرا شديدا لم أر مثله فقط . فقال عبد الله بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام ديننا . وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، فسرى عن رسول الله ﷺ وقال : لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتكم ، أنا حظكم من النبيين ، وأنتم حظى من الأمم^(٣) أخرجه عبد الرزاق .

وبعد أن أئذر المشركين بالعذاب ، وهددهم أعظم تهديد قالوا له تهكما واستهزاء : إن كان هذا حقا فأتنا به ، وهم يقطعون بعدم حصوله ، فأجابهم بأنه لا يأتىكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم لأن الله أجله لحكمة ، ولولا ذلك الأجل المسمى الذى اقتضته حكمته ، وارتضته رحمته ، لعجله لكم ولأوقعه بكم ، وإنه ليأتىكم فجأة وأنتم لاتشعرون به ، ثم تعجب منهم فى طلبهم الاستعجال وهو سيحيط بهم فى جميع نواحيهم ، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون .

(١) انظر تفسير القرطبي « سورة العنكبوت » عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ ج ١٣ ص ٣٥٥ فقد ورد الحديث عن يحيى بن جعدة مع اختلاف فى بعض ألفاظه
(٢) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب ذكر فضائل سور متفرقة ج ١ ص ٥٧٠ فقد جاء الحديث بلفظه عن ابن عباس .
(٣) انظر كنز العمال الباب الثانى فى الاعتصام بالكتاب والسنة ج ١ ص ١٨٣ حديث رقم ٩٢٧ من رواية لعبد الله بن الحارث فقد ورد الحديث بلفظه .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾ يقصدون الآيات هنا المعجزات التى جاء بها الرسل من قبل كناية صالح وعصا موسى فقال لهم الله - تبارك وتعالى - إنما الآيات عند الله فلو علم سبحانه أنكم ستهدون بتلك الآيات لأجراها على يدي حبيبه ومصطفاه لكنكم إنما تطلبون ذلك عنادا وكبرا .

قال تعالى : ﴿ ولوقتحننا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ (١)

وقال جل شأنه ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٢)

وقال عزت حكمته :

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾ (٣) .
لقد اقترحوا على رسول الله ﷺ آيات كثيرة ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله الملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا ﴾ (٤)

هذا هو الرد الحاسم فالرسول البشر والبشر الرسول لا يملك الآيات إنما الذى يملكها هو خالق القوى والقدر لذا جاء الرد فى سورة العنكبوت ﴿ قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾ ثم قال تعالى بعد ذلك :

﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ قال ﷺ : « كفى بقوم ضلالة ان يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » (٥) ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾

ولما قال الفاروق عمر - رضى الله عنه - يارسول الله ، إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أفنكتب بعضها ؟ قال له الرسول الكريم « أمتهوكون أنتم ؟ أى أمتهوكون - كما تهوكت اليهود

(١) سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٢) سورة يونس الآيتان : ٩٦ - ٩٧

(٣) سورة القمر الآيات : ١ - ٥

(٤) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣

(٥) انظر فتح البارى للمسقلانى « كتاب فضائل القرآن » ج ٩ ص ٦٨ باب من لم يتغن بالقرآن .

والنصارى - لقد جئكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ماوسعه إلا اتباعى» (١) .

وفى قوله تعالى : ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ إخبار منه تعالى عن إنزال الكتاب العظيم الذى فيه خبر ما قبلهم ونبا ما بعدهم وحكم ما بينهم أو لم يكفهم ذلك آية وأنت رجل أمدى لاتقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب فجتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى بيان الصواب بما اختلفوا فيه وبالحق الواضح المبين الجلى كما قال تعالى : ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربّه أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى﴾ (٣)
وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال :

قال رسول الله ﷺ « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (٤)

وفى هذا الكتاب رحمة وشفاء ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ (٥)
كما أن فيه ذكرى وموعظة لقوم يؤمنون وفيه من الفضائل ما لا يحصى ومن المحاسن ما لا يستقصى وإذا تقرر هذا فاعلم أن القرآن هو كلام الله تعالى القائم بذاته غير مخلوق ولا خال فى المصاحف ولا فى القلوب والألسنة والأذان بل معنى قديم قائم بذات الله تعالى مكتوب فى مصاحفنا بنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف الدالة عليه قال الله تعالى : ﴿إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون﴾ (٦)
مقروء بالستنا بحروفه المنظومة المسموعة قال عليه الصلاة والسلام لا يقرأ القرآن حائض ولا جنب ، مسموع بأذاننا قال تعالى ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ (٧)

محفوظ فى صدورنا بالألفاظ المخيلة

قال تعالى : ﴿بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم﴾
وهذا كما يقال :

النار جوهر محرق يذكر باللفظ ويكتب بالقلم ولا يلزم منه كون حقيقة النار صوتا وحرفا .
وتحقيقه أن للشئ وجودا فى الأعيان ووجودا فى الأذهان ووجودا فى العبارة ووجودا فى الكتابة
فالكتابة تدل على العبارة وهى على ما فى الأذهان وهو على ما فى الأعيان فحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم القديم كما فى قولنا :

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٣٨٧ فقد ورد الحديث عن عمر بن الخطاب وفيه اختلاف فى بعض ألفاظه .

وانظر كثر العمال ج ١ ص ٢٠٠ حديث رقم ١٠٠٩ عن ابن عباس مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) سورة الشعراء آية : ١٩٧

(٣) سورة طه الآية : ١٣٣

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤٥١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٥) سورة الإسراء من الآية : ٨٢

(٦) سورة الواقعة الأيتان : ٧٧ - ٧٨

(٧) سورة التوبة من الآية : ٦

القرآن غير مخلوق فالمراد حقيقته الموجودة فى الخارج وحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم المخلوقات والمحدثات يراد به الألفاظ المنطوقة المسموعة (كما فى قولنا قرأت نصف القرآن) أو المخيلة (كما فى قولنا حفظت القرآن) أو الاشكال المنقوشة (كما فى قولنا يحرم على المحدث مس القرآن)

قوله تعالى : ﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ﴾

أى : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ويعلم ما أقول لكم من إخبارى عنه بأنه أرسلنى فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى كما قال تعالى :

﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (١)

ولأننا أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات ﴿ يعلم ما فى السماوات والأرض ﴾ أى لا تخفى عليه خافية .

﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾

أى : يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا فى تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل فسيجزىهم على ذلك إنه حكيم عليم .

قوله تعالى :

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن جهل المشركين فى استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ويأس الله أن يحل عليهم كما قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٢)

وقال ههنا : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾

أى : لولا ما حكم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب سريعا كما استعجلوه ثم قال ﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ أى : فجأة ﴿ وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾

أى يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة قال شعبة ، عن سماك ، عن عكرمة ، قال فى قوله : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ قال ابن عباس ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ وجهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه وتكور فيه الشمس والقمر ثم يوقد فيكون هو جهنم .

(١) سورة الحاقة الآيات : ٤٤ - ٤٧

(٢) سورة الأنفال الآية : ٣٢

ثم قال - عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ (٣) الآية :

فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسى . وقال تعالى : وتقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴿ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوى على النفوس كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ . أَفَسِحَرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ . أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا نَحْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥)

قوله تعالى ﴿ يَعْبادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَا ذِيقَةٍ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)

معاني المفردات

لنبوئهم : لننزلهم ، غرفا : الغرف جمع غرفة وهى الحجرة (وكأين) أى كم بمعنى كثير ، من

(١) سورة الأعراف من الآية : ٤١

(٢) سورة الزمر من الآية : ١٦

(٣) سورة الأنبياء من الآية : ٣٩

(٤) سورة القمر الأيتان : ٤٨ ، ٤٩

(٥) سورة الطور الآيات : ١٣ - ١٦

الدواب ، دابة : كل ما دب على وجه الأرض من الحيوان يقال له دابة . يؤفكون : يصرفون ، يقدر له : يضيق عليه مثل يقتر عليه رزقه ، هو : الله الاشتغال بما لا يعنى ، ومالا ينفع عن النافع المفيد ، وفى المصباح ، اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، واللعب : هو العبث . الحيوان : الحياة الدائمة الخالدة .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال المشركين ، وأنذرهم بالخسران ، وجعلهم من أهل النار - اشتد عنادهم للمؤمنين وكثر أذاهم لهم ومنعواهم من العبادة فأمرهم الله بالهجرة إلى دار أخرى إن تعذرت عليهم العبادة فى ديارهم . ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس كريهة لديها ، بين لهم أن المكروه واقع لا محالة إن لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت ، فأولى بكم أن يكون ذلك فى سبيل الله لتنالوا جزاءه ومرجعكم إلى ربكم ، وحيث تنالون من النعيم المقيم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فهناك الغرف التى تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم هذا الأجر جزاء للعاملين الصابرين المتوكلين على ربهم ، الذين يعلمون أن الله قد تكفل بأرزاقهم ، كما تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته ، وهو السميع لدعائهم العليم بحاجتهم .

روى أن الآية نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة ، وقالوا : نخشى إن نحن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة .

وبعد ما بين للمشركين وذكر لهم مغبة أعمالهم - خاطب المؤمنين بما فيه مذكر لهم ، وإرشاد للمشرك لو تأمله وفكر فيه ، ومثل هذا مثل الوالد له ولدان : أحدهما رشيد والآخر مفسد ، فهو ينصح المفسد أولا ، فإن لم يسمع يعرض عنه ، ويلتفت إلى الرشيد قائلا : إن هذا لا يستحق أن يخاطب ، فاسمع أنت ولا تكن كهذا المفسد ، فىكون فى هذا نصيحة للمصلح ، وزجرا للمفسد ، ودعوة له إلى سبيل الرشاد .

التفسير

قوله تعالى ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ﴾ هذا خطاب تشريف وتكريم للمؤمنين حيث أضافهم الله تعالى إلى ذاته وخاطبهم بطريق النداء وبشرهم بأن أرضه واسعة ﴿ والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾ (١) وأمرهم بعبادته وحده فكل الوجود ملكه ، وكل قضاء له حكمته وكل الكائنات طوع وإرادته ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (٢).

(١) الآية ١١٤ من سورة البقرة
(٢) من الآية ١٥ من سورة الملك

أخرج الامام أحمد في مسنده عن الزبير بن العوام قال . قال رسول الله ﷺ (البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيرا فاقم) ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى فأواهم وأيدهم بنصره وجعلهم أصحاب كرامة ببلاده ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقيون إلى المدينة النبوية^(١) .

وعلى هذا فإن المؤمن إذا ضاقت به أرض بلاده فعليه أن يضرب في عرصات الأرض فإن الله تعالى جاعل له فرجا ومخرجا ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾^(٢) .

إذا أنت لم تكرم بأرضك فارتحل فلا خير في أرض مهان كريمها

وقال آخر

إن الفلا حدثني وهي صادقة	فيما تحدث أن العز في النقل
وقال الشافعي رضي الله عنه :	
ما في المقام لذي عقل وذى أدب	من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عن تفارقه	وانصب فإن لذيد العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده	ان سال طاب وان لم يجر لم يطب
الأسد لولا فراق الغاب ما فترست	والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة	لملها الناس من عجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى في أماكنه	والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه	وان تغرب ذاك عز كالذهب

ثم تأت الحقيقة التي لا ريب فيها ولا تقبل المساومة ولا أنصاف الحلول إنها حقيقة الموت حيث يقول تعالى :

﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾^(٣) فلا عجب أن تجد قضايا الموت كلها موجبة كلية أى قد سورت بسور كل لم يسبقه نفى قال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾^(٤) . وقال عظمت حكمته : ﴿ ولاتدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾^(٥) .

وقال جللت قدرته : ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾^(٦) ولو كتب

(٤) من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران

(٥) الآية رقم ٨٨ من سورة القصص

(٦) الأيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في مسنده ١ / ١٦٦

(٢) الآية ٤١ من سورة النحل

(٣) من الآية ٥٧ من سورة العنكبوت

الخلود لاحد لكان لرسول الله صلوات ربي وسلامه عليه ولكنه تعالى أخبره بمصيره المحتوم حيث قال له ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (١) وقال له ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٢) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣) (ولقد نام رسول الله ﷺ على فراش الموت وكان يمسح وجهه الشريف بماء بارد ويقول اللهم هون على سكرات الموت . سبحان الله أن للموت سكرات وقال له جبريل : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعلم بأن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس) (٤) . ولما علم المسلمون بموت رسول الله ﷺ غشيتهم غاشية حتى وقف عمر كالأسد الرأبال وقد ديس عرينه يوعد ويهدد : من قال إن محمدا قد مات ضربته بسيفي هذا . لقد ذهب إلى ربه وسيعود كما عاد موسى لولا أن قبض الله لهذا الموقف رجل الساعة الصديق رضى الله عنه وكان غائبا ساعة الوفاة فدخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى فكشف الغطاء عن الوجه الشريف وقبله وقال له : طبت حيا وميتا يا رسول الله . أما الموت الذى كتب عليك فقد ذقته ولن تذوق الموت بعد ذلك أبدا ، ثم خرج على الناس بهذا البيان الحاسم الجازم ايها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا قوله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزَى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (٥) ونزلت هذه الآية على قلب عمر كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى نزلت بردا وسلاما حتى قال عمر لكأنى لم أسمعها إلا الآن يا أبا بكر وهكذا ودع رسول الله دنيانا هذه إلى الرفيق الأعلى حيث النعيم المقيم والخلود ، والروح والريحان قال الله تعالى ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٦) وقال ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى ثَمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧) وقال ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دِيكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٨) وقال تعالى ﴿إِنَّا إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ (٩) .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركزن الى الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفساد
اترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم بين الله تعالى مصير المؤمنين المتقين فقال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّتَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٠) .

(٦) من الآية ٥٧ من سورة فاطر
(٧) من الآية رقم ١٥ من سورة لقمان
(٨) من الآية رقم ١٤ من سورة لقمان
(٩) الأيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية
(١٠) الآية رقم ٥٨ من سورة العنكبوت

(١) الآية ٢٠ من سورة الزمر
(٢) الآية ٣٤ من سورة الانبياء
(٣) الآية ٣٥ من سورة الانبياء
(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الجنائز حديث ١٦٢٣
(٥) الآية ١٤٤ من سورة آل عمران

(روى ابن ابي حاتم بسنده عن ابي مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام) (١) .

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ (٢) المخصوص بالمدح هنا الجنة .

لا تركزن إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تمشي ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يارب إن العيش عيش الآخرة
وقد رصف الله هؤلاء المؤمنين الذين بوأهم من الجنة غرفا وانزلهم بها منازل السعداء وصفهم بالصبر والتوكل فالصبر مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد إلى القبائح أو هو حبس النفس على طاعة الله تعالى ، أو هو ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات .
قال صاحب البردة :

وخالف النفس والشیطان واعصهما	وان هما محضاك النصيح فاتهم
ولا تطع منها خصما ولا حكما	فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فالنفس كالطفل ان تهمله شب على	حب الرضاع وان تطفمه ينظم
كم زينت لذة للمرء قاتلة	من حيث لم يدر ان السم في الدسم

والتوكل على الله هو الأخذ بالأسباب وتفويض العواقب إلى مولانا سبحانه وتعالى مع الاعتقاد بأن الله مالك الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله .

عن ابن عباس رضی الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي : هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فحاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الاسلام فلم يشركوا بالله - وذكروا أشياء - فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال « ما الذي تخوضون فيه ؟ » فأخبروه فقال : هم الذين لا يرقون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال :

(١) الحديث أخرجه ابن ابي حاتم عن ابي مالك الأشعري مرفوعا
(٢) الآيات ارقام ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة آل عمران

« أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله ان يجعلنى منهم فقال : سبقك بها عكاشة (١) متفق عليه . « الرهيط » تصغير رهط وهم دون عشرة أنفس : والأفق : الجانب ، وعكاشة بضم العين وتشديد الكاف صحابى .

وروى البخارى عن ابن عباس أيضا قال : كان آخر قول ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار : حسبى الله ونعم الوكيل (٢) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال - يعنى اذا خرج من بيته ، بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان) (٣) رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

وقد قرن الله تعالى التوكل بالرزق لما بينهما من كمال الاتصال .

عن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفاصا وتروح بطانا) (٤) رواه الترمذى . ومعناه . تذهب أول النهار خفاصا ، أى ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطانا : أى ممتلئة البطون .

وروى عنه ﷺ (ان روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب) (٥) .

قوله تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ (٦) أى لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئا لغد ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ أى الله يفيض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر فى قرار الأرض ، والطير فى الهواء ، والحيتان فى الماء قال تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾ (٧) وقال ابن ابى حاتم بسنده عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لى « يا ابن عمر مالك لا تأكل ؟ » قال قلت لأشتهي يا رسول الله قال لكنى اشتهى وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك كسرى وقبصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبثون رزق ستهم بضعف اليقين ؟ (٨) قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ (٩)

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد ٢٧١/١ والبخارى فى كتاب الطب باب ٤٢ ح ٧ ص ٢٥ ، ومسلم فى كتاب الايمان ح ١ ص ٧٩

(٢) الحديث اورده ابن كثير فى تفسير الآية ١٧٣ من سورة آل عمران

(٣) الحديث فى تحاف السادة المتقين ٣٢٦/٤ ، القرطبى ٤٠٧/١٠ ، كنز العمال ٤١٥٣٦ ، والحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى كتاب الادب باب ما يقول إذا خرج من بيته حديث ٥٠٩٥ ج ٥ ص ٣٢٨ ، والترمذى فى الدعوات حديث ٣٩٢٢ ، ونسبه المنذرى الى النسائى .

(٤) الحديث : أخرجه الترمذى حديث ٢٣٤٤ ، ابن ماجه فى كتاب الزهد حديث ٤٨٦٤ واحد ١/٥٢

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الصيد باب ٩

(٦) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

(٧) من الآية ٦ من سورة هود

(٨) الحديث فى تفسير القرطبى ٣٥٩ ٥/١٣ ، تحاف ٢٤٥/٩ ، والدر المنثور ١٤٥/٥

(٩) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

فقال رسول الله ﷺ (إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنى لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبىء رزقا لغد) وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض فإذا رأهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش فيظل الفرخ فاتحا فاه يتفقد أبويه فيقيض الله تعالى طيرا صغارا كالبرغش فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه والأبوان يتفقدانه كل وقت فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفوا عليه بالحضانة ولهذا قال الشاعر :

يا رازق النعاب في عشه وجابر العظم الكسير الخافض

وقال البيهقي بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (سافروا تصحوا وتغنموا) وفي رواية لأحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا)^(١) وفي لفظ (سافروا مع ذوى الجذ والميسرة) وقوله تعالى ﴿ وهو السميع العليم ﴾^(٢) أى السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم .

قالوا للحسن رضى الله عنه ما سر زهدك في الدنيا يا تقى الدين قال : علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبي ، وعلمت أن عملى لن يقوم به سوى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع على فاستحييت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعدت الزاد للقاء الله .

إن الله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى وطننا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون . الله يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ، ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾^(٣) .
إن الذين أقروا بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر وبأنه المالك المتصرف والرزاق أقروا بذلك ولكنهم اشركوا فى عبادته ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال . فأنى تصرفون ﴾^(٤) .
فيا من آمنتم بالله ربا لم اشركتم به معبودا ﴿ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾^(٥) ثم يقول تعالى مخبرا عن أنه الباسط القابض الرافع الخافض الذى بيده

(١) الحديث أخرجه البيهقي فى السنن الكبرى واحد ٢ / ٣٨٠

(٢) من الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

(٣) الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ من سورة العنكبوت

(٤) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس

(٥) من الآية ١١٠ من سورة الكهف

مقاليد الأمور والذي قدر الأرزاق على عباده فيقول سبحانه ﴿الله يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم﴾^(١) فالبسط والقبض في الرزق ليس عبثاً إنما لحكمة علمها الله تعالى ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾^(٢) وقضية الرزق قضية تتعلق بالعقيدة فلوركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع في فم ابن آدم .

لا تعجلن فليس الرزق بالمعجل
الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا
لكنه خلق الانسان من عجل

لذا أقسم المولى سبحانه وتعالى فقال ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾^(٣) ﴿فوق رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾^(٤) .

كما ألقى باللائمة على الذين يظنون ان كثرة الأولاد تضيع الرزق وتضيقه فقال في سورة الأنعام ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾^(٥) وقال في سورة الإسراء ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾^(٦) .

للأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى
ولا الشئون التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى
أحاط بى علمه من قبل تصويرى

قوله تعالى ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد بل أكثرهم لا يعقلون﴾^(٧)

وهذه آية أخرى من آيات الله التى لا يقوى عليها سواه ، فهو الذى أنزل من السحاب ماء بقدر معلوم فأحيا الأرض بالنبات بعد ما كانت هامة فأنبتت به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها قال تعالى: ﴿وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾^(٨) .

وقال جل شأنه: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾^(٩) . وقال عظمت حكمته: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا﴾^(١٠) وقال جل قدرته: ﴿هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب

(٦) الآية ٣١ من سورة الإسراء
(٧) الآية ٦٣ من سورة العنكبوت
(٨) الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ من سورة الحج
(٩) الآية ٣٩ فصلت
(١٠) الآية ٤٨ من سورة الفرقان

(١) الآية ٦٢ من سورة العنكبوت
(٢) الآية ١٧ من سورة المؤمنون
(٣) الآية ٢٢ من سورة الذاريات
(٤) الآية ٢٣ من سورة الذاريات
(٥) من الآية ١٥١ من سورة الانعام

ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿١﴾ وقال تبارك اسمه ﴿٢﴾ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴿٣﴾ وقال جل جلاله ﴿٤﴾ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴿٥﴾ كل هؤلاء لو سألتهم عن فعل هذا فسوف يقولون انه الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون لانهم لو عقلوا وتدبروا ما أشركوا بعبادته وما اتخذوا من دونه أولياء .

قوله تعالى ﴿٦﴾ وما هذه الحياة الدنيا إلا هو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون . فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا . فسوف يعلمون ﴿٧﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لادوام لها وغاية ما فيها هو ولعب ﴿٨﴾ وإن الدار الآخرة هي الحيوان ﴿٩﴾ أى الحياة الدائمة الحق الذى لازوال له ولا انقضاء بل هي مستمرة أبد الأباد وقوله تعالى ﴿١٠﴾ لو كانوا يعلمون ﴿١١﴾ أى لآثروا ما يبقى على ما يفنى . قال تعالى ﴿١٢﴾ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴿١٣﴾ ثم يقول سبحانه ﴿١٤﴾ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿١٥﴾ .

وقال تبارك اسمه ﴿١٦﴾ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴿١٧﴾ ثم يقول سبحانه ﴿١٨﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴿١٩﴾ وقال عز وجل ﴿٢٠﴾ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴿٢١﴾ ثم يقول سبحانه ﴿٢٢﴾ قل أؤنبثكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إنا آمنة فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴿٢٣﴾ .

(١) الأيتان ١٠ ، ١١ من سورة النحل

(٢) الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ من سورة ق

(٣) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس

(٤) الآيات ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ من سورة العنكبوت

(٥) من الآية ٦٤ من سورة العنكبوت

(٦) من الآية ٦٤ من سورة العنكبوت

(٧) الآية ٢٠ من سورة الحديد

(٨) الآية ٢١ من سورة الحديد

(٩) الآية ٢٤ من سورة يونس

(١٠) الآية ٢٦ من سورة يونس

(١١) الآية ١٤ من سورة آل عمران

(١٢) الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة آل عمران

وقال عز وجل: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ ^(١) وقال تبارك اسمه: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيئا تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾ ^(٢).

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ ^(٣) وقال وسعت رحمته: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ ^(٤).

وكان رسول الله ﷺ يقول لابن عمر: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور) .

وعن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجزيتهما فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ؟ فقالوا أجل يا رسول الله فقال ابشروا وأملوا ما ينركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم ^(٥) متفق عليه .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال: (إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها) ^(٦) متفق عليه .
وعنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء) ^(٧) رواه مسلم .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ^(٨) متفق عليه .

(١) الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ من سورة الاسراء

(٢) الآية ٤٥ من سورة الكهف

(٣) الآية ٤٦ من سورة الكهف

(٤) الآية ٢٠ من سورة الشورى

(٥) الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الزهد حديث ٢٩٦١ ج ٤ ص ٢٢٧٣ ، ٢٢٧٤ والبخارى فى الجزية ج ٤ باب ١٢

(٦) الحديث فى احمد ٢١/٣ وأخرجه الامام مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة باب ٤١ ج ١ ص ٢٨٧ والبخارى فى باب الزكاة على

الرقاب باب ٤ ج ٢ ص ٢١٦ .

(٧) الحديث أخرجه الامام احمد ١٩/٣ ، ٢٢ ، ٦١ وأخرجه البخارى فى باب فضائل الصحابة باب ٤٣ ج ٤ ص ٢٠٩

(٨) الحديث أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ٤٨/٧ ، ٣٩/٩ ، وفى حلية الأولياء ٣٠١/٢ والبخارى ١١٧/١

وعنه عن رسول الله ﷺ قال: (يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله) (١) متفق عليه .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة - فيصبغ في النار صبغة ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط هل مر بك شدة قط ؟ فيقول لا والله ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط) (٢) رواه مسلم .

وعن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع) (٣) رواه مسلم .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : (أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟ ثم قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا كان عيبا إنه أسك فكيف وهو ميت . فقال (فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم) (٤) رواه مسلم قوله « كنفتيه » أى عن جانبيه ، « والأسك : الصغير الأذن » .

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع النبي ﷺ في حرة (أرض ذات حجارة سود) بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال « يا أبا ذر » قلت : لبيك يا رسول الله . فقال: « ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا تمضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينار إلا شيء أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا) عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ثم سار فقال: (إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ومن خلفه ومن خلفه (وقليل ما هم) ثم قال لى : « مكانك لاتبرح حتى آتيك » ثم انطلق في سواد الليل حتى توارى فسمعت صوتا قد ارتفع فتخوفت أن يكون أحد عرض للنبي ﷺ فأردت أن آتية فذكرت قوله : « لاتبرح حتى آتيك » فلم أبرح حتى أتاني فقلت : لقد سمعت صوتا تخوفت منه فذكرت له فقال : « وهل سمعته ؟ قلت نعم قال : « ذاك جبريل أتاني فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال: وإن زنى وإن سرق) (٥) متفق عليه .

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (لو كان لى مثل أحد ذهبا لِسرنى ألا تمر على ثلاث ليال وعندى منه شيء إلا شيء أرصده لدين) (٦) متفق عليه .

(١) الحديث في فتح البارى ١١/٣٦٢ ، والبخارى ٨/١٣٤ ، ومسلم في الزهد المقلمة رقم ٥ والترمذى حديث ٢٣٧٩ وانحاف السادة المتقين ٦/٣٠٠ ، ٨/١٤٦

(٢) الحديث أخرجه الامام احمد ٣/٢٠٣

(٣) الحديث أخرجه الامام احمد ٤/٢٢٩ ، والحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ج ٤ ص ١٩٣ ، حديث ٢٨٥٨/٥٥

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الزهد والرفائق ج ٤ ص ٢٢٧٢ حديث ٢٩٥٧/٢

(٥) الحديث أخرجه البخارى في كتاب الرقاق ج ٧ ص ١٦٦ وأخرجه الامام مسلم في كتاب الزكاة باب الصدقة ص ٦٨٧ حديث

(٦) الحديث أخرجه البخارى في كتاب الرقاق باب ١٣ ج ٧ ص ١٦٦ وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب تغليظ عقوبة من لا يؤدى

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم) (١) متفق عليه .

وعنه عن النبي ﷺ قال : (تعس عبد الدينار والدرهم والقטיפه والخميصة إن أعطى رضى وان لم يعط لم يرض) (٢) البخارى .

وعنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء : إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساق ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته) (٣) رواه البخارى .

وعنه قال رسول الله ﷺ : (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) (٤) رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى وقال : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) وكان ابن عمر يقول (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك) (٥) رواه البخارى .

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدى قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحببني الله وأحبنى الناس ، فقال (ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس) (٦) حديث حسن رواه ابن ماجه .

وعن النعمان بن بشير قال : ذكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه « والدقل » بفتح الدال والقاف : ردىء التمر .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (توفى رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال على فكلته ففنى) (٧) متفق عليه . قولها شطر شعير قال الترمذى أى شيء من شعير .

وعن عمرو بن الحارث قال : (ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة) (٨) رواه البخارى .

وعن خباب بن الارت قال : (هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجهه الله تعالى فوق أجرتنا على

(١) الحديث أخرجه البخارى ج ٨ فى كتاب الرقاق ص ١٢٧ ، ١٢٨ ومسلم ص ٢٢٧٥ ج ٤ كتاب الزهد والرقائق حديث ٨ / ٢٩٦٣

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد والسير باب ٩ ج ٣ ص ٢٠٤ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ج ١ ص ١٢٠

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٧٢ حديث رقم ١ / ٢٩٥٧

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب ٢ ج ٧ ص ١٥٩

(٦) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب الزهد فى الدنيا حديث ٤١٠٢ ج ٢ ص ١٣٧٣ ، ١٣٧٤

(٧) الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الزهد باب ٢٧ ص ٢٢٨٢ ، ٢٢٨٣ حديث ٢٧ / ٢٩٧٣

(٨) الحديث أخرجه البخارى ج ٤ ص ٣ كتاب الوصايا

الله فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير رضى الله عنه قتل يوم أحد وترك تنميرة فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا بها رجله بدا رأسه فامرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه ونجعل على رجله شيئا من الاذخر (نبت طيب الرائحة) ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها (١) متفق عليه .

وعن سهل قال : قال رسول الله ﷺ : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بغوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) (٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالما ومتعلما) (٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن .
معنى ملعونة : أى مبغوضة ساقطة . وما والاه : أى قاربه من الطاعة الموصلة لمرضاة الله تعالى ولا يفهم من هذا الحديث سب الدنيا مطلقا ولعنها بل الملعون منها ما يبعد عن الله تعالى ويشغل عنه كما يوحى إليه آخر الحديث .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لاتتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا) (٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

ومعنى ضيعة : العقار . لاتتوغلوا فى اتخاذ الضيعة فترغبوا عن صلاة الآخرة كما قال ﷺ : (فترغبوا فى الدنيا) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنها قال : مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصاصنا فقال : « ما هذا ؟ » فقلنا : قد وهى فنحن نصلحه فقال : (ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك) (٥) رواه أبو داود والترمذى بإسناد البخارى ومسلم وقال الترمذى حديث حسن وصحيح .
ومعنى : الخصى (بضم الخاء المعجمة وتشديد الصاء المهملة) بيت من خشب وقصب سمي خصا لما فيه من الخصاص وهى الفرج والأثقاب . قد وهى (بفتحيتين) أى ضعف وهم بالسقوط .
وعن كعب بن عياض رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال) (٦) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

ومعنى فتنة (بكسر الفاء) أى ما يمتحنون به .
وعن أبي عمرو ويقال أبو عبد الله ويقال أبو ليلي عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (ليس لابن آدم فى سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته . وجلف الخبز ، والماء) (٧) رواه الترمذى وقال : حديث صحيح . قال الترمذى : سمعت أبا داود سليمان بن سالم

(١) الحديث ذكره ابن الأثير فى اسد الغابة فى ترجمة مصعب بن عمير ترجمة رقم ٤٩٢٩ ج ٥ ص ١٨١ ، ١٨٣

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى هوان الدنيا ج ٣ ص ٣٨٣ حديث ٤٢١٢

(٣) الحديث أخرجه الترمذى ج ٣ فى كتاب الزهد باب ما جاء فى هوان الدنيا ج ٣ حديث ٢٤٢٤ ص ٣٨٤

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب ما جاء فى هم الدنيا حديث ٢٤٣٨ ج ٣ ص ٣٨٦

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب ما جاء فى قصر الأمل ج ٣ حديث ٢٤٣٨

(٦) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى أن فتنة هذه الأمة فى المال ج ٣ ص ٣٨٩ حديث ٢٤٣٩

(٧) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ج ٤ ص ٣ حديث ٢٤٤٤

البلخى يقول : سمعت النضر بن شميل يقول : الجلف : الخبز ليس معه إدام . وقال غيره : هو غليظ الخبز . وقال الهروى : المراد به هنا وعاء الخبز ، كالجوالق والخرج والله أعلم .
وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه أنه قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ : (أهاكم التكاثر) قال : (يقول ابن آدم : مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟)^(١) رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : قال رجل للنبى ﷺ يا رسول الله وإنى لأحبك فقال : « انظر ماذا تقول ؟ » قال : والله إنى لأحبك ، ثلاث مرات فقال : (إن كنت تحبى فأعد للفقير تحففا فإن الفقر أسرع إلى من يحبى من السيل إلى متناه)^(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن .
« التجفاف » بكسر التاء المثناة فوق وإسكان الجيم ويالفاء المكرونة وهو شيء يلبسه الفرس ليتقى به الأذى وقد يلبسه الانسان .

وعن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما ذئبان جائعان أرسلتا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)^(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .
وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه قلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء . فقال : مالى وللدنيا ؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)^(٤) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .
معنى وطاء : « يكسر الواو ويالمد » هو الفراش الوطىء . وفى رواية ابن ماجة فقلت يا رسول الله لو كنت آذنتنا ففرشنا لك شيئا يقيك .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام)^(٥) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن ابن عباس وعمران بن الحصين رضى الله عنهم عن النبى ﷺ قال : (إطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء وإطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء)^(٦) متفق عليه من رواية ابن عباس ، ورواه البخارى أيضا من رواية عمران بن الحصين .

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين . وأصحاب الجدد محبسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار)^(٧) متفق عليه و« الجدد » الحظ والغنى .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الزهد ج ٣ ص ٢٢٧٣ حديث ٢٩٥٣

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى فضل الفقر ج ٤ ص ٧ حديث ٢٤٥٤

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى أخذ المال بحقه ج ٤ ص ١٦ حديث ٢٤٨٢

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى أخذ المال بحقه ج ٤ ص ١٧ حديث ٢٤٨٣

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى فضل الفقر ج ٤ ص ٨ حديث ٢٤٥٨

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ٧٩ ومسلم فى كتاب التركى ج ٢ ص ٣٢٠

(٧) الحديث البخارى فى كتاب النكاح باب ٨٧ ج ٧ ص ١٨٧ ومسلم فى كتاب الذكر ب ٢٦ ج ٢ ص ٣٢٠

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد . ألا كل شيء ما خلا الله باطل)^(١) متفق عليه .

* بيان حال الكفار في الشدة والرخاء *

قوله تعالى : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

معاني المفردات

(الفلك) السفينة في البحر (مخلصين له الدين) صادقين في نياتهم (حرما آمنا) حرما ذا أمن وطمأنينة (مثنوى) مأوى ومستقر (يتخطف) الأخذ بسرعة والمراد يقتل بعضهم بعضا بسرعة ويسبى بعضهم بعضا (أظلم) الظلم وضع الشيء في غير موضعه .
المناسبة واجمال المعنى :

لما ذكر فيما سلف أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق وأنه هو الرازق ، وهم بعد ذلك يتركون عبادته ، ويعبدون من دونه الشركاء اغترارا بزخرف الدنيا وزينتها - أردف ذلك أن هذه الدنيا باطل وعيب زائل . وإنما الحياة الحققة هي الحياة الآخرة التي لا فناء بعدها ، فلو أوتوا شيئا من العلم ما آثروا تلك على هذه .

ثم أرشد إلى أنهم مع إشراكهم بربهم سواء في الدعاء والعبادة ، إذا هم ابتلوا في الشدائد ، كما إذا ركبوا البحر وعلتهم الأمواج من كل جانب ، وخافوا الغرق نادوا الله ، معترفين بوحدانيته ، وأنه لا منجى سواه ، وليتهم استمروا على ذلك ، ولكن سرعان ما يرجعون القهقري ، ويعودون سيرتهم الأولى ، كما هو دأب من يعمل للخوف لا للعقيدة .

وبعد أن ذكر أن المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا في الفلك ونحوه لجأوا إلى الله وحده مخلصين له العبادة - ذكر هنا أنهم حين الأمن كما إذا كانوا في حصنهم الحصين وهو مكة التي يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به ويعبدون معه سواه ، وتلك حال من التناقض لا يرضاها لنفسه

(١) الحديث أخرجه البخارى في كتاب الأدب باب ٩٠ ج ٧ ص ١٠٠ ومسلم في كتاب الشعر ص ١٧٦٨ ج ٤

عاقِل ، فإن دعاءهم إياه حال الخوف مع الاخلاص ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة النجاة منه لا من سواه ، فكيف يكفرون به حين الأمن ، وهم يوقنون بأن الأصنام حين الخوف لا تجديهم قليلا ولا قطميرا ؟

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم ييغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فتنبئكم بما كنتم تعملون ﴾^(١) وقوله جل شأنه : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾^(٢) . وقوله جل شأنه : ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾^(٣) ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾^(٤) وقوله جل شأنه : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاهم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾^(٥) .

وقال ههنا : ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾^(٦) وقد ذكر محمد بن اسحاق عن عكرمة ابن أبى جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارا منها فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء فإنه لا ينجى ههنا الا هو ، فقال عكرمة والله لئن كان لا ينجى فى البحر غيره فإنه لا ينجى فى البر أيضا غيره ، اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي فى يد محمد فلاجدنه رءوفا رحيا فكان كذلك وقوله تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل ، قوله تعالى : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أسلوب وعيد وتهديد كما فى قوله تعالى : ﴿ فذرهم فى غمرتهم حتى حين أيعسبون إنما نغدهم به من مال وبينن نसारح لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾^(٧) وقوله جل شأنه : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾^(٨) وقوله تعالى : ﴿ فذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم

(٥) الآية ٦٧ من سورة الاسراء

(٦) من الآية ٦٥ من سورة العنكبوت

(٧) الآيات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون

(٨) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الحجر

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس

(٢) الآية ٦٣ من سورة الانعام

(٣) الآية ٣١ من سورة لقمان

(٤) الآية ٣٢ من سورة لقمان

قليلاً ﴿١﴾ . وقوله تبارك اسمه: ﴿لا يفرنك قلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ ﴿٢﴾ .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا
تنام عينك والمظلوم متبته
فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقال آخر :

يا نائم الليل مسرورا بأوله
إن الحوادث قد يأتين أسحارا

وقال غيره :

هي الدنيا تقول بملء فيها
فلا يغرركم مني إيتسام
حذار حذار من بطشى وفتكى
فقولي مضحك والفعل مبكى

وقال آخر :

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان

وقال غيره :

هي الأيام لاتبقى عزيزا
إذا نشر الضياء عليك نجم
وساعات السرور بها قليلة
وأشرق فارتقب يوما أفولا

وقال غيره :

وكم من جبال كم علت شرفاتها
رجال فزالوا والجبال جبال
قوله تعالى : ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون
وبنعمة الله يكفرون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى
للكافرين . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ .

قوله تعالى : ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا﴾ أى أو لم يعلم هؤلاء ويبصروا أن الله تعالى قد
أنعم عليهم بنعمة الحرم الأمن كما قال تعالى : ﴿أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء
ورزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ﴿٣﴾ ردا على الذين قالوا : ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من
أرضنا﴾ ﴿٤﴾ وكما قال تعالى : ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ ﴿٥﴾ وقال : ﴿وطهر بيتى للطائفين والقائمين
والركع السجود﴾ ﴿٦﴾ والناس من الأعراب يتخطفون من حول الحرم بطريق السلب والنهب . قال

(٤) من الآية ٥٧ من سورة القصص
(٥) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران
(٦) من الآية ٢٦ من سورة الحج

(١) الآية ١١ من سورة المزمل
(٢) الآية ١٩٦ من سورة آل عمران
(٣) من الآية ٥٧ من سورة القصص

تعالى : ﴿ ويتخطف الناس من حولهم ﴾ كان الواجب على هؤلاء أن يقابلوا النعمة الجليلة بالشكر كما قال تعالى : ﴿ لا يلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ (١) لكنهم بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبشس القرار وجعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ أفتالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ (٣) والباطل شرك وتكذيب والنعمة إيمان وتصديق لذا قال جل شأنه : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ (٤) أى لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه فالأول مفتر والثانى مكذب ولهذا قال تعالى : ﴿ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فىنا ﴾ يعنى الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ أى لنبصرنهم سبلنا أى طرقنا فى الدنيا والآخرة .

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى أخبرنا عباس الهمدانى أبو أحمد من أهل عكا فى قول الله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ قال الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبى الحوارى فحدثت به أبا سليمان يعنى الدارائى فأعجبه وقال ليس ينبغى من أهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما فى قلبه . وقوله : ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى بن جعفر قاضى الرى حدثنا أبو جعفر الرازى عن المغيرة عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام : إنما الاحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ليس الاحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . والله أعلم . فلكى تنال الهداية إلى سبل الخير لا بد أن تجاهد نفسك ومجاهدة النفس من أعظم أنواع الجهاد ولكى تنال المعية الكريمة لا بد أن تكون محسنا ولكى تنال الهداية والمعية لا بد مع المجاهدة المحاسبة .

يقول الامام ابن الجوزى رحمه الله تعالى : اعلم بأن النفس مجبولة على حب الهوى فافتقرت لذلك إلى المجاهدة والمخالفة ومتى لم تزجر عن الهوى هجم عليها الفكر فى طلب ما شغفت به فاستأنست بالأراء الفاسدة ، والأطماع الكاذبة ، والأمانى العجيبة ، خصوصا إن ساعد الشباب الذى هو شعبة من الجنون وامتد ساعد القدرة إلى نيل المطلوب .

عن شداد بن أويس قال : قال رسول الله ﷺ : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ،

(١) سورة قريش الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٢) الأيتان ١١٢ ، ١١٣ من سورة النحل

(٣) من الآية ٦٧ سورة العنكبوت

(٤) الآية ٦٨ سورة العنكبوت

والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله^(١) أخرجه الترمذى وقال حسن ، وابن ماجه .
وقال أبو بكر القرشى : (من أتبع نفسه هواه) . وقال ابن الأنبارى : (الكيس من أدان نفسه)
و« الفاجر » بدل « العاجز » . قال : وقال لنا أحمد بن يحيى النحوى : الكيس عند العرب العاقل
والكيس العقل .
وأنشدنا :

فكن أكيس الكيسى إذا ما لقيتهم وكن جاهلا إذا ما لقيت ذوى الجهل
قال : وقوله : « من أدان نفسه » معناه : أخذ لنفسه من نفسه ، من صحته لسقمه ، ومن غناه
لفقره .

ومن روى : « من دان نفسه » معناه : من استعبد نفسه وأذلها لطاعة الله . قال الأعشى :
هو دان الذئب إذ كرهوا الدين دراكا بعزة وصيال . معناه : هو استعبد الذئب .
عن ابن الجبير ، وكان من أصحاب النبى ﷺ ، قال أصاب النبى يوما جوع شديد ، فوضع
حجرا على بطنه ، ثم قال : « ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ، ألا رب
مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم ، ألا يارب متخوض متنعم فيما أفاء الله
على رسوله ما له عند الله من خلاق ، ألا وإن عمل الجنة حزنه بربوة ، ألا وإن عمل النار سهل
بسهوة ، ألا يارب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا . » (والحزن ضد السهل . والربوة المكان المرتفع
من الأرض) والمراد من الحديث أن عمل الجنة صعب ، وعمل النار سهل ، لأن ذلك يخالف الطباع ،
وهذا يوافقها .

عن جابر ، قال : قدم النبى ﷺ من غزاة له فقال لهم رسول الله ﷺ : « قدمتم خير مقدم ،
وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قالوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : « مجاهدة
العبد هواه »^(٢) .

اعلم أنه إنما كان جهاد النفس أكبر من جهاد الأعداء ، لأن النفس محبوبة وما تدعو إليه محبوب .
لأنها لاتدعو إلا إلى ما تشتهى ، وموافقة المحبوب فى المكروه محبوبة ، فكيف إذا دعا إلى محبوب ! فإذا
عكست الحال وخولف المحبوب فيما يدعو إليه من المحبوب ، اشتد الجهاد وصعب الأمر ، بخلاف
جهاد الكفار ، فإن الطباع تحمل على خصومة الأعداء .

وقال ابن المبارك فى قوله تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ قال : هو جهاد النفس
والهوى .

وعن ثابت بن الحجاج ، قال : قال عمر بن الخطاب : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا
أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم يوم القيامة . وتزينوا
للعرض الأكبر ، يؤمذ تعرضون لاتخفى منكم خافية .

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب ذكر الموت حديث ٤٢٦٠ ج ٢

(٢) الحديث أورده صاحب كتر العمال حديث ١١٢٦٠ ، ١١٧٧٩ ، والخطيب ج ١٣ ص ٤٩٣

وعن أنس بن مالك قال : سمعت عمر بن الخطاب يوما ، وخرجت معه حتى دخل حائطا ، فسمعتة يقول ويبنى وبينه جدار : (عمر بن الخطاب ! بخ بخ والله بنى الخطاب ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك) .

وعن الحسن قال : أيسر الناس حسابا يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم لله عز وجل في الدنيا ، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الذى هموا به لله عز وجل مضوا فيه ، وإن كان عليهم أمسكوا . قال : وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا اتخذوا على غير محاسبة فوجدوا الله عز وجل قد أحصى عليهم مثاقيل الذر . ثم قرأ : ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (١) .

وعن الحسن قال : إن المؤمن قوام على نفسه ، يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات هيهات ، حيل بينى وبينك . ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، مالى وهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم . إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئا حتى يلقي الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه .

وعن الحسن قال : فى وصية لقمان لابنه : يا بنى إن الايمان قائد والعمل سائق ، والنفس حرون ، فإن فتر سائقها ضلت عن الطريق ، وإن فتر قائدها حرنت ، فإذا اجتمعا استقامت . إن النفس إذا أطمعت طمعت ، وإذا فوضت إليها أساءت ، وإذا حملتها على أمر الله صلحت . وإذا تركت الأمر إليها فسدت . فاحذر نفسك واتمها على دينك ، وأنزلها منزلة من لا حاجة له فيها ولا بد له منها . وإن الحكيم يذل نفسه بالملكاه ، حتى تعترف بالحق ، وإن الأحق يخير نفسه فى الأخلاق ، فما أحبب منها أحب وما كرهت منها كره .

وعن حجاج بن الأسود قال : سمعت قتادة يقول : يا ابن آدم إن كنت تريد ألا يأتى الخير إلا عن نشاط ، فإن نفسك إلى السامة والفتور والملل اقرب ، ولكن المؤمن هو العجاج ، والمؤمن هو المتوفى والمؤمن هو المتشدد ، وإن المؤمنين هم العجاجون إلى الله عز وجل بالليل والنهار ، والله مازال المؤمنون يقولون ربنا ربنا فى السر والعلانية حتى استجاب لهم .

وعن أبى عبيدة الناجى ، أنه سمع الحسن يقول حادثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدثور ، وأقرعوا هذه الأنفس فإنها طلعة ، وإنما تنازع إلى شر غاية ، وأنكم إن تقاربوها لم تبق لكم من أعمالكم شيئا ، فتصبروا وتشددوا ، وإنما هى ليال تعد ، وإنما أنتم ركب وقوف ، يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم .

إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم ، وإنما صبر على هذا الحق من عرف فضله ورجا عاقبته .

وعن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴾ ^(١) قال : تندم على ما فات وتلوم نفسها .

وعن ميمون بن مهران قال : لا يكون الرجل تقيا حتى يحاسب نفسه محاسبته لشريكه .
وعنه أيضا أنه قال : لا يكون الرجل تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه .
عن سلمة بن منصور ، عن مولى لهم كان يصحب الأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء ، وكان يجيء الى المصباح فيضع إصبعه ثم يقول : حس . ثم يقول : يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ! .

وعن مالك بن دينار قال : إن قوما من بني إسرائيل كانوا في مسجد لهم فجاء شاب حتى قام على باب المسجد ، فقال ليس مثلي من يدخل معكم ، أنا صاحب كذا أنا صاحب كذا ، يزرى على نفسه ، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن فلانا صديق .

وعن حبيش قال : قال وهب بن الورد : بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهى تقول : يارب ذهبت اللذات وبقيت التبعات ، يارب سبحانه إنك لأرحم الراحمين ، يارب ما لك عقوبة إلا النار .
فقال صاحبها لها : يا أخية دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقالت : والله ما أرى هاتين القدمين ، وأشارت إلى قدميها ، أهلا للطواف حول بيت ربى عز وجل ، فكيف أراهما أهلا أطويهما بيت ربى ، وقد علمت حيث مشتا وأين مشتا ! .

وعن عبد الجبار بن النضر قال : مر حسان بن أبي سنان بغرفة ، فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعينك لأعاقبك بصوم سنة فصامها .
وعن منكدر بن محمد عن أبيه ، أن ثميا الدارى نام ليلة لم يقم يتعبد فيها ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع .

قال معاوية بن هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ما بلغ ؟ فذكر كلاما طويلا إلى أن قال : كان أشد الناس على نفسه سلطانا .
وعن محمد بن سعيد الدارمي ، عن أبيه ، قال : قيل لرجل : صف لنا الأحنف بن قيس . فقال : ما رأيت أحدا أعظم سلطانا على نفسه منه .

وعن شبيب بن شيبة قال : قال سليمان بن عبد الملك بن هشام لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ؟ قال : إن شئت أخبرتك عنه ألفا ، وإن شئت حذفته فيه القول حذفًا . قال : بل احذفه حذفًا . قال : إن شئت ثلاثا ، وإن شئت إثنين وإن شئت واحدة . قال : هات الثلاث . قال : كان لا يشره ، ولا يحيد ولا يمنع أحدا من حق ، قال : فهات الاثنتين . قال : كان موفقا للخير

عن أبى ربيعة قال : قال عمر بن عبد العزيز : أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس .
وعن عمر بن واصل قال : سمعت سهلاً يقول : من صحب نفسه هلك ، ومن صحبته نفسه لم
يسلم .

وعن محمد بن أحمد بن سعيد قال : سمعت أبا بكر الوراق يقول : استعن على سيرك إلى الله
بترك من شغلك عن الله عز وجل ، وليس بشاغل يشغلك عن الله عز وجل كنفسك التى هى بين
جنبيك .

وعن أبى على الروذبارى قال : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ،
فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد مجتهد فى ردها ، فمتى أعنها فهو شريكها فى فسادها .
وعن سمنون قال : أول وصال العبد للحق هجرانه لنفسه ، وأول هجران العبد للحق مواصلته
لنفسه .

وعن أبى بكر الكنانى قال : قال لى على بن سعيد : رأيت فى النوم امرأة لاتشبه نساء الدنيا ،
فقلت من أنت ؟ قالت : حوراء .

قلت : زوجينى نفسك . فقالت : اخطبنى إلى سيدى . قلت : فما مهرى ؟ قالت : حبس
نفسك عن مآلوفاتها .

وعن إبراهيم بن الأشعث أنه سمع الفضل بن عياض يقول فى قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا
أنفسكم ﴾^(١) قال : لاتغفلوا عن أنفسكم ، فإن من غفل عن نفسه فقد قتلها .

وعن أحمد بن على البوارنجى قال : سمعت أبا عمران الحديثى يقول : ما مددت يدي مذ عقلت
عن الله عز وجل ، ولنفسى فيه نصيب ، ولولا أن الله عز وجل أودعنا هذه النفوس بحفظها له لجعلنا
على ذروة كل جبل منها قطعة .

وعن على بن عبد الحميد الغضائرى ، قال : سمعت السرى يقول : أقوى الفتوة غلبتك
نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن علامة الاستدراج العمى عن
عيوب النفس .

وعن أحمد بن سليمان قال : وجدت فى كتابى عن حاتم الأصم قال : الموت الأحمر مخالفة
النفس .

وعن أحمد بن أبى الحوارى قال : من لم يعرف نفسه فهو من دينه فى غرور .
وعن منصور بن عبد الله قال : سمعت محمد بن حامد يقول : قال رجل لأحمد بن خضروية
أوصنى . فقال : أمت نفسك تحيها .

وعن الحسن بن علوية يقول : قال يحيى بن معاذ : لاتربح على نفسك بشيء أجل من أن
تشغلها فى كل وقت بما هو أولى بها

(١) من الآية ٢٩ من سورة النساء

معصوما عن الشر . قال فهات الواحدة : قال : لم أر أحدا قط كان أقوى سلطانا على نفسه منه .
وعن عبد الله بن محمد ، قال : حدثني ابن أبي شميعة ، قال : دخل رجل على عبد الملك بن مروان ممن كان يوصف بالعقل والأدب . فقال له عبد الملك تكلم . قال : بم أتكلم . وقد علمت أن كل كلام يتكلم به المتكلم وبال عليه . إلا ما كان لله ! فبكى عبد الملك ثم قال : يرحمك الله ، لم يزل الناس يتواعظون ويتواصلون . قال : يا أمير المؤمنين إن للناس في القيامة جولة لا ينجو من غصص مرارتها إلا من أرضى الله بسخط نفسه .

قال عبد الله الأهمم لابنه : « يا بني توق نفسك ، فإن في خلافتها رشدك » .
وعن وهب بن منبه أن رجلا تعبد زمانا ، ثم بدت له إلى الله عز وجل حاجة ، فصام سبعين سبتا يأكل في كل سبت إحدى عشرة ثمرة ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه فقال : منك أتيت ، لو كان فيك خير أعطيت حاجتك ، فنزل إليه عند ذلك ملك فقال : يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك .

قال محمد بن المنكدر : إني خلفت زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش وهو يخاصم نفسه في المسجد ، يقول : اجلسي ، أين تريدان ؟ أين تذهبان ؟ أخرجين إلى أحسن من هذا المسجد ؟ انظري إلى ما فيه ، تريدان أن تبصرى دار فلان ودار فلان ؟!

قال : وكان يقول لنفسه : مالك من الطعام إلا هذا الخبز وهذا الزيت ومالك من الثياب إلا هذين الثوبين ، ومالك من النساء إلا هذه العجوز ، أفتحبين أن تموتى ؟ فقالت : أنا أصبر على هذا العيش .

قال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع في شهوتك ؟ قال : ما في الأرض نفس أبغض إلى منها ، فكيف أعطيها شهوتها .

وعن عبد الله بن المبارك أنه قال : إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوا ، وإن أنفسنا لاتكاد تواتينا إلا على كره ، فينبغي لنا أن نكرها .

وعن جميلة بن الحارث أنه كان يقول : اعكسوا هذه الأنفس عكس الخيل باللجم ، فوالذي نفسي بيده إني لألبس ما يساوي ثلاثة دراهم فأظل أنظر في عطفى ! .

وعن محمد بن بلال بن أبي الدرداء أن أمة عثمان كف بصرها ، فدخل عليها ابنها يوما وقد صلى ، قالت أصليتم بني ؟ فقال نعم فقالت :

عشام مالك لاهية	حلت بدارك لاهية
ابكى الصلاة لوقتها	إن كنت يوما باكية
وابكى القرآن إذا تلى	قد كنت يوما تالية
تتلينه بتفكر	ودموع عينك جارية
فاليوم لاتتلينه	إلا وعندك تالية
لهفى عليك صباية	ما عشت طول حياته

وعن أحمد بن حمدون قال : سمعت أبى يقول : من استطاع منكم ألا يعمى عن نقصان نفسه فليفعل .

وعن الحسن بن علوية قال : قال محمد بن الفضل : أنزل نفسك منزلة من لا حاجة له فيها ولا بد له منها ، فإن من ملك نفسه عز ، ومن ملكته نفسه ذل .

وعن أبى صالح قال : قال أبو سعيد الخراز : مثل النفس مثل ماء واقف طاهر صاف ، فإن حركته ظهر ما تحته من الحمأة . وكذا النفس تظهر عند المحن والفاقة والمخالفة ، ومن لم يعرف ما فى نفسه فكيف يعرف ربه .

وعن أبى محمد الجريرى قال : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حكم الشهوات ، محصورا فى سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد فلا يستلذ كلامه ولا يستحليه ، وإن كثر ترداده على لسانه .

وقال محمد بن أحمد بن سالم البصرى : من صبر على مخالفة نفسه أوصله الله إلى مقام أنسه .
وعن أبى بكر بن الضرير المقرئ يقول : دافعت الشهوات حتى صارت شهوى المدافعة .
وعن الجريرى قال : سمعت الجنيد يقول : ما أخذنا التصوف عن القليل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وعن الحسن بن أحمد الصوفى قال : قال فراس العابد : قلت لراهب أوصنى فقال : عليك بما تكره نفسك فألزمه قلبك ، فإنه يقدم بك على ما تحب ، وإياك وما تحبه ، فإنه يقفك على ما تكره .
* ذكر أشعار قيلت فى ذلك :

عن الحسين بن عبد الرحمن قال : حج سعيد بن وهب ماشيا ، فبلغ منه جهد ، فقال :	قدمى اعتورا رمل الكثيب
واطرقا الأجمن من ماء القلب	رب يوم رحتما فيه على
زهرة الدنيا وفى واد خصيب	وسماع حسن من حسن
صخب المزهى كالظبي الريب	فاحسبا ذاك بهذا واصبرا
وخذا من كل فن بنصيب	إنما أمشى لأنى مذنب
فلعل الله يعفو عن ذنوبى	

وعن أحمد بن على بن ثابت ، قال : أنشدنى أبو عبد الله محمد بن أحمد الشيرازى الواعظ :

نسبت إلى غير الحجا والتكرم	إذا ما أطلعت النفس فى كل لذة
دعتك إلى الأمر القبيح المحرم	إذا ما أجبت النفس فى كل دعوة

وقال عبد الله بن المعتز :

فلا تؤكلن بأنبيائها	وكم دهم المرء من نفسه
فلا يد فلك إلا بها	وإن أمكنت فرصة فى العدو

ولياك من ندم بعدها وتأميل أخرى وأنى بها

أنشدني أبو زيد بن الحسن الطبري :
إذا طالبتك النفس يوما بحاجة
فكان عليها للقيح طريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما
هواك عدو والخلاف صديق

واعلم ان المغلوب بموافقة الهوى والنفس مقهور ، ولذلك تجد في نفسه ذلك لمكان القهر ،
وغالب الهوى ذو صولة ، ولذلك وقع عظيم في الشرع وعند الخلق .
أما في الشرع فإن قهر الهوى يوجب المباهاة .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : (عجب ربنا من شاب ليس له صبرة)^(١) .
وعن يزيد بن مسيرة قال : ان الله عز وجل يقول : (أيها الشاب التارك شهوته من أجل ، أنت
عندى كبعض ملائكتي) .

وعن يزيد بن مسيرة قال : إن الله تبارك وتعالى يقول : (أيها الشاب التارك شهوته لى ، المتبذل
شبابه من أجل ، أنت عندى كبعض ملائكتي) .

وعن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول : قال الله تعالى : (من كان لى مطيعا كنت
له وليا ، فليثق بى وليحكم على ، فو عزق لو سألنى زوال الدنيا لأزلتها له) .
وأما عند الخلق فإنهم يعجبون من الزاهد ، ويدلون له ، ويتبركون به ، لأنه قوى على حمل ما
ضعفوا عنه ، وهجر ما يستطيعون هجره .

وقد كان أهل الحزم يعودون أنفسهم مخالفة هواها وإن كان مباحا ، ليقع التمرين للنفس على ترك
الهوى مطلقا ، وليطلب الأرباح فى المعاملة بترك المباح .

عن عبد الله بن أبى عثمان ، قال : كان عبد الله بن عمر أعتق جاريته التى يقال لها رميثة ،
وقال : إني سمعت الله قال فى كتابه : ﴿ بن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾^(٢) ، وإنى والله إن كنت
لأحبك فى الدنيا اذهبى فانت نوجه الله .

عن إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدى ، قال : كانت لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان
زوجة عمر بن العزيز جارية ذات جمال فائق ، وكان عمر معجبا بها قبل أن تفضى إليه الخلافة . فطلبها
منها وحرص ، فأبت دفعها إليه وغارت من ذلك ، فلم تزل فى نفس عمر فلما استخلف أمرت فاطمة
بالجارية ، فأصلحت ثم جليت فكانت حديثا فى حسنها وجمالها ، ثم دخلت فاطمة بالجارية على عمر ،
فقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت بفلانة جاريتى معجبا وسألتنىها ، فأبيت ذلك عليك ، وإن نفسى قد
طابت لك بها اليوم فدونها ، فلما قالت ذلك استبانت الفرح فى وجهه ، ثم قال : ابعثى بها إلى ،

(١) الحديث فى كشف الخفاء ج ٢ ص ٥ ، ٧١

(٢) من الآية ٩٢ من سورة آل عمران

ففعلت فلما دخلت عليه نظر إلى شيء أعجبه فازداد بها عجباً ، فقال لها : ألقى ثوبك ، فلما همت أن تفعل ، قال : على رسلك ، اقعدى ، أخبرينى لمن كنت ومن أين أنت لفاطمة ؟ قالت : كان الحجاج ابن يوسف أغرم عاملاً كان له من أهل الكوفة مالا ، وكنت فى رقيق ذلك العامل ، فاستصفاى عنه مع رقيق له وأموال ، فبعث بى إلى عبد الملك بن مروان ، وأنا يومئذ صبية ، فوهبنى عبد الملك لابنته فاطمة . قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك ، قال : وما ترك ولدا ؟ قالت : بلى . قال : وما حالهم ؟ قالت : سيئة . قال : شدى عليك ثوبك .

ثم كتب إلى عبد الحميد عامله أن سرح لى فلان بن فلان على البريد ، فلما قدم قال له : ارفع إلى جميع ما أغرم الحجاج أباك ، فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعته إليه ، فلما أخذ بيدها قال : إياك وإياها فإنك حديث السن ، ولعل أباك أن يكون قد وطئها ، فقال الغلام : يا أمير المؤمنين هى لك .

قال : لا حاجة لى فيها . قال : فابتعها منى ، قال : لست إذن ممن ينهى النفس عن الهوى ، فمضى الفتى بها ، فقالت الجارية : فأين موجدتك بى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إنها لعلى حالها ولقد ازدادت فلم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات .

وعن عبد الرحمن بن مهدى قال : رأيت سفيان الثورى فى المنام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وضعت فى اللحد حتى وقفت بين يدى الله تعالى ، فحاسبنى حساباً يسيراً ، ثم أمر بى إلى الجنة ، فبينما أنا أدور بين أشجارها وأنهارها ، ولا أسمع حساً ولا حركة ، إذ سمعت قائلاً يقول : سفيان بن سعيد ؟ فقلت : سفيان بن سعيد ، قال : تحفظ أنك آثرت الله على هواك يوماً ؟ قال : قلت : إى والله ، فأخذتنى صوانى النثار من جميع الجنة .

وعن محمد بن سهل بن عسكر قال : سمعت عبد الرازق يقول : بعث أبو جعفر الخشابى حين خرج إلى مكة ، فقال : إن رأيتم سفيان الثورى فاصلبوه ، قال : فجاء النجارون ونصبوا الخشب ، ونودى سفيان ، وإذا رأسه فى حجر الفضل ، ورجلاه فى حجر ابن عيينه . قال : فقالوا له : يا أبا عبد الله اتق الله ولا تشمت بنا الأعداء . قال فتقدم إلى الأستار ثم أخذها ، ثم قال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر . قال : فمات قبل أن يدخل مكة . فأخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئاً . فتلمح يا أخى أثر خلاف الهوى ، كيف بان فى مقام لو أقسم ! وميز ما بين إدلال المطيع وذل العاصى .

(لو أقسم) يشير إلى قول الرسول : رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره . وقد سمعت أن عمر لما جاءه منكر ونكير جذب بذؤابة هذا وذؤابة هذا وقال : من ربكما ؟! ولولا انقباض يده عن الهوى ما انبسطت إلى منكر ونكير .

وقد قال بعض الحكماء : ظاهر التقوى شرف الدنيا وباطنها شرف الآخرة ، واعلم أنك إذا عكست هذه الحال فى حق موافق الهوى والنفس ، رأيت الذل ملازماً والجاه منكسراً ، وكذلك الأمر عند المخلوقين فى الأمرين جميعاً ، فإنه من عرف عندهم بقهر الهوى عظم ، ومن نبذ بأنه مقهور الهوى أهين ، فالعجب من سكرة ذى الهوى ، كيف غلبت عليه فلما أفاق لم ير غير اللوائى .

* سورة الروم *

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا . عدد آياتها خمس وستون عند المكيين ، وستون عند الباقين وكلماتها ثمانمائة وسبع ، وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاثون ، والآيات المختلف فيها أربع : ألم (غلبت الروم) (في بضع سنين) (يقسم المجرمون) فواصل آياتها نمر ، على الرء آيتان (قدير في موضعين) وسميت سورة الروم لما فيها من ذكر غلبة الروم .

معظم مقصود السورة : غلبة الروم على فارس ، وعيب الكفار في إقبالهم على الدنيا ، وأخبار القرون الماضية ، وذكر قيامة الساعة وآيات التوحيد ، والحجج المترادفة الدالة على الذات والصفات ، وبيان بعث القيامة ، وتمثيل حال المؤمنين والكافرين وتقرير المؤمنين على الإيمان ، والأمر بالمعروف ، والإحسان إلى ذوى القربى ، ووعد الثواب على أداء الزكاة ، والأخبار عن ظهور الفساد في البر والبحر ، وعن آثار القيامة ، وذكر عجائب الصنع في السحاب والأمطار ، وظهور آثار الرحمة في الربيع وإصرار الكفار على الكفر ، وتخليق الله الخلق مع الضعف والعجز ، وإحياء الخلق بعد الموت ، والحشر والنشر ، وتسليية رسول الله ﷺ ، وتسكينه عن جفاء المشركين وأذاهم في قوله : ﴿ ولا يستخفك الذين لا يوقنون ﴾ (١) .

قوله : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ (٢) ، وفي فاطر وأول المؤمن بالواو ، وفي غيرهن بالفاء ، لأن ما قبلها في هذه السورة ﴿ أو لم يتفكروا ﴾ (٣) وكذلك ما بعدها (وأثاروا) بالواو ، فوافق ما قبلها ، وما بعدها وفي فاطر أيضا وافق ما قبله وما بعده ، فإن قبله ﴿ ولن تجد لست الله تحويلا ﴾ (٤) ، وبعدها ﴿ وما كان الله ﴾ (٥) وكذلك أول المؤمن قبله ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ (٦) وأما آخر المؤمن فوافق ما قبله وما بعده ، وكان بالفاء ، وهو قوله : ﴿ فأى آيات الله تنكرون ﴾ (٧) ، وبعده ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ (٨) .

قوله : ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ﴾ (٩) (من قبلهم) متصل بكون آخر مضمرة وقوله : ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ (١٠) : إخبار عما كانوا عليه قبل الإهلاك ، وخصت هذه السورة بهذا النسق لما يتصل به من الآيات بعده . وكل إخبار عما كانوا عليه وهو (وأثاروا الأرض وعمروها) وفي فاطر : ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا ﴾ (١١) بزيادة الواو ، لأن التقدير : فينظروا كيف أهلكوا وكانوا أشد منهم قوة . وخصت هذه السورة به لقوله : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء ﴾ الآية . وفي المؤمن ﴿ كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ فأظهر (كان) العامل في (من قبلهم) وزاد (هم) لأن في هذه السورة وقعت في أوائل قصة نوح ، وهى تتم

(٧) من الآية ٨١ من سورة غافر
(٨) من الآية ٨٢ من سورة غافر
(٩) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(١٠) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(١١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر

(١) من الآية ٦٠ من سورة الروم
(٢) من الآية ٩ من سورة الروم
(٣) من الآية ٨ من سورة الروم
(٤) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(٥) من الآية ٤٤ من سورة فاطر
(٦) من الآية ١٤ من سورة الرعد

فى ثلاثين آية ، فكان اللائق به البسط ، وفى آخر المؤمن ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم ﴾ (١) فلم يبسط القول ، لأن أول السورة يدل عليه .

قوله : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ (٢) ، وختم الآية بقوله (يتفكرون) لأن الفكر يودى إلى الوقوف على المعانى التى خلقت لها من التوائس والتجانس ، وسكون كل واحد منها إلى الآخر .

قوله : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾ (٣) وختم بقوله : (للعالمين) لأن الكل تظلمهم السماء ، وتظلمهم الأرض ، فكل واحد منفرد بلطفة فى صورته يمتاز بها عن غيره ، حتى لا ترى اثنين فى ألف يتشابه صورتاهما ويلتبس كلاهما ، وكذلك ينفرد كل واحد بدقيقة فى صورته ، يتميز بها من بين الأنام ، فلا ترى اثنين يشتبهان ، وهذا يشترك فى معرفته الناس جميعا . فلهذا قال : (لآيات للعالمين) ومن حمل اختلاف الألسن على اللغات ، واختلاف الألوان على السواد والبياض ، والشقرة والسمره . فالاشتراك فى معرفتها أيضا ظاهر . ومن قرأ (للعالمين) بالكسر فقد أحسن ، لأن بالعلم يمكن الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره .

قوله : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار ﴾ وختم بقوله ﴿ يسمعون ﴾ فإن من سمع أن النوم من صنع الله الحكيم لا يقدر أحد على اجتلابه إذا امتنع ، ولا على دفعه إذا ورد ، تيقن أن له صانعا مدبرا ، قال الامام : معنى (يسمعون) ههنا : يستجيبون إلى ما يدعوهم إليه الكتاب . وختم الآية الرابعة بقوله : (يعقلون) لأن العقل ملاك الأمر فى هذه الأبواب ، وهو المؤدى إلى العلم ، فختم بذكره .

قوله : ﴿ ومن آياته يريكم ﴾ أى أنه يريكم . وقيل : تقديره : ويرىكم من آياته البرق . وقيل : أن يريكم ، فلما حذف (أن) سكن الياء وقيل : (ومن آياته) كلام كاف ، كما تقول : منها كذا ، ومنها كذا ، ومنها .. وتسكت ، تريد بذلك الكثرة .

قوله : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ (٤) وفى الزمر : ﴿ أو لم يعلموا ﴾ (٥) لأن بسط الرزق مما يشاهد ويرى ، فجاء فى هذه السورة على ما يقتضيه اللفظ والمعنى . وفى الزمر اتصل بقوله ﴿ أوتيته على علم ﴾ وبعده ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فحسن أو لم يعلموا قوله : ﴿ ولتجرى الفلك بأمره ﴾ (٦) ، وفى الجاثية ﴿ فيه بأمره ﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ذكر الرياح ، وهو قوله ﴿ أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ بالمطر ، وإذاقة الرحمة ، ولتجرى الفلك بالرياح بأمر الله تعالى .

ولم يتقدم ذكر البحر . وفى الجاثية تقدم ذكر البحر ، وهو قوله ﴿ الله الذى سخر لكم البحر ﴾ (٧) فكفى عنه ، فقال : ﴿ لتجرى الفلك فيه بأمره ﴾ (٨) .

(٥) من الآية ٥١ : من سورة الزمر

(٦) من الآية ٤٦ من سورة الروم

(٧) من الآية ١٢ من سورة الجاثية

(٨) من الآية ١٢ من سورة الجاثية

(١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر

(٢) من الآية ٢١ من سورة الروم

(٣) من الآية ٢٢ من سورة الروم

(٤) من الآية ٣٧ من سورة الروم

* مناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن السورة السابقة بدئت بالجهاد وختمت به ، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا في الأرض ليناموا على مهاد الراحة ، بل خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم ، وأنهم يلاقون شتى المصاعب من الأهل والأمم التي يكونون فيها ، وهذه السورة قد بدئت بما يتضمن نصرة المؤمنين ودفع شماتة أعدائهم المشركين ، وهم يجاهدون في الله ولوجهه فكان هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة .

(٢) إن ما في هذه السورة من الحجج على التوحيد والنظر في الآفاق ، والأنفس مفصل لما جاء منه مجملا في السورة السالفة ، إذ قال في السالفة : ﴿ فانظر كيف بدأ الخلق ﴾ ^(١) إلخ ، وهنا بين ذلك ، فقال : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ ^(٢) إلخ ، وقال : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ^(٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بَضْعِ
سِنِينَ ۝ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ ۝ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ۝
وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

۝ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝

معاني المفردات

(ألم) فيها ما مر في أخواتها من حيث القراءة والمراد (الروم) هي مملكة الرومان وعاصمتها القسطنطينية (في أدنى الأرض) المراد أقرب الأرض إلى العرب من جهة الشام مما يلي فارس . (في بضع سنين) البضع ما بين الثلاثة إلى التسع من السنين .

نزلت هذه الآيات عندما غزا الفرس الرومان ، وغلبوهم في مشارف الشام ، مما يلي بلاد العرب ، ففرح بذلك مشركو العرب إذ قالوا : إن الفرس لا كتاب لهم مثلنا ، والرومان لهم كتاب مثلكم لأنهم من النصارى ، ولنتصرون عليكم كما انتصر الفرس ، فحلف أبو بكر بعد نزول الآية أن الرومان سيغلبون الفرس بعد هزيمتهم هذه ، فقالوا له : إجعل لنا موعدا ونراهنك على ذلك فضرب موعدا بسيطا ثم استشار النبي ﷺ فقال له : زد في الرهان ومد الأجل فإن البضع من ثلاث إلى تسع

(١) من الآية ٢٠ من سورة العنكبوت

(٢) من الآية ٩ من سورة الروم

(٣) من الآية ١١ من سورة الروم

ففعل وانتصر الرومان فى السنة التاسعة ، وأخذ أبو بكر الجعل وتصدق به .

* التفسير *

(ألم) حروف هجائية افتتح القرآن الكريم بها بعض سوره إذا جمعناها وحذفنا المكرر منها أنتجت لنا عبارة تقول : (نص حكيم قاطع له سر) وفيها إشارة إلى إعجاز هذا الكتاب الخالد : قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ^(١) . قوله تعالى : ﴿ غلبت الروم فى أدنى الأرض ﴾ قال ابن عباس كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب فذكر ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : (أما إنهم سيغلبون) فذكره أبو بكر لهم فقالوا إجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : (ألا جعلتها إلى دون - أراه قال العشر -) ^(٢) قال سعيد بن جبير البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد قال فذلك قوله : ﴿ ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

والروم من سلالة العيص بن إسحق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر وكانوا على دين اليونان واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له قيصر فكان أول من دخل فى دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين بن قسطنس وأمه مريم الهيلانية الغنداقية من أرض حران كانت قد تنصرت قبله فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوف فتابعها يقال له تقية واجتمعت به النصارى وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس واختلفوا اختلافا كثيرا منتشرا متشتتا لا ينضبط إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هى الخيانة الحقيرة ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون اليه وغيروا دين المسيح عليه السلام وزادوا فيه ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعابين وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنة ثم الأساقفة والقساوسة ثم الشماسة وابتدعوا

(١) الآية ٢٣ من سورة البقرة

(٢) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده ١ / ٢٧٦ ، ٣٠٤

الرهبانية وبني لهم الملك الكنائس والمعابد وأسس المدينة المنسوبة اليه وهي القسطنطينية يقال إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة وبني بيت لحم بثلاثة محاريب وبنت أمه القمامة وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة كما قال رسول الله ﷺ (إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة) ^(١) والغرض أنهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا فتملك عليهم في رئاسة عظيمة وأبته كثيرة فناواه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والرى وجميع بلاد العجم وهو سابور ذو الاكتاف وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر وله رئاسة العجم وحماقة الفرس وكانوا مجوسا يعبدون النار فتقدم عن عكرمة أنه قال بعث اليه نوابه وجيشه فقاتلوه والمشهود أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه وكانت النصراني تعظمه تعظيما زائدا ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك لخصائنها لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك فلما طال الأمر دبر قيصر مكيذة ورأى في نفسه خديعة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصالحه عليه .

ويشترط عليه ما شاء فأجابه إلى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ما طلب واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشرة وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائه فأطلق سراحه فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيش فان رجعت اليكم من قبل الحول فأنا ملككم وإن لم أرجع اليكم قبلها فأنتم بالخيار إن شئتم استمررتم على بيعتي وإن شئتم وليتم عليكم غيري فأجابوه بأنك ملكنا مادمت حيا ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس فعاث في بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهي كرسي مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة وكتب إلى كسرى يقول هذا ما طلبت فخذ فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم مالا يحصيه إلا الله تعالى واشتد حنقه على البلد فجحد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لاسبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها . فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق اليها وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة وركب في بعض الجيش وأمر بأحمال من التبن والبر

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه - كتاب السنة باب شرح السنة الحديث ٤٥٩٦ ج ٤/ص ٢٩٧ - ٢٩٨ وابن ماجه في كتاب الفتن باب افتراق الأمم الحديث ٣٩٩٢ ج ٢ ص ١٣٢٢

والروث فحملت معه وسار الى قريب من يوم فى الماء مصعدا ثم أمر بالقاء تلك الأحمال فى النهر فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يوما مشهودا عند النصارى وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر وبلادهم قد خربت الروم وأخذوا حواصلهم وسبوا ذراريهم ونساءهم فكان هذا من غلب الروم لفارس وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما وهى طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز وقال مجاهد كان ذلك فى الجزيرة وهى أقرب بلاد الروم من فارس فالله أعلم ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهى تسع فان البضع فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع : وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجمحى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مناجهته ﴿الم . غلبت الروم﴾ الآية (١) ألا احتطت يا أبا بكر فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ (١) ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو أنه قال ذلك والله أعلم وقوله تعالى ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ أى من قبل ذلك ومن بعده فبنى على الضم لما قطع المضاف وهو قوله قبل عن الإضافة ونويت ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ أى للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثورى والسدى وغيرهم وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن حاتم عن أبى سعيد قال : (لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به) (٢) وأنزل الله ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾ .

وليس ثمة أدنى شك كان يوم عيد للأمة الإسلامية بنصر الله لعباده المؤمنين . قال تعالى : ﴿إذ يغشاكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ (٣) ثم يقول تعالى : ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم﴾ (٤) ويقول سبحانه ﴿ولقد نصركم الله ييدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ (٥) وقد

(١) الحديث فى تحفة الاحوذى ، تفسير سورة الروم ٩ / ٥٢ ، وتفسير الطبرى ٢١ / ١٢ وأخرجه الترمذى

(٢) الحديث أخرجه الامام احمد فى مسنده ج ١ / ٢٧٦ ، ٣٠٤

(٣) الأيتان ١١ ، ١٢ من سورة الأنفال

(٤) الآية ١٧ من سورة الانفال

(٥) الآية ١٢٣ من سورة آل عمران

كتب الله تعالى النصر للأتقى فالتقوى هي السلاح الأقوى فإن لم يكن هناك أتقى كان النصر للأقوى . قال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ وقال سبحانه : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق . فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليلوا بعضهم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ^(١) .

قوله تعالى ﴿ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ ^(٢) العزيز الذي لا يغلب ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوى عزيز ﴾ ^(٣) فهو المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه ﴿ أعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾ قوله تعالى : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ^(٤) سبحانه إذا وعد وفى وإذا قال صدق وإذا حكم عدل وقد وعد بنصر إحدى الطائفتين وقد صدق الله وعده إنه لا يخلف الميعاد وما سبق في علم الله لا بد من نفاذه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك إنما يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وشئونها المادية ولا يعلمون عن الآخرة إلا القليل وقد يغفلون عن هذا القليل فقد جل جلال الله إذ يقول : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ ^(٥) . قال الحسن البصرى : والله ليلغ من أحدهم بدنياء أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلى . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ ^(٦) يعنى الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم في أمر الدين جهال .

لفت أنظار المشركين وتهديد لهم

قوله تعالى : . أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ^(٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا

(١) الآيات من ١ الى ٧ من سورة محمد

(٢) من الآية ٥ من سورة الروم

(٣) الآية ٢١ من سورة المجادلة

(٤) الآية ٦ من سورة الروم

(٥) الآية ٧ من سورة الروم

(٦) الآية ٧ من سورة الروم

أَكْثَرِ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِدُ يُتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

معانى المفردات

(وأثاروا الأرض) حرثوها وزرعوها (السوءى) مؤنث الأسوء والمراد بها النار (يبلس) أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته ، ولم يؤمل أن تكون له حجة ، والمبلس الساكت المنقطع في حجته اليائس من أن يهتدى إليها (روضة) الروضة الجنة وأصلها النبات حول الغدير من البقول (يحبرون) ينعمون ويسرون من الخبور وهو السرور .

المناسبة وإجمال المعنى

لما أنكر المشركون الإله بإنكار وعده ، وأنكروا البعث كما قال وهم عن الآخرة هم غافلون - أردف هذا أن الأدلة متظاهرة في الأنفس والآفاق على وجوه وتفردة بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، وأنها لم تخلق سدى ولا باطلا ، بل خلقت بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة ، ثم أمرهم بالسير في أقطار الأرض ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبلهم ، وقد كانوا أشد منهم بأسا وقوة ، فكذبوا رسلهم فأهلكهم الله وصاروا كأمس الدابر والمثل الغابر ، وما كان ذلك إلا بظلمهم وفساد أنفسهم لا بظلم الله لهم .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ . المقصود بالتفكر : التدبر والنظر . قال تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ ^(١) وقال جل شأنه : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات

والأرض ﴿١﴾ وقال : ﴿ فليُنظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ وقال : ﴿ فليُنظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ﴾ (٣) وقال جل شأنه : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ (٤) والنظر هو التدبر في الأمور الجزئية بقصد الوصول إلى حكم كلى وقد أمر الله تعالى بالتفكر قال تعالى : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ (٥) كما أمر هنا بالتفكر في الأنفس والعالم العلوى والسفلى من السموات والأرض ليعلموا أن الله واحد وأن البعث حق وإن كثيرا من الناس بعد وضوح الأدلة وظهور الآيات بقاء ربهم لكافرون .

وداؤك منك وما تشعر	وداؤك فيك وما تبصر
بأحرفه يظهر المضمهر	وأنت الكتاب المبين الذى
وفيك انطوى العالم الأكبر	وتزعم أنك جرم صغير

* كنوز الأسرار *

ولكى نسلك مدارج الأنوار ونقف على حقائق الأسرار فبين أيدينا الآن كتاب : (مفتاح دار السعادة) للإمام ابن القيم يحدثنا فيه عن الآيات الباهرة والبراهين الساطعة والحجج القاطعة على عظمة الله تعالى ووحدانيته وقدرته . فيقول رحمه الله : إذا تأملت ما دعا الله سبحانه وتعالى في كتابه إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكير في آياته . ونذكر لذلك أمثلة عما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها (فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه) إلى التفكير فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى ﴿ فليُنظر الإنسان مم خلق ﴾ (٦) وقوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ (٨) وقال تعالى : ﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ (٩) وقال

(١) الآية ١٠١ من سورة يونس

(٢) الآيات ٢٤ إلى ٣٢ من سورة عبس

(٣) من الآية ٢٥٩ من سورة البقرة

(٤) من الآية ٩٩ من سورة الأنعام

(٥) الآية ٤٦ من سورة سبأ

(٦) الآية ٥ من سورة الطارق

(٧) الآية ٢١ من سورة الذريات

(٨) من الآية ٥ من سورة الحج

(٩) الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ من سورة القيامة

تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ .
 وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ^(٢) وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقها من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه ، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما يقتضى الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكير فيه ولو فكر في نفسه لجزره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره .

قال الله تعالى : ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نَظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ ^(٣) فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والترائب ولا لتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمروا بذلك كله هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث (فانظر الآن إلى النطفة) بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذلة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها وجمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما وكيف قادما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذى هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف قدر اجتماع ذينك المائين مع بعد كل منهما عن صاحبه ، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قرارا مكيئا لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل إليه ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقه حمراء إلى سواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملبسها ولونها .

(وانظر) كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشد وأبعده عن الانحلال وكيف كساها لحما ركب عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهي محفوظة به ، وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤوسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه (ثم انظر) الحكمة البالغة في تركيب العظام قواما للبدن وعمادا له وكيف قدرها ربها وخالقها

(١) الآية ٧٧ من سورة يس

(٢) الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ من سورة المؤمنون

(٣) الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ من سورة عبس

بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب بعضها في بعض فمنها ما تركبه/تركب الذكر في الأنثى ومنها ما تركبه تركيب اتصال فقط وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها كالأضراس فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الانسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه و ببعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظما واحدا بل عظاما متعددة وجعل بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفي العظم وألصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر كالرباط له ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه وفي الآخر نقرا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها فإذا أراد العبد أن يحرك جزءا من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل إنها خمس وخمسون عظما مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركب سبحانه وتعالى على البدن وجعله عاليا علو الراكب على مركوبه ولما كان عاليا على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطليلة والحرس والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الابصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدّم له وحجاب وحراس فتبارك الله أحسن الخالقين .

(فانظر) كيف حسن شكل العينين وهيئتهما ومقدارهما ثم جملهما بالأجفان غطاء لهما وسترا وحفظا وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذى والغبار ويقيانها من البارد المؤذى والحر المؤذى ثم غرس في أطراف تلك الأجفان والأهداب جمالا وزينة ولمنافع آخر وراء الجمال والزينة ثم أودعها ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذي يخرق ما بين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية ما فوقها من الكواكب وقد أودع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقيد الصغير بحيث تنطبع فيه صورة السموات مع إتساع أكنافها وتباعد أقطارها وشق له السمع (وخلق) الأذن أحسن خلقة وأبلغها في حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ وليحس بديب الحيوان فيها فيبادر بإخراجه وجعل فيها غضونا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو يتنبه لامساكه وفيه أيضا حكم غير ذلك ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا في غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في رجوعه وجعل ماء العينين ملحا ليحفظها فإنها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظا وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ما هي عليه إذ لو كان على غير

ذلك الصفة لأحالتها إلى طبيعته كما أن من عرض لفمه المرارة استمر طعم الأشياء التى ليست بمرة كما قيل .

ومن يك ذا فم مريض يجد مرا به الماء الزلالا

(ونصب سبحانه) قصبة الأنف فى الوجه فأحسن شكله وهياته ووضعها وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيها حاسة الشم التى تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل فى داخله من الأعوجاجات والغضون ما جعل فى الأذن لئلا يمسك الرائحة - فيضعفها ويقطع مجراها وجعل سبحانه مصبا تنحدر إليه فضلات الدماغ فتتجمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد فى مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولا لا يضره ولا يزعجه .

ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة ورحمة فإنه لما كان قصبة ومجرى ساترا لما ينحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى النفس الصاعد منه جعل فى وسطه حاجزا لئلا يفسد بما يجرى فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين فى الغالب فيبقى الآخر للتنفس وإما أن يجرى فيها فينقسم فلا يفسد الأنف جملة بل يبقى فيه مدخل للتنفس وأيضا فإنه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فإنه ربما أصيبت إحداها أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة وكان وجود أنفين فى الوجه شيئا ظاهرا فنصب فيه أنفا واحدا وجعل فيه منفذين خجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين والأذنين فى المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين (وشق سبحانه) للعبد الفم فى أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه فأودعه اللسان الذى هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجمانا لملك الأعضاء مبينا مؤديا عنه كما جعل الأذن رسولا مؤديا مبلغا إليه فهى رسوله وبريده الذى يؤدى إليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد .

(واقتضت حكمته سبحانه) أن جعل هذا الرسول مصونا محفوظا مستورا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤديا منه إلى الخارج جعل له سترًا مصونا لعدم الفائدة فى إبرازه لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب (وأيضا) فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق يستره ويصونه وجعل فى ذلك السرادق كالقلب فى الصدر وأيضا فإنه من ألطف الأعضاء وألينها وأشدّها رطوبة وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد (ثم زين سبحانه الفم بما فيه) من الأسنان التى هى جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها

الدر المنظوم بياضاً وصفاء وحسناً وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعها من المنافع والحكم ما أودعها وهما الشفتان فحسن لونها وشكلهما ووضعها وهياتها وجعلها غطاء للفم وطبقاً له وجعلها إتماماً لمخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل أقصى الحلق بداية له واللسان وما جاوره وسطاً ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة واقتضت حكمته أنه جعل الشفتين لحماً صرفاً لا عظم فيه ولا عصب ليتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخف أحسن ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة .

ونخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلقت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشبهه صوتان إلا نادراً ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بأصواتهم والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور (وزين سبحانه) الرأس بالشعر وجعله لباساً له لاحتياجه إليه وزين الوجه بما أنبت به من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزينه بالحاجبين وجعلها وقاية لما ينحدر من بشرة الرأس إلى العينين وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الوجه أيضاً باللحية وجعلها كملاً ووقاراً ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتها من العنفقة (وكذلك خلقه سبحانه) لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس حال معاشه فطولها بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل والابهام بإثنتين ووضع الأصابع الأربع في جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلاً فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقاً واحداً كالصحيفة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك فإن بسط أصابعه كانت طبقاً يضع عليه ما يريد وإن ضمها وقبضها كانت دبوساً وآلة للضرب وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله وركب الأظفار على رءوسها زينة لها وعماداً ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم للأصابع وجعلها سلاحاً لغيره من الحيوان والطيور وآلة لمعاشه وليحك الإنسان بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الإنسان ثم ظهرت به حكة لا شتدت حاجته إليه ولم يقدّم مقامه شيء في حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد اليد ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة ثم انظر إلى الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساس له وعظام أعاليه دونها في الثخانة والصلابة لأنها محمولة .

(ثم انظر كيف جعل) الرقبة مركباً للرأس وركبها من سبع خرزات مخوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيباً محكماً متقناً حتى صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها

فى بعض هى مجمع أضلاعه والى تمسكها أن تنحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والأصابع (وانظر) كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظم الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك عظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظاما مائتان وثمانية وأربعون مفصل وياقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظاما واحدا لكان مضرة على الانسان يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظاما واحدا كان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فى هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج فى جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكم بين النظرين (ثم إنه سبحانه ربط تلك) الأعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها أسرها وجعلها كالأوتار تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهى مختلفة فى الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالها فجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وابصارها لو نقصت منهن رباطا واحدا اختل أمر العين وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هى له كالآلات التى بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم فى قطرة ماء مهين فويل للمكذبين وبعدا للجاحدين (ومن عجائب خلقه) أنه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذا بعضها إلى بعض ، خزانة فى مقدمه وخزانة فى وسطه وخزانة فى آخره وأودع تلك الخزائن من أسرار ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل (ومن عجائب خلقه) ما فيه من الأمور الباطنة التى لا تشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة وسائر ما فى بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع (فاما القلب) فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو مخوف بها محشود محذوم مستقر فى الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيوانى والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هى جند من أجناد القلب فإن العين طليعته ورائده الذى يكشف له المراتب . فإن رأت شيئا أدته إليه ولشدة الارتباط الذى بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها فهى مرآته المترجمة للناظر ما فيه كما أن اللسان ترجمانه المؤدى لسمع ما فيه .

ولهذا كثيرا ما يقرن سبحانه فى كتابه بين هذه الثلاث كقوله: ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ (١) وقوله: ﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾ (٢) وقوله: ﴿ صم بكم عمى ﴾ (٣) وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ (٤) وقوله فى حق رسوله محمد ﷺ: ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ (٥) ثم قال: ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ (٦) وكذلك الأذن هى رسوله المؤدى إليه (وكذلك) اللسان ترجمانه وبالجمل فسائر الأعضاء خدمه وجنوده

(١) من الآية ٢٦ من سورة الأسراء

(٢) الآية رقم ٢٦ من سورة الاحقاف

(٣) من الآية رقم ١٨ من سورة البقرة

(٤) من الآية ١١ من سورة النجم

(٥) من الآية ١٧ من سورة النجم

وقال النبي ﷺ: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب) (١) (وقال أبو هريرة) القلب ملك والأعضاء جنوده فإن طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وجعلت الرثة كالمروحة تروح عليه دائما لأنه أشد الأعضاء حرارة بل هو منبع الحرارة (وأما الدماغ) وهو المخ فإنه جعل باردا واختلف في حكمة ذلك فقالت طائفة إنما كان الدماغ باردا لتبريد الحرارة التي في القلب ليردها عن الإفراط إلى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدا عن القلب بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة أو يكون قريبا منه في الصدر ليكسر حرارته قالت الفرقة الأولى: بعد الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فإنها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته وتوسطت فرقة أخرى وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فإنه مبدأ للذهن ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الأقدار والكدر خال من الجلبة والزجل، ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته، ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلا في ذلك صالحا له ولهذا تجود هذه الأفعال في الليل وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية (وهذا بحث متصل بقاعدة أخرى) وهي أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ (فقالت طائفة): مبدؤها كلها القلب وهي مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق، قالوا وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتي إلى كل واحد من هذه الأجسام التي فيها هذه الحواس (قالوا فالعين) إذا أبصرت شيئا أدته بالآلة التي فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب والسمع إذا أحس صوتا أداه إلى القلب وكذلك كل حاسة.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا فقالوا (إن قيل كيف يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمدّه عدة حواس مختلفة وأجسام هذه الحواس مختلفة وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى) (وأجابوا عن ذلك) بأن جميع العروق التي في البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة، فما من عرق ولا عضو إلا وله اتصال بالقلب اتصالا قريبا أو بعيدا قالوا وينبعث منه في تلك العروق والمجاري إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكلة فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق، وإلى كل ذي قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى، ولهذا كان الرأي الصحيح أنه أول الأعضاء تكويننا. قالوا ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف في ذلك آخرون وقالوا بل العقل في الرأس (فالصواب أن مبدأ منشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب ٤٠ ج ١ ص ٢٠ طبع الشعب

فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴿ وقال : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب . ونازعهم فى ذلك طائفة أخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على الخلقة (والصواب المتوسط) بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهى قوة معنوية لا تحتاج فى وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف إلا على قبولها واستعدادها وإمداد القلب لا على مجار وأعصاب وبهذا يزول الالتباس فى هذا المقام الذى طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب (والمقصود التنبيه) على أقل القليل من وجوه الحكمة التى فى خلق الانسان والأمر أضعاف ما يخطر بالبال أو يجرى فيه المقال وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التى هى شىء بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه . وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط فى مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم يدخل منه آلة تقطعه صغارا ثم طاحون تطحنه ثم أعين بماء يعجنه ثم جعل له مجرى وطريقا إلى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقا توصله إلى المعدة فهى خزانة وموضع إجتماعه ولها بابان : أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه تفرقه والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحاصل والأسفل مصرف للضار منه .

والأسفل منطبق دائما ليستقر الطعام فى موضعه فإذا انتهى الهضم فإن ذلك الباب يفتح إلى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك ، والأعلى يسمى فم المعدة . والطعام ينزل إلى المعدة متكيا فإذا استقر فيها إنما وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام فى القدرة بالنار المحيطة به ولذلك يذيب ما هو مستحجر كالخضا وغيره حتى يتركه مائعا فإذا أذابه علا صفوه إلى فوق ورسي كدره إلى أسفل ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث أشرف ما فى ذلك والطفه وأخفه إلى الأرواح فيبعث إلى البصر بصرا أو إلى السمع سمعا وإلى الشم شما وإلى كل حاسة بحسبها فهذا ألطف ما يتولد عن الغذاء ثم ينبعث منه إلى الدماغ ما يناسبه فى اللطافة والاعتدال ثم ينبعث من الباقي إلى الأعضاء فى تلك المجارى بحسبها وينبعث منه إلى العظام والشعر والأظفار ما يغذيها ويحفظها فيكون الغذاء داخلا إلى المعدة من طرق ومجار وخارجا منها إلى الأعضاء من طرق ومجار هذا وارد إليها وهذا صادر عنها حكمة بالغة ونعمة سابغة ولما كان الغذاء إذا استحال فى المعدة استحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغها اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن جعل لكل واحد من هذه الأخلاط مصرفا ينصب إليه ويجتمع فيه ولا ينبعث إلى الأعضاء الشريفة إلا أكمله فوضع المرارة مصفا للمرة الصفراء ووضع الطحال مقرا للمرة السوداء والكبد تمتص أشرف ما فى ذلك وهو الدم ثم تبعثه إلى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل إلى كل واحد من الشعور والأعصاب والعظام والعروق ما يكون به قوامه ثم إذا نظرت إلى ما فيه من القوى الباطنة والظاهرة المختلفة فى أنفسها ومنافعها رأيت العجب العجيب كقوة سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه وحبه ويغضه ورضاه وغضبه

وغير ذلك من القوى المتعلقة بالادراك والارادة وكذلك القوى المنصرفة في غذائه كالقوة المنضجة له وكالقوة الماسكة له والدافقة له إلى الأعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتها منه إلى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة .

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وأنه لو اجتمع الانس والجن على أن يخلقوا لها سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا بل عظما واحدا من أصغر عظامها بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين . فمن هذا صنعه في قطرة ماء فكيف صنعه في ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع العجائب من بدن الانسان بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات قال الله تعالى : ﴿ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار ﴾^(٢) وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالاضافة إلى السموات كقطرة في بحر .

ولهذا قل أن تحيى سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخبارا عن عظمها وسعتها وإما إقسامها بها وإما دعاء إلى النظر فيها وإما إرشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها وإما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة وإما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتثام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكم من قسم في القرآن بها كقوله ﴿ والسماء ذات البروج ﴾^(٣) ﴿ والسماء والطارق ﴾^(٤) ﴿ والسماء وما بناها ﴾^(٥) ﴿ والسماء ذات الرجوع ﴾^(٦) ﴿ والشمس وضحاها ﴾^(٧) ﴿ والنجم إذا هوى ﴾^(٨) ﴿ والنجم الثاقب ﴾^(٩) ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾^(١٠) وهي الكواكب التي تكون خنسا عند طلوعها جوار في مجراها ومسيرها كنسا عند غروبها فأقسم بها في أحوالها الثلاثة ولم يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ، ولهذا يعظم سبحانه هذا القسم كقوله ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾^(١١) وأظهر القولين أنه أقسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء فإن إسم النجوم عند الاطلاق إنما ينصرف إليها

(١) الآية ٢٧ من سورة النزاعات

(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران

(٣) الآية ١ من سورة البروج

(٤) الآية ١ من سورة الطارق

(٥) الآية ٥ من سورة الشمس

(٦) الآية ١١ من سورة الطارق

(٧) الآية ١ من سورة الشمس

(٨) الآية ١ من سورة النجم

(٩) الآية ٣ من سورة الطارق

(١٠) الآية ١٥ من سورة التكويد

(١١) الأيتان ٧٥ ، ٧٦ من سورة الواقعة

وأيضاً فإنه لم تجر عاداته سبحانه باستعمال النجوم فى آيات القرآن ولا فى موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عاداته باستعمال النجوم فى الكواكب فى جميع القرآن وأيضاً فإن نظير الأقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى النجم فى قوله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾^(١) وأيضاً فإن هذا قول جمهور أهل التفسير وأيضاً فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده . هذه طريقة القرآن قال الله تعالى ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾^(٢) ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾^(٣) ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾^(٤) ﴿ حم والكتاب المبين ﴾^(٥) ونظائره (والمقصود أنه سبحانه) إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته وقد أثنى سبحانه فى كتابه على المفكرين فى خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾^(٦) وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء قال الله تعالى ﴿ وبيننا فوقكم سبعا شدادا ﴾^(٧) وقال تعالى ﴿ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾^(٨) وقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذى رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتداء خلقه من بخار إرتفع من الماء وهو الدخان . فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعريفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها وفى كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها وإختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ولا تغير فى سيرها بل تجرى فى منازل قد رتبت لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها ويديعها وانظر إلى كثرة كواكبها وإختلاف ألوانها ومقاديرها .

فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى (ثم انظر) إلى مسير الشمس فى فللكها فى مدة سنة ثم هى فى كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم ، أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة ، وكيف قدر لها العزيز العليم سافرين متباعدين ، أحدهما سفرها صاعدة إلى أوجها والثانى سفرها هابطة إلى حضيبضها ، تنتقل فى منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر إختلاف الفصول من

(١) سورة النجم الآية ١

(٢) الآية ١ من سورة ص

(٣) الأيتان ١ ، ٢ من سورة يس

(٤) الآية ١ من سورة ق

(٥) الأيتان ١ ، ٢ من سورة الزخرف

(٦) من الآية ٣٢ من سورة الأنبياء

(٧) من الآية ١٢ من سورة النبأ

(٨) الآية ٢٧ من سورة النازعات

الصيف والشتاء والخريف والربيع ، فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ ، وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها . (وانظر) إلى القمر وعجائب آياته كيف يديه الله كالخييط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئاً فشيئاً كل ليلة حتى ينتهي إلى إبداره وكماله وتمامه ، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشاتهم وعبادتهم ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنون ، وقام حساب العالم مع ما في ذلك من الحكمة والآيات والعبر التي لا يحصيها إلا الله (وبالجمله فما من كوكب من الكواكب) إلا وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة ، ثم في مقداره ، ثم في شكله ولونه ، ثم في موضعه من السماء وقربه من وسطها ، وقربه وبعده من الكوكب الذي يليه ، وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الاجمال فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوت ما بين المتجاورات منها وبعدها ما بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له ، وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها . وقد اتفق أرباب الهيئه على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفاً وستين مرة . والكواكب التي تراها كثيراً منها أصغرها بقدر الأرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها وفي حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذى ، ان بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك^(١) ، وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر ، وذلك بقدر لحظة واحدة لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلاً ثم سار في اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات وهكذا يسير على الدوام ، والعبد غافل عنه وعن آياته ، وقال بعضهم إذا تلفظت بقولك لا ، نعم ، فبين اللفظين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام ، ثم انه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عدد من تحتها ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾^(٢)

والنظر في هذه الآيات وأمثالها نوعان ، نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلاً فوقه السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الانسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر . والثاني ان يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ، ومجده ورفعته ، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه

(١) الحديث في سنن الترمذى ج ٥ ص ٧٧ ، ٧٨ في تفسير سورة الحديد من حديث أبي هريرة

(٢) سورة لقمان الآيتان : ٩ - ١٠

بتدبير الممالك والجنود التى لا يعلمها إلا ربها مليكها ، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم وإذلال آخرين ، وإسعاد قوم وشقاوة آخرين ، وإنشاء ملك وسلب ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل ، وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر ، وإغناء فقير ، وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ، ورد آبق ، وأمان خائف ، واجارة مستجير ومدد لضعيف ، وإغاثة للملهوف ، وإعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف العدوان . فهى مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ فى اقطار العوالم لا يشغله سمع شئ منها عن سمع غيره ، ولا تغلظه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عان لعزته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم الميز . فهذا سفر القلب وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فياله من سفر ، ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه واجل منفعة وأحسن عاقبته ، سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب .

وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده ، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعاشهم . وجعل فيها السبل ليتقلوا فيها فى حوائجهم وتصرفاتهم . وأرساها بالجبال فجعلها أوتادا تحفظها لئلا تميد بهم ووسع أكنافها ، ودحاها فمدها وبسطها ، وطحاها فوسعها من جوانبها ، وجعلها كفاتا للأحياء تضمهم على ظهرها ماداموا أحياء ، وكفاتا للأموات تضمهم فى بطنها إذا ماتوا ، فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض فى كتابه ، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر فى خلقها فقال تعالى (والأرض فرشناها فنعم الماهدون)^(١) ، ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا ﴾^(٢) ، ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾^(٣) ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾^(٤) ﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾^(٥) وهذا كثير فى القرآن ، فانظر إليها وهى مية هامة خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبت من كل زوج بهيج فأخرجت عجائب النبات فى المنظر والمخير ، بهيج للناظرين ، كريم للمتناولين فأخرجت الأقوات على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار ، وأنواع الأدوية . ومراعى الدواب والطيور . (ثم انظر) قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحد فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة فى اللون

(١) سورة الذاريات الآية ٤٨

(٢) سورة غافر الآية ٦٤

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢

(٤) سورة الغاشية الآية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

(٥) سورة الجاثية الآية ٣

والشكل والرائحة والطعم والمنفعة ، واللقاح واحد والأم واحدة كما قال تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعتاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) فكيف كانت هذه الأجنة المختلفة مودعة في بطن هذه الأم ، وكيف كان حملها من لقاح واحد ، صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو ، ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده ، وهداهم إلى التفكير فيه . قال الله تعالى : ﴿ وتري الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ (٢) . فجعل النظر في هذه الآية وما قبلها من خلق الجنين دليلا على هذه النتائج الخمس مستلزما للعلم بها ، ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات ، الشوامخ ، الصم الصلاب ، وكيف نصبها فأحسن نصبها ، وكيف رفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض لثلا تضمحل على تطاول السنين ، وترادف الأمطار والرياح بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ، ثم هدى الناس إلى استخراج تلك المعادن منها ، وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلى والزينة واللباس والسلاح وآلة المعاش على اختلافها ، ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم على شيء منه ولا قدرة عليه .

(من آياته الباهرة) هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض ، يدرك بحس اللمس عند هبويه ، يدرك جسمه ولا يرى شخصه ، فهو يجرى بين السماء والأرض ، والطير مختلفة فيه ، سابعة بأجنحتها في أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر ، فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ، ولا قها للسحاب يلقيه بحمل الماء كما يلقي الذكر الأنثى بالحمل . وتسمى رياح الرحمة بالمبشرات والنشر والذاريات والمراسلات والرخاء واللواقح . ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما في البحر ، والعقيم ، والصرصر ، وهما في البر ، ان شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيا وأودعه عذابا اليما وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصرنا ونحسا وعاتيا ومفسدا لما يمر عليه ، وهي مختلفة في مهاها فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال ، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذى النبات وابدان الحيوان ، واخرى تجففه ، واخرى تهلكه ، وتعطبه ، واخرى تشده وتصلبه ، واخرى توهمه وتضعفه . ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعتها وما يحدث منها . فريح تثير السحاب ، وريح تلقحه ، وريح تحمله على متونها ، وريح تغذى النبات . لما كانت الرياح مختلفة في مهاها وطبائعها ، جعل لكل ريح ريحا مقابلتها تكسر سورتها وحدتها ، ويبقى لينها ورحمتها ، فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لا هلاك ما ترسل لإهلاكه ، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها بل تكون

(١) سورة الرعد آية ٤

(٢) سورة الحج آية ٥ ، ٦ ، ٧

كالجيش العظيم الذى لا يقاومه شىء ، يدمر كل ما أقى عليه . وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا فى البر ، وأما فى البحر فجاءت ریح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى : هو الذى یسیرکم فى البر والبحر حتى إذا کتتم فى الفلك وجرین بهم بریح طیبة وفرحوا بها جاءتها ریح عاصف وجاءهم الموج من کل مکان ^(١) فإن السفن إنما تسیر بالریح الواحدة التى تأتى من وجه واحد فإذا اختلفت الریح على السفن وتقابلت لم يتم سیرها ، فالمقصود منها فى البحر خلاف المقصود منها فى البر ، اذ المقصود فى البحر ان تكون واحدة طیبة لا يعارضها شىء فأفردت هنا وجمعت فى البر . ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطیف الذى یحرکه أضعف المخلوقات ویخرقه من الشدة والقوة والبأس ما یتعلق به الأجسام الصلبة القویة الممتنعة ، ویزعجها عن أماكنها ویفتنها ویحملها على متنها ، فانظر إلیه مع لطافته وخفته إذا دخل فى الزمن مثلاً وامتلأ به ثم وضع علیه الجسم الثقیل كالرجل وغیره وتحامل علیه لتغمسه فى الماء لم یطف ، وضع الحديد والصلب الثقیل على وجه الماء فیرسب فيه فامتنع هذا اللطیف من قهر الماء له ولم یمتنع منه القوى الشدید ، وبهذه الحکمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحویه ، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فإنه لا یرسب فيه لان الهواء یمتنع من الغوص فى الماء فتعلق به السفينة المشحونة الموقرة ، فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقیل العظيم بهذا اللطیف الخفیف ، وتعلق به حتى أمن من الفرق ، وهذا كالذى یهوى فى قلب یتعلق بذیل رجل قوى شدید یمتنع من السقوط فى القلب یتنجو بتعلقه به ، فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقیل بهذا الهواء اللطیف من غیر علاقة ولا عقدة تشاهد ، ومن آیاته السحاب المسخر بین السماء والأرض ، كيف ینشئه سبحانه بالریاح فتسیره كثفا ثم یؤلف بینہ ویضم بعضه إلى بعض ، ثم تلحقه الریح وهى التى سماها سبحانه لواقح ، ثم یسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إلیه ، فإذا علاها واستوى علیها اهراق ماءه علیها فیرسل سبحانه علیه الریح وهو فى الجوف تذروه وتفرقه لئلا یؤذى ویهدم ما ینزل علیه بجملته حتى اذا رويت واخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها فهى روايا الأرض محمولة على ظهور الریاح . وفى الترمذی وغیره ان النبى ﷺ لما رأى السحاب قال : « هذه روايا الأرض یسوقها الله إلى قوم لا یشکرونه ولا یذكرونه » ^(٢) فالسحاب حامل رزق العباد وغیرهم التى علیها میرتهم . وكان الحسن إذا رأى السحاب قال فى هذا : والله رزقکم ولکنکم تحرمونه بخطایاکم وذنوبکم . وفى الصحیح عن النبى ﷺ قال : (بینما رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتاً فى سحابة استق حدیقة فلان ، فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حدیقة فلما توسطتها أفرغت فیها ماءها فإذا برجل معه مسحاة یسجى الماء بها فقال : ما اسمک یا عبد الله ؟ قال فلان للاسم الذى سمعه فى السحابة) ^(٣) (وبالجملۃ) فإذا تأملت السحاب الكثیف المظلم كيف تراه یجتمع فى جو صاف لا کدورة فيه ، وكيف یخلقه الله متى شاء ، وإذا شاء ، وهو مع لینه ورخاوته

(١) سورة یونس آية ٢٢

(٢) الحدیث فى سنن الترمذی ح ٥ ص ٧٧ تفسیر سورة الحديد . مع اختلاف فى لفظ یذكرونه قال ولا یدعونہ .

(٣) الحدیث رواه مسلم فى کتاب الزهد والرفائق باب الصدقة فى المساکین ح ٤ ص ٢٢٨٨ رقم ٢٩٨٤ / ٤٥

حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء فيرسله وينزل منه مقطعا بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الأرض رشا ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ، ولا يتأخر متقدمها ، وتذكر القطرة صاحبها فلا تمزج بهابل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة قد عنيت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخرجوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه . فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقا للعباد والدواب والطير والذر والنمل يسوقه رزقا للحيوان الفلانية في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا ، وكذا ، ثم كيف أودعه في الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية ، والأثواب فهذا النبات يغذى ، وهذا يصلح الغذاء ، وهذا ينقذه ، وهذا يضعف ، وهذا سم قاتل ، وهذا شفاء من السم ، وهذا يمرض ، وهذا دواء من المرض ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق . وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال إليها ، وهذا يدفع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل اليها ، وهذا يهيج الدم ، وهذا يسكنه ، وهذا ينوم ، وهذا يمنع النوم ، وهذا يفرح ، وهذا يجلب الغم ، إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الاحاطة بها وتفصيلها . وانظر إلى مجارى الماء في تلك العروق الرقيقة الضئيلة الضعيفة التي لا يكاد البصر يدركها إلا بعد تحديق كيف يقوى قسره واجتذابه من مقره ومركزه إلى فوق ثم ينصرف في تلك المجارى بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم تتفرق وتتشعب وتلدق إلى غاية لا يناها البصر .

ثم انظر إلى تكون حمل الشجرة ونقلته من حال إلى حال كتنقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار ترى العجب العجيب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين . بينما تراها حطبا قائما عاريا لا كسوة عليها اذا كساها ربها وخالقها من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة ، وكساها من الورق كسوة هي أثبت من الأولى ، ثم اطلع فيها حملها ضعيفا ضئيلا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبا لتلك الثمرة الضعيفة لتستجن به من الحر والبرد والآفات ، ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاها في تلك العروق والمجارى فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبن أمه ، ثم رباها ونماها شيئا فشيئا حتى استوت وكملت وتناهى ادراكها فأخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء ، هذا وكم لله من آية في كل ما يقع الحس عليه ويبصره العباد وما لا يبصرونه تفنى الأعمار دون الاحاطة بها ويجمع تفاصيلها . ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبدیه كقوله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾ (١)

وقوله ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴾ (٢) وقوله عز وجل

(١) سورة فصلت آية ٣٧

(٢) سورة الفرقان آية ٤٧

﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾^(١) وقوله عز وجل ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾^(٢) وهذا كثير فى القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنته من الصبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعى والتعب حتى إذا اخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معاشها وتصرفها جاء فائق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة وفرقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون فانتشر الحيوان وتصرف فى معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفا منها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم ، ولا ضعف فى قدرة القادر التام القدرة ، ولا قصور فى حكمته ، ولا فى علمه ، يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهذا أيضا من آياته الباهرة أن يعنى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدى بها ، ولا يبصرها لمن هو واقف فى الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش ويتكرر وجود الماء وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل .

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكثفة لأقطار الأرض التى هى خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا امساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها ، هذا طبع الماء ، ولهذا حار عقلاء الطبيعة فى سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وأن يغمره ، ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك الا الاعتراف بالعناية الأزلية . والحكمة الالهية التى اقتضت ذلك ليعيش الحيوان الأرضى فى الأرض ، وهذا حق ولكنه يوجد الاعتراف بقدرة الله ، وارادته ومشيته ، وعلمه ، وحكمته ، وصفات كماله ، ولا محيص عنه .

وفى مسند الامام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال : (ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يفرق بنى آدم)^(٣) وهذا أحد الأقوال فى قوله عز وجل ﴿ والبحر المسجور ﴾^(٤) إنه المحبوس حكاة ابن عطية وغيره . قالوا ومنه ساجور الكلب وهى القلادة من غود أو حديد التى تمسكه ، وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض ، فالأرض فى البحر كبيت فى جملة الأرض ، وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها . وأشكالها ، ومقاديرها ، ومنافعها ، ومضارها ، وألوانها ، حتى أن فيها حيوانات أمثال الجبال لا يقوم له شيء ، وحتى أن منه من الحيوانات

(١) سورة الأنبياء آية ٣٣

(٢) سورة غافر آية ٦١

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند عمر بن الخطاب ح ١ ص ٤٣ مع اختلاف فى الألفاظ

(٤) سورة الطور آية ٦

ما يرى ظهورها فنظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان ، وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله ، حتى الانسان والفرس والبعير وأصنافها وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر أصلا هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فترى اللؤلؤ كيف أودعت في كل كالبيت لها وهي الصدفة تكنها ، وتحفظها ، ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذي في صدفه لم تمسه الأيدي . وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر .

هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر ولا تستخرج منه ، ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد ليقودها ولا سائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لأجرائها ، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء ، قال الله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾^(١) وقال الله تعالى : ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾^(٢) فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيرا :

وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه . وقال الله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾^(٣) .

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشي على بطنه ومنه الماشي على رجله ومنه الماشي على أربع ، ومنه ما جعل سلاحه في رجله وهو ذو مخالب ، ومنه ما جعل سلاحه المناكير كالنسر والرخم والغراب ، ومنه ما سلاحه الأسنان ، ومنه ما سلاحه العياصي وهي القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه ، ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالأسد فان سلاحه قوته ، ومنه ما سلاحه في ذرقة وهو نوع من الطير إذا دنا منه يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه ويكرر في القرآن أمر عباده بالنظر في الآيات مرة أخرى فهو من أجل مقاصد القرآن ؟

قال الله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾^(٤) وقال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾^(٥) .

وقال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾^(٦) وقال تعالى : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾^(٧) وقال تعالى : ﴿ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون . فائق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباننا

(١) سورة الشورى آية : ٣٢ ، ٣٣

(٢) سورة النحل آية : ١٤

(٣) سورة الحاقة آية : ١١ ، ١٢

(٤) سورة يونس آية ١٠١

(٥) سورة آل عمران آية ١٩٠

(٦) سورة الغاشية الآيات ١٧٠ - ٢٠

(٧) سورة الأعراف آية ١٨٥

ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دائية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه ﴿١﴾ فامر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه واثماره ووقت نضجه وإدراكه . يقال أينعت الثمار إذا نضجت وطابت لأن فى خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة ، ثم خروجه من حد العقوصة واليبوسة والمرارة

والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع ، والطعم اللذيذ الشهى لآيات لقوم يؤمنون وقال بعض السلف حق على الناس ان يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها فينظروا إليها . . ثم تلا : ﴿ انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه ﴾ ﴿٢﴾ ولو أردنا أن نستوعب ما فى آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأنه الله الذى لا إله إلا هو الذى ليس كمثله شىء ، وأنه الذى لا أعظم منه ، ولا أكمل منه ، ولا أبر ولا ألطف لعجزنا نحن والأولون والآخرين عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك ، ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغى ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك .

تأمل فى وضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه ، فانك اذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل ما يحتاج اليه ، فالسما سقفه المرفوع عليه ، والأرض مهاد وبساط ، وفراش ، ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه ، والنجوم مصابيح له ، وزينة وادلة للمتقل فى طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر ، والخواصل المعدة للمهيئة كل شىء منها لشأنه الذى يصلح له وضروب النبات مهياة لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه ، فمنها الركوب ومنها الحلوب ، ومنها الغناء ، ومنها اللباس ، والأمتعة ، والآلات ، ومنها الحرس الذى وكل بحرس الانسان يحرسه - وهو نائم وقاعد - مما هو مستعد لاهلاكه وأذاه ، فلولا ما سلط عليه من ضده لم يقر للانسان قرار بينهم وجعل الانسان كالمملك المخول فى ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ، ففى هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم ، قدره أحسن تقدير ، ونظمه أحسن نظام ، وأن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الاله واحد لا إله إلا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، وأنه لو كان فى السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما ، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدير له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع امكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال فى أوائل العقول وبداية الفطر ، فلو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، اذله لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم

(١) سورة الأنعام الآيات ٩٥ - ٩٩

(٢) سورة الانعام آية ٩٩

الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان يعجز الأولون والآخران أن يقدحوا فيهما بقدح صحيح ، أو يأتوا بأحسن منهما ، ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما ، ولولا خشية الاطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر ، وسنفرد ان شاء الله كتابا مستقلا لأدلة التوحيد .

فتأمل خلق السماء ، وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ، ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها ، بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض ان تزولا ، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له ، حتى ان من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجانة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المستقبل في لا ينكأ فيها بطول مباشرتها له ، هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لاقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون في معاشهم ، ويتصرفون في أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ، ثم تأمل الحكمة في غروبها فإنه لولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات ، وجوم الحواس وانبعاث القوى الباطنة كظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها ، من حيوان ، ونبات ، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدأوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا ، مع تضادها متعاونين متظاهرين بها تمام مصالح العالم . وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنوا فيه أفلا تبصرون ﴾ (١) .

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل ، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وعمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر ، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله أفلا تسمعون راجع إلى قوله : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة ﴾ وقال تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو

الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴿^(١)﴾ فذكر تعالى خلق الليل والنهار وأنها خلفه أى يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبها واختلافها وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر ، لا يجامعه ، ولا يحاذيه بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حيثما حتى يزيله عن سلطانه ثم يجىء الآخر عقبه فيطلبه حيثما ويزيله عن سلطانه فهما دائما يطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه .

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس فى انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه فلو كان صيفا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء ولو كان صيفا كله لفاتت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفا كله ففى الشتاء تغور الحرارة فى الأجواف وبطون الأرض والجبال فتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ويستكشف فيه الهواء فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذى به حياة الأرض وأهلها واشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف ما حلته حرارة الصيف من الأبدان ، وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل ، وفى الصيف يحتد الهواء ويسخن جدا فتتضج الثمار وتنحل فضلات الأبدان والاخلط التى انعقدت فى الشتاء ، وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ، ولهذا تبرد العيون والآبار ، ولا تهضم المعدة الطعام التى كانت تهضمه فى الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التى سكنت فى البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء ويرد فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره ، فإذا انتقل إليه بتدرج وترتيب لم يصعب عليه فانه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتى جمرة البرد بعد استعداد وقبول ، حكمة بالغة وآية باهرة . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدرج ، وترتيب ، وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والاضاءة ، وكيف جعل لهما بروجاً ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة ، وتقام مصالح حساب العالم الذى لا غناء لهم فى مصالحهم عنه ، فبذلك يعلم حساب الأعمار والأجال المؤجلة للديون والاعارات والمعاملات والعدد وغير ذلك ، فلولا حلول الشمس والقمر فى تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شئ من ذلك وقد نبه تعالى على هذا فى غير موضع من كتابه كقوله : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ ^(٣)

(١) سورة الفرقان آية ٦١ ، ٦٢

(٢) سورة يونس آية ٥

(٣) سورة الاسراء آية ١٢

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم - سبحانه - فإنها لو كانت تطلع في موضع في السماء فتقف فيه ولا تغدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل احد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر ، وكان يكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليهم ، والنهار سرمدا على من هي طالعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء ، فاقتضت الحكمة الالهية ، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة من جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم .

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار اليوم واللييلة لو زاد على ما قدر أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك ، بل جعل مكبا لها أربعاً وعشرين ساعة وجعلها يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه . قال الله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ ﴾ (١) وفيه قولان : أحدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه . وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار للقول الثاني أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الاقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الانسان ولا يتكون فيه النبات ، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ، ولا نبات لفرط برده ويبسه ، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه ، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان ، والنبات ، هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب ، واعد لها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ، ويكون فيها اعتدالان ، خريفان وربيعان ، ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل ، والحكمة في ذلك فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان ، وبرد الهواء على الأبدان ، والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لا ضوء فيه أصلا فكان لا يتمتع الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال ، ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق النهار ، أو لشدة الحرارة أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان ، جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة كالسفر والحرث وغير ذلك من أهل الحروث والزروع ، فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات ، وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوءه عن الشمس لئلا يستوى الليل والنهار فتفتت حكمته الاختلاف بينهما ، والتفاوت الذي قدره العزيز العليم ، فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ، ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه

وإحسانا ، فسبحان من أتقن من صنع وأحسن كل شيء خلقه .
ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى فى هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة
يتهدى بها فى طرق البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط
ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت ، ثم تأمل تسخيرها منقادا بأمر ربها - تبارك
وتعالى - جارية على سنن واحد اقتضت حكمته وعلمه ألا تخرج عنه فجعل منها البروج والمنازل
والثوابت والسيارة والكبار والصغار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر ، ومنها ما يخفى على
الناظر فلا يدركه وجعل منطقة البروج قسمين ، مرتفعة ، ومنخفضة ، وقدر سيرها تقديرا واحدا ونزل
الشمس والقمر والسيارات منها منازلها ، فمنها ما يقطعها فى شهر واحد وهو القمر ، ومنها ما يقطعها فى
عام ، ومنها ما يقطعها فى عدة أعوام ، كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسبابا لما يحدثه
- سبحانه - فى هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التى تقارنها كمعرفتهم بما يكون مع طلوع
الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التى تقارنها ، وكذلك غيرها من المنازل والسيارات ،
ثم تأمل جعله سبحانه بنان نعش وما قرب منها ظاهر لا تغيب لقربها من المركز ولما فى ذلك من الحكمة
الالهية ، وإنها بمنزلة الاعلام التى يهتدى بها الناس فى الطرق المجهولة فى البر والبحر ، فهم ينظرون
إليها وإلى الجدى والفرقدين كل وقت ارادوا فيهتدون بها حيث شاءوا .

ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا يسير إلا مع رفقة ،
ولا يفرد عنهم سيره أبدا بل لا يسرون إلا جميعا ، وبعضها يسير سيرا مطلقا غير مقيد برفيق ولا
صاحب ، بل إذا اتفق له مصاحبه منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى ، فبينما تراه ورفيقه وقرينه
إذا رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط ، وهذه السيارة لها فى سيرها سيران مختلفان غاية
الاختلاف ، سير عام يسير بها فللكها ، وسير خاص تسير هى فى فللكها كما شبهوا ذلك بنملة تدب على
رحى ذات الشمال ، والرحى تأخذ ذات اليمين فللنملة فى ذلك حركتان مختلفتان إلى جبهتين
متباينتين ، أحدهما بنفسها ، والأخرى مكرهة عليها تبعا للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها ،
وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ،

ثم يسير فللكها وبمنزلها إلى جهة الغرب ، فسل الزنادقة والمعطلة أى طبيعة اقتضت هذا ؟ وأى فللك
أوجبه ؟ ، وهلا كانت كلها راتبة أو متنقلة ؟ أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان
واحد ؟ وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارئ
المصور الذى ليس كمثله شيء أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنعه وأنه العليم الحكيم الذى خلق
فسوى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت
فيها إليه وأنه خلق مسخر مربوب مدبر ! : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام
ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره أإله
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ ^(١) فإن قلت : فما الحكمة فى كون بعض النجوم راتبا وبعضها

متنقلا ؟ قيل إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها ، ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ، ولا رسم يقاس عليها ، لأنه انما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب كما تقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها ، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها ، ولتشبث المعطل بذلك وقال لو كان فاعلها ومبدعها مختارا لم تكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد ، فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من ادلة الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته .

ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمس وقمره ونجومه وبروجه ، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام ، وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد ، وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات ، وهل يخفى على ذى بصيرة أن هذا ابداع المبدع الحكيم ، وتقدير العزيز العليم ، ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في الله ، وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الاقرار به ، فقالت لهم : ﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾^(١) فوجوده - سبحانه - وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الاطلاق ، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار ، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده ، فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات ﴾^(٢) الآية .

وقال تعالى : ﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يث من دابة ﴾ إلى قوله : ﴿ وآياته يؤمنون ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة ﴾ إلى قوله : ﴿ في ضلال مبين ﴾^(٤) وقال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هم خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ إلى قوله : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾^(٥) وتأمل كيف وجد سبحانه الآية من قوله : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ﴾ إلى آخرها^(٦) . وختمها بأصحاب الفكرة فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد ، وهو الماء الذي أنزله من السماء ، فأخرج به كل ما ذكره من الأرض وهو على اختلاف انواعه لقاحه واحد ، وأمه واحدة ، فهذا نوع واحد من آياته . وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمة ذلك وبديع صنعه

(٤) سورة لقمان آية ١٠ - ١١

(٥) سورة النحل الآية ٤ - ١٧

(٦) سورة النحل آية ١٠

(١) سورة إبراهيم آية ١٠

(٢) سورة الرعد آية ٢ - ٤

(٣) سورة الجاثية آية ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦

والاستدلال به على خالقه وباريه ، وذلك هو الفكر بعينه . وأما قوله تعالى فى الآية التى بعدها: ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وهى آيات متعددة مختلفة فى أنفسها وخلقتها ، وكيفياتها ، إظلام الجول لغروب الشمس ومجئ الليل الذى يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ، ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فيهزم عسكر الظلام ، وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملة آية اخرى ، ثم فى الشمس التى هى آية النهار آية اخرى ، وفى القمر الذى هو آية الليل آية اخرى ، وفى النجوم آيات اخرى ، كما قدمناه ، هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الريح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أخرى ، فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر ، والأولى كالباب لهذه فمن استدل بهذه الآيات وأعطاهما حقها من الدلالة استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر فلما دهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التى هى أعظم منها إلى العقل الذى هو فوق الفكر فتأمل ، فأما قوله فى الآية الثالثة ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ فوحد الآية وخصها بأهل التذكر . فأما توحيدها فكتوحيد الأولى سواء ، فإن ما ذرا فى الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله فى محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه . وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر فطريقة القرآن فى ذلك ان يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى فى سورة ق : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ (١) فالتبصر التعقل والتذكر والفكر باب ذلك ومدخله فإذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر فجاء التذكير فى الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ، ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته . وآخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل فإن قلت ما الفرق بين التذكر والتفكير فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة . قلت التفكير والتذكر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسعنا الكلام فى التفكير فى هذا الوجه لعظم المنفعة ، وشدة الحاجة إليه قال الحسن : مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكير فى التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسمع وأبصار . فاعلم ان التفكير طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها هذا حقيقته فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون موردا للفكر استحال الفكر لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال ، وتلك المواد هى الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلًا عنده لم يتفكر فيه فإذا عرف هذا فالتفكير ينتقل من المقدمات والمبادئ التى عنده الى المطلوب الذى يريده فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغى إثارة وما ينبغى اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكير وثمرته فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلًا عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره ويتذكره على تفكره مادام عاقلًا ، لأن العلم والادارة لا يقفان على حد بل هو دائما سائر بين العلم والادارة . (وإذا عرفت) معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة

وذكرى ، يتبصر بها من عمى القلب ، ويتذكر بها من غفلته ، فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر . والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالاشارة إلى شيء من بعض آيات الله ولو ذهبنا نتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام ، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة وأحسن ما انقضت فيه الأنفاس التفكير في آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها إلى تعليق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته .

فسل المعطل الجاحد ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خللا في مادته ولا في صورته وقد جعل على حديقه عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها ، وفي تلك الحديقه من يلثم شعشها ، ويحسن مراعاتها وتعهداها ، والقيام بجميع مصالحها ، فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها ، ثم يقسم قيمتها عند الجذائنا على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم ، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا

على الدوام ، أترى هذا إتقانا بلا صانع ؟ ولا مختار ولا مدبر ؟ بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقه وكل ذلك إتقانا من غير فاعل ، ولا قيم ، ولا مدبر ، افترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان ؟ وما الذى يفتيك به ؟ وما الذى يرشدك إليه ؟ ولكن من حكمة العزيز الحكيم ان خلق قلوبا عميا لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية كما خلق اعينا لا أبصار لها ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهى لا تراها ، فما ذنبها ان أنكرتها وجحدتها ، فهى تقول فى ضوء النهار هذا ليل ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئا ولقد أحسن القائل :

وهبنى قلت هذا الصباح ليلا أيعمى العالمون عن الضياء

ثم تأمل المسك للسموات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض ما فيها أفترى من المسك لذلك ؟ ومن القيم بأمره ؟ ومن المقيم له ؟ فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقه العظيمة . من كان يصلحه ؟ وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة فى رده كما كان ؟ فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس فجعل عليهم الليل سرمدا . من الذى كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار ؟ ولو حبسها فى الأفق ولم يسيرها ، فمن ذا الذى كان يسيرها ويأتيهم بالليل ؟ ولو أن السماء والأرض زالتا ، فمن ذا الذى كان يمسكهما من بعده ؟ ثم تأمل هذه الحكمة البالغة فى الحر والبرد وقيام النبات والحيوان عليهما ، وفكر فى دخول أحدهما على الآخر بالتدرج والمهلة حتى يبلغ لنهايتها ، ولو دخل عليه مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها ، وبالنبات ، كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط فى البرودة ولولا العناية والحكمة والرحمة والاحسان لما كان ذلك فإن قلت هذا التدرج والمهلة إنما كان لابطاء سير الشمس فى ارتفاعها وانخفاضها ، قيل لك فما السبب فى ذلك الانخفاض والارتفاع ؟ فإن قلت السبب فى ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها ، قيل لك ، فما السبب فى بعد المسافة ؟ ولا تزال المسألة متوجهة عليك كلما عينت سببها حتى تقضى بك إلى أحد أمرين ؟ اما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك إتقان من غير مدبر ولا صانع ، وإما الاعتراف برب

العالمين ، والاقرار بقيوم السموات والأرضين ، والدخول فى زمرة اولى العقل من العالمين . ولن تجد بين القسمين واسطة ابدا ، فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحددين ، فإنها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين ، واذا طلع فجر الهدى واشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس فى أول المنهزمين ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

ثم تأمل الحكمة فى خلق النار على ما هى عليه من الكمون والظهور ، فإنها لو كانت ظاهرة ابدا كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لا تظهر ابدا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة فى الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته اليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعل فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانفعال والسلامة من الضرر قال تعالى : ﴿ أفرايتم النار التى تورون ﴾ إلى قوله ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ^(١) فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف الينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين ، فأخبر سبحانه انه جعلها تذكرة بنار الآخرة فتستجير منها ونهرب إليه منها ، ومتاعا للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء ، - والقواء هى الأرض الخالية - وهى أحوج إلى الانتفاع بالنار للاضاءة والطبخ والخبز والتدفى والأنس وغير ذلك ثم تأمل حكمته تعالى فى كونه خص بها الانسان دون غيره من الحيوانات ، فلا حاجة بالحيوان اليها بخلاف الانسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه فى معاشه ومصالحه ، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ، وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهى هذا المصباح الذى يتخذة الناس فيقضون به من حوائجهم ما شاءوا من ليلهم ، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف اعمارهم بمنزلة أصحاب القبور ، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفا فى ظلمة الليل الداجى ، وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع فى وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك ، ثم انظر إلى ذلك النور المحمول فى ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضىء ما حولك كله فترى به القريب والبعيد ، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يقرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف ، وأماننا فع النار فى انضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا يتنفع الا بجفافه وتحليل ما لا يتنفع إلا بتحليله وعقد ما لا يتنفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى . ثم تأمل ما أعطته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة ، كما أن الجسم الثقيل لولا المسك يمسكه لذهب نازلا ، فمن أعطى هذه القوة التى يطلب بها الهبوط إلى مستقره واعطى هذه القوى التى تطلب بها الصعود إلى مستقرها ؟ وهل هذا ؟ الا بتقدير العزيز العليم .

ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان ، والمسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتغذى به ظاهرا وباطنا ، وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها

وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل ، وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضع إلى موضع فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح ، وكذلك تأتيه الأصوات ، وهو أيضا الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات ، وتأمل منفعة الريح وما يجرى له في البر والبحر وما هيئت له من الرحمة والعذاب ، وتأمل كم سخر السحاب من ريح حتى امطر فسخرت له المثيرة أولا فتثيرة بين السماء والأرض ، ثم سخرت له الحاملة متى تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية ، ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كفه وقطعه ، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقا واحدا ، ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلحق الأنثى فتلقحه بالماء ولولاه لكان جهاما لا ماء فيه ، ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك ، ثم سخرت له بعد اعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجوف فلا ينزل ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطرا ، وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيما وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر ، ومن منافعها أنها تبرد الماء ، وتضرم النار التي يراد اضرامها ، وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها . وبالجملية فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح ، فإنها لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وانتن العالم وفسد ، الا ترى اذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأتلف النفوس واسقم الحيوان وامرض الاصحاء وأفسد الثمار وعفن الزرع وحدث الوباء في الجو ، فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته ، كما قال النبي ﷺ في الرياح : « إنها من روح الله تأتي بالرحمة »^(١) وتنبه للطيفة في هذا الهواء وهو أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام وليس نفس الاصطكاك ، كما قال ذلك من قاله ولكنه موجب الاصطكاك ، وقرع الجسم للجسم ، أو قلعة عنده فسيبه قرع أو قلع فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم ، فلو كان اثر هذه الحركات والأصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتأ العالم منه ولعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء ، والاستبدال به أعظم من حاجاتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة فإن ما يلقي من الكلام في الهواء أضعاف ما يودع في القرطاس ، فاقتضت حكمة العزيز الحكيم ان جعل هذا الهواء قرطاسا خفيا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ، ثم يمحي بإذن ربه فيعود جديدا نقيا لا شيء فيه فيحمل ما حمل كل وقت ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهادا ومستقرا للحيوان

(١) الحديث في مسند الامام أحمد ح ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ عن أبي هريرة قال ، (حدثنا عبد الله ، حدثني أبي حدثنا

عبد الرازي حدثنا معمر عن الزهري حدثني ثابت ابن قيس ان ابا هريرة قال أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر بن الخطاب حاج فاشتدت عليهم الريح فقال عمر لمن حوله من يحدثنا عن الريح فلم يرجعوا إليه شيئا فبلغني الذي سأل عنه عمر من ذلك فاستحثت براحلي حتى ادركته فقلت يا أمير المؤمنين اخبرت انك سألت عن الريح واني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها واستعيذوا به من شرها)

والنبات والامتعة ، ويتمكن الحيوان والناس من السعى عليها فى مآربهم ، والجلوس لراحتهم والنوم لهدوئهم والتمكن من أعمالهم ، ولو كانت رجاجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوءا ، ولا ثبت لهم عليها بناء ، ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم الى ترك منازلهم والهرب منها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله (وألقى فى الأرض رواسى أن تُميد بكم ...)^(١)

وقوله تعالى: ﴿الذى جعل لكم الأرض قرارا ..﴾^(٢) وقوله: ﴿الذى جعل لكم الأرض مهدا ...﴾^(٣) وفى القراءة الأخرى مهادا .

وفى جامع الترمذى وغيره من حديث انس ابن مالك عن النبى ﷺ قال : (لما خلق الله الأرضين جعلت تميد فخلق الجبال عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا يارب هل من خلقك شئ أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد قالوا يارب هل من خلقك شئ أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب فهل من خلقك شئ أشد من النار قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شئ أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق صدقة يمينه يخفيها عن شماله)^(٤) ثم تأمل الحكمة البالغة فى ليونة الأرض مع يبسها فإنها لو أفرطت اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمكنا من الانتفاع بها ولو أفرطت فى اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها ، فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك أن تنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويتها ثم تفيض فتصب فى البحر . فكما أن البانى إذا رفع سطحاً رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبا للماء ولو جعله مستويا لقام عليه الماء فأفسده . كذلك جعل مهب الشمال فى كل بلد أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقى الماء واقفا على وجه الأرض فمنع الناس من العمل والانتفاع وقطع الطرق والمسالك واضر بالخلق ، أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذى اتقن كل شئ . ثم تأمل الحكمة العجيبة فى الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلة فى الأرض لا حاجة إليها وفيها من المنافع ما لا يحصىه إلا خالقها وناصبها ، وفى حديث اسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ : (بالذى نصب الجبال وأدع فيها المنافع الله أمرك بكذا وكذا ؟ ، قال اللهم نعم) . فمن منافعها أن

(١) سورة النحل آية ١٥

(٢) سورة غافر آية ٦٤

(٣) سورة الزخرف آية ١٠

(٤) الحديث فى مسند الامام أحمد ح ٣ ص ١٢٤ عن رواية انس بن مالك ثم انظر الحديث فى كنز العمال ح ٦ ص ٣٩٨ رقم ١٦٢٤٠ ، وانظر صحيح الترمذى ح ٥ ص ٤٢٣ أبواب تفسير القرآن - باب المعوقين رقم ٣٣٦٩ . محقيق الشيخ شاكراً .

الثلج يسقط عليها فيبقى في قلالها حاصلا لشراب الناس الى حين نفاذه ، وجعل فيها ليزوب اولا فأولا فتجىء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت في المروج والوهاد ، والربا ضروب النبات والفواكة والأدوية التي يكون مثلها في السهل والرمل ، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فأنحل جملة وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه فيضر بالناس ضررا لا يمكن تلافيه ولا دفعة لأذيته . ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع ، وهي ايضا اكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من احجارها للأبنية على اختلاف اصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد ، واضعاف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة ، وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه . ومن منافعها ايضا انها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية ، ومن منافعها انها ترد عنهم السيول اذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول في مجاريها ما مرت به ، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن ، ومن منافعها انها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة الى الطرق ، ولهذا سماها الله أعلاما فقال ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ (١) فالجوارى هي السفن وأعلام الجبال واحدا علم فسمى الجبل علما من العلامة والظهور .

ومن منافعها أيضا ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال ، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط بها إلا الخلاق العليم .

ومن منافعها أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع ، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن ، ومن منافعها ما ذكره الله تعالى في كتابه أن جعلها للأرض أوتادا تثبتها ، ورواسى بمنزل مراسى السفن ، أعظم بها من منفعة وحكمة ، هذا وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها . ولو بسطت على وجه الأرض لضيق عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والغارات والأكنان ، ولما سترت عنهم الرياح ، ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام . فكان اولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه ، ولقد دعانا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الى النظر فيها وفي كيفية خلقه

فقال ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ (١) فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته ، هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته ، وهى التى خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها واشفقت من حملها ، ومنها الجبل الذى كلم الله عليه موسى كلمته ونجيه ، ومنها الجبل الذى حجب الله رسوله وأصحابه اليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه ، ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سورا على نبيه ، وجعل الصفا فى ذيل أحدهما ، والمروة فى ذيل الآخر ، وشرع لعباده السعى بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم . ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات ، فله كم به من ذنب مغفور ، وعثرة مقالة وزلة معفو عنها ، وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة محوكة ، كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاءوا من كل فج عميق ، وقوا لربهم خاضعين لعظمته ، خاشعين لعزته ، شعنا غبرا ، حاسرين عن رؤوسهم يستقبلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنونهم ثم يباهى بهم الملائكة ، فله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام . ومنها جبل حراء الذى كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته وهو فى غاره فهو الجبل الذى فاض منه النور على أقطار العالم ، فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك ، فسبحان من أختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالا هى مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه ، فهى تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها ، كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ، ووضع له القبول فى الأرض .

وإذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلانى وجبل بنى فلان وجبل كذا

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به فى طلعة الشمس ما يغينك عن زحل

هذا وإنها لتعلم لها موعدا ويوما تنسف فيها نسفا وتصير كالعهن من هوله وعظمه فهى مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له . وكانت أم الدرداء - رضى الله عنها - إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها ، أسمعت الجبال ما وعدما ربها فيقال ما أسمعها فتقول ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ (٢) .

فهذا حال الجبال وهى الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتذكدها من جلال ربها وعظمته وقد اخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله . فياعجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب ، فليس بمستنكر على الله عز وجل ، ولا يخالف حكمته أن تخلق لها

(١) سورة الغاشية آية ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(٢) سورة طه آية ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧

نارا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجه ومواعظه ، فمن لم يلن الله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلا فإن أمامه المئين الأعظم ، وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم .

ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمال لينتفع بكل ذلك في وجهه ويحصل منه ما خلق له وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه ثم يرد إليها ما خرج منها وجعلها - سبحانه - كفاتا للأحياء ما داموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها ، فكانت كفنا لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفي بطنها أمواتا ، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول رب هذا ما استودعتني وتخرج كنوزها بإذنه تعالى ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنيتها بما عملوا على ظهرها من خير وشر .

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل في تجاويها وتحدث فيها الأبخرة وتحقق الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله - سبحانه - لها في الأحياء بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والانبابة والاقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم .

وقد قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض إن ربكم يستعيبكم وقال عمر بن الخطاب فخطبهم ووعظهم وقال : « لئن عادت لا أسكنكم فيها »

ثم تأمل حكمة الله عز وجل في عزة هذين النقيدين ، الذهب والفضة وقصور خيرة العالم عما حاولوا من صنعتها والتشبه بخلق الله إياهما مع شدة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم واجتهادهم في ذلك فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكنوا أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك لفسد أمر العالم واستفاض الذهب والفضة في الناس حتى صاروا كالسعف والفخار ، وكانت تعطل المصلحة التي وضعا لأجلها وكانت كثرتها جدا سبب تعطل الانتفاع بهما فإنه لا يبقى لهما قيمة ، ويبطل كونها قيما لنفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ، ولم يتسخر بعض لبعض اذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة ، فلو اغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بامتئانها منها في الصنائع التي لا قوام للعالم إلا بها فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما في العزة كالكبريت الأحمر الذي لا يوصل إليه فتفوت المصلحة بالكلية بل وضعهما وأنبتهما في العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمته ومصالح عباده .

وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الأنباري قال أخبرني بعض من تداول المعادن أنهم أوغلوا في طلبها إلى بعض نواحي الجبل فانتهوا إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصليا بماء غزير لا يدرك ولا حيلة في عبوره فانصرفوا إلى حيث يعملون ما يعبرون به فلما هيثوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولا عرفوا إلى أين يتوجهون فانصرفوا آيسين . ومن ثم فقد اقتضت حكمة الله عز وجل عزة هذين الجوهريين وقلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدثه الناس من الأمتعة كان

نفيسا عزيزا مادام فيه قلة وهو مرغوب فيه فإذا فشى وكثر فى أيدى الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه .

ومن هذا قول القائل : نفاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهد الناس فى العالم أهله وجيرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه .

وتأمل الحكمة البعيدة تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذله فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع وكلما استغنوا عنه كان أقل ، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده ، فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها ، فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب ، والماء ، والهواء ، والنار .

وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته ، فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق فى البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده فى أقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد .

فتأمل حكمة الله فى أن سخر له الرياح فاذا تصاعد إلى الجوا حالته سحابا أو ضبابا فأذهبت عن العالم شره واذاه ، فسل الجاحد ، من الذى دبر هذا التدبير ؟ ، وقدر هذا التقدير وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحابا ، أو ضبابا ، أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ، ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاخنق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .

ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ، ولولا ذلك لضاقت عن ساكن الانس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيتهم ومنابت ثمارهم واعشابهم . فإن قلت فما حكمة هذه القفار الخالية والفلوات الفارغة الموحشة فاعلم أن فيها معاش لا يحصيه الا الله من الوحوش والدواب وعليها ارزاقهم وفيها مطردهم ومنزلهم ، كالمدين والمساكن للانس وفيها مجاهم ومراعاهم ومصيفهم ومشتاهم ، ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب اذا احتاجوا الى الانتقال والبدو والاستبدال بالأوطان فكم من بيداء صارت قصورا وجنانا ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين فى أماكنهم لا يجدون عنها انتقالا اذا فدحهم ما يزعجهم عنها ويضطربهم إلى النقلة منها . وكذلك الماء لولا كثرته وتدفقه فى الأودية والأنهار لضاق عن حاجة الناس إليه ولغلب القوى الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان إليه من الطير والوحوش والسباع فاقتضت الحكمة أن كان بهذه الكثرة والسعة فى كل وقت . وأما النار فقد تقدم ان الحكمة اقتضت كونها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهي ةإن لم تكن مبثوثة فى كل مكان فإنها عتيدة حاصلة متى احتيج إليها ، واسعة لكل ما يحتاج إليه منها غير أنها مودعة فى أجسام جعلت معادن لها للحكمة التى تقدمت .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلوها وظرابها

وآكامها ومنخفضها ومرتفعها ولو كان ربها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع فى السفلى وكثر ، وفى ذلك فساد فاقتضت حكمته ان سقاها من فوقها فينشئ

سبحانه السحاب وهي روايا الأرمن ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقي الفحل الأنثى ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار وإذا بعدت من البحر قل مطرها وفي هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب :

شربن بماء البحر ثم ترفعت
متى لجج خضر هن نثيج
وفي الموطأ مرفوعا وهو أحد الأحاديث الأربعة المقطوعة (إذا نشأت سحابة بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة)^(١) فالله سبحانه وتعالى ينشئ الماء في السحاب انشاء تارة يقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم التي ذكرناها ولو أنه ساقه من البحر إلى الأرض جاريا على ظهورها لم يحصل عموم السقي الا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقي لأجزائها فصاعده - سبحانه - إلى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الأرض بغاية اللطف والحكمة التي لا اقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمته على الأرض .
ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو والغيم - يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام أحدهما كان فيه فساد ، فلو توالى الأمطار لأهلكت ما على الأرض ، ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزرع والخضراوات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء ، فحدثت ضروب من الأمراض ، وفسد أكثر المأكول وتقطعت المسالك والسبل ، ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضر واصطدم الهواء فيس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الأماض عسرة الزوال ، فاقترضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منها عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلاح .

ثم تأمل الحكمة الإلهية في اخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة ، فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي رتبت على تلاحقها وتتابعها ، فإن كل فصل وأوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر ، فهذا حار وهذا بارد ، وهذا معتدل وكل في فصله موافق للمصلحة ، لا يليق به غير ما خلقكم فيه . ثم انه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع اخر من العصف والخشب والورق والنور والسعف والكرب وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الأبينة والسفن والرحال والأواني وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذي يشوق الناظرين وحسن مرائى الشجر وخلقتها البديعة الشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف . ثم اذا تأملت اخراج ذلك النور البهى من نفس ذلك الحطب ثم الورق الأخضر ثم

(١) الحديث في موطأ مالك ح ١ ص ١٩٢ كتاب الاستسقاء باب الاستمطار بالنجوم وقال ابن عبد البر : هذا الحديث لا أعرفه يوجه من الوجوه ، في غير الموطأ ، إلا ما ذكره الشافعى في الأم .

اخراج تلك الثمار على اختلاف انواعها واشكالها ومقاديرها والوانها وطعومها ورائحتها ومنافعها وما يراد منها ، ثم تأمل أين كانت مستودعة فى تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم ، فهل كان فى قدرة الأب العاجز الضعيف ابراز هذا التصوير العجيب ! وهذا التقدير المحكم ! وهذه الأصباغ الفائقة ، وهذه الطعوم اللذيذة ، والروائح الطيبة ، وهذه المناظر العجيبة . فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وابرازه وترتيبه شيئاً فشيئاً ؟ وسوق الغذاء إليه فى تلك العروق اللطاف التى يكاد البصر يعجز عن ادراكها وتلك المجارى الدقاق فمن الذى تولى ذلك كله ؟ ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات ؟ وتأمل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة افواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة فى الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثمر

كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه فى مجار وطرق قد احكمت غاية الأحكام ، فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقه كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ، ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيد على قدر صاحبه ، فسل الجاحد من اعطاها هذا ، ومن هداها إليه ووضعها فيها ؟ فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وارادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة او صناعة أو حيلة أو مزاولة ؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته ! ، كما قيل :

أم كيف يجحده الجاحد
وتسكينه أبدا شاهد
تدل على أنه واحد

فواعجبا كيف يعصى الاله
ولله فى كل تحريكة
وفى كل شيء له آية

ثم تأمل اذا نصبت خيمة وفطاطا تمده من كل جانب بالاطناب ليثبت فلا يسقط ولا يتعوج هكذا تجدد النبات والشجر له عروق ممتدة فى الأرض منتشرة الى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما انتشرت اعاليه امتدت عروقه واطنابه من اسفل فى الجهات ، ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف ، وتأمل سبق الخلق الالهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفاطيط من خلقه للشجر والنبات لان عروقه اطناب لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها الفاطيط ثم يحاكى بها الشجرة .

ثم تأمل الحكمة فى خلق الورق فإنك ترى فى الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها ما يبهر الناظر ، فمنها غلاظ ممتدة فى الطول والعرض ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا معجبا لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة فى عام كامل ولا احتاجوا فيه إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فبث الخلاق العليم فى أيام قلائل من ذلك ما

يملاً الأرض سهلها وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة ، إن هي إلا إرادته النافذة في كل شيء ، وقدرته التي لا يمنع منها شيء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾^(١) ، فتأمل الحكمة في تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبتوثة في الأبدان التي توصل الغذاء إلى كل جزء منه ، وتأمل ما في العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل فهي بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد أحكمت صنعتها ومهدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق .

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها جعلت زينة للشجر وسترا ولباسا للثمرة ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها ولهذا اذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم يتفع بها ، وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فإذا ذهبت الثمرة بقي الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى اذا طفت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسى لباسا جديدا احسن منه ، فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج منه ورقة الا بإذنه ولا تسقط الا بعلمه ، ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرا آخر ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى . قال تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾^(٢) فالنجم ما ليس له ساق من النبات والشجر ما له ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده ﴿ وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾^(٣) ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابيه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط ثم تأمل حكمته سبحانه في ابداع العجم والنوى في جوف الثمرة وما في ذلك من الحكم والفوائد التي منها انه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع إليها الفساد فهو بمنزلة العظام والثمرة بمنزلة اللحم الذي يكسوه الله عز وجل العظام . ومنها ان في ذلك بقاء المادة وحفظها إذ ربما تعطلت الشجرة أو نوعها فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذي يغرس فيعود مثلها . ومنها ما في تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والأدهان والأدوية والاصباغ وضروب اخر من المصالح التي يعلمها الناس وما خفى عليهم منها أكثر ، فتأمل الحكمة في اخراجه سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحما لزيدا شهيا يتفكه به ابن آدم ، ثم تأمل هذه الحكمة البديعة في أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التي يفسدها الهواء والشمس غشاء يحفظها ، وغشاء يوارىها كالرمان والجوز واللوز ونحوه ، وأما ما لا يفسد إذا كان بارزا فجعل له أول خروجه غشاء يواريه لضعفه ولقلة صبره على الحر فإذا اشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحى للشمس والهواء كطلع النخل وغيره .

ثم تأمل خلقه الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب فإنك ترى داخل الرمانة كأمثال القلاق سحما مترا كما في نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفا رصفا ومنضودا نضدا لا تمكن الأيدي ان تنضد ، وترى الحب مقسوما أقساما وفرقا وكل قسم وفرقة منه ملفوفا بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج

(٢) سورة الرحمن آية ٦ .

(٣) سورة الاسراء آية ٤٤ .

(١) سورة يس آية ٨٢

والطفه وأدقه على غير منوال ، الا منوال كن فيكون ، ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه احسن ضم ، فتأمل هذه الحكمة البديعة فى الشحم المودع فيها فإن الحب لا يمد بعضه بعضا إذ لو مد بعضه بعضا لاختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمنه بالغذاء والدليل عليه أنك ترى أصول الحب مركزه فى ذلك الشحم ، وهذا بخلاف حب العنب فإنه استغنى عن ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حق اختها بل يجرى الغذاء فى تلك العرق مجرى واحد ثم ينقسم منه فى مجارى الحبوب كلها فينبعث منه فى كل مجرى غذاء تلك الحبة فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم انه لف ذلك الحب فى تلك الرمانة بتلك اللفائف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صونا له وحفظا وممسكا له بإذن الله وقدرته ، فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ، واللييب يكتفى ببعض ذلك . وأما من غلبت عليه الشقاوة ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾^(١) غافلون عن موضوع الدلالة فيها ، - ثم تأمل هذا الريع والنماء الذى وضعه الله فى الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما انبتت سبعمائة حبة ولو انبتت حبة واحدة مثلها لا يكون فى القلة متسع لما يرد فى الأرض من الحب وما يكفى الناس ويفوت الزارع الى ادراك زرعه فصار الزرع يريع هذا الريع ليفى بما يحتاج إليه للقوت والزراعة ، وكذلك ثمار الأشجار والنبخيل ، وكذلك ما يخرج مع الاصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه فى مآربهم خلفا فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص ، ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لاعطى اهله ما يبذرونه فيه وما يقيتهم الى استواء الزرع فاقتضت حكمة اللطيف الخبير ان اخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقيت الخارج الناس ويدخرون منه ما يزرعون .

- ثم تأمل الحكمة فى الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجا فى قشور على رؤسها أمثال الاسنة فلا يتمكن جند الطير من إفسادها والعبث فيها ، فإنه لو صادف الحب بارزا لا صوان عليه ولا وقاية تحول درنه لتمكن منه كل التمكن فأفسد وعاب وعاث واكب عليه اكلا ما استطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره للانسان فانه اولى به لأنه هو الذى كدح فيه وشقى به وكان الذى يحتاج اليه أضعاف حاجة الطير .

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى هذه الأشجار كيف تراها فى كل عام لها حمل ووضع فهي دائما فى حمل وولادة فإذا أذن لها ربها فى الحمل احتسبت الحرارة الطبيعية فى داخلها واختبأت فيها ليكون فيها حملها فى الوقت المقدر لها فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ تكوين النطف فتعمل المادة فى اجوافها عملها وتهيئها للعلوق حتى إذا آن وقت الحمل دب فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للجمل وسرى الماء فى أفنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق وما تتبختر فيه وتميس به وتفخر على العقيم فإذا ظهرت أولادها وبان للناس عملها علم حيثئذ كرمها وطيبها من لؤمها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة فى بطون امهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد فإذا تكامل الحمل وآن

وقت الفطام وتدلّت إليك إقفانها كأنما تناولك ثمرة درها فإذا قابلتها رأيت الافنان كأنها تلقاك بأولادها وتحبيك وتكرمك بهم وتقدمهم إليك حتى كأن مناولا يناولك إياهم بيده ولا سيما قطوف جنات النعيم الدانية التي يتناولها المؤمن قائما وقاعدا ومضجعا وكذلك ترى الرياحين كأنها تحبيك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا اكراما لك وعناية بأمرك وتخصيصا لك وتفضيلا على غيرك من الحيوانات فيجمل بك الاشتغال بهذه النعم عن المنعم بها ، فكيف اذا استعنت بها على معاصيه ، وصرفتها في مساخطة ، فكيف اذا جحدته وأضفتها إلى غيره كما قال سبحانه : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ (١) فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوفقه على المراد منها ما هو ؟ ولأى شيء خلق ؟ ، ولماذا هي ؟ ، وأى امر طلب منه على هذه النعم ؟ ، كما قال تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ (٢) فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده الفلاح والسعادة لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله وحدا وشكرا وطاعة ، وشهود تقصيره بل تفريطه في القليل مما يجب لله عليه والله در القائل .

قد هياك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك ان ترعى مع الهمل

- ثم تأمل الحكمة في شجر اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة ان يكون حمله ثمارا كبيرا جعل نباته منبسطا على الأرض اذ لو انتصب قائما كما ينتصب الزرع لضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولنقصت قبل ادراكها وانتهائها الى غاياتها فاقضت حكمة مبدعها وخالقها ان بسطه ومدّه على الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه الأرض فترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطا على الأرض وثماره مبنوثة حواليه كأنها حيوان قد اكتنفها اجزاؤها فهي ترضعهم ولما كان شجر اللوباء والبادنجان والباقلاء وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته انبته الله منتصبا قائما على ساقه اذ لا يلقي من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه .

- ثم تأمل كيف اقتضت الحكمة الالهية موافات اصناف الفواكه الثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقتضى لها فتوافيهم كموافات الماء للظمان فتلقاها الطبيعة بانسراح واشتياق منتظرة لقدمها كانتظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف إنما يوافي الشتاء لصادف من الناس كراهية واستقلا بوزوده مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها وكذلك لو وافى ما في ربيعها في الخريف او ما في خريفها في الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاذ ، ولهذا نجد المتأخر منها عن وقته مملولا محلول الطعم ولا يظن ان هذا لجريان العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التي لا يخل بها الحكيم الخبير .

ثم تأمل هذه النخلة التي هي احدى آيات الله ، تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك ، فإنه لما قدر أن يكون فيه أنث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإنائه ، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الاشجار بالانسان خصوصا بالمؤمن كما مثله النبي ﷺ من وجوه كثيرة . (احدها) ثبات اصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق

(١) سورة الواقعة آية ٨٢

(٢) سورة الجمعة آية ١٠

الأرض ما لها من قرار .
(الثانى) طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها ، كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل ،
فيه المنفعة لنفسه ولغيره .

(الثالث) دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفا ولا شتاء ،
كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافى ربه تعالى .
(الرابع) سهولة تناول ثمرتها وتيسره اما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها . وأما باسقتها
فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها هيئت منها المراقى والدرج الى
اعلاها ، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللثيم .
(الخامس) ان ثمرتها من أنفع ثمار العام فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة ويابسه يكون قوتا وادما
وفاكهة ، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ، ويدخل فى الأدوية والاشربة وعموم المنفعة به وبالعنب
فوق الثمار .

(السادس) من وجوه التشبيه ان النخلة اصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح
العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف افنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة ،
فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزغزه الرياح .

(السابع) ان النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من
النافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك ، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به
الفرج والخلل ، وخصوصها يتخذ منه المكائل والزناويل وأنواع الأنية والحصر وغيرها ، وليفها فيه من
المنافع ما هو معلوم عند الناس ، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة
منها صفة فى المسلم تقابلها فلما جاء الى الشوك الذى فى النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على
اعداء الله واهل الفجور ، فيكون عليهم فى الشدة والغلظة بمنزلة الشوك ، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة
الرطب حلاوة ولينا ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (١)

(الثامن) انها كلما اطال عمرها ازداد خيرها وجاء ثمرها وكذلك المؤمن اذا طال عمره ازداد خيره
وحسن عمله .

(التاسع) ان قلبها من أطيب القلوب وأحلاها وهذا امر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب
المؤمن من أطيب القلوب .

(العاشر) انها لا يتعطل نفعها بالكلية ابدا بل ان تعطلت منها منفعة ففيها منافع آخر حتى لو
تعطلت ثمارها سنة لكان للناس فى سعفها وخصوصها وليفها وكربها منافع ، وهكذا المؤمن لا يخلو عن
شيء من خصال الخير قط ان أجذب منه جانب من الخير أخصب منه جانب آخر فلا يزال خيره مأمولا
وشره مأمونا .

فتأمل خلقة الجذع الذى لها كيف هو ؟ ! تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا وأخرى

معرضة كاللحمة كنحو المنسوج باليد وذلك لتشدد وتصلب الجذع فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل ، وتصبر على هز الرياح العاصفة ولبثها في السقوف والجسور والأواني وغير ذلك مما يتخذ منها ، وهكذا سائر الخشب وغيرها إذ تأملته شبه النسيج ولا تراه مصمتا كالحجر الصلد بل ترى بعضه كأنه دخل بعضا طولا وعرضا كتداخل اجزاء اللحم بعضها في بعض فإن ذلك أمتن له وأهيا لما يراد منه . فإنه لو كان مصمتا كالحجارة لم يمكن ان يستعمل في الآلات والأبواب والأواني والامتعة والاسرة والتوايت وما اشبهها ، ومن بديع الحكمة في الخشب ان جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة الكثيرة ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤنة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم .

ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه - سبحانه - بهيمة الانعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصلحتها ويكمل انتفاع الانسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ، ثم سلبها العقول - على كبر - خلقها التي للانسان ليتم تسخيرها إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له ، فأعطيت من التميز والادراك ما يتم به مصلحتها ومصلحة من ذلت له وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الانسان وليظهر ايضا فضيلة التمييز والاختصاص .

ثم تأمل كيف قادها وذلها على كبر اجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيرها قال الله تعالى : ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ ^(١) أي مطيقين ضابطين . وقال تعالى : ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ ^(٢)

فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلا منقادا ، ولو ناخ عليه لسواه بالأرض . ثم تأمل الحكمة في خلق آلات البطش في الحيوانات من الانسان وغيره ، فالانسان لما خلق مهيبا لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطي والنشر والجمع والتفريق وضم الشيء إلى مثله ، والحيوان البهيم لما لم يتهيا لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع ، بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف مدجة ذوات برائن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا كله في أكلة اللحم من الحيوان ، وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها اظلافا تقيها خشونة الأرض اذا جالت في طلب المرعى ، وبعضها حوافر ململمة مقعرة كأخص القدم لتنطبق على الأرض وتتهيا للركوب والحمولة ولم يخلق لها برائن ولا أنيابا لان غذاءها لا يحتاج إلى ذلك ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ... ﴾ ^(٣)

(١) سورة الزخرف آية ١٢ ، ١٣

(٢) سورة يس آية ٧١ ، ٧٢

(٣) سورة النحل آية ١٨

فأعد النظر فيك وفي نفسك من الذى دبرك بالطف التدبير وانت جنين فى بطن أمك فى موضع لا يد تنالك ، ولا بصر يدركك ، ولا حيلة لك فى التماس الغذاء ، ولا فى دفع الضرر . فمن الذى أجرى اليك من دم الأم ما يغذوك ؟ كما يغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به فى أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم وقوى اديمك على مباشرة الهواء ويصرك على ملاقة الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الأيدى والتقلب على الغبراء ، هاج الطلق بأمك فأزعجك إلى الخروج أيما إزعاج إلى عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول ، والاشتمال حين وضعت نطفة وبين

هذا الدفع والطرود والاخراج وكان مبتهجا بحملك فصار يستغيث ويعج الى ربك من ثقلك فمن الذى فتح لك بابه حتى ولجت ؟ ، ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه لمح البصر لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه ، فلو تأملت حالك فى دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب ، فمن الذى أوحى إليه ان يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لا تفسد هناك ، وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليما إلى أن خرجت فريدا وحيدا ضعيفا لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال ، أحوج خلق الله واضعفهم وافقرهم ، فصرف ذلك اللبن الذى كنت تتغذى به فى بطن أمك إلى خزانتي معلقتين الطف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له فلا يزال واقفا فى طرقه ومجاريه ، حتى تستوفى ما فى الخزانة فيجرب وينساق إليك فهو بشر لا

تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها ، يسوقها اليك فى طرق لا يهتدى اليها الطواف ولا يسلكها الرجال ، فمن صفاه لك وأطاب طعمه وحسن لونه واحكم طبخه اعدل إحكام ؟ ! لا بالحر المؤذى ولا بالبارد الردى ، ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة ، بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلال ما كان فى البطن فوافاك فى أشد اوقات الحاجة إليه على حين ظمأ شديد ، وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدي المعلق كالأداة قد تدلى اليك وأقبل بدره عليك ثم جعل فى رأسه تلك الحلمة التى هى بمقدار صغر فمك فلا يضيق عنها ، ولا

تتعب بالتقامها ، ثم نقب لك فى رأسها نقبا لطيفا بحسب احتمالك ، ولم يوسعه فتخنق باللبن ، ولم يضيقه فيمتصه بكلفة ، بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة ؟ حتى تكون فى أنها ما يكون من شأنها وراحتها ومقبلها فإذا أحست منك بأدق صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنف منقادا اليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شيء وان حياتها تزداد فى حياتك ، فمن الذى وضع ذلك فى قلبها ؟ حتى إذا قوى بدنك واتسعت امعاؤك وخشنت عظامك واحتجت الى غذاء اصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليك لحمك ، وضع فى فيك آلة القطع والطحن فنصب لك أسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحن بها ، فمن الذى حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك ولطفها بها ، ثم أعطاكها أيام الكلل رحمة بك وإحسانا إليك ولطفها بك ، فلو إنك خرجت من البطن ذا سن

وناب وناجذ وضرس كيف كان حال أمك بك ، ولو أنك فعلتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التي لا تسبغها إلا بعد تقطيعها وطحنها ، وكلما ازدادت قوة وحاجة إلى الأسنان في أكل الأطعمة المختلفة زيد لك في تلك الآلات حتى تنتهي إلى النواجذ فتطبق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب ، ثم اذا ازدادت قوة زيد لك فيها حتى تنتهي إلى الطواحين التي هي آخر الاضراس فمن الذي ساعدك بهذه الآلات وانجذك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء ؟ ثم انه اقتضت ان أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئا بل غبيا لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل ولا الفهم والمعرفة ، بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئا فشيئا ، فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل يصادفك يسيرا يسيرا حتى يتكامل فيك ، فاعتبر ذلك ، وكان دخولك هذا العالم وانت غبي لا تعقل شيئا ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير ، فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئا فشيئا حتى تألف الأشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير والافتقار لها ، وفي ذلك وجوه آخر من الحكمة غير ما ذكرناه ، فمن هذا الذي هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شيء من المنافع والآداب والآلات في وقت حاجتك ؟ ، لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ، ثم انه اعطاك الأظفار وقت حاجتك إليها لمنافع شتى فإنها تعين الأصابع وتقويها فإن أكثر العمل لما كان برءوس الأصابع وعليها الاعتماد أعينت بالظافر قوة لها مع ما فيها من منفعة حك الجسم وقشط الأذى الذي لا يخرج اللحم عنه إلى غير ذلك من فوائدها ، ثم جعلك بالشعر على الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد ، اذ هو مجمع الحواس ومعدن الفكر والذكر وثمره العقل تنتهي إليه ثم خص الذكر بان جمل وجهه باللحية وتوابعها وقارا وهيبة له وجمالا وفصلا له عن سن الصبا ، وفرقا بينه وبين الاناث ، وبقيت الأنثى على حالها لما خلقت من استمتاع الذكر بها فبقى وجهها على حاله ونضارته ليكون اهيج للرجل على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع ، فالماء واحد والجوهر واحد والوعاء واحد واللقاح واحد ، فمن الذي اعطى الذكر الذكورية والأنثى الأنوثة ؟ إنه ذلك المرسوم الألهي الذي يلقيه إلى ملك التصوير حين يقول : يارب ذكر أم أنثى ؟ شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيوحى ربك ما يشاء ويكتب الملك ﷻ ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴿١﴾ فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال ، احدها من تلد الأنثى فقط . الثانية من تلد الذكر فقط . الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى ، وهو معنى التزويج هنا أن يجعل ما يهب له من زوجين ذكرا وأنثى الرابعة العقيم التي لا تلد أصلا .

وانظر كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعا على وفق الحكمة فجعلت في حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المني إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئا فهو يمد يده إليه حتى يوصله إياه ولأنه يحتاج إلى أن يقذف ماءه في قعر الرحم ، وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوفا لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشمل عليه فأعطيت آلة تليق بها ، ثم لما كان ماء الرجل ينحدر من اجزاء

الجسد رقيقا ضعيفا لا يخلق منه الولد جعل له الانثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم انضاجه ليشدد وينعقد ويصير قابلا لأن يكون مبدأ التخليق ، ولم تحتج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائها ولطافته إذا مازج ما الرجل غلظ وشدته قوى به واستحكم ، ولو كان الماءان رقيقان ضعيفان لم يتكون الولد منها وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبخ الماء وانضاجه فيها ، ومنها أن ماءها لا يخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها إلى محله . وفيها أنها لما كانت محلا للجماع أعطيت من الآلة ما يليق بها ، فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والاستمتاع ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقه . . كل منها عليه .

فارجع الى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك ، وتأمل أعضائك وتقدير كل عضو منها للأرب والمنفعة المهيأ لها ، فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والاعطاء والمحاربة والدفع ، والرجلان لحمل البدن والسعى والركوب وانتصاب القامة ، والعينان للاهتمام والجمال والزينة والملاحاة ورؤية ما فى السموات والأرض وآياتها وعجائبها ، والفم للغذاء والكلام والجمال وغير ذلك ، والأنف للنفس وإخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه ، واللسان للبيان والترجمة عنك ، والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك ، واللسان يبلغ عنك ، والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه اصلاحا آخر وطبخا آخر غير الاصلاح والطبخ الذى توليته من الخارج فأنت تعاني انضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن انه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وانضاج آخر ، وطباخة الداخل ومنضجه يعاني من نضجه وطبخه ما لا تهتدى إليه ولا تقدر عليه ، فهو يوقد عليه نيرانا تذيب الحصى وتذيب ما لا تذيبه النار وهى فى اللطف موضع منك لا تحرقك ولا تلتهب وهى أشد حرارة من النار والا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جدا حتى يجعلها ماء ذائبا ، وجعل الكبد للتخليص واخذ صفوة الغذاء والطفه ، ثم رتب منها مجارى وطرقا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر ، وجعل المنازل والأبواب لادخال ما ينفعك وإخراج ما يضرك . وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك ، فهذه خزانة للطعام ، وهذه خزانة للحرارة ، وهذه خزانة للدم ، وجعل منها خزائن مؤديات لثلاث تختلط بالخزائن الأخرى ، فجعل خزائن للمرارة السوداء ، وأخرى للمرارة الصفراء ، وأخرى للبول ، وأخرى للمنى . فتأمل حال الطعام فى وصوله إلى المعدة وكيف يسرى منها إلى البدن فإنه اذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتجميد صنعته ثم تبعثه الى الكبد فى مجار دقائق ، وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجارى غشاء رقيقا كالمنسفاة الضيقة الأنجاش تصفيه فلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكوها لأن الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ فإذا قبلته الكبد انفذته إلى البدن كله فى مجار مهياة له بمنزلة المجارى المعدة للماء ليسلك فى الأرض فيعمها بالسقى ، ثم يبعث ما بقى من الخبث والفضول إلى مقابض ومصارف قد اعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة . فمن ذا الذى تولى ذلك كله واحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير ؟ ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ (١) .

فأعد النظر في نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير في تركيب البدن ووضع هذه الاعضاء مواضعها منه واعدادها لما أعدت له واعداد هذه الاوعية المعدة لحمل الفضلات وحجمها لكيلا تنتشر في البدن فتفسده ، ثم تأمل الحكمة البالغة في تنميتك وكثرة اجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل ، ولو أن صانعا اخذ تمثالا من ذهب او فضة او نحاس فأراد ان يجعله اكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك الا بعد ان يكسره ويصوغه صياغة اخرى ؟ والرب تبارك وتعالى ينمى جسم الطفل واعضائه الظاهرة والباطنة وجميع اجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيبته لا يتزائل ولا ينفك ولا ينقص .

وأعجب من هذا كله تصويره في الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدي ولا تصل إليه الآلات فيخرج بشرا سويا مستوفيا لكل ما فيه مصلحته وقوامه من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع ، إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ ، وما في ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفى الحكمة وبديع الصنعة ، كل هذا صنع الله أحسن الخالقين .

فأعد النظر في نفسك وحكمة الخلاق العليم في خلقك وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الاشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ، ولم تجعل في الأعضاء التي تمتهن كاليدين والرجلين فتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات ، ولا جعلها في الاعضاء التي وسط البدن كال البطن والظهر فيعسر عليك الالتفات والاطلاع على الاشياء . فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس البق الموضع بها وأجملها ، فالرأس صومعة الحواس ثم تأمل الحكمة في ان جعل الحواس خمسا في مقابلة المحسوسات الخمس فجعل البصر في مقابلة المبصرات ، والسمع في مقابلة الأصوات ، والشم في مقابلة انواع الروائح المختلفة ، والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات ، واللمس في مقابلة الملموسات ، فأى محسوس بقى بلا حاسة ؟ ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ، ولما كان ما عداها انما يدرك بالباطن اعطاك الحواس الباطنة وهي هذه الخماس التي جرت عليها السنة العامة والخاصة حيث يقولون : المفكر المتأمل ضرب أخماسه في اسداسه فأخماسه حواسه الخمس واسداسه جهاته الست وارادوا بذلك نه جذبه القلب وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس في جهاته الست وضربها فيها لشدة فكره .

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات اخرى منفصلة عنها تكون واسعة في إحساسها ، فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولا لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئا ، وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الاصوات في الجو يلقيها إلى الأذن فتحويه ثم تنقله إلى القوة السامعه ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئا ، وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئا ، وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ، ولهذا لم يكن له طعم ولا حامض ولا مالح ولا حريف لأنه يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده واعنى حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج إلى شيء من خارج بخلاف غيرها من الحواس ، بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملاسة فلم تحتج إلى واسطة .

ثم تأمل حال عدم البصر وما يناله من الخلل فى أمور فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ، ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهاى له الاعتبار والنظر فى عجائب ملك الله ، هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوى فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له ولا بعدو يهوى نحوه ليقتله ، ولا يتمكن من هرب إن طلب بل هو ملق السلم لمن رame بأذى ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه اقرب من سلامته . ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة ، ومن كمال لطفه ان عكس نور بصره إلى بصيرته فهوى اقوى الناس بصيرة وحذا وجمع عليه همه فقلبه مجموع عليه غير مشتت ليهنا له العيش وتتم مصلحته ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف ، فأما من أصيب بعينه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المتقلين من العافية الى البلية فالمحنة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما افه من المرائى والصور ووجوه الانتفاع ببصره

فهذا له حكم آخر . وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس فى خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئا من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب ، وحى كميث ، وقريب كبعيد ، وقد اختلف النظار فى أيهما اقرب إلى الكمال وأقل اختلالا لأموره الضرير أو الأطروش والذي يليق بهذا الموضع - أن يقال عادم البصر أشدهما ضررا وأسلمهما دينا واحدهما عاقبة ، وعادم السمع أقلهما ضررا فى دنياء وأجلهما بدنيه واسوأ عاقبة فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وافسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التى يدرکہا البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها ، فضرره فى دينه أكثر ، وضرر الأعمى فى دنياء أكثر ، ولهذا لم يكن فى الصحابة أطروش وكان فيهم جماعة أضراء وقل ان يبتلى الله أوليائه بالطرش ويبتلى كثيرا منهم بالأعمى فهذا فصل الخطاب فى هذه المسألة . فمضرة الطرش فى الدين ، ومضرة العمى فى الدنيا ، والمعافى من عافاه الله منها ومتعه بسمعه وبصره وجعلها الوارثين منه .

ثم تأمل حكمته فى الأعضاء التى خلقت فيك أحادا ومثنى وثلاث ورباع وما فى ذلك من الحكم البالغة ، فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منها واحدا فقط اذ لا مصلحة فى كونه أكثر من ذلك الا ترى انه لو اضيف إلى الرأس رأس آخر لأثقل بدنه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التى يحتاج إليها مجتمعة فى رأس واحد ، ثم إن الانسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم من احدهما وسمع به وابصر وشم وذاق بقى الآخر معطلا لا أرب فيه وإن تكلم وابصر وسمع بهما معا كلاما واحدا وسمعا واحدا وبصرا واحدا كان الآخر فضلة لا فائدة فيه ، وإن اختلف إدراكهما اختلفت عليه أحواله وإدراكاته وكذلك لو كان له لسانان فى فم واحد فإن تكلم بهما كلاما واحدا كان أحدهما ضائعا ، وإن تكلم بأحدهما دون الآخر فكذلك وإن تكلم بهما معا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأى الكلامين يأخذ . وهذا بخلاف الأعضاء التى خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفيتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والثديين فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بينة والجمال والزينة عليها بادية ، فلو كان الانسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها وكذلك الحاجبان وأما اليدان

والرجلان والساقان والفخذان فتعددهما ضروري للانسان لا تتم مصلحته الا بذلك ، الا ترى من قطعت احدى يديه او رجله كيف تبقى حاله وعجزه فاقتضت الحكمة ان اعطى من هذا الضرب من الجوارح اثنين اثنين . وكذلك اعطى شفتين لأنه لا تكمل مصلحته الا بهما ، وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومر الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك ، وأما الأعضاء الثلاثة فهي جوانب انفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم ، وأما الأعضاء الرباعية فالكعاب الأربعة التي هي مجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحركتهما وفيهما منافع الساقين ، وكذلك أجفان العينين ، فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء العينين ، ووقاية لهما ، وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم فاقتضت الحكمة البالغة أن جعلت الأعضاء على ما هي عليه من العدد والشكل والهيئة ، فلو زادت أو نقصت لكان نقصا في الخلقة ، ولهذا يوجد في النوع الانساني من زائد في الخلقة ونقص منها ما يدل على حكمة الرب تعالى ، وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا ، وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه ، وأنه خلق خلقا سويا معتدلا لم يزد في خلقه مالا يحتاج إليه ولم ينقص منه ما يحتاج إليه ، كما يراه في غيره ، فهو أجدر أن يزداد شكرا وحما لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه وأنه يخلق ما يشاء .

الحنجرة حتى ينتهي إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات أجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل في النوع الانساني بين صورهم فقل أن يرى اثنان متشابهان من كل وجه ، وذلك من اندر ما في العالم ، بخلاف أصناف الحيوان كالنعم والوحوش والطيور وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الطباء والثلة من الغنم والذود من الأبل والصوار من البقر تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر الا بعد طول تأمل ، أو بعلامة ظاهرة ، والناس مختلفة صورهم وخلقتهم فلا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة وخلقة واحدة ، بل ولا صوت واحد وحنجرة واحدة ، والحكمة البالغة في ذلك ان الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم لما يجرى من المعاملات ، فلولا الفرق والاختلاف في الصور لفست أحوالهم ، وتشتت نظامهم ، ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ، ولا المدين من رب الدين ، ولا البائع من المشتري ، ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها للاختلاط ، ولا هي تعرف بعلمها من غيره ، وفي هذا أعظم الفساد والخلل ، فمن الذي ميز بين حلاهم وصورهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لا تنالها العبارة ولا يدركها الوصف ؟ ! فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة وهل في الطبيعة اقتضاء هذا الاختلاف والافتراق في النوع ؟ ! وأين قول الطبائعين ان فعلها متشابه لأنها واحدة في نفسها لا تفعل بإرادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها ؟ ! فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا ؟ ! ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، وربما وقع في النوع الانساني تشابه بين اثنين لا يكاد يميز بينهما لتعظم عليهم المؤنة في معاملتهما وتشتد الحاجة إلى تمييز المستحق منها والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق ، وإذا كان هذا يعرض في التشابه في الأسماء كثيرا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقي ، فما الظن لو وضع التشابه في الخلقة والصورة ؟ ! ولما كان الحيوان البهيم والطيور والوحوش لا يضرها هذا التشابه شيئا لم

تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها فتبارك الله أحسن الخالقين الذى وسعت حكمته كل شىء ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل إذا ادركا اشتراكا فى نبات العانة ، ثم ينفرد الرجل عن المرأة باللحية ، فإن الله عز وجل لما جعل الرجل قريبا على المرأة وجعلها كالخول له والعانى فى يديه ميزه عليها بما فيه ، له من المهابة والعز والوقار والجلالة لكماله وحاجته إلى ذلك ، ومنعتها المرأة لكمال الاستمتاع بها والتلذذ لتبقى نضارة وجهها وحسنه لا يشينه الشعر واشتركا فى سائر الشعور والحكمة والمنفعة التى فيها .

ثم تأمل فى هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجد الحكمة بالباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف فيستهلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفيتين والاسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات أجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبین منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة حتى ينتهى إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفا يدور عليها الكلام كل أمره ونهيه وخبره واستخباره ونظمه ونثره وخطبه ومواعظه وفضوله ، فمنه المضحك ، ومنه المبكى ، ومنه المؤيس ، ومنه المطمع ومنه المخوف ، ومنه المرجى المسلى ، والمحزن ، والقابض للنفس والجوارح ، والمنشط لها ، والذى يسقم الصحيح ويرى السقيم ، ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم ، ومنه ما يستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء ، وتستمال به القلوب ، ويؤلف به بين المتباغضين ، ويوالى به بين المتعادين ، ومنه ما هو بضد ذلك ، ومنه الكلمة التى لا يلقى لها صاحبها بالا يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب ، والكلمة التى لا يلقى لها بالا صاحبها يركض بها فى أعلى عليين فى جوار رب العالمين ، فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لا يدري ما يراد به ، ولا أين ينتهى ولا أين مستقره ، هذا إلى ما فى ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التى لا يحصيها إلا الله ، فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلغته فتسمع لغات مختلفة وكلاما منتظما مؤلفا ولا يدري كل منهم ما يقول الآخر واللسان الذى هو جارية واحدة فى الشكل والمنظر ، وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت ، فالآية فى ذلك كالأية فى الأرض التى تسقى بماء واحد وتخرج من ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار ، تلك الأنواع المختلفة المتباينة ، ولهذا أخبر الله سبحانه فى كتابه ان فى كل منها آيات ، قال : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ (١) وقال : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ﴾ (٢) الآية فانظر الآية فى الحنجرة كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت ، واللسان ، والشفتان ، والاسنان لصياغة الحروف والنغمات ، الا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان ، ومن سقطت شفته كيف لم يقم الراء واللام ، ومن عرضت له آفة فى حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية . وقد شبه أصحاب التشرريح

(١) سورة الروم آية ٢٢

(٢) سورة الرعد آية ٤

مخرج الصوت بالمزمار ، والرثة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه ، والعضلات التى تقبض على الرثة ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التى تقبض على الزق حتى يخرج الهواء فى القصب والشفيتين والاسنان التى تصوغ الصوت حروفا ونغما بالأصابع التى تختلف على المزمار فتصوغه الحانا . والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأبخاش التى فى القصبة حتى قيل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذلك من الإنسان فإذا تعجبت من الصناعة التى تعملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التى أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ويابعد ما بينهما ، ولكن المؤلف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب ، فإذا رأت مالا نسبة له إليه أصلا إلا أنه غريب عندها تلقتة بالتعجب وتسبيح الرب - تعالى - وعندها من آياته العجيبة الباهرة ما هو أعظم من ذلك مما لا يدركه القياس .

ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلق والألسنة والشفة والأسنان ، فمن الذى ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم . وفى هذه الآلات ما رُب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام ففى الحنجرة مسالك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع ، وفى اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتذكر لذتها ويميز به بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها ، وفيه مع ذلك معونة على إساعة الطعام وأن يلوكة ويقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق ، وفى الأسنان من المنافع ما هو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم ، وفيها إسناد الشفتين وإمساكها عن الاسترخاء وتشويه الصورة ، ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخى شفتاه ، وفى الشفتين منافع عديدة يرشف بهما الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر ، فلا يشرق به الشارب ثم هما باب مغلق على الفم الذى ينتهى إليه ما يخرج من الجوف ، ومنه يتبدى ما يلج فيه ، فهما غطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ، ويغلقهما إذا شاء ، وهما أيضا جمال وزينة للوجه ، وفيهما منافع أخرى سوى ذلك ، وانظر إلى من سقطت شفتاه ما أشوه منظره . وقد بان أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى ، هذا ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت العجب العجائب وتكشفت لك عن تركيب يحار فيه العقل ، قد لف بحجب وأغشية بعضها فوق بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الاضطراب ، ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة التى تصل إليه فتلقاها تلك البيضة عنه بمنزلة الخوذة التى على رأس المحارب ، ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذى هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات ، ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبرد والأذى وجمالا وزينة له ، فسل المعطل من الذى حصن الدماغ هذا التحصين ؟ ! وقدره هذا التقدير ؟ !

وجعله خزانة أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ما أودعه ، ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها أتم تحصين ، وصانها أعظم صيانة ، وجعلها معدن الخواص والإدراكات ، ومن الذى جعل الأجفان على العينين كالغشاء والأشعار كالأشراج والأهداب كالرفوف عليها إذا أفتحت ؟ ! ومن الذى ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبعا ؟ ! ، وجعل لكل طبقة منفعة

وفائدة ؟ ! ، فلو اختلت طبقة منها لاختل البصر ، ومن شقهما فى الوجه أحسن شق ؟ ! وأعطاهما أحسن شكل ؟ ! وأودع الملاحه فيهما وجعلهما مرآة للقلب وطلية وحارسا البدن ؟ ! ، ورائدا يرسله كالجند فى مهماته ، فلا يتعب ولا يعيا على كثرة ظعنه وطول سفره ، ومن أودع النور الباصر فيه فى قدر جرم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب من داخل سبع طبقات ؟ ! ، وجعلهما فى أعلا الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العالية ربيثة للبدن ! ، ومن حجب الملك فى الصدر وأجلسه هناك على كرسى المملكة ، وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة فى خدمته وذللها له ؟ ! ، فهى مؤتمرة إذا أمرها منتهية إذا نهاها سامعة له مطيعة تكدح وتسعى فى مرضاته فلا تستطيع منه خلاصا ولا خروجا عن أمره ، فمنها رسوله ، ومنها بريده ، ومنها ترجمانه ، ومنها أعوانه ، وكل منها على عمل لا يتعداه ولا يتصرف فى غير عمله حتى إذا أراد الراحة أو عز إليها بالهدوء والسكون ليأخذ الملك راحته ، فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائبة لا تفر ، فلو شاهدته فى محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر فى خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنا عجيبا ، فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التى لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار قال تعالى : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ^(١) فدعا عباده إلى التفكير فى أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم نوسع الكلام فى هذا الباب ولا أطلنا النفس إلى هذه الغاية ، ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانا فكم دون القلب من حرس ، وكم له من خادم ، وكم له من عبيد ولا يشعر به ، والله ما خلق له وهيا له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب ، فإما على سرير الملك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه ، وإما أسير فى السجن الأعظم بين أطباق النيران فى العذاب الأليم ، فلو عقل هذا السلطان ماهيئ له لضمن بملكه ولسعى فى الملك الذى لا ينقطع ولا يبيد، ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

* ومن جعل فى الحلق منفذين ؟ ! ، أحدهما للصوت والنفس الواصل الى الرئة ، والآخر للطعام والشراب وهو المرئى الواصل إلى المعدة ، وجعل بينهما حاجزا يمنع عبور أحدهما فى طريق الآخر ، فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان ، ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لاتئن ولا تفر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك . ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجا تقبضها لكيلا تجرى جريا دائما فتفسد على الإنسان عيشه ، ويمنع الناس مجالسة بعضهم بعضا . ومن جعل المعدة كأشد مايكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وانضاجها فلو كانت لحما غضا لانطبخت هى ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولا تنهكها النار التى تحتها ،

ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة ؟ ! ، لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو اللطف من عمل المعدة . ومن حصن المخ اللطيف الرقيق فى أنابيب صلبة من العظام ليحفظها

ويصونها فلا تفسد ولا تذوب ؟ ! ، ومن جعل الدم السيلال محبوسا محصورا في العروق بمنزلة الماء في الوعاء ليضبط فلا يجري ؟ ! ، ومن جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقاية لها وصيانة من الأعمال والصناعات ؟ ! ، ومن جعل داخل الأذن مستويا كهيئة الكوكب ليترد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع الداخل. وقد انكسرت حدة الهواء فلا يتكواه وليعذر على الهولم النفوذ إليها قبل أن يمسك وليمسك ما عساه أن يغشاه من الوسخ ولغير ذلك من الحكم . ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الأعضاء ليقبها من الأرض ؟ ! ، فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل . ومن جعل ماء العينين ملحا يحفظها من الذوبان ؟ وماء الأذن مرا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض ، وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها طعم غيرها ، ومن جعل باب الخلاء في الإنسان في أستر موضع ؟ ! ، كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلي في أستر موضع في الدار ، وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان في أستر موضع ليس بارزا من خلفه ولا ناشزا بين يديه بل مغيب في موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متواريا ، فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج للأرض . ومن جعل الأسنان حدادا لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضا لرضه وطحنه ، ومن سلب الإحساس الحيواني الشعور والأظفار التي في الأدمى لأنها قد تطول وتمتد ، وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها فلو أعطاها الحس لآلمته وشق عليه أخذ ماشاء منها ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها في إحدى البليتين إما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه وإما مقاساة الألم والوجع عند أخذها ومن جعل باطن الكف غير قابل لانبات الشعر ؟ ! ، لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللمس ولشق عليه كثير من الأعمال التي تباشر بالكف . وهذه الحكمة لم يكن هن الرجل قابلا لانباته لأنه يمنعه من الجماع . ولما كانت المادة تقتضي انباته هناك نبت حول هن الرجل والمرأة ، وهذه الحكمة سلب عن الشفتين ، وكذا باطن الفم ، وكذا أيضا القدم أخصها وظاهرها لأنها تلاقى التراب والوسخ والطين والشوك ، فلو كان هناك شعر لأذى الإنسان جدا وحمل من الأرض كل وقت ما يثقل الإنسان ، وليس هذا للإنسان وحده ، بل ترى البهائم قد جللها الشعر كلها وأخلت هذه المواضع منه لهذه الحكمة ، أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة ؟ ! ، وجاءت بكل صواب ، وكل منفعة ، وكل مصلحة ، ولما اجتهد الطاعنون في الحكمة العائبون للخلقة فيما يطعنون به ، عابوا الشعور تحت الأباط ، وشعر العانة ، وشعر باطن الأنف ، وشعر الركبتين ، وقالوا أي حكمة فيها وأي فائدة وهذا من فرط جهلهم ، فإن الحكمة لا يجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر ولا أكثرها ، بل لانسبة لما علموه إلى ما جهلوه فيها لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى في خلقه وأمره إلى ما خفى عنهم منها كانت كنقرة عصفور في البحر وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على ما لا يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيما علمه بل أعظم وأدق ،

وما مثل هؤلاء الحمقى إلا كمثل رجل لا علم له بدقائق الصنائع والعلوم من البناء والهندسة والطب بل والحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها في شيء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعاتهم فخفيت عليه ، فجعل كلما خفى عليه منها شيء ، قال هذا لافائدة فيه ،

وأى حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم فى صنائعهم ويفوقهم فيها ، فما الظن بمن بهرت حكمته القول الذى لا يشاركه مشارك فى حكمته كما لا يشاركه فى خلقه ، فلا شريك له بوجه ، فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله ، أو يجعل عقله عيارا عليها ، فما أدركه أقر به وما لم يدركه نفاه ، فهو من أجهل الجاهلين والله فى كل ما خفى على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لاتدفع ولا تنكر . فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة ما اقتضت الطبيعة إخراج هذه الشعور عليها ، ألا ترى أن العشب ينبت فى مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة ولهذا كانت هذه المواضع من أرطب مواضع البدن ، وهى أقبل لنبات الشعر وأهيا ، فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات إلى خارج فصارت شعرا ولو حبست فى داخل البدن لأضرته وأذت باطنه ، فخروجها عين مصلحة الحيوان ، واحتباسها إنما يكون لنقص وآفة فيه ، وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فإنه عين مصلحتها وكما لها ، ولهذا يكون احتباسه لفساد الطبيعة ونقص فيها . ألا ترى أن من احتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إيبانه كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخلقة ضعيف التركيب ، فإذا شاهدت ذلك فى الشعر الذى عرفت بعض حكمته فمالك لاتعتبره فى الشعر الذى خفيت عليك حكمته . ومن جعل الريق يجرى دائما فى الفم لا ينقطع عنه ؟ ! ، ليبل الحلق واللهاوت ويسهل الكلام ويسخى الطعام . قال بقراط : الرطوبة فى الفم مطية الغذاء ، فتأمل حالك عندما يجف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التى لا يستغنى عنه .

ثم تأمل حكمة الله تعالى فى كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة . فإن الأطباء والطبائعين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا فى أدمغة الأطفال رطوبة لو بقت فى أدمغتهم لأحدثت أحداثا عظيمة ، فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتنصح . وأيضا فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجارى النفس ويفتح العروق ويصلبها ويقوى الأعصاب ، وكم للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه ، فإذا كانت هذه الحكمة فى البكاء الذى سببه ورود الألم المؤذى وأنت لاتعرفها ولا تكاد تخطر ببالك فهكذا إيلام الأطفال فيه وفى أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما قد خفى على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام فى حكمه اضطراب الأرشية وسلوكوا فى هذا الباب مسالك . فقالت طائفة ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة ، وكلما سئلوا عن شيء أجابوا بلائسأل عما يفعل . وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفى حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبة منها ، وإنما المراد بالآية إفراجه بالإلهية والربوبية وأنه لكمال حكمته لامعقب لحكمه ولا يعترض عليه بالسؤال لأنه لا يفعل شيئا سدى ولا خلق شيئا عبثا وإنما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة ، ألا ترى إلى قوله :

﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ ^(١) كيف ساق الآية فى الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لاتساويه فسواها به مع أعظم الفرق فقوله لا يسأل عما يفعل إثبات لحقيقة الإلهية وإفراجه له بالربوبية

والإلهية ، وقوله: وهم يستلون ، ففي صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية فإنها مسئولة مربوبة مدبرة ، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرق ؟ فهذا الذي سبق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا في إنكار حكمته وتعليل أفعاله بآياتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب . وقالت طائفة الحكمة في ابتلائهم تعويضهم في الآخرة بالثواب التام، فقل لهم قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلاء. فأجابوا بأن توسط الإيلاء في حقهم كتوسط التكاليف في حق المكلفين، فقل لهم فهذا ينتقض عليكم بإيلاء أطفال الكفار ؟ فأجابوا بأننا لانقول إنهم في النار كما قاله من قاله من الناس ، والنار لا يدخلها أحد إلا بذنب وهؤلاء لا ذنب لهم ، وكذا الكلام معهم في مسألة الأطفال والحجاج فيها من الجانبين بما ليس هذا موضعه فإن هذا لاتعويض فيه قطعا ، ولا هو عقوبة على الكفر ، فإن العقوبة لاتكون سلفا وتعجيلا فحاروا في هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل . وقالت طائفة ثالثة هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وإن تكلف الجواب عنه مالا يلزم فإن هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التي لم يخلق منفكا عنها فهي كالحرق والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم والضعف والعجز ، فالسؤال عن حكم الحاجة إلى الأكل عند الجوع ، والحاجة إلى الشرب عند الظم ، وإلى النوم والراحة عند التعب ، فإن هذه الآلام هي من لوازم النشأة الإنسانية التي لا ينفك عنها الإنسان ولا الحيوان ، فلو تجرد عنها لم يكن إنسانا بل كان ملكا أو خلقا آخر ، وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين . ولكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم ، وكم بين ما يقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل ، وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة ، فلو لم يخلق كذلك لكان خلقا آخر ، فيرى أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير فيأيلامه بغير ذلك من الأوجاع والأسقام كيأيلامه بالجوع والعطش والبرد والحرق ودون ذلك أو فوقه وما خلق الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة .

قالوا : فإن سأل سائل وقال فلم يخلق كذلك ؟ وهلا خلق خلقة غير قابلة للألم ؟ فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه في عالم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة فهي عرضة للآفات ، وركبه تركيبا معرضا للأنواع من الآلام وجعل فيه الأخلاط الأربعة التي لا قوام له إلا بها ولا يكون إلا عليها ، وهي لا محالة توجب امتزاجا واختلاطا وتفاعلا يبغي بعضها على بعض بكيفيته تارة ، ويكميته تارة ، وبها تارة ، وذلك موجب للآلام قطعا ووجود الملزوم بدون لازمه محال ، ثم إنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته الدائبة وسعيه في طلب ما يصلحه ودفع ما يضره بنفسه تارة وبمن يعنيه تارة، فأحوج النوع بعضه إلى بعض ، فحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبغى بعضهم على بعض ، فحدث من ذلك الآلام والشور بنحو ما يحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها وبغى بعضها على بعض . والآلام لا تختلف عن هذا الامتزاج أبدا إلا في دار البقاء والنعيم المقيم لا في دار الابتلاء والامتحان ، فمن ظن أن الحكمة في أن تجعل خصائص تلك الدار في هذه فقد ظن باطلا، بل الحكمة التامة البالغة اقتضت أن تكون هذه الدار ممزوجة عافيتها ببلائها ، وراحتها بعنائها ، ولذتها بآلامها وصحتها بسقمها، وفرحها بغمها، فهي دار ابتلاء تدفع بعض آفاتا ببعض كما قال القائل :

أصبحت في دار بليات * * أدفع آفات بآفات

ولقد صدق ، فإنك إذا فكرت فى الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر ما يستلذ به رأيتَه يدفع بها ما قبله من الآلام والبليات ، أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع ، وبالشرب ألم العطش ، وباللباس ألم الحر والبرد ، وكذا سائرهما ، ومن هنا قال بعض العقلاء :

إن لذاتها لنا هى دفع الآلام لا غير ، فأما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحل آخر غير هذا فوجود هذه الآلام واللذات الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد وإن الحكمة التى اقتضت ذلك هى أولى باقتضاء دارين دار خاصة للذات لا يشوبها ألم ، ودار خالصة للآلام لا يشوبها لذة ما ، والدار الأولى الجنة والدار الثانية النار ، أفلا ترى كيف ذلك على ما أنت مجبول عليه فى هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار ، ورأيت شواهدهما وأدلة فى وجودهما من نفسك حتى كأنك تعانيتها عيانا وانظر كيف دل العيان والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار ، فتأمل كيف قاد النظر فى حكمة الله إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله وما أخبروا به تفصيلا يدل عليه العقل مجملا ، فأين هذا من مقام من أداة عمله إلى المعارضة بين ما جاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلتها ، ولكن تلك العقول كادها باريها ووكّلها إلى أنفسها فجعلت بها عساكر الخذلان من كل جانب . فارجع الآن إلى نفسك وفكر فى هذه الأفعال الطبيعية التى جعلت فى الإنسان وما فيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها فى الطبع المجرد والداعى الذى يقتضيه ويستحثه ، فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته ، والكرى يقتضى النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن ، والأعضاء وإجماع القوى وعودتها إلى قوتها جديدة غير كالة ، والشبق يقتضى الجماع الذى به دوام النسل ، وقضاء الوطر وتام اللذة ، فتجد هذه الدواعى تستحث الإنسان هذه الأمور ، وتتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة ، فإنه لو كان الإنسان إنما يستدعى هذه المستحثات إذا أراد لأوشك أن يشتغل عنها بما يعرفه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويتراعى إلى الفساد وهو لا يشعر ، كما إذا احتاج بدنه إلى شيء من الدواء والصلاح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحكم به الداء أهلكه ، فاقضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزه أزا إلى ما فيه قوامه ويقاؤه ومصلحته ، وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه . ثم انظر إلى ما يعطيه من القوى المختلفة التى بها قوامه فأعطى القوة الجاذبية الطالبة المستحثة التى تقتضى معلوما من الغذاء فتأخذه ويورده على الأعضاء بحسب قبولها ، ثم أعطى القوة المسكة التى تمسك الطعام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبخه وتهبى لمصارفه وتبعثه لمستحقه . ثم أعطى القوة الهاضمة التى تصرفه فى البدن وتهضمه عن المعدة . ثم أعطى القوة الدافعة وهى التى تدفع ثقله ومالا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لئلا يؤذيه وينهكه ، فمن أعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك إليها ؟ ! ، ومن جعلها خادما لك ؟ ! ، ومن أعطاهما أفعالها واستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر ؟ ! ، ومن ألف بينها على تباينها حتى اجتمعت فى شخص واحد ؟ ومحل واحد ؟ ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضها ، فمن كان يحول بينه وبين ذلك ، فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركا لطلب الغذاء الذى به قوام البدن ؟ ، ولولا المسكة كيف كان الطعام يذهب فى الجوف حتى تهضمه المعدة ؟ ، ولولا الهاضمة

كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماقه ؟ ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذى القاتل لو انحس يخرج أولا بأول ؟ فيستريح البدن فيخف وينشط ، فتأمل كيف وكلت هذه القوة بك والقيام بمصالحك ، فالبدن كدار للملك فيها حشمه وخدمه ، قد وكل بتلك الدار أقواما يقومون بمصالحها ، فبعضهم لاقتضاء حوائجها وإيرادها عليها ، وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزونه إلى أن يهيا ويصلح ، وبعضهم يقبضه فيهيئه ويصلحه ويدفعه إلى أهل الدار ويفرقه عليهم بحسب حاجتهم ، وبعضهم لمسح الدار ، وتنظيفها ، وكنسها من المزابيل والأقذار ، فالملك هو الملك الحق المبين - جل جلاله - والدار أنت والحشم والخدم والأعضاء ، والجوارح والقوام عليها هذه القوى التي ذكرناها .

فرق بين نظر الطبيب والطبائعي في هذه الأمور ، فنظرهما فيها مقصور على النظر في حفظ الصحة ودفع السقم ، فهو ينظر فيها من هذه الجهة فقط ، وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلالتها على خلقها وباريها وماله فيها من الحكم البالغة والنعم السابغة والآلاء التي دعا العباد إلى شكرها وذكرها .

● ثم تأمل حكمة الله عز وجل في الحفظ والنسيان الذي خص به نوع الإنسان وماله فيها من الحكم وما للعبد فيها من المصالح فإنه لولا القوة الحافظة التي خص بها لدخل عليها الخلل في أموره كلها ، ولم يعرف ماله وما عليه ، ولا ما أخذ ولا ما أعطى ، ولا ما سمع ورأى ، ولا ما قال ولا ما قيل له ، ولا ذكر من أحسن إليه ومن أساء إليه ، ولا من عامله ولا من نفعه فيقرب منه ، ولا من ضره فينأى عنه ، ثم كان لا يهتدى إلى الطريق الذي سلكه أول مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف علما ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ، ولا يستطيع أن يعتبر شيئا على ماضى ، بل كان خليقا أن ينسلخ من الإنسانية أصلا ، فتأمل عظيم المنفعة عليك في هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلا عن جميعهن ، ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان فإنه لولا النسيان لما سلا شيئا ، ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيئته ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ، ولا تمتع بشيء من متاع الدنيا مع ذكر الآفات ، ولا رجا غفلة عدو ، ولا نقمة من حاسد ، فتأمل نعمة الله في الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما وجعله في كل واحد منهما ضربا من المصلحة .

● ثم تأمل هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان - وهو خلق الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرا وأكثرها نفعا ، بل هو خاصة الإنسانية ، فمن لحياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتها الظاهرة ، كما أنه ليس معه من الخير شيء ، ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف ، ولم يوف بالوعد ، ولم تؤد أمانة ، ولم يقض لأحد حاجة ، ولا تحرى الرجل الجميل فأثره ، والقبیح فتجنبه ، ولا ستر له عورة ، ولا امتنع من فاحشة ، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه ، ولم يرع لمخلوق حقا ، ولم يصل له رحما ، ولا بر له والدا ، فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة ، وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلمها من الخلق ، فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلاق لم يفعلها صاحبها . وفي الترمذى وغيره مرفوعا : (استحيوا من الله حق الحياء قالوا : وما حق الحياء ؟ قال : أن تحفظ الرأس

وما حوى والبصر وما وعى وتذكر المقابر . . . والبلى^(١) . وقال ﷺ : إذا لم تستح فاصنع ما شئت^(٢) . وأصح القولين فيه قول أبو عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى : ﴿ إعملوا ما شئتم ﴾^(٣) وقوله ﴿ كلوا وتمتعوا قليلا . . ﴾^(٤) وقالت طائفة هو إذن وإباحة ، والمعنى أنك إذا أردت أن تفعل فعلا فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله ، وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله ، فإنه ليس بقبیح ، وعندى أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر ، وهو فى قوة قولهم من لا يستحى صنع ما يشتهى ، فليس بإذن ولا هو مجرد تهديد وإنما هو فى معنى الخبر والمعنى أن الردع عن القبیح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء وإخراج هذا المعنى فى^(٥) صيغة الطلب لنكتة بديعة جدا ، وهى أن للإنسان أمرين وزاجرين : أمر وزاجر من جهة الحياء ، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهى ، وله أمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع أمر الحياء وزاجره أطاع أمر الهوى والشهوة ، ولا بدء بإخراج الكلام فى قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال من لا يستحى صنع ما يشتهى .

وهكذا تبين لنا مما تقدم مدى حكمة الله البالغة وقدرته الباهرة وسلطانه القاهر وآياته الظاهرة ، يشاهدها كل مخلوق فتبارك الله رب العالمين .

إنذار المشركين

قوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾

أى : أقعد هؤلاء المكذبون الجاحدون ولم يسيروا فى جنات الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الأمم الطاغية الباغية ، لقد كانوا أشد منهم قوة بل لقد بلغ من جبروتهم أن قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجاء الجواب من الله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾^(٥) لقد كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا وأثاروا الأرض وحرثوها ، ونقبوا فى بطنها حتى أخرجوا منها الكنوز كما عمروها ، واتخذوا من سهولها قصورا ونحتوا الجبال بيوتا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ولكنهم فرحوا بما عندهم من العلم فكان العذاب عاقبتهم ومصيرهم جزاء تكذيبهم وإستهزائهم بآيات الله ورسله ، كما قال تعالى : ﴿ ثم كان

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٣ ، ٥٤ أبواب صفة القيامة رقم ٢٥٧٥

- انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٣ ص ٢٤٦ رقم ٣١٩٢

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٣٨٣ مسند حذيفة بن اليمان

انظر سنن أبى داود ج ٥ ص ١٤٨ ، ١٤٩ كتاب الأدب باب فى الحياء . رقم ٤٧٩٧

(٣) سورة فصلت جزء من الآية ٤٠

(٤) سورة المرسلات آية ٤٦

(٥) سورة فصلت الآيات ١٥ ، ١٦

عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴿ فكان هذا العذاب جزاءهم ، وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ونحو الآية قوله تعالى :

﴿ وماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ (١) .

ولقوله تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون . كل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٢) وكقوله جل شأنه : ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ (٣) وقوله جل شأنه : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ماكانوا به يستهزئون . فلما بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ (٥) .

وقوله جل شأنه : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وماكان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض أنه كان عليا قديرا ﴾ (٦) . وقوله جل شأنه : ﴿ ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ (٧) بعد أن قال سبحانه ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحق بهم ماكانوا به يستهزئون ﴾ (٨) وقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . . إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لسييل مقيم . إنه في ذلك لآية للمؤمنين . وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وإنها لبإمام مبين ﴾ (٩) وقوله جل جلاله : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ (١٠) . وقوله جل جلاله : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ (١١) .

(٦) سورة فاطر آية ٤٤

(٧) سورة الأحقاف آية ٢٧

(٨) سورة الأحقاف آية ٢٦

(٩) سورة الحجر الآيات من ٧٣ - ٧٩

(١٠) سورة الصافات الآيات ١٣٧ ، ١٣٨

(١١) سورة السجدة آية ٢٦

(١) سورة الأنعام الآيات ٤ ، ٥ ، ٦

(٢) سورة الأنعام الآيات ١٠ ، ١١

(٣) سورة محمد الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠

(٤) سورة غافر الآيات ٢١ ، ٢٢

(٥) سورة غافر الآيات ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥

قوله تعالى : ﴿ الله يبدؤا الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون . ويوم تقوم الساعة ييلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعوا وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآيتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون ﴾ .

﴿ يقول تعالى ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أى كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴾ ثم إليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله . ثم قال ﴿ ويوم تقوم الساعة ييلس المجرمون ﴾ قال ابن عباس :

يئأس المجرمون . وقال مجاهد : يفتضح المجرمون وفى رواية يكتب المجرمون ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ أى ماشفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ماكانوا إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ قال قتادة : هى والله الفرقة التى لااجتماع بعدها . يعنى أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين فذلك آخر العهد بينهما ولهذا قال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون كثيرا .

﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ أى جحدوا آيات الله التى بعث بها أنبياءه وجحدوا اليوم الآخر ﴿ وقالوا ان هى إلا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين ﴾ (١) . فجزاء هؤلاء أنهم محضرون فى العذاب لا يخفف عنهم ولا هم ينصرون ﴿ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ (٢) . قال تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمل مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ .

* أوقات التسبيح والعبادة *

قوله تعالى : فَسُبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ

(١) سورة الزخرف الآياتان ٧٧ ، ٧٨

(٢) سورة فاطر الآيتان ٣٦ ، ٣٧

بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ ۝
- معاني المفردات

(فسبحان) : علم على التسبيح وهو التنزيه ، وقيل هو الصلاة . (تمسون) : تدخلون في المساء وهو انتشار الظلام (وعشيا) : العشي والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة وقيل العشاء آخر النهار عند ميل الشمس للمغرب ، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر وذلك هو وقت العصر .

المناسبة وإجمال المعنى

لما بين سبحانه أن المقام الأعلى لمن آمن وعمل صالحا حيث قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال إذا علمتم ذلك ، فاعلموا أن الإيمان تنزيه بالجبان ، وتوحيد باللسان ، وعمل صالح يشمل جميع الأركان ، وكل هذا تنزيه وتقديس ، وتحميد وتسبيح ﴿ فسبحان الله ﴾ أي سبحوا الله تسبيحا ، علمه سبحانه الله وهو بهذه المعاني ، إيمان وتوحيد وعمل - فإنه الموصل إلى الحبور والجالب للسرور في جنة الخلد والنعيم ..

عنه - الصلوات الخمس في القرآن قيل له : أين ؟ فقال : قال الله : ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿ وحين تصبحون ﴾ صلاة الفجر ﴿ وعشيا ﴾ صلاة العصر ﴿ وحين تظهرون ﴾ صلاة الظهر ، ولعل تخصيص هذه الأوقات للعبادة إشارة إلى ما يجب عمله في تحصيل المعاش ، وجلب الرزق ، فالإسلام دين الجد والعمل ، لادين الرهبانية والكسل .

ولله الحمد سبحانه وتعالى في السموات والأرض ، نعم له الحمد من كل مخلوق ، وهذه الجملة معترضة بين الأوقات للإشارة إلى أن هذا التسبيح لله في الصلاة إنما هو لأصحابه ولا يعود منه شيء على الله ، فعليهم أن يحمده حمدا يوازي نعماءه وهدايته .

والله سبحانه وتعالى يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بالنبات بعد موتها وجدها ، ومثل ذلك الإخراج والانتقال من حال إلى حال مخالفة تخرجون وتبعثون من موت وفناء إلى حياة خاصة للثواب والعقاب .

وعلى هذا فالمراد بالتسبيح في الآية ما يعم الصلاة والتنزيه لله عن صفات النقص ووصفه بصفات الكمال والجلال ، ولا شك أن الصلاة عماد ذلك وعموده .

ولعل المناسبة بين هذه الآية والآية التي قبلها أن الإنسان في الصباح يخرج من الموت الأصغر وهو النوم إلى الحياة ، فكذلك تبعثون من الموت إلى الحياة الآخرة .

- وانظر صحيح البخاري - كتاب الدعوات باب فضل التسبيح ج ٨ ص ١٠٧ .
- انظر سنن الترمذي كتاب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣٤ . وقال هذا حديث حسن صحيح غريب .
- ثم انظر سنن ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل التسبيح ج ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦ .
- والحديث في مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٣٢ مسند أبي هريرة .

وعن رسول الله ﷺ : (من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل : ﴿ ف سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ ^(١) الآية

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ ف سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد فقال تعالى : ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ أى هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض ثم قال تعالى : ﴿ وعشيا وحين تظهرون ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام والإظهار قوة الضياء ، ف سبحان خالق هذا ، وهذا فائق الإصباح وجعل الليل سكنا .

كما قال تعالى : ﴿ والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ والضحى . والليل إذا سجد ﴾ ^(٤) وقال الإمام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ألا أخبركم لمسمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ! لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » ^(٥) وروى الطبراني بسنده عن عبد الله بن عباس عن رسول الله - ﷺ - قال : « من قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . الآية بكما لها أدرك ما فاته في يومه ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته » ^(٦) .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال . قال رسول الله - ﷺ - :
(كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) . رواه البخارى ومسلم ، والترمذى والنسائى ، وابن ماجه ^(٧) .

(١) الحديث في جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطى ص ٧٨٥ بلفظ « من سره أن يكتال بالميكال الأوفى يوم القيامة فليقل عند انصرافه من الصلاة سبحان ربك رب العزة عما يصنعون ... » إلى آخر السورة الديلمى عن على .

(٢) سورة الشمس الآيتان ٣ ، ٤

(٣) سورة الليل الآيتان ١ ، ٢

(٤) سورة الضحى الآيتان ١ ، ٢

(٥) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٣٩ مسند سهل بن معاذ عن أبيه .

(٦) الحديث في المعجم الكبير للطبراني ج ١٢ ص ٢٣٩ رقم ١٢٩٩١

وقال محقق الطبراني . ورواه أبو داود ٥٠٥٥ وقال الحافظ في تخريج الكشاف ٤٧٢/٣ أخرجه أبو داود والعقيلي وابن عدى

من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف . وقال البخارى لا يصح . وقال المنذرى في إسناده محمد بن عبد الرحمن البيلماني عن أبيه

وكلاهما لا يحتج به . وقال ابن كثير في تفسيره ٤٢٨/٣ اسناد ضعيف .

(٧) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٢٦٩٤/٣١ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . باب فضل التهليل

والتسبيح .

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ . قلت : يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله ، فقال : إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده) . رواه مسلم والنسائي والترمذي إلا أنه قال :

سبحان ربي وبحمده . وقال حديث حسن .

وفي رواية مسلم : أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل ؟

قال : ما صطفى الله لملائكته ، أو لعباده : سبحان الله وبحمده . (١)

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : (من قال سبحان الله وبحمده ، كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ومن قال : لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله يوم القيامة) رواه الطبراني بإسناد فيه نظر (٢) .

زاد في رواية له عن أيوب بن عقبة عن عطاء عنه بنحوه ، فقال رجل :

(كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله ؟ قال : إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله تكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يتطول الله برحمته) (٣) .

- معنى (تستنفد) : تذهب .

- معنى (يتطول) : يتفضل وينعم ويسامح ، وفيه الإكثار من ذكر الله .

ورواه الحاكم من حديث إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن جده ولفظه : قال رسول الله - ﷺ - : (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، أو وجبت له الجنة ، ومن قال : سبحان الله وبحمده مائة مرة كتب الله له مائة ألف حسنة وأربعاً وعشرين ألف حسنة . قالوا : يا رسول الله إذا لايهلك منا أحد ؟ قال : قال بلى إن أحدكم ليجيء بالحسنات لو وضعت على جبل أثقلتها

ثم تحيىء النعم فتذهب بتلك ثم يتناول الرب بعد ذلك برحمته) .

قال الحاكم : صحيح الإسناد (٤) .

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

(من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة) (٥) . رواه البزار بإسناد حسن

وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال قال : رسول الله - ﷺ - :

(من هاله الليل أن يكابده ، أو بخل بالمال أن ينفقه ، أو جبن عن العدو أن يقاتله فليكثر من : سبحان

(١) الحديث في صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب فضل سبحان الله وبحمده . ج ٤ ص ٢٠٩٤ رقم ٢٧٣١/٨٥

(٢) انظر الحديث في المعجم الكبير للطبراني ج ١٢ ص ٤٣٧ رقم ١٣٥٩٧ .

وقال محققه . قال في المجمع ٨٧/١٠ وفي النضر بن عبيد ولم أعرفه وبقية رجاله وثقوا .

(٣) هذه الرواية الزائدة في المعجم الكبير للطبراني وهي جزء من الحديث رقم ١٣٥٩٥ ج ١٢ ص ٤٣٧ .

(٤) الحديث في كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٤ ص ٢٥١ . وقال (صحيح)

(٥) الحديث في سنن الترمذي أبواب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣١

الله ويحمده ، فإنها أحب إلى الله من جبل ذهب ينفقه في سبيل الله عز وجل) . رواه الفريانى والطبرانى واللفظ له^(١).

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (ومن قال سبحان الله ويحمده في يوم مائة مرة غفرت له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر)^(٢) رواه مسلم والترمذى .
- (زبد البحر) : كناية عن المبالغة في الكثرة

وعن مصعب بن سعد رضى الله عنه قال : حدثنى أبى قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : (أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : يسبح مائة تسبيحة فتكتب له ألف حسنة ، أو تحط عنه ألف خطيئة)
رواه مسلم والترمذى وصححه^(٣) .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس)^(٤) رواه مسلم والترمذى .
- وعن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأت)^(٥) رواه مسلم والنسائى وزاد : وهن من القرآن

- وعن رجل من أصحاب النبى - قال : (أفضل الكلام سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر)^(٦) رواه أحمد .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - مر به وهو يغرس غرسا ، فقال : (يا أبا هريرة ، ما الذى تغرس ؟ قلت غراسا . قال : ألا أدلك على غراس خير من هذا ؟ سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر تغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة)^(٧) رواه ابن ماجه بإسناد

(١) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ص ٢٣٠ رقم ٧٨٠٠ وقال محققه . قال فى المجمع ٩٤/ ١٠ وفيه سلمان بن أحمد الوسطى وثقه عبدان وضعفه الجمهور ، والغالب على بقية رجاله التوثيق .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم . وهو جزء من الحديث رقم ٢٦٩١ / ٢٨ ج ٤ ص ٢٠٧١ (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء .
وأنظر سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣٣ وقال . هذا حديث حسن صحيح ..
(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ج ٤ ص ٢٠٧٣ رقم ٢٦٩٨ / ٣٧ .
وأنظر سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ رقم ٣٥٣٠ . وقال . هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . باب فضل التهليل والتسبيح ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٣٢ / ٢٦٩٥ .

وأنظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٦ أبواب الذكر والدعاء حديث ٣٦٦٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح .
(٥) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الأدب) باب كرهة التسمية بالأسماء القبيحة ج ٢ ص ١٦٨٥ رقم ٢١٣٧ / ١٢ . فقد ورد هذا الحديث بلفظه .

الحديث فى سنن الإمام أحمد ج ٤ ص ٣٦ مسند حديث بعض أصحاب النبى .
(٧) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٥١ (كتاب الأدب) باب فضل التسبيح برقم ٣٨٠٧ ، وقال : فى الزوائد : إسناده حسن . وأبو سنان اسمه عيسى بن سنان الحنفى ، يختلف فيه .

حسن .

- وعن ابن سعد - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لقيت ابراهيم عليه السلام ليلة أسرى بي فقال : يا محمد : أقرىء أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)^(١) . رواه الترمذى والطبرانى فى الأوسط والصغير وزاد : ولا حول ولا قوة إلا بالله .
(القيعان : أمكنة مستوية منبسطة واسعة فى وطأة من الأرض يعلوها ماء السماء : أى المطر فتمسكه ويستوى نباتها والقيعان جمع قاع)

وعن أبى هريرة وأبى سعيد - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : (إن الله اصطفى من الكلام أربعاً : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فمن قال : سبحان الله كتبت له عشرون حسنة ، وحطت عنه عشرون سيئة ، ومن قال الله أكبر فمثل ذلك ، ومن قال لا إله إلا الله ، فمثل ذلك ، ومن قال الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة ، وحطت عنه ثلاثون سيئة)^(٢) . رواه أحمد والنسائى واللفظ له ، والبيهقى ، وفى آخره : ومن أكثر ذكر الله فقد برىء من النفاق

وعن أبى مالك الأشعرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - (الطهور : شطر الإيمان ، والحمد لله : تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله : تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة : نور ، والصدقة : برهان ، والصبر : ضياء ، والقرآن : حجة لك ، أو عليك ، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها) رواه مسلم^(٣) .

وعن أبى ذر - رضى الله عنه - أن ناساً من أصحاب النبى - ﷺ - قالوا للنبى - ﷺ - : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم قال : (أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله أىأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام كان عليه وزر ؟ ! فكذاك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر)^(٤) رواه مسلم .
(والبضع) بضم الباء : هو الجماع .

- وعن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - قال : جاء أعرابى إلى النبى - ﷺ - فقال : علمنى كلاماً أقوله ، قال (قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم)

(١) أنظر سنن الترمذى (أبواب الدعوات) باب ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ رقم ٣٥٢٩ . وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود .

(٢) الحديث فى مستند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٠٢ مستند أبى هريرة

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الطهارة) باب فضل الوضوء ج ١ ص ٢٠٣ رقم ٢٢٣

(٤) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الزكاة) باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ج ٢ ص ٦٩٧ رقم ٥٣ / ١٠٠٦

قال : هؤلاء لربى فمالى ؟ قال قل : (اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى . وفى رواية أخرى قال : فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك). رواه مسلم^(١) .

- وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - (قال : استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل : وماهن يارسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) رواه أحمد ، وأبو يعلى والنسائى^(٢) .

- وعن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إن مما تذكرون من جلال الله ، التسبيح ، والتهليل ، والتحميد ينعطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل تذكر بصاحبها أما يحب أحدكم أن يكون له ، أو لا يزال له من يذكر به). رواه ابن أبى الدنيا ، وابن ماجه واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم^(٣) .

وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - أخذ غصنا فنفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فانتفض فقال رسول الله - ﷺ - : (إنه سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها) . . رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح^(٤) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :
(أول من يدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله - قال رسول الله - ﷺ : .
رواه ابن أبى الدنيا ، والبزار والطبراني . والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم^(٥) .
قوله تعالى : ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ فهو سبحانه القادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض ، فيخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ، كما يفعل ضد هذا ، فيخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر ، وفى هذا دلالة على كمال قدرته وبديع صنعه ، وكون البيضة والنطفة كائنا حيا لاتعرفه العرب ولا تعترف به . . ﴿ ويحيى الأرض بعد موتها ﴾ أى ويحيى الأرض بالمطر ، فتخرج النبات الغض بعد أن كانت صعيدا جرضا .
ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾^(٦) .
وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾^(٧) .

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والاستغفار) ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٢٦٩٦ / ٣٣ .
وانظر الحديث أيضا بمعناه فى مسند أحمد ج ٤ ص ٣٥٦ مسند ابن أبى أوفى .
(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ (مسند أبى سعيد الخدرى)
وانظر الحاكم كتاب الدعاء ج ١ ص ٥١٢
(٣) والحديث فى مسند أحمد ج ٤ ص ٢٧١ مسند النعمان بن بشير
وانظر كتاب المستدرک (كتاب الدعاء) ج ١ ص ٥٠٣
ثم انظر الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٥٢ (كتاب الأدب) باب ٥٦ برقم ٣٨٠٩
(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٥٢ مسند أنس
(٥) الحديث فى كتاب المستدرک للحاكم ج ١ ص ٥٠٢ . وقال ، هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .
(٦) سورة يس آية ٣٣ .
(٧) سورة الحج آية ٥ .

﴿ وكذلك تخرجون ﴾ أى وكما سهل حركة النائم الساكن بالانتباه وإنماء الأرض بإنباتها بعد موتها -
يسهل عليه إحياء الميت وإخراجه من قبره لفصل القضاء .
ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي
الموت وهو على كل شيء قدير ﴾ (١) .
وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن
الذى أحيانا لمحي الموت إنه على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

بعض آيات الله الناطقة بقدرته ووحدانيته

قوله تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ
آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ
الْسِّنَاتِ وَالْوَنَانِ لَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَأَبْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ
الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَصْدٌ وَهُوَ الَّذِي
يَبْدُوهُ أَنْ خَلَقَ ثُمَّ يَعْبُدُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

معاني المفردات

(تَنْتَشِرُونَ : أى منتشرين في الأرض تبتغون من فضل الله . لتسكنوا إليها : يقال سكن إليه إذا مال
إليه واطمأن .

مودة ورحمة : قال السدى : المودة ؛ المحبة . والرحمة ؛ الشفقة ، البرق : هو الشرارة الكهربائية التى تظهر فى الجو وخاصة عند السحب وينشأ عنها الرعد . قانتون : مخلصون فى طاعته . المثل الأعلى : الصفة العليا .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن أمر - سبحانه - بتنزيهه عن الأسواء والنقائص التى لاتليق بجلاله وكماله ذكر أن الحمد له على خلقه جميع الموجودات ، وبين قدرته على الإماتة والإحياء ، ذكر هنا - سبحانه - أدلة باهرة ، وحججا ظاهرة على البعث والإعادة ، ومنها خلقكم من التراب الذى لم يشم رائحة الحياة ، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم ، ثم إبقاء نوعكم بالتوالد ، فإذا مات الأب قام ابنه مقامه لتبقى سلسلة الحياة متصلة بهذا النوع وبسائر الأنواع الأخرى بالأزدواج والتوالد إلى الأجل الذى قدره الله لأمد هذه الحياة .

ثم أعقب ذلك بدلائل أخرى فى الأكوان المشاهدة ، والعوالم المختلفة ، وفى اختلاف ألوان البشر ولغاتهم التى لاحصر لها ، مع كونهم من أب واحد وأصل واحد ، وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلا ، وحركتهم السريعة نهارا . فى السعى على الأرزاق ، والجد والكد فيها . ثم ذكر سبحانه ما يعرض للأكوان والآفاق ونشاهده رأى العين الفينة بعد الفينة ، مما فيه العبرة لمن ادكر ، ونظر فى العوالم نظرة متأمل معتبر فى بدائع الأكوان ، ليتوصل إلى معرفة مدبرها وخالقها الذى أحسن كل شئ خلقه ثم هدى . وبعد أن أقام الأدلة على الوحدةانية وهى الأصل الأول ، وعلى القدرة على الحشر وهى الأصل الثانى - أعقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ . قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ يقول الله تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ ثم إذا أنتم ﴾ بشر تنتشرون ﴿ فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقه ، ثم مضغة ثم صار عظاما شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بينى المدائن والحصون ، ويسافر فى أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ، ويكتسب ويجمع الأموال ، وله فكر وغور ودهاء ومكر ورأى وعلم واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعاش والمكاسب ، وفاوت بينهم فى العلوم والفكر والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين

ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن وبين ذلك « رواه أبو داود والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح . (١)

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ أى خلق لكم من جنسكم إناثا لتكون لكم أزواجا . ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ أى لتأنسوا بها ، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام ، ونحو الآية قوله ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ (٢) . يعنى بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بن آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم أو من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة وهى المحبة ، ورحمة وهى الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها أو لرحمته بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه فى الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

- الآيات القرآنية فى الترغيب فى النكاح .

- ١ - قال تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله ﴾ ٣٢ من سورة النور وهذا أمر .
- ٢ - وقال تعالى : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ ٢٣٢ من سورة البقرة ، وهذا منع من العضل ، ونهى عنه .
- ٣ - وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية .. ﴾ ٣٨ من سورة الرعد ، فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل .
- ٤ - وقال تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ ٧٤ من سورة الفرقان : سبحانه مدح أوليائه بسؤال ذلك فى الدعاء .

فوائد النكاح وآفاته الناجمة من الانحراف عن جادة الصواب .

- أولا : الولد لأنه المقصود بهذا العقد والتمتع البهيمى ، وفى التوسل إلى الولد قربة ، فلا يحب الصالح أن يلقي الله عزبا وتلبية الأمر بالزواج كما قال الغزالي :
- ١ - موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .
- ٢ - محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته .
- ٣ - طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده .

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٤٠٠ مسند أبى موسى .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٩

٤ - طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .
ثانيا : التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة وغض البصر ، وحفظ الفرج .

ثالثا : ترويح النفس ، وإيناسها بالمجالسة ، والنظر ، والملاعبة لإراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول ، وهى عن الحق نفور قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾^(١)
رابعا : تفرغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل الطبخ ، والكنس ، والفرش وتنظيف الأواني وتهئية أسباب المعيشة ، ولولا شهوة الوقاع لتعذر على الإنسان العيش فى منزله وحده .
قال أبو سليمان الدارنى فى رحمة الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فإنها تفرغك للآخرة ، وإنما تفرغها بتدبير المنزل ، وبقضاء الشهوة جميعا . وقال محمد بن كعب القرطبى به فى معنى قوله تعالى : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة .. ﴾ قال : المرأة الصالحة .

خامسا : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيته لأولاده .

قال - عليه الصلاة والسلام - :

(ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر على اللقمة يرفعها إلى فى امرأته)^(٢)

وآفات النكاح

أولا : العجز عن طلب الحلال خشية التوسع للطلب ، والإطعام من الحرام ، وربما يتبع هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدينه .

ثانيا : القصور عن القيام بحقوقهن ، والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن ، وفى هذا خطر لأنه راع ومستول عن رعيته

قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول »^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ أمرنا أن نقيهم النار كما نقى أنفسنا وذلك بفعل

الطاعات وترك المحرمات .

ثالثا : أن يكون الأهل والولد شاغلا عن الله تعالى وجاذبا إلى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة

(١) سورة الروم آية ٢١

(٢) الحديث فى اتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ج ٥ ص ٣١٤ .

(٣) الحديث فى سنن أبى داود (كتاب الزكاة) باب صلة الرحم ج ٢ ص ٣٢١ وقال (أن يضيع من يقوت .
- انظر صحيح مسلم كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك ج ٢ ص ٦٩٢ رقم ٦٩٦/٤٠ . وقال « كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته » .

للأولاد بكثرة جمع المال ، وإدخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ما أشغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشثوم على صاحبه فينقل من التنعم المباح إلى الإغراق في ملاعبة النساء ومؤانثتهن والإمعان في التمتع بهن . .

ترغيب الزوج في الوفاء بحق زوجته ، وحسن عشرتها والمرأة بحق زوجها وطاعته، وترهيبها من إسقاطه ومخالفته .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كلكم راع ومسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ، ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » . رواه البخاري ومسلم^(١)

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح^(٢) وقوله ﷺ خياركم لنسائهم أي أفضل المسلمين : المحسنون إلى أزواجهم وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ -

(خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)^(٣) . رواه ابن حبان في صحيحه وقوله : (وأنا خيركم لأهلي) : برا ونفعاً وفي هذا حث للمؤمنين على الاقتداء به ﷺ في حسن معاملة الزوجة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : (استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء)^(٤) رواه البخاري ومسلم وغيره .

(وإن أعوج ما في الضلع أعلاه) إشارة إلى أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع مبالغة في إثبات هذه الصفة لهن ، ويحتمل أن يكون ضرب ذلك مثلاً لأعلى المرأة لأن أعلاها رأسها ، وفيه لسانها ، وهو الذي يحصل منه الأذى ، واستعمال أعوج ، وإن كان من العيوب لأنه أفعل الصفة ، وأنه شاذ ،

(١) - الحديث في صحيح البخاري ج ٢ ص ٦ كتاب الجمعة

- وانظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٩ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر رقم ١٨٢٩ / ٢٠

انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٩ - كتاب الإمارة - باب فضيلة الإمام العادل . رقم ١٨٢٩ / ٢٠ .

(٢) الحديث في سنن الترمذي ج ٢ ص ٣١٥ أبواب النكاح باب ما جاء في حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٢ . وقال حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث في صحيح ابن حبان ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ رقم ٤٣٦ : باب ذكر استحباب الاقتداء بالمصطفى .

انظر بسنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٣٦ كتاب النكاح باب حسن معاشره النساء . رقم ١٩٧٧ .

(٤) انظر صحيح البخاري ج ٧ ص ٣٤ كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء

الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ١٤٦٨ / ٦٠ .

انظر كنز العمال ج ١٦ ص ٣٧٣ حديث رقم ٤٤٩٥٨

ولما يمتنع عند الالتباس بالصفة ، فإذا تميز عنه بالقرينة جاء البناء . (وكسره - طلاقها) .
وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لا يَفْرَكُ مؤمن مؤمنة إن كره
منها خلقا رضى منها آخر)^(١) رواه مسلم

يفرك بسكون الفاء ، وفتح الياء ، والراء أيضا : أى ييغض .
والمعنى لا يكره الزوج زوجته الصالحة الطائعة ، فإن لها محامد ومساوىء .
ولتضييع أخلاقها الحسنة شذوذها أحيانا ، فلكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة .
- وعن معاوية بن حيدة - رضى الله عنه - قال : قلت يا رسول الله ماحق زوجة أحدنا عليه ؟
قال : (أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ولا تهجر إلا فى
البيت)^(٢) رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه .
(لا تقبح) بتشديد الباء : أى لاتسمعها المكروه ، ولا تشتمها ، ولا تقل قبحك الله ، ونحو
ذلك .

وعن عمر بن الأحوص الجشمى - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - فى حجة الوداع
يقول : بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ . ثم قال : (ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان
عندكم ، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فاهجروهن فى
المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ألا إن لكم على نسائكم
حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن فى بيوتكم
لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن)^(٣) رواه ابن ماجه والترمذى
وقال حديث حسن صحيح . (عوان : أسيرات)
(فاحشة مبينة) أى معصية ثابتة بيقين ، بعيدة عن التهم الكاذبة .

(غير مبرح) غير مهلك لم يؤذ بكسر .
(فلا تبغوا) فلا تطلبوا غير الطاعة طريقا .
(ألا يوطئن فرشكم من تكرهون) لا يكون الفراش لأجنبى وطاء سهلا يتمتع بلذته
وعن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - :

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ١٤٦٩ / ٦١
(٢) الحديث فى سنن أبى داود ج ٢ ص ٦٠٦ كتاب النكاح باب حق المرأة على زوجها . رقم ٢١٤٢
- انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٤ كتاب النكاح باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥٠ .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٥ كتاب النكاح باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٣ وقال هذا حديث
حسن صحيح .
- انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٤ كتاب النكاح باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥١ .

(أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) (١) رواه الترمذى وحسنه
(وفيه الحث على إرضاء الزوج وطاعته والإخلاص له رجاء كسب نعيم الله ورضوانه .
وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -
(إذا صلت المرأة خمسها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها ، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت) (٢)
رواه ابن حبان فى صحيحه .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سألت رسول الله - ﷺ -
(أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال : زوجها . قلت فأى الناس أعظم حقا على الرجل ؟
قال أمه) (٣) . رواه البزار وإسناده حسن

- وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : (جاءت امرأة إلى النبى ﷺ - فقالت : يا رسول
الله ! أنا وافدة النساء إليك هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا أجروا ، وإن قتلوا كانوا
أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم عليهم ، فمالنا من ذلك ؟ قال : فقال رسول الله -
ﷺ - أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله) (٤)
رواه البزار هكذا مختصرا .
(وقليل منكن من يفعله أى من يقوم بحق الزوج) .

وعن ابن أبى أوفى - رضى الله عنه - قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبي - ﷺ - ،
فقال رسول الله - ﷺ - « ما هذا ؟ قال يا رسول الله . قدمت الشام ، فوجدتهم يسجدون لبطارتهم
وأساقفهم فأردت أن أفعل ذلك بك ؟ قال : لاتفعل فإنى لو أمرت شيئا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن
تسجد لزوجها والذي نفسى بيده لاتؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها» (٥) رواه ابن ماجه وابن
حبان فى صحيحه .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد
لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) (٦) . رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

- (١) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٤ .
انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٤ أبواب الرضاع باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٧١ . وقال هذا حديث حسن غريب .
(٢) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٦ ص ١٨٤ كتاب النكاح باب إيجاب الجنة للمرأة إذا أطاعت زوجها رقم ٤١٥١ . وقال .
أبو حاتم . تفرد بهذا الحديث عبد الملك بن عمير من حديث أبى سلمة ومارواه عن عبد الملك إلا هذبة بن المنهال وهو شيخ أهوازى
- وانظر مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ كتاب النكاح باب ثواب المرأة على طاعتها لزوجها .
(٣) الحديث فى كشف الأستار عن زوائد البزار ج ٢ ص ١٧٦ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٤٦٢ . قال البزار ؛
لانعلمه مرفوعا إلا بهذا الإسناد ، وأبو عتبة لانعلم حدث عنه إلا مسمر .
(٤) الحديث فى زوائد البزار ج ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ كتاب النكاح باب ثواب من أطاعت زوجها رقم ١٤٧٤ . وقال البزار :
لانعلم رواه عن ثابت إلا روح ، وهو بصرى مشهور
(٥) الحديث فى مسند ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣ انظر صحيح ابن حبان ج ٦
ص ١٨٦ ، ١٨٧ كتاب النكاح باب استحباب الاجتهاد للمرأة فى قضاء حقوق زوجها رقم ٤١٥٩
(٦) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٢
- انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٤ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٦٩ . وقال (وفى الباب عن معاذ بن جبل
وسراقة بن مالك ابن جعشم وعائشة وابن عباس وعبد الله بن أبى أوفى وطلق بن على وأم سلمة ، أنس وابن عمر . حديث أبى
هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه ، من حديث محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (لا يحل لامرأة أن تصوم ، وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه)^(١) رواه البخارى ومسلم .

المراد صيام النفل والأفضل أن تفطر حتى إذا أراد منها شيئاً فعل ولا تأذن بدخول أحد ، أو بتصدق ، أو ببيع شيء إلا بإذنه .

وعن زيد بن أرقم - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (المرأة لا تؤدى حق الله عليها حتى تؤدى حق زوجها كله ، ولو سألها وهى على ظهر قتب لم تمنعه نفسها)^(٢) رواه الطبرانى بإسناد جيد .

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقت إلينا)^(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأتته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح »^(٤) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى (إلى فراشه : كناية عن طلبها بجواره ليتمتع بها فظل طول ليله ساخطاً عليها لعدم إجابتها اكتسبت دعوات الملائكة عليها بالطرده ، والاقصاء والعذاب : ودعاء الملائكة مستجاب .

وفى رواية للبخارى ومسلم قال رسول الله - ﷺ - : « والذى نفسى بيده مامن رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها »^(٥) .
وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (ثلاثة لا تقبل لهم صلاة ، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة : العبد الأبق حتى يرجع إلى مواليه فيضع يده فى أيديهم ، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى ، والسكران حتى يصحو)^(٦) رواه الطبرانى فى الأوسط وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما .

-
- (١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٩ كتاب النكاح باب صوم المرأة بإذن زوجها تطوعاً ط / الشعب .
(٢) الحديث فى مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٠٨ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة .
- انظر صحيح ابن حبان ج ٦ ص ١٨٧ رقم ٤١٥٩ كتاب النكاح باب استحباب للمرأة فى قضاء حقوق زوجها .
- الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣ .
(٣) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٤٩ كتاب النكاح باب فى المرأة تؤذى زوجها رقم ٢٠١٤ .
وانظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣٢٠ أبواب الرضاع باب ١٩ رقم ١١٨٤ وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ورواية اسماعيل بن عياش عن الشاميين أصحح . وله عن أهل الحجاز وأهل العراق مناكير .
الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦ كتاب النكاح باب تحريم امتناعها من فراش زوجها رقم ١٤٣٦ / ١٢٢ .
(٤) الحديث فى صحيح البخارى كتاب النكاح باب اذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ج ٧ ص ٣٩ .
(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦٠ كتاب النكاح باب تحريم امتناعها من فراش زوجها رقم ١٤٣٦ / ١٢١ .
(٦) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٧ ص ٣٧٠ رقم ٥٣٣١ .
انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٣ رقم ٣٤ .

وعن ابن عمر - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
(إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره ، لعنها كل ملك في السماء وكل شيء مرت عليه غير
الجن والإنس حتى ترجع)^(١) . رواه الطبراني في الأوسط .

وقد رهب الإسلام من الظلم عند تعدد الزوجات

فعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (من كانت عنده امرأتان فلم يعدل
بينهما جاء يوم القيامة ، وشقه ساقط)^(٢) ، رواه الترمذى والحاكم وقال صحيح على شرطهما .
وقال صحيح على شرطهما .

(شقه ساقط : أى مائل معوج والمعنى جاء على حالة نقص .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : (كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ، ويقول : (اللهم
هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)^(٣) ، يعنى القلب ، رواه أبو داود والترمذى وقال
مرسلا وهو أصح .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إن
المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم
وأهلهم وما ولوا)^(٤) رواه مسلم .

ولو علم المسلم مدى ما عند الله تعالى من الأجر العظيم له لوقام على أهله بالمعروف والعدل
والإحسان ، وأحسن تربيتهم ، وكان راعيا صالحا لشئونهم ، لو علم ذلك ماغض له جفن عن
رعايتهم وإسداء المعروف لهم .

فعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (دينار أنفقته في سبيل الله ،
ودينار أنفقته في رقة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذى
أنفقته على أهلك)^(٥) رواه مسلم .

وعن ثوبان - رضى الله عنه - مولى رسول الله ﷺ : قال - قال رسول الله ﷺ : (أفضل دينار ينفقه
الرجل . دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه على فرسه في سبيل الله ، ودينار ينفقه

(١) الحديث في الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٣ ، ١٠٤ . وقال رواه الطبراني في الأوسط ، ورواه ثقات إلا سويد بن
عبد العزيز ، قال في الميزان (سويد بن عبدالعزيز الدمشقى قاضى بعلبك أصله واسطى . قال ابن معين ليس حديثه بشيء ، وقال
النسائى ليس بثقة ، وقال أبو حاتم لين ، وقال الدارقطنى يعتبر به .

(٢) الحديث في سنن الترمذى ج ٢ ص ٣٠٤ أبواب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر رقم ١١٥٠ . وقال : ولا نعرف
هذا الحديث مرفوعا إلا من حديث همام

الحديث في سنن أبي داود ج ٢ ص ٦٠١ كتاب النكاح باب في القسم بين النساء رقم ٣١٣٣

(٣) الحديث في سنن الترمذى ج ٢ ص ٣٠٤ . أبواب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر رقم ١١٤٩ . قال . وهذا أصح
من حديث حماد بن سلمة .

- انظر سنن أبي داود ج ٢ ص ٦٠١ كتاب النكاح باب في القسم بين النساء . رقم ٢١٣٤ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٧ / ١٨

(٥) الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٢ رقم ٩٩٥ / ٣٩ كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك .

على أصحابه في سبيل الله). قال أبو قلابة : بدأ بالعيال : ثم قال : أى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار ينفعهم الله به ويغنيهم ؟ (١) رواه مسلم والترمذى .
وعن ابن مسعود البدرى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - :
قال : (إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة) (٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

وعن عبد الله بن سعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعول أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك) (٣)
(أى اختر الأقرب فالأقرب) رواه الطبرانى بإسناد حسن .

وعن كعب بن عجرة - رضى الله عنه - قال : مر على النبى - ﷺ - رجل فرأى أصحاب رسول الله - ﷺ - جلده ونشاطه ، فقالوا يا رسول الله . لو كان هذا في سبيل الله فقال رسول الله - ﷺ - : (إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان) (٤) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .
وروى عن جابر - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (أول ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله) (٥) رواه الطبرانى في الأوسط .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : (مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا) (٦) . رواه البخارى خلفا : أى عوضا وزيادة ، والممسك : البخيل المقتر ، تلفا : خرابا ودمارا
وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال قال رسول الله - ﷺ - : (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت) (٧) رواه أبو داود والنسائى .

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩١ ، ٦٩٢ كتاب (الزكاة) باب فضل النفقة على العيال والمملوك . رقم ٩٩٤/٣٨ . وانظر سنن الترمذى ج ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ . أبواب البر والصلة . باب ماجاء في النفقة على الأهل . وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الحديث في صحيح البخارى ج ١ ص ٢١ ، ٢٢ كتاب الايمان باب ماجاء إن الأعمال بالنيات .

وانظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٥ رقم ١٠٠٢/٤٨

(٣) الحديث في المعجم الكبير للطبرانى ج ١ ص ٧٩ رقم ١٣٨٤ مع اختلاف في الألفاظ : ورجاله رجال الصحيح .
- وانظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٦٤ مسند (حديث رجل من بنى يربوع رضى الله عنه)

- انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٩ ، ١١٠ . باب في النفقة على الزوجة والعيال برقم ٧ وقال اسناد حسن .
(٤) الحديث في المعجم الكبير للطبرانى ج ٩ ص ١٢٩ رقم ٢٨٢ . وقال في المجمع ورجاله رجال الصحيح . وهو في الثلاثة بإسناد واحد . وقال المنذرى في الترغيب ورجاله رجال الصحيح .

- وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١١ . قال ورجاله رجال الصحيح .

(٥) الحديث في الترغيب والترهيب ج ٣ باب نفقة الرجل على أهله صدقة ص ١١٣ رقم ١٤

(٦) الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٠ رقم ١٠١٠/٥٧

- وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٤ . وقال . وهو حديث مرسل فإن الحسن وهو البصرى لم يذكر الصحابي الذى روى عنه ولعله رواه عن أنس رضى الله عنه بدليل الحديث الذى بعده .

(٧) الحديث في سنن أبي داود . كتاب الزكاة باب صلة الرحم ج ٢ ص ٣٢١

وعن الحسن - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : (إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته)^(٥) رواه ابن حبان فى صحيحه .
 عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندي شيئا غير تمر واحدة ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال : (من ابتلى من هذه البنات بشيء ، فأحسن إليهن كن له سترا من النار)^(٦) رواه البخارى ومسلم والترمذى وفى لفظ له : من ابتلى بشيء من البنات فصبر عليهن كن له حجابا من النار) (فأحسن إليهن : بالإففاق والتأديب وتعليم الدين وتقوى الله .

وعن أنس - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : (من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو ، وضم أصابعه)^(٣) رواه مسلم .
 (وعال : ربى وعاهد ، والمعنى تقرب منزلته فى الجنة بجوار منزلة رسول الله ﷺ) .
 وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :
 (مامن مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ماصحبتاه ، أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة)^(٤) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

وروى الطبرانى عن عوف بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال
 (مامن مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن حتى يبن أو يمتن إلا كن له حجابا من النار ، فقالت له امرأة : أو بتان قال : وبتان)^(٥) .

وعن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ
 (من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن ، وجبت له الجنة البتة ، قيل : يارسول الله فإن كانتا اثنتين ؟ قال : وإن كانتا اثنتين قال : فرأى بعض القوم أنه لو قال . واحدة لقال : واحدة)^(٦) رواه أحمد بإسناد جيد .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾
 يقول تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ أى خلق

(١) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٧ ص ١٢ كتاب السير باب ذكر الأخبار بسؤال الله عز وجل من استرعى رعية رقم ٤٤٧٥ - وانظر المغرغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٥

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٧ كتاب البر والصلة باب فضل الإنسان إلى البنات رقم ١٤٧ / ٢٦٢٩ - انظر سنن الترمذى ج ٣ ص ٢١٣ ، ٢١٤ كتاب البر والصلة رقم ١٩٨٠ . وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٧ ، ٢٠٢٨ كتاب البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات رقم ١٤٩ / ٢٦٣١
 (٤) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢١٠ كتاب الأدب باب بر الوالد والإحسان إلى البنات رقم ٣٦٧٠ . بلفظ مامن رجل .

(٥) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ١٨ ص ٥٦ رقم ١٠٢ . وقال محققه وفيه النحاس بن فهم وهو ضعيف . قلت ورواه أحمد ولم ينسبه إليه .

(٦) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٠٣ .

السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشقوق أجرامها ، وزهارة كواكبها ، ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار .
 وقوله تعالى : ﴿ واختلف ألسنتكم ﴾ يعنى اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، وهؤلاء فرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء تكرر ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله - تعالى - من اختلاف لغات بنى آدم واختلاف ألوانهم ، وهى حلاهم فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشئ من السمات أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا . يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئته لاتشبه أخرى ، ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿ إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله ﴾ أى ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم فى الليل والنهار فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾

أى يعون . قال الطبرانى حدثنا حجاج بن عمران السدوسى حدثنا عمرو بن الحصين العقيلي حدثنا محمد بن عبد الله بن علانة حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - قال أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال « قل اللهم غارت النجوم ، وهذأت العيون ، وأنت حى قيوم ، يا حى يا قيوم أنم عيني - واهدئ ليلي »^(١) فقلتها فذهب عني .

قوله تعالى :

﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾

ومن آيات الله تعالى فى كونه البرق . وهوتلك الشرارة الكهربائية التى تظهر فى الجو وخاصة عند السحب وينشأ عنها الرعد . فيكون فى رؤيته الخوف مما قد يكون وراء ذلك من الصواعق المهلكة المدمرة .

قال تعالى : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾^(٢) وقد يكون فى رؤية البرق الرجاء والطمع فيما يكون وراءه من المطر الذى يحيى الله به

(١) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٥ ص ١٣٤ رقم ٤٨١٧

وقال محققه قال فى المجمع ١٠ / ١٢٨ وفيه عمرو بن الحصين العقيلي وهو متروك .

(٢) سورة الرعد جزء من الآية ١٣

الأرض بعد موتها . إن في ذلك ، الذي سبق ، لآيات لقوم يعقلون ويتدبرون ويعلمون أن هذه الآيات لا يمكن أن تكون ناشئة عن الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء إنما هذه الآيات تصيح بلسان الحال والمقال قائلة : أنا مخلوقة للواحد الديان .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾

كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إذا اجتهد في اليمين أقسم قائلا والذي تقوم السماء والأرض بأمره . ونحو الآية قوله تعالى

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾ (١) .

وقوله جل شأنه ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ (٢)

وهذا منتهى الإتيان ولا عجب فإنه صنع الله الذي أتقن كل شيء . وستظل الحال هكذا ، فالسموات قائمة بأمره ، والأرض قائمة بأمره إلى أن يأذن ربك بقيام الساعة ، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ (٣) . وقرأ قوله جل شأنه :

﴿ فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ (٤)

قوله تعالى : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾

والمراد بالخروج هنا هو البعث والدعوة هي مجاء في قوله تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ (٥) وقوله جل شأنه : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ (٦) وقوله تبارك اسمه . ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ (٧) فببحان من أقام الأدلة في الأنفس والآفاق ليقطع المعاذير على كل ختار كفور وأفاك أثيم .

قوله تعالى : ﴿ وله من في السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ورد في الحديث الشريف عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعا (كل حرف في القرآن يذكر فيه

القنوت فهو الطاعة) (٨)

(٥) سورة النازعات آية ١٣ ، ١٤

(٦) سورة يس آية ٥٣

(٧) سورة القمر آية ٥٠

(٨) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ مسند أبي سعيد

(١) سورة فاطر آية ٤١

(٢) جزء من الآية ٦٥ من سورة الحج

(٣) سورة الانفطار الآيات ١ - ٥

(٤) سورة المرسلات الآيات ٨ - ١٥

فالكل عبده ، والسماوات والأرض ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته وله أسلم من فى السماوات والأرض وإليه يرجعون . ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ (١) قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ للمفسرين أقوال فى هذا النص الكريم .

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس ، يعنى أسير عليه ، وقال مجاهد الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هينة ، وكذا قال عكرمة وغيره . وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له

ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) (٢) وقوله ﴿ وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كقله تعالى : ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ وقال قتادة مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

فسبحان من دلت آياته على عظيم قدرته ، وبرهنت آياته على دليل قدرته .

إذا سكن الغدير على صفاء رجب أن يحركه النسيم
يرى فيه السماء بلا امتراء كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى يرى فى صفوها الله العظيم

وهو العزيز الذى لا يغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شىء وقهر كل شىء بقدرته وسلطانه الحكيم فى أقواله وأفعاله شرعا وقدرًا . وعن مالك فى تفسيره المروى عنه عن محمد بن المنكدر فى قوله تعالى ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ قال لا إله إلا الله .

مثل فى التوحيد

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٥ ، ٢٦

(٢) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٧٣٩ تفسير سورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ باب ٤٩٧٤

تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَالَهُمْ مَنْ نَصِّرِينَ ﴿٢٩﴾

معاني المفردات

مثلا : صفة غريبة تشبه المثل في الغرابة .

نفضل : نوضح ونبين بعد ما ظهرت الآيات الناطقة بالوحدانية والقدرة في الإنسان وأطواره . وهذا الكون العجيب وأحواله وثبت بهذا أنه له المثل الأعلى والصفات العلى التى منها الوحدانية وغيرها ، ضرب مثلا لهؤلاء المشركين كشف به سترهم وقوض به حجتهم وكان المثل فى أقرب شيء لهم وهى نفوسهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾

قال الإمام بن القيم فى تفسير هذه الآية .

هذا دليل قياسى . احتج الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبده وملكه شركاء ، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم لا يحتاجون فيها إلى غيرهم .

ومن أبلغ الحجاج . أن يأخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو فى نفسه مقرر عندها ، معلوم لها . فقال ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم ﴾ من عبيدكم وإمائكم شركاء فى المال والأهل ؟ أى هل يشارككم عبيدكم فى أموالكم وأهلكم فأنتم وهم فى ذلك سواء ؟ تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها ويستكثرون ببعضها عليكم ، كم يخاف الشريك شريكه ؟ !

وقال ابن عباس : تخافونهم أن يرثوكم ، يرث بعضكم بعضا .

والمعنى : هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه فى ماله وأهله حتى يساويه فى التصرف فى ذلك ؟ فهو يخاف أن ينفرد فى ماله بأمر يتصرف فيه ، كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار ، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بى من خلقى من هو مملوك لى ؟ فإن كان هذا الحكم باطلا فى فطركم وعقولكم ، مع أنه جائز عليكم ممكن فى حقكم ، إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة وإنما هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم وأنتم عباد لى ، فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم فى حقى ؟ مع أن من جعلتموهم لى شركاء عبيدى وملكى وخلقى ؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولى العقول .

قوله تعالى : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من

ناصرين ﴾

لكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله ، اتبعوا أهواءهم جهلا منهم لحق الله عليهم ، فأشركوا

الآلهة والأوثان فى عبادته ، ولو قلبوا وجوه الرأى واستعملوا الفكر والتدبر لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق ووصلوا إلى سبيل الرشـد ولكن أنى لهم ذلك ؟
﴿ فمن يهـدى من أضل الله ﴾ أى فمن يهـدى من خلق الله فيه الضلال وجعله كاسبا له باختياره لسوء استعدادـه وميله بالفطرة إليه وعلم الله فيه ذلك ؟
﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أى وليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله وشديد انتقامه إذا حل بهم لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

الإسلام دين الفطرة

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

معانى المفردات

(حنيفا) : مائلا عن جميع الأديان المحرفة (فطرة الله) : خلقه الله (القيم) : المستقيم على الطريق الحق ، (منيبين إليه) : مقبلين عليه . (شيعة) : جمع شيعة وهى الحزب والجماعة المتشعبة لإمامها (حزب) : الحزب الجماعة المتحزبة المتجمعة حول رأى خاص .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عدد سبحانه البينات والأدلة على وحدانيته ، وأثبت الحشر وضرب لذلك المثل ، وسلى رسوله ووطن عزيمته على اليأس من إيمانهم ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، فلا يخلص لهم مما هم فيه ، ولا ينقذهم من ذلك لاهو ولا غيره فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . أعقب ذلك بأمره بالاهتمام بنفسه ، وعدم المبالاة بأمرهم ، وإقامة وجهه لهذا الدين غير ملتفت عنه يمـنة ولا يسرة ، فهو فطرة الله التى خلق العقول معترفة بها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ﴾ هذا أمر من الله تعالى إلى رسوله بتسديد وجهه إلى دين الله الحنيف المائل عن كل انحراف ، والخطاب كذلك موجه إلى كل عاقل رشيد رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ذلك لأن التوحيد هو فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل

لخلق الله، ذلك لأن الله تعالى خلق جميع عباده على تلك الفطرة دون تبديل أو تغيير . جاء في الحديث : « إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين عن دينهم »^(١) وقد يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أى لا تبدلوا خلق الله بتغيير فطرة التوحيد ، فيكون خبرا يفيد النهي والإنشاء كما في قوله : ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾^(٢) أى آمنوا من دخله . ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أى المستقيم الذى لا انحراف ولا اعوجاج فيه ﴿ قل إني هدى ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل غير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾^(٣) إن المستقيم أقرب صلة بين نقطتين وقد لقننا الله تعالى تلك الدعوة في سورة الفاتحة ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ كما أمر باتباع هذا الصراط فقال : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾^(٤) . قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ لأنهم اتبعوا الهوى ، والنفس الأمارة بالسوء ، وأصروا واستكبروا استكبارا عن الحق ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾^(٥) والناس أعداء ما جهلوا وإذا كانوا لا يعلمون فإنهم جاهلون وعلى أعينهم غشاوة . قال تعالى :

﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾^(٦)

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مامن مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »^(٧) . ثم يقول ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾

وروى الإمام أحمد بسنده عن الحسن عن الأسود بن سريع قال :

أتيت رسول الله - ﷺ - وغزوت معه فأصبت ظفرا فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال : « ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟

(١) هذا الحديث جزء من حديث (الإن ربى أمرنى أعلمكم ما جهلتم . . .)

صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٩٧ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة رقم ٦٣ /

٢٨٦٥

(٢) جزء من الآية ٩٧ من سورة آل عمران

(٣) سورة الأنعام الآيات ١٦١ - ١٦٤

(٤) سورة الأنعام آية ١٥٣

(٥) سورة فصلت الآيتان ٥ ، ٦

(٦) سورة الكهف الآيتان ١٠٠ ، ١٠١

(٧) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ مسند أبى هريرة .

فقال رجل : يا رسول الله أما هم أبناء المشركين فقال لا إنما خياركم أبناء المشركين - ثم قال - لا تقتلوا ذرية لا تقتلوا ذرية - وقال - كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها^(١)

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول أولاد المسلمين مع المسلمين وأولاد المشركين مع المشركين حتى حدثني فلان عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » قال : فلقيت الرجل فأخبرني فأمسكت عن قولي^(٢)

وروى الإمام أحمد بسنده عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « إن ربى عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا : كل ما نحلته عبادى حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فآضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ثم إن الله أمرنى أن أحرق قريشا ، فقلت ربى إذا يثلى رأسى فيدعه خبزة قال : استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك ، وأنفق فسنفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من

عصاك - قال - : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، ورجل عفيف متعفف ذو عيال وقال - وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زير له الذين هم فيكم تبعا لا يبتغون أهلا ولا مالا ، والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك^(٣)

قوله تعالى : ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ . الإنابة : هى الرجوع إلى الله تعالى . والتقوى هى : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر	تزود من التقوى فإنك لا تدرى
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى	فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا
وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر	وكم من عروس زينوها لزوجها
وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر	وكم من صغار يرتجى طول عمرهم
وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر	وكم من صحيح مات من غير علة

وإقامة الصلاة الإتيان بها مستقيمة كاملة بأركانها وشروطها وسننها ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾

أى اثبتوا على التوحيد فلاهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٣٥ مسند الأسود بن سريع

(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢١٥ مسند ابن عباس

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٦٦ مسند عياض بن حماد وانظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٩٧ ، ٢١٩٨ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب الطقات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة رقم ٢٨٦٥ / ٦٣ .

روى ابن جرير بسنده عن يزيد بن أبي سريم قال : مر عمر - رضى الله عنه - بمعاذ بن جبل فقال عمر . ما قوام هذه الأمة قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات الإخلاص وهى الفطرة . . فطرة الله التى فطر الناس عليها . والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة . فقال عمر صدقت .

قوله تعالى : ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أى لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أى بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم : فارقوا دينهم . أى تركوه وراء ظهورهم وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبداء الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ﴾ الآية (١) فاهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء ، وهذه الأمة أيضا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال : « من كان على من أنا عليه اليوم وأصحابى » .

بيان طبيعة الناس مع توجيهات لهم

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَيَسْتَفْتُوا فِى شَيْءٍ مِّنْهُ لَعَلَّ يُهْتَدُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا آذَقْنَاهُمُ النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴿٣٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٨﴾ فَعَاتِبْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رَّبٍّ بِأَمْرٍ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ ﴿٤٠﴾

معانى المفردات

(ضر) : المراد شدة وبلاء : (سلطانا) : حجة قوية تتسلط عليهم (يقنطون) : القنوط اليأس من رحمة الله . (ييسط) : يوسع (يقدر) : يضيق ﴿ وما آتيتم من ربا ﴾ : المراد ما فعلتم من ربا وجئتم به . (المضعفون) : مأخوذ من أضعف إذا صار ذا ضعف بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه كأقوى وأيسر إذا صار ذا قوة ويسار .

المناسبة وإجمال المعنى

لما أرشد سبحانه إلى التوحيد ، وأقام الأدلة عليه ، وضرب له المثل ؛ أعقبه بذكر حال للمشركين يعرفون بها ، وسياء لا ينكرونها ، وهى أنهم حين الشدة يتضرعون إلى ربهم ، وينيبون إليه ، فإذا خلصوا منها رجعوا إلى شنشتهم الأولى ، وأشركوا به الأوثان والأصنام ، فليضلوا ماشاءوا ، فإن لهم يوما يرجعون فيه إلى ربهم ، فيحاسبهم على ما اجترحوا من السيئات ، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل ، حتى يكون لهم شبه العذر فيما يفعلون ، بل هو الهوى المطاع ، والرأى المتبع ، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقهم ، وهم من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا ، فإن آتاهم ربهم منها رضوا ؛ وإذا منعوا منها سخطوا وقنطوا ، وقد كان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقثارها بيده وحده ، وقد جعل ذلك أسبابا متى سلكها فاعلها وصل إلى ما يريد ، وليس علينا إلا أن نطمئن نفوسنا إلى ما يكون ، فكله بقدر الله وقضائه ، وعلينا أن نستسلم له ، ونعمل ، ونعمل ما طلب إلينا عمله من الأخذ فى الأسباب والجد فى العمل جهد الطاقة .

وبعد أن بين سبحانه أنه ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر - أردف ذلك ببيان أنه يحب الإحسان على ذوى القربى وذوى الحاجات من المساكين وأبناء السبيل فإنه إذا بسط الرزق لمن ينقصه الإنفاق ، وإذا قدر لم يزد الإمساك .

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها * على الناس طرا إنها تقلب
فلا الجود يغنيها إذا هى أقبلت * ولا البخل يقيها إذا هى تذهب

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن حال فريق من الناس فى الضراء والسراء إن أصابهم ضر من فقر أو مرض أو شدة توجهوا إلى الله بالدعاء طالبين كشف الضر ، فإذا ما أذاقهم الله منه رحمة فكشف ما بهم من ضر وأسبغ عليهم نعمة أشركوا به غيره وأسندوا الفضل إلى من لا يملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا

أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره كذا زين للمسرفين ماكانوا يعملون ﴿١﴾ ماعاقبة هؤلاء الضالين . قال تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ أى ستكون عاقبتهم الكفر بما آتاهم الله من نعم وأسبغ عليهم من آلاء فتمتعوا فسوف تعلمون . هذا تهديد ووعد منه تعالى هؤلاء كما فى قوله جل شأنه ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ (٢) . قال بعضهم والله لوتوعدنى حارس درب لحفت منه فكيف والمتوعد ههنا هو الذى يقول للشئ كن فيكون . ثم قال تعالى منكرا على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان .

﴿ أم أنزلنا عليهم سلطانا ﴾ أى حجة ﴿ فهو يتكلم ﴾ أى ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ وهذا استفهام إنكار أى لم يكن لهم شئ من ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها . وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه ، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر . وقال ﴿ ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴾ (١) أى يفرح فى نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ (٢) أى صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء كما ثبت فى الصحيح « عجا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » (٣) . وقال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ قوله تعالى : ﴿ فات ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ هذا أمر منه - سبحانه وتعالى - بإيتاء ذى القربى حقه من البر والصلة والإحسان كذلك إعطاء المسكين الذى لا يملك شيئا أو يملك مالا يكفيه ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر الذى يحتاج إلى مايعينه من النفقة فذلك كله خير للذين يقصدون ما عند الله ويؤدون العمل خالصا لوجهه تبارك وتعالى ، وهؤلاء هم الذين حكم الله لهم بالفلاح فى قوله : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ أى من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لاثواب له عند الله ، بهذا فسرہ ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبى ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله

(١) سورة يونس آية ١٠

(٢) سورة الحجر آية ٣

(٣) سورة هود جزء من آية ١٠

(٤) سورة هود جزء من الآية ١١

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٥ كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير رقم ٢٩٩٩ / ٦٤

الضحك وأستدل بقوله تعالى : ﴿ولا تمنن تستكثر﴾^(١) أى لاتعط العطاء تريد أكثر منه ؛ فمن كان يريد ثواب الله فليدفع من ماله الزكاة فإنها ثناء وطهارة وبركة ويريد بها وجه الله تعالى دون رياء أو سمعة . إن الذين يفعلون هذا هم المضعفون الذين يضاعف لهم الثواب يوم القيامة ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾^(٢) ﴿الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم لبتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير﴾^(٤)

وقال تعالى : ﴿وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾^(٥) وفى الصحيح : « ماتصدق أحد بعدل ثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوله أو فصيلة حتى تصير التمرة أعظم من أحد »^(٦) وروى عن أبى برزة الأسلمى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله عز وجل حتى تكون مثل أحد)^(٧) . رواه الطبرانى فى الكبير . - معنى الكسرة : القطعة من الخبز .

وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله عز وجل ليدخل باللقمة الخبز ، وقبضة التمر ، ومثله مما يتتبع به المسكين ثلاثة الجنة : رب البيت الأمر به ، والزوجة تصلحه ، والخادم الذى يناول المسكين ، فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى لم ينس خدمنا)^(٨) . رواه الحاكم والطبرانى فى الأوسط . - معنى (القبضة) بفتح القاف وضمها ، وإسكان الباء ، وبالصاد المهملة : هو ما يتناوله الآخذ برءوس أنامله الثلاث .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل)^(٩) رواه مسلم والترمذى ، ورواه مالك مرسلا . وروى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (يا أيها

(١) سورة المدثر آية : ٦

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦١

(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٢

(٤) سورة البقرة آية : ٢٦٥

(٥) جزء من الآية ٣٩ من سورة سبأ

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٢ كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب رقم ١٠١٤ / ٦٣

(٧) الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٢٦٨ ، مسند أبى هريرة .

وأنظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ٣٣٣

(٨) الحديث فى كتاب المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ٤ ص ١٣٤ ، ١٣٥ كتاب الأطعمة . وقال هذا حديث صحيح على

شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٩) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٠١ كتاب البر والصلة باب استحباب العفو والتواضع رقم ٢٥٨٨ / ٦٩

الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا^(١) . رواه ابن ماجة .

- معنى : ﴿ كثر ذكركم له ﴾ أى داوموا على ذكر الله وحمده وتسبيحه واستغفاره والصلاة على حبيبہ ﷺ .

- ومعنى ﴿ تجبروا ﴾ تجب دعواتكم وتغتنوا .

من دلائل التوحيد ونتائج الأعمال

قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴿٤١﴾ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴿٤٢﴾ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ** ﴿٤٣﴾ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَافِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ** ﴿٤٤﴾ **مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ** ﴿٤٥﴾ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** ﴿٤٦﴾

معاني المفردات

(الفساد) : الجذب ، وأخذ المال ظلماً ، والمفسدة ، ضد المصلحة .

(يرجعون) : يثوبون إلى رشدهم ويؤمنون بربهم . (لامرد له) : لا راد له ولا مانع منه .

(يصدعون) : يتفرقون (يمهدون) : يوطئون لأنفسهم فراشاً ومسكناً وقراراً .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه ، وأشركوا به غيره ، والشرك سبب الفساد ، كما

(١) الحديث في سنن ابن ماجة ج ١ ص ٣٤٣ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب في فرض الجمعة رقم ١٠٨١

يرشد إلى ذلك قوله : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾^(١) - أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمت الله ، واجتروا المعاصي ، وفشا بينهم الظلم والطمع ، وأكل القوى مال الضعيف ، فصب عليهم ربهم سوط عذابه ، فكثر الحروب ، وافتن الناس في أدوات التدمير والإهلاك ، فمن غائصات البحار تهلك السفن الماخرة فيها ، إلى طائرات قاذفات للحمم والمواد المحرقة ، إلى مدافع تحصد الناس حصدا ، إلى دبابات سميكة الدروع تهد المدن هذا ؛ وما الحرب القائمة الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية ، والمجازر البشرية التى سلط الله فيها العالم بعضه على بعض ، فارتكب المظالم ، واجترح المآثم ، والإنسان فى كل عصر هو الإنسان .

وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم ، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم ، فليجعلوا من سبقهم مثلاً لهم ، ليتذكروا عقاب الله وشديد عذابه للمكذبين . وبعد أن نهى الكافر عن بقاءه على حاله التى هو عليها خيفة أن يحل به سوء العذاب أردف ذلك أمر رسوله ومن تبعه بالثبات على ما هم عليه ، بعبادتهم الواحد الأحد ، قبل أن يأتى يوم الحساب ، الذى يتفرق فيه العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، فمن كفر فعليه وبال كفره ، ومن عمل صالحاً فقد أعد لنفسه مهاداً يستريح عليه بما قدم من صالح العمل . وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه مالا يخطر له ببال ، ولا يدور له فى حسابان والكافر سيلقى فى هذا اليوم العذاب والنكال ، لأن ربه يبغضه ويمقتة جزاء مادسى به نفسه من سىء العمل .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتهم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ الخالق الرازق هو الله وحده ، والمحيى المميت هو الله وحده . الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل . ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾^(٢) . يقول جل شأنه : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾^(٣) وهكذا جمعت الآيتان بين الخلق والرزق . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾^(٤) . وقال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى ﴾^(٥) وقال : ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾^(٦) وقال : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى

(٤) سورة النساء آية ١

(٥) سورة الأعلى آية ١ ، ٢

(٦) سورة الأعراف آية ١٨٩

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢

(٢) سورة الأنعام الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣

(٣) سورة البقرة آية ٢١ ، ٢٢

خلقت فسواك فعدلك . في أى صورة ماشاء ركبك . ﴿^(١)﴾ . ثم قرن الرزق بالخلق لأن الرزق قضية طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها أعماق القلوب . ومن ثم فقد أكدها القرآن إلى أبعد مدى من التوكيدات . قال تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾^(٢) وقال : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾^(٣) وقال جل شأنه : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾^(٤) وقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾^(٥) وقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾^(٦) وقال : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾^(٧) فاعلم يا ابن آدم أنه لا يملك الروح والرزق إلا الله فلوركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع في فمه .

الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل
لكنه خلق الإنسان من عجل

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا

واعلم أنه ما قدر على ماضيك أن تمضغه فلا بد أن تمضغه فامضغه بعزة .
لا تخضعن لمخلوق على طمع
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة
فإن ذلك نقص منك في الدين
فلا تصاحب غنيا تستعز به
إلا بإذن الذى سواك من طين
واستغن بالله عن دنيا الملوك
وكن عفيفا وعظم حرمة الدين
كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين
فإن رزقك بين الكاف والنون
واسترزق الله مما في خزائنه

ومن هنا فإن الله تعالى ذكر الخلق والرزق بصيغة الماضي ليفيد معنى الثبوت والاستقرار، ثم ذكر الموت والحياة بصيغة المضارع ليفيد أنها سيأتيان فيما بعد لاحالة فقال : ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ ثم قال : ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ ثم أجاب سبحانه قائلا : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ واقرأ معى قوله جل جلاله : ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾^(٨) سبحانه اللهم خلقتنا فأنت على كل شيء قدير ورزقتنا فأنت أكرم الأكرمين ، وتميتنا لأنك أنت الجبار ذو القوة المتين،

(٥) سورة الأنعام جزء من الآية ١٥١

(٦) سورة الإسراء آية ٣١

(٧) سورة العنكبوت آية ٦٠

(٨) سورة النمل آية ٦٤

(١) سورة الأنفطار الآيات ٦ ، ٧ ، ٨

(٢) سورة الذاريات آية ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة الذاريات الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

(٤) سورة هود آية ٦

وتحيينا فانت أعدل العادلين وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين .
 قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ لأئمة التفسير في هذه الآية أقوال نبينا في مايلي : قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدى وغيرهم : المراد بالبر ههنا الفياق وبالبحر الأمصار والقرى ، وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار ، والقرى ماكان منها على جانب نهر ، وقال آخرون بل المراد بالبر هو البر المعروف وبالبحر هو البحر المعروف ، وقال زيد بن ربيع ﴿ ظهر الفساد ﴾ يعنى انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعنى دوابه ، رواه ابن أبي حاتم . وقال : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد بن المقرئ عن سفيان عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ قال فساد البر قتل ابن آدم ، وفساد البحر أخذ السفينة غصبا ، وقال عطاء الخراساني المراد بالبر ما فيه من المداخن والقرى ، وبالبحر جزائره . والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون ، ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق في السيرة : أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة وكتب إليه ببحره يعنى ببلده .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ أى بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي .

وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء في الحديث الذى رواه أبو داود : (لَحْدٌ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَى أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا)^(١) والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سببا في حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية وهو تركها فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج قيل للأرض أخرجى بركتك فياكل من الرمانة الفئام من الناس ويستظلون بحقفها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس وماذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد - ﷺ - فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير ، ولهذا ثبت في الصحيحين (أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)^(٢) . وقال الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن أبي نعيم قال : وجد رجل في زمان زياد أو ابن زياد حبرة فيها حب يعنى من بر أمثال النبى مكتوب فيها هذا نبت في زمان كان يعمل فيه بالعدل ، وروى مالك عن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ههنا الشرك ، وفيه نظر وقوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ الآية . أى يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارا منه لهم ومجازاة على صنيعهم . ﴿ لعلهم يرجعون ﴾

(١) الحديث في السنن الكبرى للبيهقى ج ٨ ص ١٦٢ كتاب قتال أهل البنى باب فضل الإمام العادل .

- الحديث في مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٦٢ مسند أبي هريرة

- انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ٨٤٨ كتاب الحدود باب إقامة الحدود رقم ٢٥٣٧ ، ٢٥٣٨

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الجنائز باب ما جاء في مستريح ومستراح منه ج ٢ ص ٦٥٦ رقم ٩٥٠ / ٦١

أى عن المعاصى . كما قال تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾^(١) قال ابن زيد المراد بالفساد الذنوب .

قال الإمام ابن القيم : قلت : أراد أن الذنب سبب الفساد الذى ظهر ، وإن أراد أن الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها .

فيكون اللام فى قوله ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الأول : فالمراد بالفساد : النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصى العباد فكلما أحدثوا ذنبا أحدث الله لهم عقوبة . كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة . والظاهر - والله أعلم - أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ فهذا حالنا دائما ، أذاقنا الله الشيء اليسير من أعمالنا ، فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾

أى الذين من قبلكم . ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ أى فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم وذلك كقوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾^(٢) ثم يقول سبحانه : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾^(٣) قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين ﴾

يقول تعالى آمرا عباده بالمبادرة إلى الاستقامة فى طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات ، ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ﴾ أى يوم القيامة إذا أراد كونه ، فلا راد له ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ أى يتفارقون . ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ولهذا قال تعالى : ﴿ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ أى يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم الذى لا يجور .

من آياته فى الرياح والمطر

قوله تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ

(١) جزء من الآية ١٦٨ سورة الأعراف

(٢) سورة الانعام آية ١١

(٣) سورة العنكبوت آية ٤٠

وَلِتَجْرِىَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رَسُولًا
إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا ۚ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ
﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ رِكَسًا فَتَرَى
الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۚ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ۚ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ
كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ ۚ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَاَنْظُرْ إِلَىٰ ۚ اثْرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا
فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ ۚ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ
إِذَا أُولُوا مَذْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

معانى المفردات

(مبشرات) : تبشر بالخير (أجرموا) : فعلوا جرماً وارتكبوا إثماً . (فتشير) : تهيجه وتحركه
(فيسطه) : المراد ينشره متصلاً ببعضه ببعض . (كسفا) : جمع كسفة وهى القطعة من الشيء
(لمبلسين) : يقال أبلس الرجل فهو مبلس سكت فلم ينطق وقيل أيس . (مصفرا) : أى رأوا الزرع
مصفرا لجفافه (الرياح) : جمع ريح قال أبو عمر : كل ماكان بمعنى الرحمة فهو جمع . وماكان بمعنى
العذاب فهو مفرد ، وعليه قول النبى - ﷺ - : (اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا) (١) : (فترى
الودق) الودق هو المطر .

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه أن الفساد ظهر فى البر والبحر بسبب الشرك والمعاصى ، نبههم إلى دلائل وحدانيته
بما يشاهدونه أمامهم من إرسال الرياح وبالأقطار ، فتحيا بها الأرض بعد موتها . وجرى الفلك حاملة لما
هم فى حاجة إليه ، مما فيه غذاؤهم ، وعليه مدار حياتهم .

(١) الحديث فى كنز العمال ج ٧ ص ٧٥ حديث رقم ١٨٠٣٣ . وقال محققه . رواه الطبرانى وفيه حسن بن قيس - وهو متروك
وبقية رجاله رجال الصحيح ؛

ولما ذكر سبحانه البراهين الساطعة الدالة على الوجدانية والبعث والنشور ، ولم يرعو بها المشركون ، بل لجوا في طغيانهم يعمهون ، سلى رسوله - ﷺ - فذكر له أنك لست أول من كذب ، فكثير ممن قبلك جاءوا أقوامهم بالبينات ، فلم تغنهم الآيات والنذر ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم ، فلا تبثس بما كانوا يعملون ، ولنجرين عليك وعلى قومك سنتنا ، ولنتقم منهم ، ولننصرنك عليهم ، فالعاقبة للمتقين .

وبعد أن سلى رسوله - ﷺ - على ما يلاقيه من أذى قومه ببيان أنه ليس ببدع في الرسل ، فكأين من رسول قبله قد كذب ، ثم دالت الدولة على المكذبين ، ونصر الله رسوله والمؤمنين ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فأتبع البرهان بالبرهان لإثبات الوجدانية ، وإمكان البعث والنشور بما يشاهد من الأدلة في الآفاق ، مرشدة إلى قدرته ، وعظيم رحمته ، ثم بما يرى في الأرض الموات من إحيائها بالمطر ، وهو دليل لا تحصى يشاهدونه ، ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين ، والفينة بعد الفينة ، أفليس فيه حجة لمن اعتبر ومقنع لم ادكر ؟

وبعد أن ذكر سبحانه صنوف الأدلة ، ثم ضرب المثل على توحيده . ووجوب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وصحة بعث الأجسام يوم القيامة .

ووعده وأوعده بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ثم مازادهم دعاء الرسول إلا إعراضا ، ولا تكرار النصيح إلا إصرارا وعنادا - أردف هذا تسليته على ما يراه من التمداد في الإعراض ، وكثرة العناد واللجاج ، فأبان أن هؤلاء كأنهم موت ، فأنى لك أن تسمعهم ، وكأنهم صم ، فكيف يسمعون دعاءك حتى يستجيبوا لك ؟ إنما الذى يستجيب من يؤمن بآيات الله ، فهو إذا سمع كتابه تدبره وفهمه ، فيخضع لك بطاعته ، ويتذلل لمواعظ كتابه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾

أى ومن الأدلة على وحدانيته تعالى ، والحجج القائمة على أنه رب كل شيء أنه يرسل الرياح من حين إلى آخر مبشرات بالغيث الذى به تحيا الأرض وينبت الثمر والزرع فتأكلون منه مالد ، حاملة للأقوات وأنواع الثمار منتقلة من قطر إلى قطر ، فتأتى بما فى أقصى المعمور من الشرق إلى أقصاه فى الغرب والعكس بالعكس ، فلا تحتجب الثمرات والأقوات فى أماكنها وتكون وقفا على قوم بأعيانهم . ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أى وليعبدكم لشكره كفاء ما أسدى إليكم من نعمه الوفيرة وخيراته العميمة التى لا تحصى كما قال : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾

أى ولقد أرسلنا أيها الرسول رسلا من قبلك إلى أقوامهم الكافرين كما أرسلناك إلى قومك عابدى

الأوثان من دون الله فجاءوهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند الله فكذبوهم كما كذبك قومك ، وردوا عليهم ماجاءوهم به من عنده ، كما ردوا عليك ماجتتهم به ، فانتقمنا من الذين اجترحوا الآثام واكتسبوا السيئات من أقوامهم ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله ، ونحن فاعلو ذلك بمجرى قومك وبمن آمن بك سنة الله التى شرعها لعباده ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو لا يخلف الميعاد . أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه والترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « مامن مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » (١) ثم تلا ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعد والبشارة بالظفر على أعدائه والوعيد والنكال والخسران فى المال ، لمن كذب به من قومه .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ .
 أى : الله الذى يرسل الرياح فتتشىء سحابا فيثثره ويجمعه جهة السماء تارة سائرا وأخرى واقفا وحينما قطعها فترى المطر يخرج من وسطه فإذا أصاب به بعض عباده فرحوا به لحاجتهم إليه .
 ﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾

أى : وقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم قانطين يائسين من نزوله ، فلما جاءهم على فاقة وحاجة وقع منهم موقعا عظيما .

والخلاصة : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ومن قبل ذلك أيضا إذا هم ترقبوه فى إبانة فتأخر ، ثم مضت فترة فترقبوه فيها فتأخر ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط وبعد أن كانت أرضهم هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

﴿ فانظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾ أى : فانظر أيها الرسول أثر الغيث الذى أنبت من الزرع والأشجار والثمار وفيه الدليل الكافى على عظيم القدرة وواسع الرحمة .
 وإذا قد ثبتت قدرته على إحياء الميت من الأرض بالغيث ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها وتفرقها وتمزقها إربا إربا ومن ثم قال :

﴿ إن ذلك لمحى الموتى ﴾ أى : أن ذلك الذى قدر على إحياء الأرض قادر على إحياء الأجسام حين البعث .

ثم أكد هذا بقوله ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ فلا يعجزه شىء فإحياءكم من قبوركم هين عليه ونحو الآية قوله ﴿ قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ (٢)

(١) الحديث فى شرح السنة للبغوى ج ١٣ ص ١٠٦ حديث رقم ٣٥٢٨ وقال فيه ليث وشهر وحى ضعيفان .
 - الحديث فى سنن الترمذى ج ٣ ص ٢١٩ أبواب البر والصلة باب ماجاء فى الذب عن المسلم . رقم ١٩٩٦ .

(٢) سورة يس جزء من الأيتان ٧٨ ، ٧٩

ثم ذمهم على تزلزلهم وسوء اضطرابهم ، فإذا أصابهم الخير فرحوا به وإن أصابهم السوء يشوا وأبلسوا وانقطع رجاؤهم من الخير فقال :
﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾

أى ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة على الزرع الذى زرعوه وثنا واستوت على سوقه فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرتة - لظلوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يجحدون نعم الله السابقة عليهم . ولا يخفى ما فى ذلك من المبالغة فى احتقارهم لتزلزلهم فى عقيدتهم ، إذا كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله فى كل حال ويلجأوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر ولا ييأسوا من روح الله ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جل وعلا برحمته وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه لكنهم قد عكسوا الأمر ، وأبوا ما يجديهم وأتوا بما يؤذيهم .

إفراد الريح وجمعها

بعد أن تحدث ابن القيم فى كتابه « بدائع الفوائد » عن إفراد السماء فى قوله - تعالى - ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾^(١) من سورة يونس وجمعها فى قوله - تعالى - : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾^(٢) من سورة سبأ ، قال : ومن هذا الباب ذكر الرياح فى القرآن جمعا ومفردة ، فحيث كانت فى سياق الرحمة أتت مجموعة ، وحيث وقعت فى سياق العذاب أتت مفردة ، وشر ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها مما يكسر سورتها ، ويصدم حداثها فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكل ريح منها فى مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها ، فكانت فى الرحمة ريحا ، وأما فى العذاب فإنها تأتى من وجه واحد وحمام واحد لا يقوم لها شيء ولا يعارضها غيرها حتى تنتهى إلى حيث أمرت ، لا يرد سورتها ولا يكسر شدتها ، فتمثل ما أمرت به وتصيب ما أرسلت إليه ، ولهذا وصف - سبحانه - الريح التى أرسلها على عاد بأنها عقيم ، فقال : ﴿ فأرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾^(٣) وهى التى لا تلقح ، ولا خير فيها ، والتى تعقم ما مرت عليه ، ثم تأمل كيف اطردها هذا إلا فى قوله فى سورة يونس : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ﴾^(٤) فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الافراد ؛ لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها ، فإذا اختلف عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك ،

(١) من الآية : ٣١ من سورة يونس

(٢) من الآية : ٢٤ من سورة سبأ

(٣) من الآية : ٤١ من سورة الذاريات .

(٤) من الآية ٢٢ من سورة يونس .

فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح ، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعا لتوهم أن تكون ريحا عاصفة ، بل هى مما يفرح بها لطيبها ، فليتزها الفطن بصيرته فى هذه الرياض الموفقة المعجبة التى ترقص القلوب لها فرحا ويتغذى بها عن الطعام والشراب ، والحمد لله الفتاح العليم . فمثل هذا الفصل يعرض عليه بالنواجز وتثنى عليه الخناصر ، فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله ، والله الموفق للصواب .

منطق العلم

وللعلم كلمته الدالة على قدرة العلى الحكيم وعظمته ووحدانيته وما له من قوة فائقة فى صنع هذا الكون وظواهره : من سحب ومطر ورياح وجبال وكهربائية جوية ، ولنسلط الأضواء على تلك المخلوقات لنقف على مدى ما تشتمل عليه من صنع الله الذى أتقن كل شئ .

السحاب

هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العلوية كما يتكاثف الضباب فى الطبقات القريبة من الأرض ، ولا بد لتكوين السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرها فى الهواء العلوى ، الأول : أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار . والثانى : أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكل هواء يكفى فى زيادة تشبعه ان يبرد تبريدا كافيا ، لكن من الواضح انه كلما كانت نسبة الرطوبة فى الهواء اكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر ، فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الاساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجوفى تلك المناطق ، وثانيا قلة الضغط فى المناطق الجوية العليا ، فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدرج كلما زاد الارتفاع ، ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد ؛ لأنه يتمدد أثناء صعوده ، ويزداد تمدده كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها ، فالهواء إذا صعد يبرد مرتين ، مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ، ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معا حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد فكونت سحبا عظيمة ، قاعدتها أفقية حيث ابتداء زيادة التشبع ، وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل فى تمددها ، هذا هو السحاب الركام ، ويكثر فى العواصف الرعدية ، ويكون عندئذ عظيم العمق عظيم الارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية ، فإن الريح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت بريح باردة انخفضت درجة حرارة الأولى ، وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيرا ما تكون فوق مقدرة الريحين أن تحملها فى درجة الحرارة الناتجة ، أى : كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين : دافئة وباردة ريح واحدة فوق المشبعة وقد كان

الرياحان من قبل غير مشبعتين .

وقد تمر الباردة من تحت الساخنة في الطبقات العلوية فيتكون السحاب بينها عند ماحتكها ويكون السحاب عندئذ متموجا لتموج الهواء عند ملتقى الريحين ، وللرياح دخل عظيم في تكوين السحاب وتوزيعه لكن سر الرياح وتقلباتها لم يدرك العلم غوره إلى الآن .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال ، وهذه تفعل فعلها بطريقتين : طريق تبريد الرياح الأفقية التي تصطدم بأعاليها ؛ لأن أعالي الجبال الشاخنة شديدة البرودة ، فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع ، وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ماء يسيل على جوانب الجبال ، هذا طريق . والطريق الثاني : طريق تحويل مجرى الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية حيث يتكاثف بخارها سحابا ، ويتكاثف سحابها مطرا على أعالي تلك الجبال .

لكن التبريد إلى ما فوق التشبع لا يكفي وحده في تكوين السحاب إلا إذا بلغ مبلغا عظيما ، بخلاف ما إذا كان في الهواء ما يتكاثف البخار حوله كالغبار ، فإن البخار عندئذ يتكاثف بمجرد انخفاض درجة حرارته ولو قليلا عن درجة التشبع أو درجة (الندى) كما يسمونها . وجسيمات الغبار الخفية والمرئية ليست هي كل ما يتكاثف عليه بخار الماء في الهواء ، ولو كانت هي كل ما يمكن أن يصلح نوى لقطيرات الماء في الهواء فوق التشبع لعز تكون السحاب ، ولاقتصر على المناطق التي يكثر في أجوائها العليا هذا الغبار ، لكن الذي قدر الأشياء ، وعلم حاجة الزرع والحيوان إلى الماء ، جعل مما يتكاثف عليه البخار في أعالي الجو أشياء أخرى غير الهواء ، هي الذرات والجزيئات الغازية المجهرية المعروفة بالأيونات أو الأويلبات جمع الأويلب ، تصغير آلب ، من الفعل : ألبى ، بمعنى : ساق وجمع واجتمع وأسرع - كما في القاموس - .

وعوامل أولية أو تأيين الهواء ، أى : تكوين الأيونات أو الأويلبات فيه متعددة : منها النيران ، فإن النار فيها غازات محملة بالنوعين الموجب والسالب ، ومنها الضوء ، فإن أشعة الشمس إذا اخترقت الهواء أينتته أو أولبته ، فيتكون في مسار كل شعاع عدد كبير أو صغير من الأيونات ، ومنها الأشعة النفاذة الجيمية التي تخرج من العناصر الشعاعية الموجودة في القشرة الأرضية ، أو الأشعة النفاذة الكهربائية المصدر المعروفة بأشعة رنتجن . ومنها احتكاك الماء في البحار بتلاطم الأمواج بعضها ببعض وبالساحل أو بالصخور ، فقد عرف أن الكهرباء تتولد بالاحتكاك . والبخار الذي يتصاعد من المياه المتلاطمة يحمل هذه الكهرباء بعضها أو كلها إلى الطبقات العليا الجوية ، وكل جزء من جزيئات هذا البخار المكهرب ، كغيره من الأيونات - يصلح أن يكون نواة يتكاثف عليها البخار .

فأنت ترى أن جميع ما يساعد على تكوين السحاب موجود في الطبقات العليا الجوية ، سواء أكان من ناحية البرودة أم من ناحية النويات اللازمة لتكاثف البخار إذا تجاوز الهواء درجة التشبع - ولو قليلا - التبريد .

المطر

لكن تكون السحاب لا ينفع الناس شيئا إذا لم يكن فى الإمكان أن ينزل ماؤه عليهم مطرا ، وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا نمت قطراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء ، إن القطيرات السحابية خاضعة طبعا للجاذبية ، فهى تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ولو كان ساكنا يقاوم مرورها فيها ، والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء .

وإن الجاذبية إنما تنفع نفعها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية . وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهربائية الجوية ، وإن كان العلم لم يحط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

الرياح والجبال والكهربائية الجوية

والرياح كما لها أبعد الأثر فى تكوين السحاب لها أبعد الأثر فى تكثيفه مطرا بفعل الجبال أو بفعل الكهربائية الجوية ، فأما الجبال فإنها مكثفات هائلة نصبها الله لتكثيف السحاب من الجو إذا حملته إليها الرياح ، لكن السحاب إذا لامس أعلى الجبال الباردة سواء أكان متكونا عليها أو محمولا إليها تكاثف على سطحها ماء بالتجمع وبالتبريد ، ومن هنا كانت الأنهار منابعها كلها من الجبال . وإلى هذا كله تشير الآية الكريمة التى من الله فيها بالجبال من هذه الناحية على الإنسان إذ يقول - سبحانه - : ﴿ أَلَمْ نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ (١)

وأظنك الآن تدرك بعض سر ترتيب سقيا الناس الماء على شموخ الجبال ، وإذا تذكرت أن هذا الماء كله مصدره البحار المالحة أدركت سر وصف الماء هنا بالذات . والكهربائية التى تتولد فى الهواء والتى ذكرنا لك بعض مصادرها يكتسبها السحاب عند تكونه على الأيونات أو الأوليبات التى تحملها هذه فى الطبقات العليا الجوية ، وأنت تعرف أن نوعى الكهربائية يتجاذبان ، وأن الموجب والموجب أو السالب والسالب يتدافعان أو يتنافران كما تشاء أن تقول ، هذا التدافع أو التنافر من شأنه . تفريق السحاب ذى النوع الواحد .

لكن الله - سبحانه - قد يجمعه برغمه بواسطة الرياح ، وعندئذ تكبر السحابة ، وقد كانت قبل سحابتين أو أكثر ، وتكبر شحنتها الكهربائية ، ثم إذا شاء الله ساق السحاب بالريح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قربا كافيا فى اتجاه أفقى أو فى اتجاه رأسى ، أو فيما شاء الله من الاتجاهات ، فإذا اقتربا تجاذبا ، ومن شأن اقترابهما هذا أن يزيد فى كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ، ولا يزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى لا يكون محيص من اختلاطهما واتخاذ كهربائيتها بهدوء ، أو من اتخاذ كهربائيتها من بعد ، وعندئذ تحدث شبه شرارة عظمى كهربائية ، هى البرق الذى كثيرا ما يرى فى

البلاد الكثيرة الأمطار .

والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائي ، سواء حدث في هدوء أو بلا براق ، فإذا حدث بهدوء حدث بين القطيرات المختلفة في السحابتين فتجذب كل منها قرينتها أو قريناتها حتى تتحد وتكون قطرة فيها ثقل فتتزل ، وتكبر أثناء نزولها بما تكتسب من كهربائية وما تجذب من قطيرات أثناء اختراقها السحاب المكهرب الذي يكون بعضه فوق بعض في السحاب الركام ، أما إذا حدث الاتحاد الكهربائي في شدة البرق وعنفه فإنه يحدث لابين القطيرات ولكن بين الكتل من السحاب ويسهل حدوثه عند تخلخل الهواء ، أى : قلة ضغطه في تلك الطبقات .

والبرق يمثل قوة كهربائية هائلة ، تستطيع أن تكون فكرة عنها إذا عرفت أن شراسته قد تبلغ أميالا في طولها أو تزيد ، وأن أكبر شراة كهربائية أحدثها الإنسان لا تزيد على بضعة أمتار ، فالحرارة الناشئة عن البرق لا شك هائلة فهي تمدد الهواء بشدة ، وتحدث مناطق جوية عظيمة مغلخلة ، الضغط داخلها يعادل الضغط خارجها مادام الهواء داخل المنطقة ساخنا ، حتى إذا تشععت حرارته وبردت تلك المناطق برودة كافية - وما أسرع ما تبرد - خف منها الضغط وصار أقل كثيرا من ضغط الطبقات الهوائية السحابية المحيطة بها ، فهجمت عليها فجأة بحكم الفرق العظيم بين الضغطين وتمددت فيها وحدث لذلك صوت شديد هو صوت الرعد وهزيمه أو هديره ، هذا الصوت قد يكون صدى الرعد بين كتل السحاب يتردد ، فنسميه قعقة الرعد ، أو حدوث الشراة الكهربائية البرقية ، فهو بدء الرعد ، ويكون ضعيفا بالنسبة لهزيمه وقعقته ، لذلك نسمع الرعد ضعيفا في الأول ثم يزداد كأنما أوله إيذان بتضخمه ، كما قد تؤذن الطلقة المفردة بانطلاق بطاريات برمتها من المدافع الضخمة في الحروب ، فالرعد يحدث لا عند اتحاد الكهربائيتين حين يحدث البرق فقط ، ولكن يحدث أكثره بعد ذلك عند تمدد الكتل الهوائية العظيمة الهاجمة في المنطقة المفرغة ، وهي إذا تمددت بردت برودة شديدة فيتكاثف ما فيها من البخار ومن كتل السحاب فينزل على الأرض إما مطرا واما بزدا حسب مقدار البرودة الحادثة في تلك المناطق ، وهذا هو السبب في أن الرعد والبرق يعقبهما في الغالب مطرات شديدة ، سواء أكانت المطرة مائية أم بردية ، وقطرات الماء أو حبات البرد تنمو بعد ذلك باختراقها كتل السحاب المتراكم تحت المنطقة التي حدث فيها التفريغ .

سبحانك اللهم ويحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، حكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، ويطنت فخبرت ، وملكيت فقدرت .

فواعجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

قوله - تعالى - ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءِ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مِنْ يَوْمِنَ بآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلَمُونَ ﴾^(١)

(١) الأيتان : ٨٠ - ٨١ من سورة النمل .

قال العلامة ابن كثير :

يقول - تعالى - كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجدائها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله ؛ - تعالى - بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء - إذا شاء - ويهذى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال - تعالى - ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾

أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال - تعالى - ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾^(١) وقد استدلت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - بهذه الآية : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قلب بدر بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يارسول الله ما يخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال : (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون)^(٢) وتأولته عائشة - على أنه قال : (إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق) وقال قتادة : أحياهم الله حتى سمعوا مقالته تقيحاً وتوبيخاً ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً : (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام)^(٣) وثبت عنه ﷺ لأمره إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه ، فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين . وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر ، فروى ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : (ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم)^(٤) وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : إذا مر الرجل بقبر يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام . وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدري قال : رأيت عاصم الجحدري فى منامى بعد موته بسنتين فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى . قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا - والله - فى روضة من رياض الجنة ؟ أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله

(١) الآية : ٣٦ من سورة الأنعام

(٢) رواه أحمد فى مسند عبد الله بن عمر ح ٢ ص ١٣١ والرواية التى معنا هى رواية انس فى صحيح مسلم برقمى ٢٨٧٣/٧٦ ، ٢٨٧٤/٧٧ ح ٤ ص ٢٢٠٢ ، ٢٢٠٣ وانظر مسند انس فى مسند الامام أحمد .

(٣) ابن كثير فى تفسيره ح ٦ ص ٣٣٠

(٤) الحديث فى تحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ح ١٠ ص ٣٦٥ وقال العراقى ب - رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور وفيه عبد الله بن سميان ولم أقف على حاله . ورواه ابن عبد البر فى التمهيد من حديث ابن عباس نحوه ، وصححه عبد الحق الاشيل .

المزني فنتلقى أخباركم . قال : قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! ! قد بليت الأجسام ، وإنما تتلقى الأرواح . قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس . قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته . قال : وحدثنا محمد ابن الحسين بسنده عن حسن القصاب قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الإثنين ؟ قال : بلغنى أن الموق يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها . قال : حدثنا محمد ، حدثنا عبد العزيز ابن أبان قال : حدثنا سفيان الثوري قال : بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

حدثنا خالد بن خدّاش ، حدثنا جعفر بن سليمان عن أبي التياح يقول : كان مطرف يغدو فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال : وسمعت أبا التياح يقول : بلغنا أنه كان ينزل بغوطة فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قد جالساً على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتي الجمعة ، ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم : ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت : وما يقولون ؟ قال : يقولون : سلام عليكم .

حدثني محمد بن الحسن بسنده عن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال : لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً ، فكنت آتي قبره في كل يوم ، ثم قعدت عن ذلك ما شاء الله ، ثم إنى أتيت يوماً فبينما أنا جالس عند القبر غلبتني عيناى فنمت ، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج وكأنه قاعد في قبره متوشح أكفانه عليه سحنة الموتى ، قال : فكأنى بكيت لما رأيته قال : يا بني ما أبطأ بك عني ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولى بدعائك . قال : فكنت آتية بعد ذلك كثيراً .

حدثني محمد ، حدثنا يحيى بن بسطام عن عثمان بن سويد الطفاوى قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخرى وذخيرتى ، من عليه اعتمادى في حياتى وبعد موتى ، لا تحذلى عند الموت ولا توحشنى . قال : فماتت فكنت آتيتها في كل جمعة فأدعو لها واستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم في منامى فقلت لها : يا أمى كيف أنت ؟ قالت : أى بنى : إن للموت لكربة شديدة ، وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود يفرش فيه الرياحان وتوسد السندس والاستبرق إلى يوم النشور . فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم . قلت : وما هى ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا ؛ فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، يقال لى : ياراهبة هذا ابنك قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

حدثني محمد ، عن محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال :

آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأنسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فادعوا كما كنت أدعو ، قال : فبينما أنا نائم إذا بخلق قد جاءونى ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها ، قال : قلت : فإنى أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه .

قال عبد الله بن المبارك بسنده عن أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسنا فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءا قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الخوارى قال : حدثنا محمد أخى قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظمى قال : بم أعظك أصلحك الله ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك . فبكى إبراهيم حين أخضل لحيته ..

قال ابن أبي الدنيا ، وحدثنى محمد بن الحسين ، حدثنى خالد بن عمرو الأموى ، حدثنا صدقة ابن سليمان الجعفرى ، قال : كانت لى شرة ممجة فمات أبى فنتبت وندمت على ما فرطت ، ثم زللت أيبا زلة ، فرأيت أبى فى المنام فقال : أى بنى : ما كان أشد فرحى بك وأعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديدا ، فلا تحزننى فيمن حولى من الأموات . قال : فكنت اسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر - وكان جارا لى بالكوفة : أسألك إياها لا رجعة فيها ولا حور ، يامصلح الصالحين ، وياهادى المضلين ، وياأرحم الراحمين . وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة ، وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول :

اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة . كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد .

الآيات التى فى الإنسان وختام السورة

* اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿١٠٠﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ

سَاعَةً كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٩﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦١﴾

معاني المفردات

(ضعف) الضعف : ما قابل القوة . (شيبة) أى : شيبا ، وهو بياض الشعر الأسود ، (الساعة) : مدة من الزمن قليلة .
(يؤفكون) : يقال : أفك الرجل : إذا صرف عن الصديق والخير .
(ولا هم يستعتبون) أى : لا يطلب منهم الإعتاب ، وحقيقة أعتبه : أزلت عتبه ، فالإعتاب : إزالة العتب بفعل ما يرضى ،
يقال : استعتبه ، فأعتبى ، أى : استرضيته فأرضاني .
(مبطلون) أى : متبعون الباطل والسحر .
(ولا يستخفئك) يقال : استخف فلان فلانا ، أى : استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغي .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر دلائل الآفاق على وحدانيته أردفها دلائل الأنفس ، فذكر خلق الأنفس ، فى أطوارها المختلفة من ضعف إلى قوة ، ثم انتكاسها وتغيير حالها من قوة إلى ضعف ، ثم إلى شيخوخة وهرم .
وبين أنه العليم بها فى مختلف أحوالها ، القدير على تغييرها واختلاف أشكالها ،
وبعد أن ذكر فيها سلف بدء النشأة الأولى ، وذكر الإعادة والبعث ، وأقام عليه الأدلة فى شتى السور ؛ وضرب له الأمثال ، أردف ذلك ذكر أحوال البعث وما يجرى فيه من الأفعال والأقوال من الأشقياء والسعداء ؛ ليكون فى ذلك عبرة لمن يذكر .

وبعد أن ذكر من الأدلة على الوجدانية والبعث ما ذكر ، وأعاد وكرر ، بشقى البراهين ، وبديع الأمثال - أردف ذلك أنه لم يبق بعد هذا زيادة لمستزيد ، وأن الرسول ﷺ قد أدى واجبه ، وأن من طلب

شيئا بعد ذلك فهو معاند مكابر ، فإن من كذب الدليل الواضح اللائح ، لا يصعب عليه تكذيب غيره من الدلائل .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ﴾ هذا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الله - تعالى - لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ، فإنه خلق الإنسان من ماء مهين ، فجعله فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، ثم خلقه إنسانا سويا ، ثم أمدّه بالقوة من بعد ضعف ، ثم عاد ضعيفا حال الشيخوخة والهرم ، ثم غزا الشيب رأسه ، أليس ذلك بقادر على أن يعيده مرة أخرى يوم القيامة ؟ ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (١) واسمع إلى قوله - جل شأنه - ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث . فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (٢)

فسبحان الخالق المحيى المميت الباعث الوارث المعز المذل الرافع الخافض الباسط القابض الأول الآخر الظاهر الباطن يخلق ما يشاء بقدرته ، ويحكم ما يريد بحكمته ، وهو العليم الذى أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، القدير الذى لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، سبحانه يحيى العظام وهى رميم ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾ (٣) قوله - تعالى - : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ .

(١) الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ من سورة غافر

(٢) الآيات : ٥ - ٧ من سورة الحج

(٣) الآيات : ٥ - ٨ من سورة الطارق

وهذا مشهد من مشاهد القيامة ، وما أكثر مشاهدنا !!

﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تغلظ نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾^(١) إن المجرمين كما كذبوا على الله في الدنيا وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، كذلك يقسمون في الآخرة كذبا وبهتاناً قائلين : ما لبثنا غير ساعة . أى : ما لبثنا في الدنيا إلى هذا اليوم غير ساعة ، أى : ما لبثنا إلا زمنا يسيرا . قال - تعالى - ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾^(٢)

وقال - جل شأنه : - ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون . تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون . قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال : اخسثوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري . وكنتم منهم تضحكون . إن جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون . قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾^(٣) نعم قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا . إن هؤلاء ضيعوا أعمارهم في شهوات البطن والفرج ، وغرثهم أموالهم وأولادهم حتى ماتوا وفوجئوا بالبعث ، فأقسموا مالبثوا غير ساعة

قال - تعالى - ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾^(٤) لقد جهلوا حق الله في الدنيا وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ، وبمثل هذا الجهل كانوا يؤفكون ويصرفون عن الحق ، أما المؤمنون من أولى العلم بالعقيدة والإيمان ، والذين قال الله فيهم : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ﴾^(٥) فإنهم يردون عليهم قائلين : لقد لبثتم فيما كتب الله لكم من الأعمار في الدنيا ، وبعد البرزخ إلى يوم البعث ، أتدرون ما يوم البعث الذي أنكرتموه وجحدتموه وقلتم وأقسمتم بالله جهد أيمانكم لا يبعث الله من يموت ؟ هذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون فقد

(١) الآيات : ٥١ - ٥٤ من سورة يس

(٢) الآية : ٦٠ من سورة الزمر .

(٣) الآيات : ١٠١ : ١١٦ من سورة المؤمنون

(٤) الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ من سورة فاطر .

من الآية : ١٨ من سورة آل عمران .

يعلمون . قال - تعالى - : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ ^(١) وقال : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ ^(٢) وقال - سبحانه - : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ ^(٤) وقال : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استجبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ ^(٥) .

أما أنت يا صاحب الرسالة العصماء ، يامبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، فاصبر إن وعد الله حق ، كما قال - تعالى - : ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ ^(٦) وكما قال : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ ^(٧) وكما قال : ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ ^(٨) .

﴿ ولا يستخفك الذين لا يوقنون ﴾ أى : لا يحملنك أفعال هؤلاء الذين خلت قلوبهم من اليقين والإيمان على الجزع والقلق ، فإن الله معك يربعاك بعنايته ورعايته ، فتوكل على الله إنك على الحق المبين .

سورة لقمان

مقدمة :

قال صاحب البصائر : السورة مكية ، سوى آيتين : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام .. ﴾ إلى آخر الآيتين . عدد آياتها ثلاث وثلاثون عند الحجازيين ، وأربع وثلاثون عند الباقيين . وكلماتها خمسمائة وثمان وأربعون . وحروفها ألفان ومائة وعشر . .

معظم مقصود السورة :

بشارة المؤمنين بنزول القرآن ، والأمر بإقامة الصلاة ، وأداء الزكاة ، والشكاية من قوم اشتغلوا بلهو الحديث ، والشكاية من المشركين فى الإعراض عن الحق ، وإقامة الحجة عليهم ، والمنة على لقمان

(٥) الآيات : ١٠٦ - ١٠٨ من سورة النحل

(٦) الآية : ١٠٩ من سورة يونس

(٧) الآيات : ١٢١ - ١٢٣ من سورة هود

(٨) الآية ١٢٩ من سورة التوبة .

(١) الآية : ١٧ من سورة فصلت

(٢) الآيتان : ٦ ، ٧ من سورة البقرة

(٣) من الآية : ٥ من سورة الصف

(٤) من الآية : ١٥٥ من سورة النساء

حجبكم عن العلم عنادكم وجحودكم ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بداهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ (١) ففى هذا اليوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم . قال - تعالى - ﴿ وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكتتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ (٢) .

قوله - تعالى - : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أى : ولا هم يرجعون إلى الدنيا إن طلبوا ذلك ، أو لا يعاتبون وإنما يعاقبون أو . وإن يطلبوا الرضا فلن ينالوه ؛ فما هم من أهل الرضا . ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين . فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ (٣) .

قوله - تعالى - ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يوقنون ﴾

يذكر - سبحانه وتعالى - أنه وضع لعباده وبين لهم كل ما يلزمهم فى معاشهم ومعادهم ، ومن أساليب الإيضاح والتبيين أنه ضرب لهم فى القرآن من كل مثل سواء فى أصول العقيدة ، أو شعائر العبادات ، أو شرائع السلوك ، أو مناهج الأخلاق ، أو مبادئ الأحكام ، أو قواعد النظام . قال - تعالى - : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٤) وقال : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (٥) وقال : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ (٦) ومع هذا الإيضاح وذلك البيان فإنك لو جئتهم بآية كما اقترحوا عليك فسوف يقول الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون وكاذبون ؛ لأنهم جبلوا على العناد والجحود ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٧) ومثل ذلك الجحود يؤدى إلى الطبع على قلوبهم والختم عليها حتى لا يتسرب إليها نور المعرفة ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا

(١) الآيات : ٢٧ - ٢٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآيات : ٤٤ - ٤٦ من سورة إبراهيم .

(٣) الآيات : ١٩ - ٢٤ من سورة فصلت .

(٤) الآية : ٤٣ من سورة العنكبوت .

(٥) من الآية : ٢٥ من سورة إبراهيم .

(٦) من الآية : ٣٥ من سورة النور .

(٧) الأيتان : ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

بما أعطى من الحكمة ، والوصية ببر الوالدين ، ووصية لقمان لأولاده ، والمنة بإسباغ النعمة ، وإلزام الحجة على أهل الضلالة ، وبيان أن كلمات القرآن بحور المعاني ، والحجة على حقية البعث ، والشكاية من المشركين بإقبالهم على الحق فى وقت المحنة ، وإعراضهم عنه فى وقت النعمة ، وتخويف الخلق بصعوبة القيامة وهولها ، وبيان أن خمسة علوم مما يختص به الرب الواحد - تعالى - فى قوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ... ﴾ إلى آخرها .

المتشابهات التى فى سورة لقمان :

قوله : ﴿ كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ﴾ وفى الجاثية : ﴿ كأن لم يسمعها فبشره ﴾^(١) زاد فى هذه السورة : ﴿ وكأن فى أذنيه وقرا ﴾ جل المفسرين على أن الآيتين نزلتا فى النضرين الحارث ، وذلك أنه ذهب إلى فارس ، فاشترى كتاب كليلة ودمنة ، وأخبار رستم واسفنديار ، وأحاديث الأكاسرة ، فجعل يرويها ويحدث بها قريشا ، ويقول : إن محمدا يحدثكم بحديث عاد ، وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار ، ويستملحون حديثه ، ويتركون استماع القرآن ، فأنزل الله هذه الآيات ، ويبلغ فى ذمه ، لتركه استماع القرآن . فقال : ﴿ كأن فى أذنيه وقرا ﴾ أى : صمما ، لا يقرع مسامعه صوت . ولم يبلغ فى الجاثية هذه المبالغة ؛ لما ذكره بعده : ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئا ﴾^(٢) لأن ذلك العلم لا يحصل إلا بالسمع ، أو ما يقوم مقامه : من خط وغيره .

قوله ﴿ يجرى إلى أجل مسمى ﴾ وفى الزمر ﴿ لأجل ﴾ قد سبق شطر من هذا . ونزيد بيانا أن (إلى) متصل بآخر الكلام ، ودال على الانتهاء ، واللام متصلة بأول الكلام ، ودالة على الصلة .

مناسبتها لما قبلها من وجوه :-

(١) إنه - تعالى - قال فى السورة السالفة : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ وأشار إلى ذلك فى مفتتح هذه السورة .

(٢) إنه قال فى آخر ما قبلها : ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ وقال فى هذه : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا لى مستكبرا ﴾

(٣) إنه قال فى السورة السابقة : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقال هنا : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ ففى كليهما إفادة سهولة البعث .

(٤) إنه ذكر هناك قوله : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم برهم يشركون ﴾ وقال هنا : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ فذكر فى كل من الآيتين قسما لم يذكره فى الآخر .

(٥) إنه ذكر فى السورة التى قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا ، وذكر هنا قصة عبد مملوك زهد فيها ، وأوصى ابنه بالصبر والمسألة وذلك يقتضى ترك المحاربة . وبين الأمرين التقابل وشاسع البون كما لا يخفى .

(١) من الآية ٨ من سورة الجاثية

(٢) من الآية ٩ من سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

وهذا بدء سورة كريمة جاء على وفق ما هو معروف غالباً في السور المكية التي تبدأ بأحرف هجائية ، حيث تكلمت عن القرآن وآياته ، وهو افتتاح شبيه بافتتاح سورة البقرة .

التفسير

﴿الم﴾ : بعض حروف الهجاء التي يقصد بها إعجاز هذا الكتاب الحكيم الذي تلك آياته ، والحكيم : اسم من أسمائه . قال صاحب البصائر :

اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، أو كماله في أمر من الأمور . أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته ؟ وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته ؟ وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها ؟ وكذلك كثرة أسماء الله - تعالى - دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء النبي - ﷺ - دلت على علو رتبته ، وسمو درجته ، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه ، وفضيلته .

وقد ذكر الله - تعالى - للقرآن مائة اسم نسوقها على نسق واحد :

الأول : العظيم (سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) الحجر

الثاني : العزيز (وإنه لكتاب عزيز) فصلت

الثالث : العلي ﴿لدينا لعلی﴾ الزخرف

الرابع : المجيد ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ البروج

الخامس : المهيمن ﴿ومهيمننا عليه﴾ المائدة

السادس : النور ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ الأعراف

السابع : الحق ﴿قد جاءكم الحق﴾ يونس

الثامن : الحكيم ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ يس

التاسع : الكريم ﴿إنه لقرآن كريم﴾ الواقعة

العاشر : المبين ﴿حم والكتاب المبين﴾ الزخرف

- الحادى عشر : المنير ﴿ والكتاب المنير ﴾ آل عمران
 الثانى عشر : الهدى ﴿ هدى للمتقين ﴾ البقرة
 الثالث عشر : البشر ﴿ ويشرح المؤمنين ﴾ الكهف
 الرابع عشر : الشفاء ﴿ وشفاء لما فى الصدور ﴾ يونس
 الخامس عشر : الرحمة ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ النمل
 السادس عشر : الكتاب ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ الأنعام
 السابع عشر : المبارك ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ الأنعام
 الثامن عشر : القرآن ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ الرحمن
 التاسع عشر : الفرقان ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان ﴾ الفرقان
 العشرون : البرهان ﴿ برهان من ربكم ﴾ النساء
 الحادى والعشرون : التبيان ﴿ وتبياننا لكل شىء ﴾ النحل
 الثانى والعشرون : البيان ﴿ بيان للناس ﴾ آل عمران
 الثالث والعشرون : التفصيل ﴿ وتفصيلا لكل شىء ﴾ الأنعام - الأعراف
 الرابع والعشرون : المفصل ﴿ الكتاب مفصلا ﴾ الأنعام
 الخامس والعشرون : الفصل ﴿ إنه لقول فصل ﴾ الطارق
 السادس والعشرون : الصدق ﴿ والذى جاء بالصدق ﴾ الزمر
 السابع والعشرون : المصدق ﴿ مصدق الذى بين يديه ﴾ الأنعام
 الثامن والعشرون : ذكرى ﴿ وذكرى لكل عبد مئيب ﴾ ق
 التاسع والعشرون : الذكر ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ الأنبياء
 الثلاثون : التذكرة ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ الإنسان
 الحادى والثلاثون : الحكم ﴿ أنزلناه حكما عربيا ﴾ الرعد
 الثانى والثلاثون : الحكمة ﴿ حكمة بالغة ﴾ القمر
 الثالث والثلاثون : محكمة ﴿ سورة محكمة ﴾ محمد
 الرابع والثلاثون : الإنزال ﴿ وأنزلنا إليك ﴾ النساء
 الخامس والثلاثون : التنزيل ﴿ وإنه لتنزيل ﴾ الشعراء
 السادس والثلاثون : التصديق ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ يونس
 السابع والثلاثون : المنزل ﴿ منزل من ربك ﴾ الأنعام
 الثامن والثلاثون : التبصرة ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ ق
 التاسع والثلاثون : البصائر ﴿ هذا بصائر للناس ﴾ الجاثية
 الأربعون : الموعظة ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ البقرة
 الحادى والأربعون : البينة ﴿ بينة من ربكم ﴾ الأنعام

الثاني والأربعون : البشير ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ البقرة وفاطر
 الثالث والأربعون : الوحي ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ النجم
 الرابع والأربعون : الرسالة ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ المائدة
 الخامس والأربعون : النبا ﴿ قل هو نبا عظيم ﴾ ص
 السادس والأربعون : القيم ﴿ قيا لينذر ﴾ الكهف
 السابع والأربعون : قيمة ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ البينة
 الثامن والأربعون : الروح ﴿ روحا من أمرنا ﴾ الشورى
 التاسع والأربعون : الكلام ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ التوبة
 الخمسون : الكلمات ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ لقمان
 الحادى والخمسون : الكلمة ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ الأنعام
 الثانى والخمسون : الآيات ﴿ تلك آيات الله ﴾ البقرة
 الثالث والخمسون : البينات ﴿ بل هو آيات بينات ﴾ العنكبوت
 الرابع والخمسون : الفضل ﴿ قل بفضل الله ﴾ يونس
 الخامس والخمسون : القول ﴿ يستمعون القول ﴾ الزمر
 السادس والخمسون : القيل ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ النساء
 السابع والخمسون : الحديث ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ الأعراف
 الثامن والخمسون : أحسن الحديث ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الزمر
 التاسع والخمسون : العربى ﴿ قرآنا عربيا ﴾ يوسف
 الستون : الحبل ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ آل عمران
 الحادى والستون : الخير ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ﴾ النحل
 الثانى والستون : البلاغ ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ إبراهيم
 الثالث والستون : البالغة ﴿ حكمة بالغة ﴾ القمر
 الرابع والستون : الحق ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ الحاقة
 الخامس والستون : المتشابه والمثانى ﴿ كتابا متشابها مثانى ﴾ الزمر
 السادس والستون : الغيب ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ البقرة
 السابع والستون : الصراط المستقيم ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ الفاتحة
 الثامن والستون : المبين ﴿ قرآن مبين ﴾ الحجر
 التاسع والستون : الحجة ﴿ قل فله الحجة البالغة ﴾ الأنعام
 السبعون : العروة الوثقى ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ البقرة - لقمان
 الحادى والسبعون : القصص ﴿ فاقصص القصص ﴾ الأعراف
 الثانى والسبعون : المثل ﴿ ضرب الله مثلا ﴾ إبراهيم - النحل

الثالث والسبعون : العجب ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ الجن
الرابع والسبعون : الأثارة ﴿ أو أثارة من علم ﴾ أى : ما يؤثر عن الأولين أى : يروى عنهم
الأحقاف

الخامس والسبعون : القسط ﴿ فاحكم بينهم بالقسط ﴾ المائدة .
السادس والسبعون : الإمام ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ الإسراء .
السابع والسبعون : النجوم ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ الواقعة .
الثامن والسبعون : النعمة ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ القلم
التاسع والسبعون : الكوثر ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ الكوثر
الثمانون : الماء ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ المؤمنون
الحادى والثمانون : المتلو ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ البقرة
الثانى والثمانون : المقروء ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ الإسراء
الثالث والثمانون : العدل ﴿ كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ الأنعام
الرابع والثمانون : البشرى ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ البقرة
الخامس والثمانون : المسطور ﴿ وكتاب مسطور ﴾ الطور
السادس والثمانون : الثقيل ﴿ قولا ثقيلا ﴾ الزمل
السابع والثمانون : المرتل ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ الزمل
الثامن والثمانون : التفسير ﴿ وأحسن تفسيراً ﴾ الفرقان
التاسع والثمانون : المثبت ﴿ ما ثبت به فؤادك ﴾ هود
ومنها : الصحف ، والمكرم ، والمرفوع ، والمطهر (فى صحف مكرمه مرفوعة مطهرة)
ومن أسماء القرآن الواردة فى الحديث النبوى : القرآن ، حبل الله المتين ، وشفافه النافع ، بحر
لا تنقضى عجائبه ، والمرشد : من عمل به رشد ، العدل : من حكم به عدل .
المعتصم الهادى : من اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم .
العصمة : عصمة لمن تمسك به .
قاصم الظهر : من بدله من جبار قصمه الله . مأدبة الله فى أرضه
النجاة : (ونجاة لمن اتبعه)
النبا والخبر : (فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم)
الدافع : يدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة
صاحب المؤمن : يقول القرآن للمؤمن يوم القيامة : أنا صاحبك
كلام الرحمن : الحرس من الشيطان . الرجحان فى الميزان
فهذا الكتاب الذى أبى الله أن يؤتى بمثله ولو كان الناس بعضهم لبعض ظهيرا وذلك لأنه كتاب
جاء من غيب الغيب ، بعالم من العلم ، وصل إلى القول ، ومن القول إلى القلم ، ومن القلم إلى

صفحة اللوح ، إلى حد الوحي ومن الوحي إلى سفارة الروح الأمين ، ومن سفارته إلى حضرة النبوة العظمى .

واتصل منها إلى أهل الولاية حتى اشعلوا سرج الهداية ، وظفروا منها بكاف الكفاية ، فلم يزل متعلقة بحروفها وكلماته الراححة فالرحمة والعزة والنعمة ، ففي حال الحياة للمؤمن رقيب ، وبعد الوفاة له رفيق ، وفي القبر له عدیل ، وفي القيامة له دليل ، وميزان طاعته به ثقیل . وفي عرضات الحشر له شفیع وكفیل ، وعلى الصراط له سائق ورسیل ، وفي الجنة أبداً الأبدین له أنیس وخلیل . جعله الله لنا شفیعا ، ومنزلنا بالعلم والعمل بما فيه رفیعا .

قوله - تعالى - ﴿ هدى ورحمة للمحسنين ﴾ أى : هذا الكتاب الكريم هدى ورحمة ، فالهدى : هو الإرشاد إلى طريق النجاة والرحمة : ما يرحم الله به عباده فى البأساء والضراء وحين البأس ، فهذا الكتاب من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقیم ، والمحسنون هم الذين قال الله فيهم : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ أى : هم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فهم على علم ويقين بأنه يراهم . والصلاة نموذج للعبادة البدنية والقلبية ، والزكاة نموذج للعبادة المالية ، والإيمان باليوم الآخر نموذج العقيدة الصحيحة ، فالصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحه العادات ، رياضة أبدان وطهارة أردان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يريد به المخلوق التوجه إلى الخالق ، فانظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع .

وكيف سادت العلية بالزمع ، والزكاة فيها النماء والطهارة والبركة والإصلاح الإجتماعى ، فلن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴾ (١) .

والإيمان باليوم الآخر هو صمام الأمن لنظام المجتمع ، وهو محور الارتكاز لحسن السلوك فى الدنيا ، وهو حجر الزاوية لإصلاح أى أمة تؤمن باليوم الآخر ، قال - تعالى - ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ (٢) لذا جاء الحكم لهؤلاء صادقاً شافياً كافياً وافياً ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ (وعلى) هنا تفيد التمكّن والثبات ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وضمير الفصل هنا وتعريف الطرفين المسند والمسند إليه كل هذا يفيد الحصر والقصر ، أى : أولئك هم المفلحون لا سواهم ، وهذا تشريف وتعظيم وتكريم من رافع السماء بلا عمد فطوى لكم أيها المحسنون المهتدون المفلحون . طوبى لكم وحسن مآب .

(١) من الآية ٣٤ والآية ٣٥ من سورة التوبة

(٢) الآيات : ٤ - ٦ من سورة المطففين

الكافرون بالقرآن والمؤمنون به

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا ۚ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ ۚ وَقُرْآءُ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٦٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٩﴾

معانى المفردات

(لهو الحديث) اللهو : كل باطل ألهى عن الخير .

(هزوا) أى : مهزوءا بها .

(وقرا) : ثقلا وصميا .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله ويتفنون بسماعه ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ (١) أردف ذلك ذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت في بن الحارث : اشترى قينة (مغنية) وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق بها إليه فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه .

وروى عن مقاتل أنه كان يخرج تاجرا إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشا ويقول لهم : إن محمدا يحدثكم حديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم حديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستلمون حديثه ويتركون سماع القرآن .

التفسير

قوله - تعالى - ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها

(١) الآية ٢٣ من سورة الزمر .

هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا كان لي مستكبرا كان لم يسمعها كان في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴿

لما ذكر - تعالى - حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ، كما قال - تعالى - ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ (١) عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، واقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود في قوله - تعالى - ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ قال : هو والله الغناء .

روى ابن جرير بسنده عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ فقال عبد الله بن مسعود : الغناء - والله الذي لا إله إلا هو - يرددها ثلاث مرات . حدثنا عمرو بن علي بسنده عن أبي الصهباء أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : الغناء . وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول وعمرو بن شعيب وعلي بن بزيمة . وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراءه استحبابه ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع ، وقيل : أراد بقوله : ﴿ يشتري لهو الحديث ﴾ اشتراء المغنيات من الجوارى .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : (لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ، وأكل أثمانهن حرام ، وفيهن أنزل الله - عز وجل - على ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ (٢)

وقال الضحاك في قوله - تعالى - : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : يعني الشرك وقوله : ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أي : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله ، وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدرى ، أي : قيسوا لذلك ليكونوا كذلك . وقوله - تعالى - ﴿ ويتخذها هزوا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا يستهزئ بها . وقال قتادة : يعني ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي : كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر ، ثم قال - تعالى - ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبرا كان لم يسمعها كان في أذنيه وقرا ﴾ أي : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولي عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم ، كأنه ما سمعها : لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا

(١) من الآية : ٢٣ من سورة الزمر

(٢) الحديث في مسند الامام احمد (مسند أبي أمامة - رضي الله عنه) ج ٥ ص ٢٥٢ بدون قوله : « وأنزل الله على فيهن .. الخ » وانظر سنن ابن ماجه (كتاب التجارات) باب : ما لا يحل بيعه ج ٢ ص ٧٣٣ رقم ٣١٦٨

أرب له فيها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أى : يوم القيامة يؤله كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .
قوله - تعالى - ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم . خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ويأتى نور الوعد بعد نيران الوعيد لتكون حال المؤمن بين الخوف والرجاء ، فالمؤمنون الصالحون لهم جنات النعيم ، لهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ ^(١) وما أجل قوله - تعالى - : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ ^(٢)

وما أجل قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾ ^(٣) وما أعظم قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا ييغون عنها حولا ﴾ ^(٤)

قوله - تعالى - ﴿ خالدين فيها وعد الله حقا ﴾ كقوله - تعالى - ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة يطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ ^(٥) فأنت ترى هنا أن الإيمان قد اقترن بالعمل الصالح ، فبين المؤمنين ولاية نصرة ومحبة ومودة ، ومن أعمالهم الصالحة أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، وليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، فالإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ، والذى حكم لهم بالجنة والخلود فيها هو العزيز الغالب الذى لا راد لقضائه ، وهو الحكيم الذى لا معقب لحكمه ، والذى تنزهت أفعاله عن العبث إذا قال صدق ، وإذا وعد أنجز ، وإذا حكم عدل .

فالموت لا شك يضمننا ويضمنها
والجار أحمد والرحمن ناشيها
والزعفران حشيش نابت فيها

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها
قصورها ذهب والمسك طيبتها

(٤) الآيتان : ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة الكهف

(٥) الآيتان : ٧١ ، ٧٢ من سورة التوبة

(١) الآيتان : ٩ ، ١٠ من سورة يونس

(٢) الآية ٢٥ من سورة البقرة

(٣) الآيتان : ٣٠ ، ٣١ من سورة الكهف .

هذا خلق الله

خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا ۚ وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي ۚ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۚ
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ۚ فَأَرُونِي مَاذَا
خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

معاني المفردات

(عمد) جمع عماد ، وهو ما يعمد به ، أى : يسند ، يقال : عمدت الحائط : إذا دعمته .
والدعامة : ما يسند به الحائط إذا مال لتمنعه السقوط .

(رواسي) : ثوابت

(أن تميد بكم) : تضطرب

(وبث) : نشر وفرق

(زوج) : صنف .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان فيما سلف كمال قدرته وعلمه وإتقان عمله ، أردف ذلك الاستشهاد لما سلف بخلق
السموات والأرض وما بعده مع تقرير وحدانيته وإبطال أمر الشرك وتبكيته أهله .

التفسير

من آيات قدرة الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وعظمته أنه رفع السموات بغير عمد ، والكل
يشاهد ذلك ويراه ، كما ألقى الجبال على الأرض رواسي ثابتات شامخات حتى لا تميد وتهتز . ونشر في
الأرض من كل دابة ، فهو مبدع الكائنات وخالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل ، وهو الذى أنزل
من السماء ماء فأنبت في الأرض من كل نوع كريم وزوج بهيج ﴿١٠﴾ الله الذى رفع السموات بغير عمد
ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات
لعلكم بقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل
فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات
وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في
الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿١١﴾ .

من الخالق لكل هذا؟ الطبيعة الصماء؟ أم الصدفة العمياء، كلا، بل هو الله العزيز الحكيم .
هذا خلق الله وحده لا شريك له ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل
شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾^(١) .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد ، شاهدات بأن الله ليس له شريك
فأرونى ماذا خلق الذين من دونه؟ إنهم لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا
ولا ضرا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

﴿يأأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو
اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق
قدره إن الله لقوى عزيز﴾^(٢) .

فمن يقل إن هناك خالقا غير الله فهو من الظالمين ، والظالمون فى ضلال مبين .
﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا
بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحى إليك وإلى
الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من
الشاكرين . وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه
سبحانه وتعالى عما يشركون﴾^(٣) فاللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك وحمة عرشك وجميع خلقك أنك
أنت الله وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبداً ونبىك ورسولك ، رضينا بالله ربنا وبالإسلام ديننا
وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا .

كلمات ربى

من كتاب (قصة الإيمان) يقول الشيخ نديم الجسر مفصلا هذا الحوار بين التلميذ واسمه
(حيران) والشيخ واسمه (الموزون) يقول (الشيخ نديم الجسر)
يقول حيران بن الأضعف خرجت من غرفة الشيخ بعد أن ناولته المصحف ، وأويت إلى فراشى
فلم أجد إلى النوم سبيلا ؛ لأنى ما تعودت أن أنام فى هذه الساعة ، ولم أجد إلى المطالعة سبيلا ، لأن
المصباح لا يزال عند الشيخ ، فأخذت أتناوم .
وبعد لآى أغفيت إغفاءة خفيفة صحوت منها على صوت سعال الشيخ . فرأيت أنه لا يزال
ساهرا . . ثم استغرقت فى النوم إلى أن صحوت على الخادم العجوز يقرع الباب، ولما نهضت من فراشى

(١) الأيتان : ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة الأنعام

(٢) الأيتان : ٧٣ ، ٧٤ من سورة الحج .

(٣) الأيات : ٦٢ - ٦٧ من سورة الزمر .

لأفتح له وجدت المصباح في غرفة الشيخ لا يزال منيرا ، ولما أذن المؤذن لصلاة الصبح وخرج الشيخ إلى وضوئه سأله عن سهره ، فقال : إنني لم أنته من التلاوة إلا الساعة .

قلت : إن السهر يامولاي يضنيك

قال : كل هذا من أجلك يا حيران .

قلت : من أجلى أنا ؟

فتبسم ومر إلى وضوئه ، ثم صلينا الصبح ، وانفقل بعد الصلاة إلى غرفته وهو يقول : لن أخرج اليوم إلى الغياض .. إنني بحاجة إلى النوم .

وقضيت نهاري كله بين الغياض أراجع ما أملاه على الشيخ ليلة أمس ، وأعيد الجمع والحساب في (أحجية الورقة المقطعة) .. فوجدتها يقينية فأمّنت بأن عقولنا تكل أحيانا عن تصور حقائق كثيرة يقوم البرهان العقلي على صحتها ... وعرفت أنه لا يجوز لنا أن نجمد أمام هذا الكلال العقلي ، بل علينا أن نأخذ بالبرهان القاطع الذي قام لدينا ، ونؤمن بأن ذلك الكلال وهم ، والوهم لا يقاوم البرهان . فتذكرت ما قاله الغزالي في هذا الباب ، فراجعته ، وأدركت الآن معنى قوله : (إنه لم يجد لنفسه علاجا من الشك وأوهامه إلا بالدليل ، والدليل لا يكون إلا من تركيب الأوليات والضروريات التي لا يصل العقل إلى اليقين إلا بها) .

ثم قلت : يا ويل نفسي ! ! كيف كنت أدرك كل هذا ؟ وكيف كنت أتعلم إطراح الوهم عند قيام البرهان القاطع لو لم يقبض الله لي هذا الرجل المرشد الصبور ؟

ثم قلت : يا ويل الناس من هذه الشكوك التي لا يخلص منها أحد كما قال الشيخ ، أتراهم يستطيعون أن يتوفروا على مثل هذه الدراسة الطويلة ؟ إن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .. فكيف يدفعون هذه الشكوك عن إيمانهم .

ولما كان المساء دخلت على الشيخ ، فرأيت يكتب في دفتر كبير بعض آيات القرآن ، فألقيت السلام وأهويت على يديه أقبليهما ، فتبسم وقال الشيخ : مالك تقبل يدي بلا داع ؟ أأراك تودعني ... ؟ أتخسب أنك انتهيت من الدرس فأردت أن ترجع إلى بلدك ؟ كلا يا حيران ؛ فشوطك في الدرس لا يزال بعيد المدى .

حيران : لم يخطر ببال أن أفارقك يامولاي . ولو ذهبت لزيارة أبي لعدت إليك فقد انقطعت عن العلم في جامعة (بشاور) ولا أجد - والله - خيرا منك لوصل ما انقطع ، وإنما قبلت يديك لأنني أحب أن أناجيك بنجوى ثقيلة ، فأردت أن أقدم بين يدي نجوى صدقة .

الشيخ : قل ما تريد ، فلا أجد منك شيئا ثقيلا .

حيران : لقد فكرت مليا فيما كشفت لي ليلة أمس من الحق ، فكيف بالله يامولاي كنت أدرك كل هذا ؟ وكيف كنت أتعلم إطراح الوهم عند قيام البرهان العقلي القاطع ، لو لم يقبض الله لي هاديا مرشدا مخلصا ، صبورا ، واسع الصدر مثلك يامولاي الكريم ؟ الشيخ : الهداة المرشدون كثر يا حيران ، وعنهم أخذنا . وليس على طالب الهدى إلا أن ينعم النظر ، ويطيل التأمل ، ويسأل أهل الذكر .

حيران : وهل يتاح لكل الناس أن يتركوا مشاغل الحياة وأسباب الرزق ليتفرغوا للنظر العميق ، والبحث الطويل ، والاستدلال المرهق العسير ، وهل يكلف الله نفسا إلا وسعها ؟
 الشيخ : هذا حق يا حيران : وهذا الذى كنت أريد أن أصل بك إليه ، وأدلك عليه ، وأنصحك به ، بعد أن بلغت ما أردته من إرشادك إلى صحة البراهين النظرية المركبة وصدقها ، بل أنصح به كل إنسان من الذين لا يتاح لهم أن يتفرغوا للنظر والبحث والتأمل . . ألم تر أنى قضيت الليل كله أقرأ القرآن من أجلك ؟

حيران : بماذا تنصحنى يامولاي ؟

الشيخ : إننى أنصحك وأنصح نفسى ، بل كل إنسان بما نصح به ابن رشد : وهو أن نلجأ فى إثبات وجود الله إلى البراهين البديهية السهلة ، البسيطة ، الواضحة ، التى يدركها العقل بدون أن يحتاج إلى الغوص فى حجج الاستدلال والجدل ، ومن غير أن يعتريه ارتباك أو كلال أو عجز أو وهم ، وهى البراهين التى أكثر من ذكرها القرآن واعتمد عليها أكثر مما اعتمد على البراهين العقلية المركبة الأخرى ؛ لأنه يستوى فى إدراكها الجاهل الساذج والعالم الفيلسوف ، أما الساذج فيدركها إجمالا لبساطتها ووضوحها وبداهتها ، وأما العالم فيدركها تفصيلا ويعلم أن هذه البداهة فى أدلة القرآن تعتمد على شواهد كثيرة ، تؤلف بمجموعها حكما عقليا يكون إنكاره بمثابة الإنكار لقضية رياضية صحيحة .

حيران : هذا - والله - عجيب وعظيم . فقد سبق لمولاي الشيخ أن نوه بما فى القرآن من إعجاز ، فى باب التدليل على وجود الله وخلق العالم ، وسبق لى أن لاحظت عند التلاوة بعض هذه الأدلة ، ولكنى لم أكن أظن أنها تؤلف بمجموعها حكما عقليا يعد إنكاره بمثابة الإنكار لقضية رياضية صحيحة .

الشيخ : كم مرة قرأت القرآن يا حيران ؟

حيران : أظن أننى قرأته أكثر من عشر مرات .

الشيخ : الا تذكر قول أبيك لك فى الرؤيا : (ألا تقرأ القرآن ؟)

حيران : أذكره ولا أنساه .

الشيخ : هل خطر على بالك أن تنعم النظر فى قوله - تعالى - ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) لتدرك أنه - سبحانه - حصر الخشية فى العلماء ، وأنه أراد بهم العالمين بأسرار الوجود وأسرار الخلق ، كما قال ابن رشد والجسر ،

حيران : لقد سألت عن هذا ، فقل لى : إن المقصود بالآية (علماء الدين)

الشيخ : وهل المفروض من علماء الدين أن يكون علمهم مقصورا على المعنى الاصطلاحي (للفقهاء) الذى يراد به استنباط أحكام العبادات والمعاملات ، وألا يكونوا مطلعين على أسرار الوجود والخلق عن طريق العلم والفلسفة ؟ كلا يا حيران ، فالفقه هو (الفهم) لكل شئ ، ولكل ما فى الدين من أسرار وحكم وأحكام ، وأول ما يجب أن نفهمه هو كلام الله ، وأول شئ يجب أن نفهمه من

(١) من الآية : ٢٨ من سورة فاطر

كلام الله هو الآيات الدالة على وجود الله ، وعلى أنه الخالق العليم ، القادر المريد ، الباريء المصور الحكيم . وهذه الآيات لا تفسر على الوجه الأكمل إلا إذا اطلعنا على ما في الكون من أسرار الخلق والنظام والإحكام والإتقان . فعلماء الدين هم أولى الناس بالاطلاع على أسرار العلم ، ولا يصدق عليهم (الحصر) الوارد في قوله - تعالى - ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ والمراد به الخشية الكاملة ، إلا إذا كانوا عارفين من العلوم الكونية كل ما يتعلق بأسرار الوجود والخلق التي دلنا عليها القرآن ، وذكر لنا بعضها ؛ لأن هذه الآية لم ترد في سياق الكلام عن أمر يتعلق بالعبادات أو المعاملات أو الأخلاق ، بل وردت في سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته في إنزال المطر وخلق النباتات والحيوانات على اختلاف أنواعها وألوانها ، حيث يقول الله - تعالت قدرته - : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) .

حيران : لا ريب في أن المراد بالآية هم العلماء المطلعون على أسرار الخلق ونواميسه .

الشيخ : فالفهم الكامل لما جاء في القرآن من البراهين الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، يفتقر إلى ثلاثة أمور : جمع هذه الآيات كلها في صعيد واحد حتى تكون في متناول البصر والبصيرة عند المقارنة ؛ فلا يتشتت الفكر للبحث عنها في خضم القرآن . ورغبة صادقة في درس هذه الآيات على ضوء العلم والفلسفة ، لاستنباط ما فيها من البراهين ، وما فيها من الردود على المنكرين . وانطلاق من قيود التعصب الأعمى لأي رأى ديني أو فلسفي .

حيران : إنني سمعت من بعض العلماء أن القرآن لم يترك شيئا من العلوم إلا وأشار إليه .

الشيخ : كلا يا حيران كلا . وهؤلاء الذين يقولون ذلك ليسوا بعلماء ولا عقلاء ولا أذكياء ، فالقرآن ليس بدائرة معارف علمية ، ولا من مقاصده إرشاد الناس إلى العلوم الكونية من باب التعليم ، ولكن ما ورد فيه من الآيات التي تشير إلى حقائق كونية كشفها العلم ، إنما ورد بقصد التنبيه إلى ما في خلق العالم من آثار الإرادة والقدرة والعلم والحكمة والإتقان والاتزان الدالة على وجود الله ، النافية للتكوين بالمصادفة ، ولم يقصد به تقرير العلوم الكونية ؛ لأن القرآن خطاب للبشر بلغة البشر ، والله أحكم من أن يخاطب الناس بأمور لا يعرفون أسماءها فضلا عن أسرارها ، ولكنه أشار إلى دلائل وجوده وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ببيان عجيب يفهمه على ظاهره البدوي الساذج في القرن السابع ، ويفهم أسرارهم رجل العلم في القرن العشرين . وفي هذا يتجلى إعجاز القرآن ، لا في بلاغته وحدها كما سبق القول ؛ فإعجاز البلاغة والفصاحة إنما يدركه العرب ، والقرآن خطاب للناس كافة ، وإلى هذا الضرب من الإعجاز أشار العليم الحكيم بقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٢) . وقد أراهم - سبحانه - بعد عصور وعصور آياته في آفاق السموات والأرض وفي أنفسهم كما وعدهم فتبين لهم أنه الحق ، وألفوا في ذلك المطولات في بلاد المغرب . ولكننا - نحن

(١) الآية : ٢٧ وبعض الآية : ٢٨ من سورة فاطر .

(٢) من الآية : ٥٣ من سورة فصلت .

المسلمين - الذين كان لنا السبق والفضل فى كشف كثير من تلك الآيات من طريق العلم قصرنا فى إراءة أولئك العلماء أن هذا القرآن قدم هذا الوعد ، وأشار إلى الكثير من دلائل وجود الله ، ووحدانيته وقدرته ، وحكمته ، منذ ألف وأربعمائة سنة .

وخلاصة القول يا حيران أن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين دعوة إلى الله وإرشاد إلى دلائل وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وإرادته وعنايته ورحمته وجميع صفات كماله ، ووعد ووعد للترغيب فى طاعته والتحذير من معصيته ، وتوكيد ليوم البعث والدين ، وأحكام فى العبادات والمعاملات ، وحكمة عملية فى الحياة ، وحض على مكارم الأخلاق ، وقصص يمت بسبب إلى هذه الأقسام الستة ، ولكن أهم هذه الأقسام وأعظمها عند الله هو القسم الأول ؛ لأن الإيمان بالله هو الأصل وهو الأساس لكل ما عداه .

ولذلك ترى - وأنت تتصفح القرآن - أن الآيات الدالة على الله لاتكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها أحيانا فى السورة الواحدة .

يقول حيران بن الأضعف : وهنا ناولنى الشيخ الدفتر الذى كان يكتب فيه الآيات وقال : الشيخ - هذا هو الدفتر الذى جمعت لك به على ترتيب النزول أكثر آيات القرآن التى أراد بها الله - تعالى - إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، البارىء ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم ، وأكثر فيها - سبحانه - من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والإحكام والإتقان والتقدير والاتزان فى خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر والكواكب والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والجبال والأنهار والبحار والنبات والحيوان والإنسان والأسماع والأبصار والافتدة ، وما ينطوى عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس ، فتعال يا حيران نقرأ هذه الآيات ونستغرقها جملة واحدة ، ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من أسرار الوجود والخلق .

حيران : لماذا اختار مولاى إيراد الآيات على ترتيب النزول ولم يوردها على ترتيب السور ؟
 الشيخ : لأنى أردت لك أن تتصور نفسك من أهل العصر الذى نزل به القرآن لترى كيف توالى الوحي وتتابع الهدى فى خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله ، فإن ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات أبلغ أثرا فى نفسك وأيسر فى تفهم أسلوب الهدى الكريم الذى اتبعه القرآن .
 يقول حيران : ثم دفع إلى الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ وأسمعنى . فقرأت الآيات الآتية :
 ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (١) .

وللآيات بقية نذكرها عند تفسير قوله - تعالى - : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعد سبعة أبهر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ . من سورة لقمان

وصية لقمان لابنه

قوله - تعالى - . وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهِ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُمْضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

معاني المفردات

(لقمان) : كان نجارا أسود من سودان مصر ، آتاه الله الحكمة ، ومنحه النبوة .
 (الحكمة) : العقل والفتنة ، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شيء كثير ، كقوله لابنه :
 أي بني : إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثيرون ، فاجعل سفيتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على الله ، لعلك تنجو ، ولا أراك ناجيا .
 وقوله : من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزا . والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية .
 وقوله : يا بني لا تكن حلوا فتبتلع ولا مرا فتلفظ
 وقوله : يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلا فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه فأخه ،
 وإلا فاحذره .
 والشكر : الثناء على الله - تعالى - وإصابة الحق ، وحب الخير للناس وتوجيه الأعضاء وجميع

النعم لما خلقت له .
 العظة : تذكير بالخير يرق له القلب ، والوهن : الضعف ، والفصال : الفطام .
 (جاهداك) أى : حرصا على متابعتك لهما فى الكفر .
 (أناب) : أى رجع .
 المثقال : ما يوزن به غيره ، ومثقال حبة الخردل : مثل فى الصغر .
 (لطيف) أى : يصل علمه إلى كل خفى .
 (خبير) أى : عليم بكنه الأشياء وحقائقها .
 (من عزم الأمور) أى : من الأمور المعزومة التى قطعها الله قطع إيجاب . تصغير الخد : ميله وإبداء صفحة الوجه ، وهو من فعل المتكبرين . .
 وفى الحديث : (يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتى)^(١)
 والأصعر : المعرض بوجهه كبرا . وفى الحديث : (كل بصعار ملعون)^(٢)
 أى : كل ذى أبهة وكبر هو كذلك .
 (مرحا) أى : فرحا وبطرا .
 والمختال : هو الذى يفعل الخيلاء ، وهى التبخر فى المشى كبرا .
 والفخور : من الفخر ، وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك .
 (اقصد) أى : توسط .
 (اغضض) أى : انقص منه وأقصر ، من قولهم فلان يغض من فلان : إذا قصر به ، ووضع منه ، وحط من قدره .
 (أنكر الأصوات) أى : أقبحها وأصعبها على السمع ، من نكر بالضم أى : صعب

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن بين فساد اعتقاد المشركين بإشراك من لا يخلق شيئا بمن خلق كل شيء ، ثم بين أن المشرك ظالم ضال ، أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة فى السموات والأرض ، والباطنة : من العلم والحكمة ترشد إلى وحدانيته ، وقد آتاها لبعض عباده كلقمان الذى فطر عليها ، ثم بين - سبحانه - أن لقمان أوقى الحكمة ، فشكر ربه على نعمه المتظاهرة عليه ، وهو يرى آثارها فى الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار ، أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضا ، ثم استطرد فى أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصى بها - سبحانه - الأولاد فى معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم وردا لما أسدوه من جميل النعم إليهم ، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى ثم رجع إلى ذكر بقية التى بعضها بحقوقه ، وبعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض .

(١) انظر تفسير القرطبي : طبع الشعب ، (تفسير لقمان) ص ٥١٥١

(٢) القرطبي (تفسير سورة لقمان) ص ٥١٥٣

التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد ﴾

هذا إخبار منه - تعالى - عن جزيل نعمته على عبده لقمان ؛ فقد آتاه الحكمة ، والحكمة : علم غزير ، وحكم صواب ، وعمل موفق ، قال - تعالى - ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (١) وقد دعا الخليل ربه أن يهبه الحكمة ، فقال : ﴿ رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين ﴾ (٢) وقال تعالى - في شأن يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ (٣) وقال في شأن موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ﴾ (٤) وقال في شأن خاتم الأنبياء محمد ﷺ : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (٥)

ثم أمر الله - تعالى - لقمان بالشكر ، وهو صرف الجوارح إلى طاعة الله ، فلكل جارحة شكر وذكر ، فذكر العينين : البكاء ، وذكر الأذنين : الإصغاء ، وذكر اللسان : الثناء ، وذكر اليدين : العطاء ، وذكر البدن : الوفاء ، وذكر الروح : الخوف والرجاء ، وذكر القلب : التسليم والرضاء ، فمن ذكر فقد شكر ، قال موسى لربه : ﴿ يارب كيف أشكرك ؟ قال : يا موسى تذكرني ولا تنساني ، إنك ذكرتني شكرتني ، وإن نسيتني كفرتني ، اقرأوا إن شئتم قول الله - عز وجل : - ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (٦)

ثم قال - تعالى - : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ إذ العمل الصالح يعود على صاحبه ، قال - تعالى - : ﴿ ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ﴾ (٧) والكفر يقابل الشكر ، فشكر النعمة يقابله الجحود ، لذا قال - تعالى - : ﴿ ومن كفر فإن الله غني حميد ﴾ كما جاء في قوله - جل شأنه - ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ (٨).

ولما رأى نبي الله سليمان عرش بلقيس مستقرا عنده ، وقد سخر الله له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين بالاصفاد ، وقال له ربه : ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ (٩) فماذا قال سليمان بعد هذه النعم ؟ هل استطاع الغرور ان يقتحم عليه أسوار نفسه المنيعه ؟ إن الغرور مقبرة النجاح ، لقد قال سليمان بلسان العبد الشاكر : ﴿ هذا من فضل ربى ليلىون أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ (١٠) ولقد كان ﷺ سيد الذاكرين الشاكرين ، خير بين أن يكون نبيا عبدا ونبيا ملكا ، فتواضع لله وقال بل نبيا عبدا ، أجوع يوما فاذكرك وأشبع يوما فأشكرك .

(٦) الآية : ١٥٢ من سورة البقرة .
(٧) الآية : ٤٤ من سورة الروم .
(٨) الآية : ٧ من سورة ابراهيم .
(٩) الآية : ٣٩ من سورة ص .
(١٠) الآية : ٤٠ من سورة النمل .

(١) الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ٨٣ من سورة الشعراء .
(٣) الآية : ٢٢ من سورة يوسف .
(٤) الآية : ١٤ من سورة القصص .
(٥) الآية : ١٦٤ من سورة آل عمران .

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم
فصبرت ، وأعطيت فشكرت ، وظلمت فغفرت ، ولقد أقمنا على المحجة البيضاء ، ليلها
كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فجزاك الله خير ما جزى به نبيا عن أمته ، ورسولا عن قومه .
إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم
قوله - تعالى - : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم .
ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير .
وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل
من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

وأخذ لقمان يعظ ابنه ، فنهاه عن الشرك ، وفي النهي عن الشرك أمر بالتوحيد ، وفي التوحيد
الأساس المتين لكل إصلاح ، قال - تعالى - : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ (١)
وفي الشرك إحباط لكل عمل ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح
في مكان سحيق ﴾ (٢) وكان لقمان عبدا صالحا يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ؛
فقد بدأ الموعدة بالأصل الأول الذي تبنى عليه الأعمال وهو توحيد الألوهية والربوبية ، والأسماء
والصفات ، ولم يقف عند هذا الحد بل بين عاقبة الشرك في قوله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ أي :
هو من أعظم الظلم ، قال البخاري بسنده عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا
إيمانهم بظلم ﴾ (٣) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ - وقالوا : أينما لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال
رسول الله ﷺ (إنه ليس بذلك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم
عظيم ﴾ (٤) والموعدة فيها حياة للقلوب ، وبقظة للعقول ، فهي تسرى في الأفئدة سريان الماء في العود
الأخضر ، لذا كان الرسول ﷺ يتخول أصحابه بالموعدة حتى ينبه الغافل ، ويذكر الناسي ، إن النفس
البشرية كالزجاجة إن لم يملأها شيء ملأها الهواء ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ،
والموعدة كاللدواء الذي لا بد أن يرج قبل تعاطيه وإلا رسبت العقاقير ، ومن ثم فعلی الواعظ الحكيم ،
أن يتعهد الناس بالمواعظ كما يتعهد الطبيب مريضه ، والفلاح زرع ، والأم أطفالها ، ولقد عقد ابن
- رجب الحنبلي مجلسا في التذكر والوعظ قال فيه :

(١) الآية : ١٦٣ من سورة البقرة

(٢) الآية : ٣١ من سورة الحج .

(٣) الآية : ٨٢ من سورة الأنعام .

(٤) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، في (كتاب أحاديث الأنبياء) ج ٦ ص ٤١٧ رقم ١٠١ (البخاري بشرح الشيخ
زروق) طبع مطبعة

وانظره في تفسير سورة الأنعام في صحيح البخاري .

وأخرجه الترمذي في جامعه الصحيح في (أبواب تفسير القرآن) ح ٥ ص ٢٦٢ باب : ومن سورة الأنعام رقم ٣٠٦٧ قال ابو

عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

أخرج الامام أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحة من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قلنا : يا رسول الله ؛ مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا ، وزهدنا فى الدنيا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا خرجنا من عندك فأنسنا أهلنا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : (لو أنكم إذا خرجتم من عندى كنتم على حالكم ذلكم لزارتكم الملائكة فى بيوتكم ، ولو لم تذبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذبوا فيغفر لهم)^(١) كانت مجالس النبى ﷺ مع أصحابه عامتها مجالس تذكير بالله ، وترغيب وترهيب ، إما بتلاوة القرآن أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة ، وتعليم ما ينفع فى الدين ، كما أمره الله - تعالى - فى كتابه أن يذكر ويعظ ويقص ، وأن يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يبشر وينذر ، وسماه الله مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ف قيل : سراجا للمؤمنين فى الدنيا ، ومنيرا للمذنبين يوم القيامة بالشفاعة ، وسمى سراجا لأن السراج الواحد يوقد منه ألف سراج ولا ينتقص من نوره شيء .

والتبشير والإنذار هو الترغيب والترهيب ، فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه كما ذكر ابو هريرة فى هذا الحديث رقة القلوب ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة فى الآخرة ، فأما رقة القلوب فتنشأ عن الذكر ؛ فإن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ، ويذهب الغفلة عنه ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾^(٢) وقال الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾^(٤) وقال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَال عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾^(٥) وقال - تعالى - : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(٦) وفى السنن عن الوباخى بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون . وقال ابن مسعود : نعم المجلس المجلس الذى تنشر فيه الحكمة وترجى فيه الرحمة هى مجالس الذكر . وشكا رجل إلى الحسن قساوة قلبه ، فقال : أدنه من الذكر ، وقال : مجلس الذكر بحياة العلم ويحدث فى القلب الخشوع .

وفى مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة ، وتحف الملائكة ، ويذكر الله أهلها فيمن عنده ، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، فربما رحم معهم من جلس إليهم وإن كان مذنباً ، وربما بكى فيهم

(١) انظر مسند الامام احمد ٣٠٥/٢ ورواه الترمذى فى جامعه الصحيح برقم ٢٥٢٦ والاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ح ٩ ص ٢٤١

(٢) الآية : ٢٨ من سورة الرعد .

(٣) الآية : ٢ من سورة الأنفال .

(٤) من الآيتين : ٣٤ ، ٣٥ من سورة الحج

(٥) الآية : ١٦ من سورة الحديد .

(٦) من الآية : ٢٣ من سورة الزمر

باك من خشية الله فوهب أهل المجلس كلهم له ، وهى رياض الجنة ، قال ﷺ (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة يارسول الله ؟ قال : مجالس الذكر)^(١) وإذا انفض مجلس الذكر فأهله بعد ذلك على أقسام : فمنهم من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشيء مما سمعه فى مجلس الذكر ، ولا يزداد هدى ، ولا يرتدع عن ردى ، وهؤلاء أشر الأقسام ، ويكون ما سمعوه حجة عليهم ، فتزداد به عقوبتهم ، وهؤلاء الظالمون لأنفسهم ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾^(٢) .

ومنهم من ينتفع بما سمعه وهم على أقسام : فمنهم من يرده ما سمعه عن المحرمات ويوجب له التزام الواجبات وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين ، ومنهم من يرتقى عن ذلك إلى التشمير فى نوافل الطاعات والتورع عن دقائق المكروهات ، ويشتاق إلى اتباع آثار السلف الصالح ، وهؤلاء السابقون المقربون . وينقسم المنتفعون بسماع الذكر فى استحضار ما سمعوه فى المجلس والغفلة عنه إلى ثلاثة أقسام : فقسم يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة فيشتغلون بها ، فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه فى مجلس الذكر من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه ووعدته ووعدته ، وثوابه وعقابه ، وهذا هو الذى شكاه الصحابة إلى النبى ﷺ وخشوا لكمال معرفتهم وشدة خوفهم - أن يكون نفاقا ، فأعلمهم النبى ﷺ أنه ليس بنفاق .

وفى صحيح مسلم عن حنظلة أنه قال : يارسول الله نافع حنظلة . قال : وما ذاك ؟ قال : نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنها رأى عين ، فإذا رجعنا من عندك عافنا (أى عالجنا) الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا . فقال : (لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة) .

ومعنى هذا أن استحضار ذكر الآخرة بالقلب فى جميع الأحوال عزيز جدا ولا يقدر كثير من الناس عليه ، فيكتفى منهم بذكر ذلك أحيانا وإن وقعت الغفلة عنه فى حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة ، ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك ، بل يلوم نفسه عليه ، ويحزنه ذلك من نفسه ؛ فالعارف يتأسف فى وقت الكدر على زمن الصفا ، ويحن إلى زمان القرب والوصال فى حال الجفا .

ما أذكر عيشنا الذى قد سلفا إلا وجف القلب وكم قد وجفا
واها لزماننا الذى كان صفا هل يرجع بعد فوته ؟ وا أسفا

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (ابواب الدعوات) باب ٨٣ ح ٥ ص ٥٣٢ رقم ٣٥١٠ من رواية أنس - رضى الله عنه -

وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس .

(٢) الآية : ١٠٨ من سورة النحل

(٣) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) ح ١٧ ص ٦٦ باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة (مسلم بشرح النووى)

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الجمعة) باب خطبته ﷺ - فى الجمعة ح ٦ ص ١٥٣ .

وقسم آخر يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر ، فلا يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازما لهم . وهؤلاء على قسمين ، أحدهما : من يشغله ذلك عن مصالح الدنيا المباحة ، فينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم ، ولا القيام بوفاء حقوقهم ، وكان كثير من السلف على هذه الحال ، فمنهم من كان لا يضحك أبدا ، ومنهم من كان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة لفسد . والثانى من يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه ، ويدخل ييدنه فى مصالح دنياه : من اكتساب الحلال ، والقيام على العيال ، ويخالط الخلق قويا يوصل إليهم به النفع ، مما هو عبادة فى نفسه : كتعلم العلم ، والجهد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهؤلاء أشرف القسمين ، وهم خلفاء الرسل ، وهم الذين قال فيهم على - رضى الله عنه - (صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى) وقد كان حال النبى ﷺ عند الذكر تتغير ، ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم .

وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم أن النبى ﷺ قال : (اتقوا النار وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ، ثم أعرض وأشاح - ثلاثا - حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة) .

وفى صحيح مسلم عن جابر أن النبى ﷺ (كان إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته ، كأن منذر جيش يقول : صباحكم ومساكم)^(١) وسئلت عائشة ؟ كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا مع نسائه ؟ قالت : كان كرجل من رجالكم ، إلا أنه كان أكرم الناس وأحسن الناس خلقا ، وكان ضحاکا بساما . فهذه الطبقة خلفاء الرسل عاملوا الله بقلوبهم ، وعاشروا الخلق بأبدانهم .

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليل مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

(والمواعظ) سيات تضرب بها القلوب فتؤثر فى القلوب كتأثير السياط فى البدن ، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره فى حال وجوده ، لكن يبقى أثر التآلم بحسب قوته وضعفه ، فكلما قوى الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر .

كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار ، فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعاما عقب ذلك ، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة . وإنما يصح التأديب بالسوط من صحيح البدن ، ثابت القلب ، قوى الذراعين فيؤلم ضربه فيردع ، فأما من هو سقيم البدن لا قوة له ، فماذا ينفع تأديبه بالضرب ؟ كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها ، وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئا ، وكان أحمد لا تذكر الدنيا فى مجلسه ولا تذكر عنده ، قال بعضهم : لا تنفع الموعظة إلا إذا خرجت من القلب ، فإنها تصل إلى القلب ، فأما إذا خرجت من اللسان فإنها تدخل من الأذن ثم تخرج

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الجمعة) باب خطبته ﷺ فى الجمعة ح ٦ ص ١٥٣

من الأخرى . قال بعض السلف : إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا .

فى بعض الكتب السالفة (إذا أردت ان تعظ الناس فعظ نفسك ، فإن اتعظت وإلا فاستح منى) .

طبيب يداوى الناس وهو سقيم	وغير تقى يأمر الناس بالتقى
هلا لنفسك كان ذا التعليم	يأبىها الرجل المعلم غيره
فإن انتهت عنه فانت حكيم	فابدأ بنفسك فانها عن غيرها
بالقول منك وينفع التعليم	فهناك يقبل ما تقول ويقتدى
عار عليك اذا فعلت عظيم	لاتنه عن خلق وتأتى مثله

لما حاسب المتقون أنفسهم خافوا من عاقبة الوعظ والتذكير ، قال رجل لأبن عباس : أريد أن أمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر . فقال له ابن عباس : إن لم تحش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل ، وإلا فابدأ بنفسك ، ثم تلا : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ ^(١) وقوله - تعالى - : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ ^(٢) وقوله حكاية عن النبى شبيب - عليه السلام - : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ ^(٣) قال النخعى : كانوا يكرهون القصص لهذه الآيات الثلاث ومع هذا كله فلا بد للانسان من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والوعظ والتذكير ، ولو لم يعظ إلا بعصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد لأنه لا عصمة لأحد بعده .

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب فمن يعظ العاصين بعد محمد
خطب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يوما فقال فى موعظته : إني لا أقول هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي ، فاستغفر الله وأتوب إليه .
وقوله ﷺ : (لو لم تذنبوا لآء الله بخلق جديد حتى يذنبوا فيغفر لهم) فالمراد بهذا أن الله - تعالى - حكمة - فى إلقاء الغفلة على قلوب عباده أحيانا حتى تقع منهم بعض الذنوب ، فإنه لو استمرت لهم اليقظة التى يكونون عليها حال سماع الذكر لما وقع منهم ذنب ، وفى إيقاعهم فى الذنوب أحيانا فائدتان عظيمتان ، إحداهما : اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم فى حق مولاهم ، وتنكيس رءوس عجبهم ، وهذا أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات ، فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العجب ، قال بعضهم : ذنب أفقر به إليه أحب إلى من طاعة أدل بها عليه .

وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين ؛ لأن زجل المسبحين ربما شابه الافتخار ، وأنين المذنبين يزيه الانكسار والافتقار . قال الحسن : إن العبد ليعمل بالذنب فلا ينسأه ولا يزال متخوفا منه

(١) الآية : ٤٤ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة الصف

(٣) الآية : ٨٨ من سورة هود .

حتى يدخل الجنة .

والفائدة الثانية . حصول المغفرة والعفو من الله لعبده ؛ فإن الله يحب أن يعفو ويغفر ، ومن أسمائه « الغفار والعفو ، والتواب » فلو عصم الخلق فلمن كان العفو والمغفرة ؟

يا رب أنت رجائي	وفيك حسنت ظني
يا رب فاغفر ذنوبي	وعافني واعف عني
العفو منك إلهي	والذنب قد جاء مني
والظن فيك جميل	حقق بحقك ظني

وعقد الأستاذ عبد الله ناصح علوان في كتابه (تربية الأولاد في الإسلام) فصلا تحت عنوان « التربية بالموعظة » قال فيه : من أهم وسائل التربية المؤثرة في تكوين الولد إيمانيا ، وإعداده خلقيا ونفسيا واجتماعيا . . تربيته بالموعظة ، وتذكيره بالنصيحة ، لما للموعظة والنصيحة من أثر كبير في تبصير الولد حقائق الأشياء ، ودفعه إلى معالي الأمور ، وتحليه بمكارم الأخلاق ، وتوعيته بمبادئ الإسلام فلا عجب أن نجد القرآن الكريم قد انتهجها ، وخاطب النفوس بها ، وكررها في كثير من آياته ، وفي مواطن عدة من توجيهاته وعظاته . . وإليك بعض النماذج في تكرار القرآن العظيم لكلمات الوعظ والنصيحة والانتفاع بالذكر :

قال الله - تعالى - في سورة لقمان :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه أحسن مودة وهو على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ، يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . .) ١٢ - ١٩

وقال تعالى في سورة سبأ على لسان الرسول ﷺ ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد . قل إن رب يقدف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ ٤٥ - ٤٩

وقال تعالى في سورة هود على لسان نوح - عليه السلام - ﴿ قالوا يانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ ٣٢ - ٣٤ وقال الله - تعالى - في سورة الأعراف على لسان هود - عليه السلام - ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس ب سفاهة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . . . ﴾ ٦٥ - ٦٨

وأسلوب القرآن الكريم متنوع فى الدعوة إلى الله ، وفى التذكير بالله ، وفى إلقاء الموعظة ، والإرشاد بالنصيحة .. حيث جرى ذلك كله على ألسنة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وتردد على أفواه الدعاة من جماعتهم وأتباعهم .

ولا يختلف اثنان أن الموعظة المخلصة ، والنصيحة المؤثرة إذا وجدت لها نفسا صافية ، وقلبا متفتحا ، وعقلا حكيما متديرا .. فإنها أسرع للاستجابة وأبلغ فى التأثير .

والقرآن الكريم قد أكد هذا المعنى فى كثير من آياته وكرر الانتفاع بالذكر ، والتأثير بالكلمة الهادية ، والنصيحة الراشدة . ﴿ إن فى ذلك للذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (ق : ٣٧) .

﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (الذاريات : ٥٥) .

﴿ وما يدرك لعله يزكى . أو يذكر فتنتفه الذكرى ﴾ (عبس ٢ - ٣)

﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ (ق : ٨)

ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ (هود : ١١٤)

﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ (الطلاق : ٢)

والقرآن الكريم ملئ بالآيات التى تتخذ أسلوب الوعظ اساسا لمنهج الدعوة ، وطريقا إلى الوصول لإصلاح الأفراد ، وهداية الجماعات .. ومن استعرض صفحات القرآن الكريم يجد ظاهرة الأسلوب الوعظى حقيقة ملموسة فى كثير من آياته .. تارة بالتذكير بالتقوى ، وأخرى بالتنويه بالتذكرة ، وثالثة بالتعبير بالموعظة ، ورابعة بالحض على النصيح ، وخامسة باتباع سبيل الرشاد ، وسادسة بالإغراء بالترغيب ، وسابعة باستعمال أسلوب التهديد ، وهكذا يجد القارئ ظاهرة الوعظ مناسبة فى ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه بقوالب متعددة ، وأساليب متنوعة .. مما يؤكد لكل ذى بصر وبصيرة أن للوعظ فى القرآن الكريم أهمية بالغة فى تربية النفوس على الخير ، وحملها على الحق ، واستجابتها للهدى ..

وسبق أن ذكرنا جملة من الاستشهادات القرآنية التى تفصح بشكل قاطع لا يقبل الشك أن النفوس الصافية ، والقلوب المتفتحة ، والعقول الواعية المتدبرة .. إذا تراءى لها الحق مناسبا بالكلمة المؤثرة والموعظة البليغة ، والنصيحة الرشيدة ، والتذكرة المخلصة .. فإنها سرعان ما تستجيب فى غير تردد ، وتتأثر من غير توقف .. بل سرعان ما تخضع للحق ، وتتقبل هدى الله الذى أنزله . هذا فى الكبير .. فكيف بالمولود الصغير الذى ولد على الفطرة وقلبه الطاهر البرىء لم يَتَلَوْنَ بعد ؟ ونفسه البيضاء الصافية لم تتدنس بمفاسد الجاهلية ، ولم تتقلب فى مدارج الإثم والعدوان .. ؟ فلا شك أن تأثره بالموعظة أبلغ ، وقبوله للتذكرة أقوى ! ..

فما على المربين إلا أن يفهموا هذه الحقيقة ، وأن ينهجوا منهج القرآن الكريم فى مواعظه وإرشاداته فى إعداد أولادهم الصغار - قبل سن التمييز وبعده - إيمانيا وخلقيا ، وتكوينهم نفسيا واجتماعيا .. إذا أرادوا لأولادهم الخير والكمال . والنضج الخلقى والعقلى والاتزان .

ولابد في هذا المضممار أن نلمح طريقة القرآن الكريم في الموعظة والنصح عسى أن ينتهجها من كان له في عنقه حق التربية ، ليصلوا بأولادهم أو تلامذتهم إلى الغاية المثلى في الإعداد والتكوين ، والتهذيب والتعليم .

وفي تقديرى أن طريقة القرآن في الموعظة تتميز بالأساليب التالية :

● النداء الإقناعى : مصحوبا بالاستعطاف أو الاستنكار . وهذا الأسلوب له إحياءاته المؤثرة على المشاعر . وتأثيره البالغ فى القلوب . . وهذا الأسلوب من الإقناع الاستنكارى أو الاستعطافى ظاهر واضح فى مخاطبة القرآن لقلوب الناس وعقولهم ، على اختلاف أشكالهم وأجناسهم وطبقاتهم ، على السنة الأنبياء والدعاة .

وإليك نماذج من هذه النداءات بأساليبها المتنوعة :

● نداءه للأبناء : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله . . ﴾

وعلى لسان نوح - عليه السلام - : (يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) ﴿ (هود : ٤٢)

وعلى سان يعقوب - عليه السلام - ﴿ يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن

الشیطان للإنسان عدو مبين ﴾ (يوسف : ٥)

وعلى لسان إبراهيم ويعقوب - عليهما السلام - ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا

وأنتن مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣٢)

نداءه للنساء : على لسان الملائكة لمريم - عليها السلام - ﴿ يا مريم إن الله اصطفىك وطهرتك واصطفىك

على نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى وارکمی مع الراكعين ﴾ (آل عمران ٤٢ - ٤٣)

﴿ يا نساء النبی لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض

وقلن قولا معروفا ﴾ (الأحزاب : ٣٢)

● نداءه للأقوام : على لسان موسى - عليه السلام - : ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم

العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب

الرحيم ﴾ (البقرة : ٥٤) .

وعلى لسان الداعية الذى آمن من قوم موسى : ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما

هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . . ﴾ وقوله : ﴿ ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة

وتدعوننى إلى النار . .) (غافر ٣٨ : ٤١)

وعلى لسان الجن الدعاة :

﴿ يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق

مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾

(الاحقاف ٣٠ - ٣١)

نداءه للمؤمنين :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ (البقرة ١٥٣)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢)
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴾ (الأنفال : ٢٤)

ندائوه لأهل الكتاب :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٦٤)

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (المائدة : ٦٨) .

● نداءؤه للناس أجمعين :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ٢٠ - ٢٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (النساء ١٧٤)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تُروْنَهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنْ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج ١ - ٢) .

وهذا النداء كثير في القرآن الكريم .

٢ - الاسلوب القصصى مصحوبا بالعبرة والموعظة :

وهذا الأسلوب له تأثيراته النفسية ، وانطباعاته الذهنية ، وحججه المنطقية والعقلية .. وقد استعمله القرآن الكريم في كثير من المواطن ، ولا سيما في أخبار الرسل مع أقوامهم ، وقد من الله على رسوله - عليه الصلاة والسلام - بأن قص عليه أحسن القصص ، ونزل عليه أحسن الحديث .. ليكون للناس آية وعبرة وللرسول - عليه الصلاة والسلام - عزما وتثبيتا .

﴿ نحن نأمر عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ (يوسف ٣)

﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ ذَاتِ الْعِلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجْعَلْنَاهُمْ حَتَّٰطِينَ ﴾ (الاعراف ١٠١)

﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ (هود ١٢٠)

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ (الأعراف ١٣٦)

﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ (النازعات : ١٥)

- ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ (الذاريات ٤)

- ﴿هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وشمود﴾ (البروج ١٧ - ١٨)

والقرآن الكريم مليء بقصص الأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم ، وأحيانا تكون القصة مكررة في سور عدة من القرآن ، لإظهار القصة في كل مرة بأسلوب جديد يختلف عن أسلوبها في

المرات السابقة ، لتذوق الإعجاز القرآني في أسلوبه الرائع ، وبيانه الفريد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لإظهار عبرة أخرى تكمن وراء الآيات ، وتترأى خلال الألفاظ والمعاني التي لا يدركها إلا الراسخون في العلم ، والمتذوقون لبلاغة القرآن الكريم ! ولنضرب على ذلك مثلاً .

قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون مذكورة مرات ومرات في القرآن ، فلنختار قصتين من هذه القصص ، ثم نقارن بينهما ليعلم القارئ سر هذا التكرار :
القصة الأولى في سورة الأعراف (١٠٤ - ١٣٩)

﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ، حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ .

القصة الثانية من سورة النازعات (١٥ - ٢٦) :

﴿ هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، إذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ .

من المقارنة بين القصتين يتبين الأمور التالية :

- ١ - الأولى مفصلة وطويلة ، والثانية مختصرة وقصيرة .
 - ٢ - فرق كبير بين الأسلوبين ، سواء ما يتعلق بالآيات وفواصلها في طولها وقصرها ، أو معانيها وتراكيبها ، أو صيغ الأمر والنهي فيها . . .
 - ٣ - التركيز على العبرة في سورة الأعراف يتناول :
 - أ - إقامة الحجة على فرعون .
 - ب - إظهار المعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام -
 - ج - الحوار الذي دار بين موسى والسحرة
 - د - إيمان السحرة بعد قيام الحجة .
 - هـ - تهديد فرعون ووعيده .
 - و - عدم اكتراث السحرة بالتهديد بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلوبهم .
 - ز - أخذ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات .
 - ح - انتقام الله منهم بالفرق .
 - أما التركيز في سورة النازعات فيتناول :
 - أ - إهلاك الله لفرعون لادعائه الألوهية .
 - ب - أخذ العبرة لمن يريد أن يتذكر أو يخشى
- بعد هذا البيان تبين لك الفرق الكبير ما بين القصتين ، سواء ما يتعلق بالتذوق البلاغي ، أو

بأخذ العبرة والعظة ، إذن فلا يجوز أن نرى فى القصص المعادة مجرد تكرار ، لأن القصص التى كررها القرآن الكريم ليست كذلك ، كما رأيت من الفارق الكبير من عرض القصتين .

٣ - التوجيه القرآنى مصحوباً بالوصايا والمواعظ

القرآن الكريم ملئ بالآيات المصحوبة بالوصايا وبالنصوص المقرونة بالمواعظ لتوجيه القارئ إلى ما ينفعه فى دينه ودنياه وآخرته ، وتكوينه فى روحه وعقله وجسمه ، وإعداده ليكون رجل دعوة وبطل جهاد .

وللقرآن الكريم تأثيره البالغ على الأرواح والقلوب ، فحينما يسمع المسلم آيات الله تتلى ، يتخشع لها قلبه ، وتتوق إليها نفسه ، وتتحرك لجرسها روحه ، فيعاهد الله - سبحانه - على أن يعمل بمواعظها ، ويستجيب لوصاياها ، ويمثل أوامرها ، ويتجنب نواهيها ، لأنها تنزيل من حكيم حميد ، فيها البلسم الشافى لأسقامه . والعلاج الواقى لأمراض الجسم ، وآفات القلوب .

وإليك بعض هذه النماذج التوجيهية من القرآن الكريم :

(أ) من سورة لقمان : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه .. ﴾

(ب) ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما . والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ (الفرقان ٦٣ - ٧٧)

(ج) ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ (النساء ٣٦ - ٣٨)

(د) ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (البقرة ١٧٧)

(هـ) ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴿ الاسراء : ٢٣ - ٣٨
إلى غير ذلك من هذه الوصايا ، والمواعظ والتوجيهات ، والأوامر والنواهي التي تفيض فيها آيات الله ، ويدعو إليها قرآنه المجيد ! !

ويتفرع من هذا :

- (أ) التوجيه القرآني المصحوب بأدوات التوكيد : كقوله - تعالى - :
﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ^(١) وقوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ^(٢) وقوله :
﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ ^(٤)
- (ب) التوجيه القرآني المصحوب بأدوات الاستفهام الإنكارى : كقوله - تعالى - : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإن معكم من المتربصين ﴾ ^(٥) .
﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾ ^(٦)
﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ^(٧)
﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ ^(٨)

(١) من الآية : ١٢ من سورة النحل ، ومن الآية : ٤ من سورة الرعد ، ومن الآية : ٢٤ من سورة الروم .

(٢) من الآية : ٢١ من سورة الروم .

(٣) من الآية : ٢٣ من سورة الروم .

(٤) من الآية : ٣٧ من سورة ق .

(٥) الأيتان : ٣١ ، ٣٢ من سورة الطور .

(٦) الآية : ٣٢ من سورة الطور .

(٧) الأيتان : ٣٣ ، ٣٤ من سورة الطور .

(٨) الآية : ٣٥ من سورة الطور .

- ﴿ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ؟ ﴾^(١)
- ﴿ أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطنون ؟ ﴾^(٢)
- ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ؟ ﴾^(٣)
- ﴿ أم له البنات ولكم البنون ؟ ﴾^(٤)
- ﴿ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ ﴾^(٥)
- ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ﴾^(٦)
- ﴿ أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ﴾^(٧)
- ﴿ أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون ؟ ﴾^(٨) (الطور : ٣٠ - ٤٣)
- (هـ) التوجيه القرآنى المصحوب بالأدلة العقلية : كقوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (البقرة : ١٦٤)
- ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (الأنبياء : ٢٢)
- ﴿ أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ؟ ﴾ (الطور : ٣٦)
- ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (الذاريات : ٢٠ - ٢١) .
- (د) التوجيه القرآنى المصحوب بشمولية الإسلام : كقوله - تعالى - : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وإقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (البقرة : ١٧٧)
- وفى سورة النحل : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (النحل : ٨٩)
- وفى سورة الأنعام : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شئ ﴾ (الأنعام : ٣٨)

(١) الآية : ٣٦ من سورة الطور .
 (٢) الآية : ٣٧ من سورة الطور .
 (٣) الآية : ٣٨ من سورة الطور .
 (٤) الآية : ٣٩ من سورة الطور .
 (٥) الآية : ٤٠ من سورة الطور .
 (٦) الآية : ٤١ من سورة الطور .
 (٧) الآية : ٤٢ من سورة الطور .
 (٨) الآية : ٤٣ من سورة الطور .

(هـ) التوجيه القرآني المصحوب بقواعد التشريع : كقوله - تعالى - :
 - في قاعدة العدل القضائية : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ (النساء : ٥٨)
 - وكقوله في قاعدة الشورى الدستورية : ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .
 ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (الشورى : ٣٨)
 وكقوله في قاعدة المساواة الإنسانية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٣)
 تلکم أهم الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في نصائحه ومواعظه .. وهى أساليب متنوعة لها إحياءاتها المؤثرة ، وحساسياتها البالغة ، واهتزازاتها الضاربة على أوتار القلوب ! ..
 ومن بديهيات القول أن المربين جميعا لو سلكوا هذه الأساليب التي انتهجها القرآن الكريم في تأديب أولادهم ، وتهذيب أفلاد أكبادهم .. لنشأ الأولاد - ولا شك - على خير ما ينشأون من التربية الفاضلة ، والأخلاق الحميدة ، والسلوك الإنساني القويم ، والوعى الاسلامى الشامل ..
 والرسول - صلوات الله وسلامه عليه - قد اهتم للنصيحة ، ووجه المربين والدعاة .. إلى إلقاء الموعظة ، وأهاب بكل مسلم في الحياة أن يكون الداعية إلى الله في كل مكان يحل فيه ، وفي كل بيئة يوجد فيها .. عسى أن يتأثر بمواعظه وإرشاداته من كل له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعسى أن يقوم بمهمة الإنقاذ - عن طريق الدعوة والموعظة - لرجال توحلوا في مستنقع الجاهلية ، وتعثروا في دروب الانحلال ، وضاعوا في متاهات الزيف والضلال ..
 وإليكم أهم توجيهاته - عليه الصلاة والسلام - في بث النصيحة ، وإلقاء الموعظة والدعوة إلى الله :

- روى مسلم عن تميم بن أوس الدارى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : (الدين النصيحة ؛ قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)^(١) .

- وروى الشيخان عن جرير بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم)^(٢) .

- وروى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)^(٣) .

- وروى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا)^(٤) .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في صحيحه بشرح النووى في (كتاب الايمان) باب : الدين النصيحة ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان في (كتاب الايمان) باب بيان ان الدين النصيحة ج ١ ص ١٢ رقم ٣٥ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم بشرح النووى في (كتاب الامارة) باب فضل الصدقة في سبيل الله تعالى ج ١٣ ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ٢٢٧ في (كتاب العلم) باب من سن سنة حسنة أو سيئة .

- وروى الشيخان من حديث سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ قال لعلى - كرم الله وجهه - لما وجهه إلى فتح خيبر : (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم) (١).

- معنى (حمر النعم) النعم : الإبل ، والحمر منها انفسها .
والأحاديث فى هذا الشأن كثيرة ومستفيضة ، فعلى المربين أن يأخذوا بتوجيهاتها ، وأن يكونوا محققين لما جاء فيها .. ولا سيما الأمور التى تخص أولادهم وتلامذتهم ومريديهم .
ومعلمنا الأول - عليه الصلاة والسلام - له منهجه الأفضل ، وطريقته المثلى فى إلقاء الموعظة ، وتجدد أسلوبها ، وتنوع عرضها ..

وإليكم أهم ما فى هذا المنهج وهذه الطريقة :

(أ) انتهاج أسلوب القصة : ولنذكر بعض الامثلة :

١ - قصة الأبرص والأقرع والأعمى :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه سمع النبى ﷺ يقول : (إن ثلاثة من بنى إسرائيل ، أبرص ، وأقرع ، وأعمى) أراد الله أن يبتليهم (يختبرهم) فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص :

الملك : أى شئ أحب إليك ؟

الأبرص : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذى قد قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قدره ، وأعطى لونا حسنا .

الملك : فأى المال أحب إليك ؟

الأبرص : الإبل ، فأعطى ناقه عشراء (حاملا) .

الملك : بارك الله لك فيها .

فأتى الأقرع :

الملك : أى شئ أحب إليك ؟

الأقرع : شعر حسن ، ويذهب عني هذا الذى قذرنى الناس . فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا ..

الملك : . فأى المال أحب إليك ؟

الأقرع : البقرة فأعطى بقرة حاملا .

الملك : بارك الله لك فيها ..

فأتى الأعمى :

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الفضائل) باب : من فضائل على بن أبى طالب رضى الله عنه ص ٦٤٠ رقم ١٥٥٧ .

الملك : أى شئ أحب إليك ؟

الأعمى : أن يرد الله بصرى ، فأبصر الناس ، فرد إليه بصره

الملك : فأى المال أحب إليك ؟

الأعمى : الغنم ، فأعطى شاة والدته (حاملا) .

فأنج هذا وولد هذا ، فكان لهذا واد من الابل ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

- ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيبته :

الملك : رجل مسكين قد انقطعت به الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم (أى : معونة من

المال) إلا بالله ثم بكى ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن . والجلد الحسن والمال ، بغيرا أتبلغ به فى سفرى .

الأبرص : الحقوق كثيرة !!

الملك : فإنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقدرك الناس ؟ فقيرا فأعطاك الله ؟

الأبرص : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر (أبا عن جدا) !!

الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

الملك : رجل مسكين قد انقطعت به الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ،

أسألك بالذى أعطاك الشعر الحسن ، والمنظر الحسن ، والمال ، بقرة أتبلغ بها فى سفرى .

الأقرع : الحقوق كثيرة !!

وأنى الأقرع فى صورته وهيبته :

الملك : كانى أعرفك ، ألم تكن أقرع يقدرك الناس ؟ فقيرا فأعطاك الله ؟

الأقرع : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر !!

الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت .

وأنى الأعمى فى صورته وهيبته :

الملك : رجل مسكين قد انقطعت به الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ،

أسألك بالذى رد عليك بصرك ، شاة أتبلغ بها فى سفرى .

الأعمى : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ماشئت ، ودع ماشئت ، فوالله لأجهدك

(لأعارضك) بشئ أخذته الله عز وجل .

الملك : أمسك مالك فإنما ابتليتكم (اختبرتم) . فقد رضى الله عنك ، وسخط على صاحبك^(١) .

٢ - قصة الخشبة العجيبة .

روى البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ :
« أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه (يقرضه) ألف دينار المقرض : ائتنى بالشهداء أشهدهم .

المقترض : كفى بالله شهيدا !

المقترض : فائتنى بالكفيل .

المقترض : كفى بالله كفيلا !

المقترض : صدقت !! فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر ، فقضى حاجته ، ثم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجله ، فلم يجد مركبا ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار . وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها (أى : سده) ثم أتى بها البحر . المقترض : « اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلانا (اقترضت منه) ألف دينار ، فسألنى كفيلا ، فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك ، وسألنى شهيدا ، فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بك ، وإنى جهدت (بذلت جهدى) أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له ، فلم أقدر ، وإنى أستودعكها (أى : أجعلها فى أمانتك) ، فرمى بها فى البحر !! حتى ولجت فيه ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه (أقرضه) ينظر : لعل مركبا قد جاء بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال !!! فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه ، فأتى بألف دينار .

المقترض : والله ما زلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركبا قبل الذى أتيت فيه .

المقترض : هل كنت بعثت إلى بشيء ؟ .

المقترض : أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه .

المقترض : فإن الله أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بألف الدينار راشدا^(٢) .

قصة هاجر وإسماعيل

روى البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : جاء إبراهيم - عليه السلام - بأم إسماعيل (هاجر) ، وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحه (شجرة) فوق زمزم من أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضع عندهما جرابا (كيسا) فيه تمر ، وسقاء فيه ماء .

ثم قفى (رجع) إبراهيم - عليه السلام - منطلقا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (كتاب الزهد والرقائق) ص ٨٢٦ ، ٨٢٧ رقم ١٨٦٨ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الزكاة) باب : ما يستخرج من البحر ج ٢ ص ١٥٩ .

تذهب ؟ وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شيء !! -
 قالت له ذلك مرارا ، وهو لا يلتفت إليها !!
 هاجر : الله أمرك بهذا ؟ .

إبراهيم : نعم .

هاجر : إذن الا يضيعنا !!

ثم رجعت فانطلق إبراهيم - عليه السلام - ثم إذا كان عند الشنية (مكان بمكة) حتى لا يرونها
 استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، فرفع يديه فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد
 غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ،
 وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (١) .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما فى السقاء
 عطشت وعطش ولدها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت
 (الصفا) أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم
 تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها (ثوبها) ثم سعت سعى
 الإنسان المجهود (المتعب) حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها فنظرت هل ترى
 أحدا ، فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : إن رسول الله - ﷺ - قال :

« فلذلك سعى الناس بينهما »

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه !! تريد نفسها -

ثم تسمعت فسمعت أيضا - فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث (إغاثة) فأغث .
 فإذا هى بملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال - بجناحه ، حتى فجر الماء ، فجعلت
 تحوضه (تجعله حوضا) ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف بسقائها وهو يفور بعدما تغرف ،
 فشربت وأرضعت ولدها .

قال ابن عباس و رضى الله عنهما - : قال النبى - ﷺ - :

« رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عينا معنا »

فقال لها الملك : « لاتخافوا ضيعة (هلاك) ، فإن ههنا بيتا لله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله
 لا يضيع أهله » .

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتية السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله .
 فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم (اسم قبيلة) مقبلين من طريق كداء (اسم
 موضع) فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرا عاثقا (حاثما) فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء !!

(١) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .

لعهدا بهذا الوادى وما فيه ماء !! فأرسلوا جريا (رائدا) فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء .

جرهم : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

هاجر : نعم ، ولكن لاحق لكم بالماء .

جرهم : نعم .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال رسول الله - ﷺ -

« فأنفى ذلك (وجد الحى) أم إسماعيل وهى تحب الأنس »

فتزلوا فأرسلوا إلى أهليهم فتزلوا معهم ، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم وأنفسهم (أى : سبقهم) وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجته امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم - عليه السلام - بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته (يتفقد أسرته) فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه .

الكنة : خرج يصيد لنا ، ثم سأها عن عيشتهم وهيئتهم .

الكنة : نحن بشر !! نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه !!

إبراهيم : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له يغير عتبة بابي (كناية عن الطلاق) .

إسماعيل : هل جاءكم من أحد ؟

زوجته : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا (وصفته له) فسألنا عنك ، فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة .

إسماعيل : فهل أوصاك بشيء ؟

زوجته : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : « غير عتبة بابك »

إسماعيل : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، الحقى بأهلك ، فطلقها .

وتزوج إسماعيل منهم مرة أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم - عليه السلام - ماشاء الله ، ثم أتاهم

بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسأل عنه :

إبراهيم : أين إسماعيل ؟ وكيف أنتم ؟

الكنة : ذهب يصيد لنا ، ونحن بخير وسعة ، ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟

إبراهيم : وما طعامكم وشرابكم ؟

الكنة : طعامنا لحم ، وشرابنا الماء .

إبراهيم : اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم .

فقال أبو القاسم - ﷺ -

« بركة دعوة إبراهيم . »

إبراهيم : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومريه « يثبت عتبة بابي » .

جاء إسماعيل وهو يقول : هل أتاكم من أحد ؟

الزوجة : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، (وأثنت عليه) ، فسألنى عنك فأخبرته أنا بخير .

إسماعيل : فأوصاك بشيء ؟

الزوجة : نعم : يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك .

إسماعيل : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ماشاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له (قوسا) تحت دوحه (شجرة) قريبة من زمزم . فلما رآه قام إليه ، وصنع كما يصنع الوالد بالولد (أى : تعانقا) إبراهيم : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر .

إسماعيل فاصنع ماأمرك ربك .

إبراهيم : وتعيننى ؟

إسماعيل : أعينك .

إبراهيم : فان الله أمرنى أن أبني بيتا ههنا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها .

فعند ذلك رفع القواعد من البيت .

فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر (المقام) فوضعه له ، فقام عليه وهو بينى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)^(١)

إلى غير ذلك من هذه القصص الواردة .

فالواعظ البارع ، والمربي الحكيم ، والداعية الموفق . يستطيعون أن يكيفوا عرض القصة بالأسلوب الملائم الذى يتناسب مع عقلية المخاطبين ، كما أنهم يستطيعون أن يستخرجوا من القصة أهم مواطن العبرة والعظة .. ليكون التأثير أبلغ ، والاستجابة أقوى .

إذن فما على المربي إلا أن يستغل انفعال العاطفة ، ومثار الانتباه فى عرض القصة لدى السامع حتى إذا تفاعل روحيا ، وتفتح ذهنيا .. صب فى مشاعره وأحاسيسه وأعماق قلبه من معين العبرة ، وسلسبيل العظة ..

وإذا هو مدعن ملتزم خلشع نخبث لله رب العالمين . وعندئذ يأخذ المربي عليه العهد ليلتزم الإسلام منهاجا وتشريعا . ويتخلق بمبادئ هذا الدين سلوكا ومعاملة .

وهكذا يستطيع المربي الواعظ أن يضيف - بأسلوبه الشائق واستجلاته مواطن العبرة - على القصة جلالها ، وأن يترك فى النفوس أثرها ، وأن ينقل المستمع إلى أجواء الطهر والروحانية والخشوع .

(ب) انتهاج أسلوب الحوار والاستجواب :

وذلك بطرح الأسئلة على أصحابه ، ليشير انتباههم ، ويحرك ذكاءهم ، ويقده فطنتهم ، ويسقيهم المواعظ المؤثرة فى قالب الإقناع والمحااجة .

ولنضرب على ذلك أمثلة :

١ - روى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال :

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه بشرح الشيخ زروق ، فى (كتاب أحاديث الأنبياء) ج ٦ ص ٣٦٠ - ٣٦٨ رقم ٤٤

سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « أتدرون من المسلم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .
قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

قال : أتدرون من المؤمن ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : المؤمن من آمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم .

ثم ذكر المهاجر فقال : والمهاجر من هجر السوء فاجتنبه »^(١) .

٢ - وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« أرايتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ »
قالوا : لا يبقى من درنه شيء .

قال : ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا »^(٢) .

٣ - وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - :

« أتدرون من المفلس ؟

قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع .

قال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف

هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ،
فإن فنيت قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار »^(٣) .

(ج) بدء الموعظة بالقسم بالله - تعالى : -

وذلك لتنبية السامع على أهمية المقسم عليه لفعله أو اجتنابه :

- روى مسلم فى صحيحه عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا

الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا .. أو لا ادلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام
بينكم »^(٤) .

- وروى البخارى من حديث أبى شريح - رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « والله

لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه »^(٥)
أى شروره ، وهذا كثير فى توجيهاته - عليه الصلاة والسلام - ..

(١) انظر مسند الإمام أحمد (مسند عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما) - ج ٢ ص ٢٠٦

(٢) الحديث رواه البخارى ومسلم . انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب المساجد) باب المشى إلى الصلاة .. الخ ص ١٣٢ رقم ٣٨٩

(٣) هذا الحديث رواه الإمام مسلم فقط .

انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم الظلم ج ١٦ ص ١٣٥ ، ١٣٦

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإيمان) باب لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ج ٢ ص ٣٥

وانظر جامع الترمذى (كتاب الاستئذان) باب ماجاء فى إفشاء السلام ج ٥ ص ٥٢ رقم ٢٦٨٨

(٥) انظر صحيح البخارى (كتاب الأدب) ج ٧ ص ٧٤

عبد الحميد كشك

في

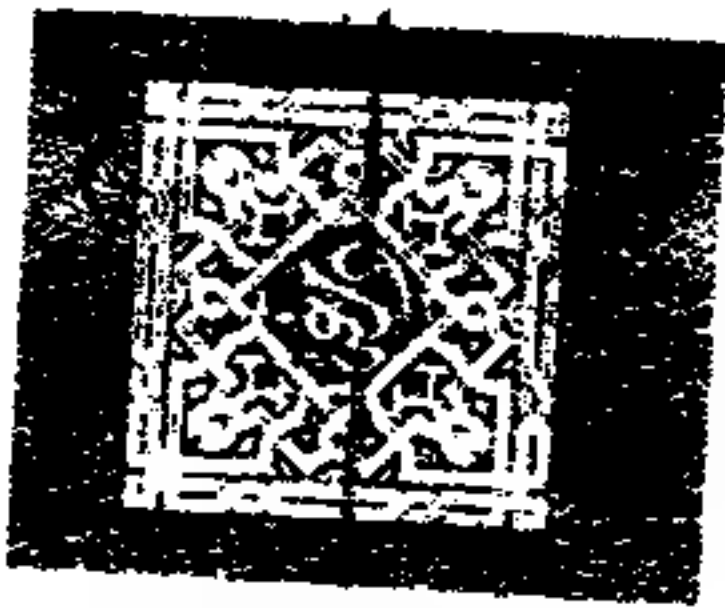
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

سورة السجدة والاحزاب
الجزء الحادي والعشرون

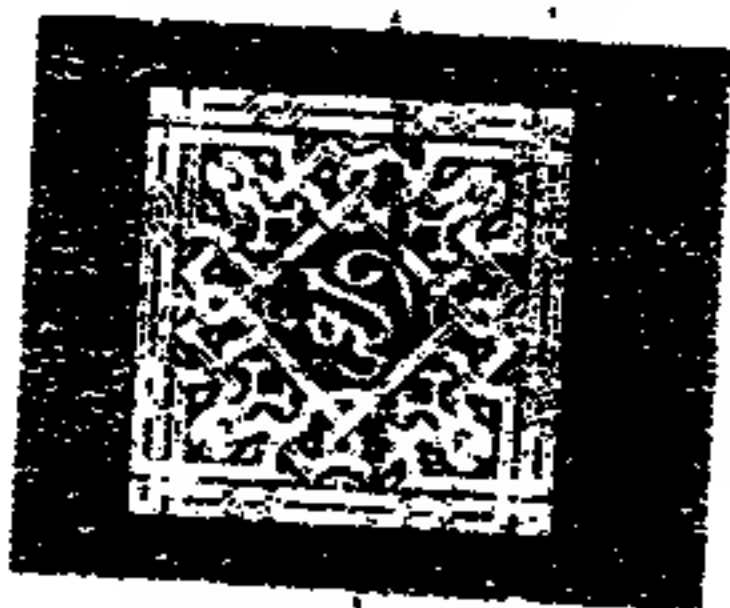
المكتبة المصرية الحديث

نموذج رقم ۱۷

الأزهر
 مجمع البحوث الإسلامية
 الإدارة العامة
 بحوث والتأليف والترجمة



السيد / السيد محمد عبد الله بن أحمد



السلام عليكم ورحمة الله وبركاته — وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : **مراجعة جليل**
الحزب الحاربي / **الشيخ** / **الميرزا محمد كاشاني**

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع من طبعه على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

والله الموفق

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

**مدير عام
ادارة البحوث والتأليف والترجمة**

مروج ماهر

فصل اول

تحریراتی ۲۷ / ۱ / ۱۴۱۳
الموافق ۲ / ۸ / ۱۱۹۱



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في رهاب التفسير

المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
القاهرة ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت ٣٩٣٤١٢٧
الاسكندرية ٧ شارع نوبار المنشية ت ٤٨٢٦٦٠٢
فاكسبيللى القاهرة ٣٤٧٥٤٢٧ (٠٠٢٠٢)

(د) دمج الموعظة بالمداعبة

وذلك لتحريك الذهن ، وإذهاب الملل ، وتشويق النفس . . من هذا :

مارواه أبو داود والترمذي عن أنس - رضى الله عنه - قال : إن رجلا جاء إلى رسول الله - ﷺ - يستحممه بعيرا من الصدقة ليحمل عليه متاع بيته ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إني حاملك على ولد الناقة ، فقال الرجل : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ » (١)

فأفهمه - ﷺ - عن طريق هذه المداعبة أن الحمل ولو كان كبيرا يحمل الأثقال ما يزال ولد الناقة . وهذا كثير في مداعباته - عليه الصلاة والسلام - .

(هـ) الاقتصاد بالموعظة مخافة السامة :

- روى مسلم عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال : « كنت أصلى مع النبي ﷺ فكانت صلاته قصدا ، أى : وسطا » (٢)

- وروى أبو داود عن جابر بن سمرة : « كان رسول الله - ﷺ - لا يطيل الموعظة يوم الجمعة - إنما هي كلمات يسيرات » . (٣)

- وبما يروى عنه - عليه الصلاة والسلام - : « أنه إذا خطب لا يخل ولا يُمل » وأيضا : « كان رسول الله - ﷺ - يتخولنا بالموعظة مخافة السامة » (٤) .

(و) الهيمنة بالتأثير الوعظي على الحاضرين :

روى الترمذي عن العريضي بن سارية أنه قال : « وعظنا رسول الله - ﷺ - موعظة مضت - احترقت - منها الجلود - وذرفت منها العيون . ووجلت منها القلوب ، فقلنا : كأن هذه موعظة مودع يا رسول الله ؟ فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أن اتقوا الله ، وأن تتبعوا سنتي ، وسنة الخلفاء الهادية المهتدية من بعدى ، وعضوا عليها بالنواجذ ، فإن كل بدعة ضلالة » (٥)

(١) انظر سنن أبي داود بتحقيق أحمد محمى الدين عبد الحميد (كتاب الأدب) باب ماجاء في المزاج ج ٤ ص ٣٠٠ رقم ٤٩٩٨ وانظره في سنن الترمذي (في كتاب البر والصلة) باب ماجاء في المزاج ج ٤ ص ٣٥٧ رقم ١٩٩١ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب ..

(٢) رواه مسلم بمعناه في (كتاب الصلاة) باب القراءة في الصبح ج ١ ص ٣٣٧ رقم ٤٥٨ / ١٦٩ .

وانظر نضه في مسلم في (كتاب الجمعة) باب تخفيف الصلاة والخطبة ج ٢ ص ٥٩١ رقم ٨٦٦ / ٤١ .

(٣) انظر سنن أبي داود (كتاب الصلاة) تفریع أبواب الجمعة : باب إقصار الخطب ج ١ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ رقم ١١٠٧ .

(٤) انظر صحيح البخاري (كتاب كيف كان بدء الوحى) باب ما كان النبي - ﷺ - يتخولهم بالموعظة والعلم .. الخ ج ١ ص ٢٧ من رواية ابن مسعود - رضى الله عنه .

وانظر صحيح مسلم (كتاب صفة المنافقين وأحكامهم) باب الاقتصاد في الموعظة ج ٤ ص ٢١٧٢ ، ٢١٧٣ رقم ٨٢ ، ٨٣ والترمذي رقم ٢٨٥٥ .

(٥) انظر الجامع الصحيح للترمذي (كتاب العلم) باب ماجاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ج ٥ ص ٤٤ رقم ٢٦٧٦ ولفظه « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن عبد حبشي ؛ فإنه من يعش منكم يز اختلافا كثيرا ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإنها ضلالة ، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين ، عضوا عليها بالنواجذ » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

جاء فى المسند ومسلم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : إن رسول الله - ﷺ - قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ورسول الله - ﷺ - يقول هكذا بيده : يحركها ، يقبل بها ويدبر : يمجّد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله - ﷺ - المنبر ، حتى قلنا : ليخرن به ، أساقط هو برسول الله - ﷺ - ؟ (١) .

ولا يتصف الواعظ الداعية بهذه الهيمنة والتأثير إلا أن يكون مخلص النية ، رقيق القلب ، خاشع النفس ، طاهر السريرة ، مشرق الروح ، وإلا فالمسئولية كبيرة عند رب العالمين .
روى ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلًا بإرسال جيد عن مالك بن دينار عن الحسن - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مامن عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ما أراد بها ؟ » (٢) .

فكان مالك إذا حدث بهذا الحديث بكى ، ثم يقول : تحسبون أن عيني تقر بكلامى عليكم ؟ وأنا أعلم أن الله - عز وجل - سألنى عنه يوم القيامة : ما أردت به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبى ، لو لم أعلم أنه أحب إليك ، لم أقرأ به على اثنين أبدا .

وفرق كبير بين داعية يتكلم بلسانه وهو متصنع بالكلام ليسبى به قلوب الرجال ، وبين داعية مؤمن مخلص مكلوم القلب على الإسلام ، يتكلم بنبضات قلبه ، ولو أعج حزنه وأساه ، لما آل إليه حال المسلمين !! فلا شك أن تأثير الثانى أبلغ ، والاستجابة إليه أقوى ، والاتعاظ بكلامه أعظم .
قال عمر بن ذر لأبيه : يا أبت : مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ فقال : يا بنى ، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة .

روى أبو داود عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تعلم صرف الكلام ليسبى به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » (٣) .
- معنى (الصرف) : التوبة ، والعدل : الفدية .

(ز) الموعدة بضرب المثل .

كان - عليه الصلاة والسلام - يستعين على توضيح مواعظه بضرب المثل مما يشهده الناس بأم

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب صفة القيامة والجنة والنار) ج ١٧ ص ١٣٢ ولفظه : قال : « يأخذ الله - عز وجل - سمواته وأراضيه بيديه فيقول : أنا الله - ويقبض أصابعه ويبسطها - أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله - ﷺ - ؟ !
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب : ذكر البعث فقد أوردته مع اختلاف فى بعض الألفاظ وقال فى الزوائد : إسناده صحيح .

(٢) انظر الترغيب والترهيب (باب : من لم ينفعه علمه ضره جهله) ج ١ ص ١٢٦ وقال المنذرى : رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلًا بإرسال جيد .

(٣) انظر سنن أبى داود بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد (كتاب الأدب) باب ماجاء فى المنشد فى الكلام ج ٤ ص ٣٠٢ رقم ٥٠٠٦

أعينهم ، ويقع تحت حواسهم ، وفي متناول أيديهم ؛ ليكون وقع الموعظة في النفس أشد ، وفي الذهن أرسخ .

- روى النسائي في سننه عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة (فاكهة تشبه البرتقال) ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها ، ومثل جليس السوء كصاحب الكير (كمثل الحداد النافخ في النار) إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » (١)

وفي هذه التشبيهات النبوية أبلغ ترغيب في الخير ، وأزجر تحذير عن الشر ، بأوضح أسلوب يدركه المخاطبون .

(ح) الموعظة بالتمثيل باليد :

وكان - ﷺ - إذا أراد أن يؤكد أمراً هاماً يمثل بكلماته إشارة منه إلى الأمر الهام الذى يجب أن يهتموا به ويمثلوه .

- روى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً - وشبك رسول الله بين أصابعه - » (٢) .
- روى البخارى عن سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنهم - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى . (٣) .

- وروى الترمذى فى سننه عن سفيان بن عبد الله البجلي - رضى الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ، قال : « قل ربى الله ثم استقم »
قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ - عليه الصلاة والسلام - بلسان نفسه ثم قال : (هذا) (٤) .

(١) انظر سنن النسائي (كتاب الإيمان وشرائعه) باب : مثل الذى يقرأ القرآن من مؤمن ومنافق ج ٨ ص ١٢٤ ، ١٢٥ من رواية أنس عن أبى موسى الأشعرى .

وليس فى الحديث : « ومثل جليس السوء ... الخ »
وأما نص الحديث الذى معنا ففى سنن أبى داود ، فى (كتاب الأدب) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٢٩ .

(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم .. الخ ص ٧٠٣ رقم ١٦٧٠ بلفظ : « إن المؤمن .. الحديث »

(٣) انظر صحيح البخارى (كتاب الطلاق) ج ٦ ص ١٧٠ ، و (كتاب الأدب) ج ٧ ص ٧٢ وفى سنن أبى داود فى (كتاب الأدب) باب فىمن ضم اليتيم ج ٤ ص ٣٣٨ رقم ٥١٥٠

(٤) روى الترمذى هذا الحديث فى (كتاب الزهد) باب : ما جاء فى حفظ اللسان ج ٤ ص ٦٠٧ رقم ٢٤١٠ عن سفيان بن عبد الله الثقفى .

وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

(ط) الموعظة بالفعل التطبيقى :

وكان - ﷺ - يعطى لأصحابه النموذج الحى فى أسلوب التعليم والتربية والتكوين . وإليكم بعض الأمثلة :

- روى أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا أتى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله كيف الطهور ؟ (أى : الوضوء) فدعا رسول الله - ﷺ - بماء فى إناء ، فغسل كفيه ثلاثا حتى استوفى ، ثم قال : « فمن زاد عن هذا أو نقص فقد تعدى وظلم » . (٤) .
- وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله - ﷺ - توضأ أمام جمع من الناس ، ثم قال : « من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين ، لا يحدث فيهما نفسه بشئ من الدنيا غفر له ماتقدم من ذنبه » . (٢) .

- وروى البخارى حديثا ذكر فيه أنه - ﷺ - صلى مرة بالناس إماما وهو على المنبر ليروا صلاته كلهم ، وليتعلموها من أفعاله ومشاهداته فلما فرغ أقبل على الناس فقال : « يأيتها الناس : إنما صنعت هذا لتأتقوا بى ، ولتعلموا صلاتى » . (٣) .
(ك) الموعظة بإنتهاز المناسبة :

وكان - ﷺ - كثيرا ما ينتهز المناسبة لمن يريد وعظهم وإرشادهم ؛ لتكون أبلغ فى التأثير ، وأفضل للفهم والمعرفة ، ومن ذلك :

- روى مسلم عن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - مر بالسوق داخلا من بعض العالمة والناس كنفثيه (أى : عن جانبيه) فمر بجدى أسك (أى : صغير الأذنين) ميت ، فتناوله بأذنه ثم قال : « أياكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ » قالوا : مانحب أنه بشئ ، أو مانصنع به ؟ قال : « أتحبون أنه لكم ؟ » قالوا : والله لو كان حيا كان هذا السك عيبا ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : « فوالله ، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » . (٤) .

- وروى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قدم على رسول الله سبى فإذا امرأة من السبى (الأسرى) قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا فى السبى ، فأخذته فالزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله - ﷺ - : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ - وهى تقدر على ألا تطرحه - ؟ » .

(١) سنن أبى داود (كتاب الطهارة) باب : الوضوء ثلاثا ج ١ ص ٣٣ رقم ١٣٥ .

ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الطهارة) باب الاعتداء فى الوضوء ج ١ ص ٨٨ .

وأنظر سنن ابن ماجه (كتاب الطهارة) باب : ماجاء فى القصد فى الوضوء وكراهية التعدى فيه ج ١ ص ١٤٦ رقم ٤٢٢ .

(٢) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الطهارة) باب الوضوء ثلاثا ثلاثا ج ١ ص ٣٣١ رقم ٢١ من رواية عثمان بن عفان ، وفى ص ٣٣٥ رقم ٢٦ .

وانظره فى (كتاب الصوم) من نفس المصدر ، باب : سواك الرطب واليابس للصائم ج ٤ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ رقم ٤١ .
(٣) البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الجمعة) باب : الخطبة على المنبر ج ٣ ص ٣٧ ، ٣٨ رقم ٣٩ من رواية سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه - .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى (فى كتاب الزهد) ج ١٨ ص ٩٣ .

قلنا : لا والله ، قال : « فإله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » . (١)

(ي) الموعظة بالالتفات إلى الأهم :

وكان - ﷺ - يلفت السؤال عن سؤال إلى شيء أهم ، من ذلك :

ماروى البخارى ومسلم عن أنس - رضى الله عنه - أن أعرابيا سأل رسول الله - ﷺ - فقال : متى الساعة يا رسول الله ؟ فقال له الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « ماذا أعددت لها ؟ » قال : حب الله ورسوله .

فقال : « أنت مع من أحببت » . (٢)

فلفته - ﷺ - عن سؤاله عن قيام الساعة - التى اختص الله بعلمها - إلى شيء آخر هو أحوج مايكون إليه ، وهو اعداد العمل الصالح لهذا اليوم الذى يقوم فيه الناس لله رب العالمين .

(ل) الموعظة بإظهار المحرم الذى ينهى عنه :

وكان - ﷺ - يحمل بيده الشيء المحرم الذى ينهى عنه ، ويرفعه أمام المخاطبين ، ليقرر لهم الشيء المنهى عنه بالقول والمشاهدة ، ليكون ذلك أزجر للنفوس ، وأقطع فى الدلالة على التحريم ، من ذلك :

ماروى أبو داود والنسائى وابن ماجه فى سننهم عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : أخذ رسول الله - ﷺ - حريرا بشماله ، وذهباً بيمينه ، ثم رفع بهما يديه ، فقال : « إن هذين حرام على ذكور أمتى ، حل لإناثهم » . (٣)

تلكم أهم الأساليب التى كان يتبعها المعلم الأول - ﷺ - فى توجيه الكبار ، وتعليم الصغار ، وإرشاد الخاصة ، وهداية العامة ، وتثبيت الفضائل ، وتقويم الاعوجاج . . . وهى . . . كما رأيتم - أيها المربون - طرائق متنوعة ، ووسائل مختلفة . . . بل كان - عليه الصلاة والسلام - لا يختص بأسلوب واحد فى إرشاد الناس وهدايتهم ، وإصلاحهم وتوجيههم ، وإنما كان ينتقل بهم من القصة إلى الحوار والاستجواب ، ومن التأثير الخاشع إلى المداعبة اللطيفة ، ومن ضرب الأمثال إلى التوضيح بالرسم أو التمثيل باليد . . . ومن الموعظة بالكلمة إلى الاقتداء بالفعل ، ومن التذكير بالقرآن الكريم إلى استجلاء العبرة بانتهاز المناسبة . . . ومن السؤال المهم إلى السؤال الأهم ، ومن النهى بالقول إلى النهى بالمشاهدة . . .

ولا يخفى مافى هذا التنوع من الأساليب من أثر كبير فى ترسيخ المعلومات ، وإثارة الفهم ، وتحريك الذكاء ، وقبول الموعظة ، وقدح الفطنة والانتباه لدى المخاطب والولد . . . فالمرء حين يحسن عرض هذه الأساليب فى إلقاء مواعظه وإرشاداته على من يقوم بإعدادهم وتربيتهم من أهل وولد وتلاميذ . . . فإنهم - لاشك - يتعلمون ويطبّقون ويتأثرون . . . ويكونون دعاة خير

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب التوبة) باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ص ٧٤٨ رقم ١٧٥١

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب البر والصلة والآداب) باب المرء مع من أحب ص ٧١٤ رقم ١٦٩٣

(٣) أبو داود (كتاب اللباس) باب : فى الحرير للنساء ج ٤ ص ٥٠ رقم ٤٠٥٧ والنسائى (كتاب الزينة) باب : تحريم الذهب

على الرجال ج ٨ ص ١٦٠ وابن ماجه (كتاب اللباس) باب لبس الحرير والذهب للنساء ج ٢ ص ١١٨٩ رقم ٣٥٩٥ .

وأئمة هدى ، وجنود رسالة ، وأبطال جهاد . . بل يكونون القاعدة الصلبة فى بناء المجتمع الفاضل ، وإقامة دولة الإسلام .

فما على المرين إلا أن يأخذوا بطرق الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فى التوجيه وأساليبه فى الموعظة لكونها أحسن الطرق وأفضل الأساليب ؛ لأن الرسول - ﷺ - لا ينطق عن الهوى ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وهو مصنوع على عين الله ، ومشمول دائما برعايته وعنايته .

وإذا كان الأمر كذلك فكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال وتقريرات فهى تشريع للإنسانية وهداية لها على مدى الزمان والأيام .

ويكفيه - عليه الصلاة والسلام - فخرا وشرفا وخلودا أن يقول الله - سبحانه - فيه : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ الأحزاب : ٢١ وأن يقول أيضا : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (النساء : ٨٠)

وعلىنا أن نعلم أن الربى إن لم يتحل بما يقول ، وإن لم يطبق ما يعظ الناس به ، فلا أحد يقبل كلامه ، ولا إنسان يتأثر بموعظته ، ولا مخاطب يستجيب لندائه ، بل يكون محل نقد العامة ، واستهزاء الخاصة ، واستهجان الناس أجمعين لأن الكلمة التى لاتنبعث من القلب ، لاتنفذ إلى القلب . . والموعظة التى لاتمتزج بالروح لاتؤثر فى النفس ، ولقد سمعتم قبل قليل ماأجاب الأب ولده حين سأله : مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكههم ؟ أجاب :

(يابنى ليست النائحة الشكلى مثل النائحة المستأجرة)

ويقصد ليس الداعية المكلم على الإسلام ، والمتحلى بالإيمان ، مثل الواعظ المنافق المهرج . أسأل الله - تعالى - أن ينفعنا بما سمعنا ، وأن يعلمنا ماينفعنا ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وقد عقد الإمام أبو الفرج بن الجوزى - رحمه الله تعالى - بابا فى الوصايا والمواعظ والزواجر ، قال فيه بسنده عن يحيى بن كثير قال : إن أبا بكر الصديق كان يقول فى خطبته : أين الوضاه الحسنة وجوههم ؟ أين المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، فأصبحوا فى ظلمات القبور ، الوحاحوا ، النجا النجا .

وقال أحمد بسنده : عن ابن مسعود ، أنه كان يقول : إنكم فى عمر الليل والنهار ، فى آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتى بغتة ، فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ، ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة ، ولكل زارع مازرع .

وقال إسماعيل بن أحمد بسنده عن أبى زكريا التيمى : قال : بينا سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأق بوهب بن منبه ، فقرأه ، فإذا فيه : ابن آدم : إنك لو رأيت قرب مابقى من أجلك لزهدت فى طويل أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك ورحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك

وحشمك ، فبان منك الوالد والقريب ، ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا في حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة ، قبل الحسرة والندامة .

وقال محمد بن أبي منصور بسنده عن يحيى بن عبد الملك قال : كتب الأوزاعي إلى أخ له : أما بعد : فإنه قد أحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يسارك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وأن يكون آخر عهدك به . والسلام .

وقال المحمدان بن عبد الملك بسنده عن الفضيل بن عياض قال : بلغني أن رجلا كتب إلى داود الطائي : أن عظمي بموعظة .

قال : فكتب إليه :

أما بعد : فاجعل الدنيا كيوم صمته عن شهوتك ، واجعل فطرك الموت ، فكأن قد . والسلام .

قال : فكتب إليه : زدني . فكتب إليه :

أما بعد : فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك ، كما رضى أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم . والسلام .

وقال محمد بن ناصر بسنده عن سفيان ، قال : أوحى الله - تعالى - إلى موسى بن عمران : أنه ليست عقوبتي لمن عرفني واجترأ على كمن لم يعرفني .

وقال ابن ناصر بسنده عن ابن حاتم الترمذي قال : رأس مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بارتكاب مالا يعينك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله ؟ ! وقال محمد بن أبي منصور بسنده عن إبراهيم بن بشار قال : مررت أنا وأبو يوسف الفسولي في طريق الشام ، فوثب إليه رجل فسلم عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف عظمي بموعظة أحفظها عنك . قال : فبكى ، ثم قال :

إعلم يا أخي أن اختلاف الليل والنهار وممرهما يسرعان في هدم بدنك ، وفناء عمرك ، وانقضاء أجلك .

فينبغي لك يا أخي ألا تطمئن حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك ، وساخط ربك عليك بمعصيتك وغفلتك ، أوراخ عنك بفضلته ورحمته ؟

ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس وجيفة غدا ، فإن كنت لا ترضى بهذا فسترد وتعلم وتندم في وقت لا ينفعك الندم .

قال : وبكى أبو يوسف : وبكى الرجل وبكى لبكائهما ، ووقعا مغشيا عليهما !!

ووعظ أعرابي ولده فقال : لا الدهر يعظك ولا الأيام تنذكرك ، والساعات تعد عليك ، والأنفاس

تعد منك ، وأحب أمريك إليك أعودهما بالضر عليك .

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له : أما بعد : فإن الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما

الموت ، ونحن في أضغاث أحلام . والسلام

* الإحسان إلى الوالدين *

قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾
التفسير :

قال مجاهد : مشقة : وهن الولد

وقال قتادة : جهدا على جهد

وقال عطاء الخراساني : ضعفا على ضعف

وقوله ﴿ وفصاله في عامين ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين ، كما قال - تعالى -

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾^(١) الآية
ومن هنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال في الآية الأخرى :

﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾^(٢) وإنما يذكر - تعالى - تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلا ونهارا ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه كما قال - تعالى - : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾^(٣) .

ولهذا قال : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾ أى : فاني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبي شيبه ومحمود بن غيلان ، قالا : حدثنا عبيد الله ، أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحق ، عن سيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبي - ﷺ - فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إني رسول رسول الله - ﷺ - إليكم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا وأن تطيعوني لا آلوكم خيرا ؛ وإن المصير إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار ، إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت .

وقوله : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أى : إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفا ، أى : محسنا إليهما ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ﴾ يعنى المؤمنين ﴿ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

قال الطبراني في كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد ابن أيوب بن راشد ، حدثنا مسلمة بن علقمة ، عن داود بن أبي هند أن سعد بن مالك قال : أنزلت في هذه الآية .

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما .. ﴾ الآية . قال : كنت رجلا برا

(١) الآية : ٢٣٣ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ١٥ من سورة الأحقاف .

(٣) من الآية : ٢٤ من سورة الإسراء .

أفأصلها؟ قال : « نعم صلى أمك . »^(١) ومعنى (راغبة) أى : طامعة فيما عندى تسألنى الإحسان إليها ، ومعنى (راغمة) أى : كارهة للإسلام .

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « رضا الله فى رضا الوالد ، وسخط الله فى سخط الوالد » . رواه الترمذى ، ورواه الطبرانى^(٢) من حديث أبى هريرة إلا أنه قال : « طاعة الله طاعة الوالد ومعصية الله معصية الوالد » . وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى - رضى الله عنه - قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله - ﷺ - إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتها ؟

قال : « نعم ؛ الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما ، وإكرام صديقيهما » . رواه أبو داود وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، وزاد فى آخره : قال الرجل : ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه ؟ ! قال : « ما عمل به »^(٣)

وعن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله بن عمر ، وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كانت فى رأسه . قال ابن دينار : فقلنا له : أصلحك الله ، إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير . فقال عبد الله بن عمر : إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب ، وإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » رواه مسلم^(٤)

وعن أبى بردة قال : قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال : أتدرى لم أتيتك ؟ قال : قلت : لا . قال : سمعت رسول - ﷺ - يقول : « من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده » وإنه كان بين أبى عمر وبين أبىك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك . رواه ابن حبان فى صحيحه .^(٥)

احذر عقوق الوالدين :

وكما أوصى الإسلام ببر الوالدين وحث عليه حذر فى نفس الوقت من عقوقهما ، ورهب منه :

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب الزكاة) باب : الصدقة على أهل الذمة ج ٢ ص ١٢٧ رقم ١٦٦٨
(٢) انظر الترمذى (أبواب البر والصلة) باب الفضل فى رضا الوالدين ج ٣ ص ٢٠٧ رقم ١٩٦٢ وانظر مجمع الزوائد للهيثمى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٦
وانظر المستدرک للحاكم (كتاب البر والصلة) باب : رضا الرب فى رضا الوالد ج ٤ ص ١٥٢
(٣) سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب : فى بر الوالدين ج ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٤٢ وابن ماجه (كتاب الأدب) باب : صل من كان أبوك يصل ج ٢ ص ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ رقم ٣٦٦٤ .

(٤) انظر فى صحيح مسلم فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما ج ٤ ص ١٩٧٩ رقم ٢٥٥٢ / ١١

(٥) انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (كتاب البر والإحسان) باب ذكر البيان بأن بر المرء بإخوان أبيه وصلته إياهم بعد موته من وصله رحمه فى قبره ج ١ ص ٣٢٩ رقم ٤٣٣ .

عن المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :
« إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، وواد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة
السؤال ، وإضاعة المال » . رواه البخارى وغيره .^(١)

وعن أبى بكره - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ -
ثلاثا قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، فقال :
ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » .
رواه البخارى ومسلم والترمذى^(٢)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : « الكبائر :
الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » رواه البخارى^(٣) .
وفى كتاب النبي - ﷺ - الذى كتبه إلى أهل اليمن ، ويحث به مع عمرو حزم : « وإن أكبر
الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراف بالله ، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق ، والفرار فى سبيل الله يوم
الزحف ، وعقوق الوالدين ، ورمى المحصنة وتعلم السحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ..
الحديث » رواه ابن حبان فى صحيحه^(٤) .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن رسول الله - ﷺ - قال : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم
القيامة :
العاق لوالديه ، ومدمن الخمر ، والمنان عطاءه . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ،
والديوث ، والرجلة »

رواه النسائى والبزار^(٥)

وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :
« ثلاثة لا يقبل الله - عز وجل - منهم صرفا ولا عدلا :

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الأقضية) باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهى عن منع وهات .. الخ ص
٤٣٠ رقم ١١١٧

(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الإيمان) باب بيان الكبائر وأكبرها ص ١٦ رقم ٥٤ وانظر سنن الترمذى (كتاب البر
والصلة) باب ماجاء فى عقوق الوالدين ج ٤ ص ٣١٢ رقم ١٩٠١ .

(٣) صحيح البخارى (كتاب الإيمان والنذور) ج ٧ ص ٢١٢ و (كتاب الديات) ج ٨ ص ٣٤

(٤) انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان فى (باب كتب النبي ﷺ) وذكر كتبه المصطفى - ﷺ - كتابه إلى أهل اليمن ج ٨ ص
١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ رقم ٦٥٢٥

(٥) رواه النسائى فى سننه فى (كتاب الزكاة) باب : المنان بما أعطى ج ٥ ص ٨٠ ، ٨١ مع تقديم وتأخير فى الألفاظ .
وانظر مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ وقال : رواه البزار بإسنادين رجالهما ثقات .

والحديث فى كشف الأستار عن زوائد البزار فى (كتاب البر والصلة) باب العقوق ج ٢ ص ٣٧٢ رقم ١٨٧٥

عاق ، ولا منان ، ومكذب بقدر ، رواه ابن أبي عاصم فى كتاب السنة بإسناد حسن (١)
وروى عن ثوبان - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :
« ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » رواه
الطبرانى فى الكبير (٢)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من الكبائر
شتم الرجل والديه . قالوا :

يارسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ؛ يسب أباً الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه
فيسب أمه » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى (٣)

وعن عمرو بن مرة الجهنى - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال : يارسول
الله ؛ شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت
رمضان . فقال النبى - ﷺ - : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة
هكذا - ونصب أصبعيه - مالم يعق والديه » رواه أحمد والطبرانى (٤)

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : أوصانى رسول الله - ﷺ - بعشر كلمات ، قال :
« لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت وحرقت ، ولا تعتن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك » (٥)
وروى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - ونحن
مجمعون ، فقال : « يامعشر المسلمين : اتقوا الله ، وصلوا أرحامكم ؛ فإنه ليس من ثواب أسرع من
صلة الرحم ، وإياكم والبغى ؛ فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغى ، وإياكم وعقوق
الوالدين ، فإن ریح الجنة توجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ
زان ، ولا جار إزاره خيلاء ، إنما الكبرياء لله رب العالمين ، والكذب كله إثم إلا ما نفع به مؤمناً ،

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد من طريق آخر فى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى العقوق ج ٨ ص ١٤٧
والحديث من طريق أبى أمامة أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ج ٨ ص ١٤٠ رقم ٧٥٤٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٦٩ تفسير سورة الأنفال .
وقال : هذا أيضاً حديث غريب جداً .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب : بيان الكبائر وأكبرها ص ١٧ رقم ٥٧ ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب البر
والصلة) باب ماجاء فى عقوق الوالدين رقم ١٩٠٢ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
وأورده أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : فى بر الوالدين ج ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٤١ والترمذى فى (كتاب البر
والصلة) باب : ماجاء فى عقوق الوالدين ج ٣ ص ٢٠٨ رقم ١٩٦٥ وقال : هذا حديث صحيح .

(٤) انظر الدر المنثور للسيوطى فى تفسير سورة النساء (تفسير قوله تعالى : ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله
عليهم . الآية ج ٢ ص ٥٩٠ من رواية أحمد عن عمرو بن مرة الجهنى ورواه فى الترغيب والترهيب للمنذرى فى (كتاب البر
والصلة) باب الترهب من عقوق الوالدين ج ٣ ص ٥٤٣ رقم ١٢ وقال الترمذى : رواه أحمد والطبرانى بإسنادين أحدهما
صحيح . ورواه ابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهما باختصار .

(٥) انظر الترغيب والترهيب (كتاب البر والصلة) باب الترهب من عقوق الوالدين ج ٣ ص ٥٤٣ رقم ١٣ وقال المنذرى : رواه
أحمد وغيره .

ودفعت به عن دين ، وإن في الجنة لسوقا مايباع فيها ولا يشتري ، ليس فيها إلا الصور فمن أحب صورة من رجل أو امرأة دخل فيها . رواه الطبراني في الأوسط . (١)

وعن أبي بكرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين ، فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات » (٢) رواه الحاكم والأصبهاني كلاهما من طريق بكار بن عبد العزيز ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد وروى عن عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنه قال :

كنا عند النبي - ﷺ - فأتاه آت ، فقال : شاب يجود بنفسه ، فقيل له : قل : لا إله إلا الله ، فلم يستطع .

فقال : « كان يصلي ؟ » فقال : نعم ، فنهض رسول الله - ﷺ - ونهضنا معه ، فدخل على الشاب فقال له :

« قل : لا إله إلا الله » فقال : لأستطيع . قال :

« لم ؟ » قال : كان يعق والدته . فقال النبي - ﷺ - :

« أحية والدته ؟ » قالوا : نعم . قال : « ادعوها »

فدعوها فجاءت ، فقال : « هذا ابنك ؟ » فقالت :

نعم . فقال لها : « أرايت لو أجمت نار ضخمة فقبل لك : إن شفعت له خلينا عنه ، وإلا حرقناه بهذه النار ، أكنت تشفعين له ؟ » قالت :

يا رسول الله إذن أشفع له . قال : « فأشهدى الله وأشهديني قد رضيت عنه » قالت : اللهم إني أشهدك وأشهد رسولك أني قد رضيت عن ابني فقال له رسول الله - ﷺ - : « يا غلام قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » فقالها . فقال رسول الله - ﷺ - : « الحمد لله الذي أنقذه بي من النار »

رواه الطبراني ، وأحمد مختصرا (٣)

وعن العوام بن حوشب - رضي الله عنه - قال : نزلت مرة حيا ، وإلى جانب ذلك الحى مقبرة ، فلما كان بعد العصر انشق منها قبر فخرج رجل رأسه رأس الحمار وجسده جسد إنسان ، فنهق ثلاث نهقات .

(١) انظر الترغيب والترهيب (كتاب البر والصلة) باب : ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ج ٣ ص ٥٤٤ رقم ١٤ ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد في (كتاب البر والصلة) باب : ماجاء في العقوق ج ٨ ص ١٤٩ وقال : رواه الطبراني في الأوسط من طريق محمد بن كثير عن جابر الجعفي وكلاهما ضعيف جدا .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم في (كتاب البر والصلة) ج ٤ ص ١٥٦ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبي فقال : قلت : بكار ضعيف .

(٣) انظر مجمع الزوائد للهيتمي كتاب البر والصلة باب ماجاء في العقوق ج ٨ ص ١٤٧ بنفس لفظه وقال الهيثمي : رواه الطبراني وأحمد باختصار كثير وفيه فائد أبو الورقاء وهو متروك .

ثم انطبق عليه القبر ، فإذا عجوز تغزل شعرا أو صوفا ، فقالت امرأة : ترى تلك العجوز ؟ قلت : ماها ؟ قالت : تلك أم هذا ، قلت :

وماكان قصته ؟ قالت : كان يشرب الخمر فإذا راح تقول له أمه : يابنى اتق الله ، إلى متى تشرب هذه الخمر ؟ فيقول لها : إنما أنت تنهقين كما ينهق الحمار ، قالت : فمات بعد العصر ، قالت : فهو ينشق عنه القبر بعد العصر كل يوم فينهق ثلاث نهقات ثم ينطبق عليه القبر . رواه الأصبهاني وغيره . قوله - تعالى :

﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾^(١) .

وأخذ لقمان الحكيم يربى ملكة الرقابة الإلهية في نفس ابنه ، وفي نفس كل عاقل رشيد ، فقال له : يابنى : إنها إن تك مثقال حبة من خردل أى : المظلمة أو الخطيئة التى يفعلها العبد لو كان حجمها كأصغر الأشياء ، واحتجبت حجابا منيعا في صخرة ، أو كانت في عالم السموات العلا أو في أرجاء الأرض فإن الله يأتى بها يوم القيامة ، ويسأل : العبد عنها .

فيأياها العاقل : اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

الله يدري كل ماتضممر يعلم ماتخفى وما تظهر
• وإن خدعت للناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

ويأتى ختام الآية مناسبا لصدرها ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أى : عليم بدقائق الأشياء ﴿ عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾^(٢)

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾^(٣) .

فسبحان من يسمع دبيب أرجل النملة السمراء فوق الصخرة الصماء في الليلة الظلماء .

يامن يرى من البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى نياط عروقها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل

(١) من الآية : ١٦ - ١٩ من سورة لقمان .

(٢) من الآية : ٣ من سورة سبأ .

(٣) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .

ويرى ويسمع ما يرى مادونها في قاع بحر زاخر متجندل

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (١)

ويقول : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إلا الله بكل شيء عليم ﴾ (٢)

ويقول : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٣)

ويقول : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (٤)

ويقول : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ (٥) .
ثم يجمع له الخير كله فيقول له :

(يا بني أقم الصلاة) وإقامتها : الإتيان بها كاملة تامة الأركان والشروط والسنن ، مستقيمة الأداء ، إذ أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة الصلاة ، وهي مفتاح الجنة ، إن حسنت حسن سائر أعمال العبد .

كان رسول الله - ﷺ - يحدثنا ونحدثه ، ويكلمنا ونكلمه ، فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه .

هكذا قالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -

فالصلاة عماد الدين ، وهي الصلة بين العبد وربّه ، ثم بعد ذلك يأتي بصمام أمن المجتمع فيأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو ركن من أركان الدين ، ويوم يختل ذلك الركن سيصير

(١) الآتيان : ٥٩ ، ٦٠ من سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٧ من سورة المجادلة .

(٣) الآتيان : ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

(٤) الآية : ١٩ من سورة غافر .

سورة الزلزلة .

المنكر معروفا والمعروف منكرا ، والذئب راعيا والخصم العنيد قاضيا .
ولما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الحصون المنيعة ، والأسوار العالية التى ضربت حول
الأمة لتقيها شر الذئاب الضارية ، والكلاب العادية ، والجراثيم الشنيعة ، والإثم والبغى والعدوان
والفواحش - لما كان ذلك كذلك - شدد رسول الله - ﷺ - فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى
أحاديث تنخلع لها القلوب وتنفطر من هولها الأفئدة .

عن أسامة بن زيد - رضى الله عنها - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « يؤتى بالرجل يوم
القيامة ، فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع إليه أهل
النار ، فيقولون : يا فلان ! مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟
فيقول : بلى !! كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية » رواه البخارى ومسلم .^(١)
وفى رواية لمسلم قال : قيل لأسامة بن زيد : لو أتيت عثمان فكلمته ؟ فقال : إنكم لترون أنى
لا أكلمه إلا أسمعكم ، وإنى أكلمه فى السر دون أن أفتح بابا لا أكون أول من فتحه ، ولا أقول لرجل أن
كان على أميراء : إنه خير الناس بعد شئ سمعته من رسول الله - ﷺ - قال : وما هو ؟ قال : سمعته
يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ،
فيجتمع أهل النار عليه ويقولون : يا فلان ماشأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟
فيقول :

كنت آمركم بالمعروف ولا آتية ، وأنهاكم عن الشر وآتية » .^(٢)

(الأقتاب) : الأمعاء ، واحدها : قتب

(تندلق) أى : تخرج

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال :
الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ ! »
رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت ، وابن حبان فى صحيحه ، واللفظ له ، والبيهقى .^(٣)
وفى رواية لابن أبى الدنيا : « مررت ليلة أسرى بى على قوم يقرض شفاههم بمقاريض من نار ،
كلما قرضت عادت ، فقلت :

يا جبريل : من هؤلاء ؟ قال : خطباء من أمتك يقولون مالا يفعلون ! »

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الزهد والرقائق) باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله ص
٨٣٣ ، ٨٣٤ رقم ١٨٨٢ .

أنظر البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب بدء الخلق) باب صفة النار وأنها مخلوقة ج ٦ ص ٣٠١ رقم ٧٧
(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الزهد) باب : عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله ج ١٨
ص ١١٧ ، ١١٨ ورواية مسلم هذه هى التى وردت بلفظ :

« يأتى .. الحديث » وليست كما ذكرها المؤلف ، فهناك اختلاف فى كثير من الألفاظ .

وهذه الرواية تتفق كثيرا مع لفظ حديث البخارى .

(٣) انظر صحيح ابن حبان (كتاب الإسراء) باب ذكر وصف الخطباء الذين يتكلمون على القول دون العمل حيث رأهم -

... الخ ج ١ ص ١٣٥ رقم ٥٣

وفي رواية للبيهقي قال : « أتيت ليلة أسرى بي على قوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون مالا يفعلون ، ويقرأون كتاب الله ولا يعملون به » .

وعن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - قال : « مامن عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة : ما أردت بها ؟ قال : فكان مالك - يعني ابن دينار - إذا حدث بهذا بكى ، ثم يقول : أتحسبون أن عيني تقر بكلامي عليكم ، وأنا أعلم أن الله سائلني عنه يوم القيامة ؟ قال : ما أردت به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبي ، لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبدا . رواه أبي الدنيا ، والبيهقي مرسلًا بإسناد جيد (١) .

وروى عن الوليد بن عقبة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن ناسا من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل » . رواه الطبراني في الكبير (٢) .

وعن أبي تيمية عن جندب بن عبد الله الأزدي صاحب رسول الله - ﷺ - ، رضي الله عنه عن رسول الله - ﷺ - قال : « مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ، ويحرق نفسه » . (٣) رواه الطبراني وإسناده حسن ، ورواه البزار من حديث أبي برزة إلا أنه قال : مثل الفتيلة .

وعن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إني أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم باللسان » . رواه الطبراني في الكبير والبزار (٤) .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - ، عن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الرجل لا يكون مؤمنا حتى يكون قلبه مع لسانه سواء ، ويكون لسانه مع قلبه سواء ، ولا يخالف قوله عمله . ويأمن جاره بوائقه » رواه الأصبهاني (٥) .

وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إني لا أتخوف على أمتي مؤمنا ولا مشركا ، أما المؤمن فيحجزه إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن أتخوف عليكم منافقا

(١) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٥ - ١٢٦ رقم ٨ وقال : - رواه ابن أبي الدنيا - والبيهقي مسندا بإسناد جيد .

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٥ رقم ٧ وقال : - رواه الطبراني في الكبير .

(٣) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٦ رقم ١١ وقال : - رواه البزار عن أبي برزة . وانظر رقم ١٣ من نفس المرجع . وقال

(٤) المنذرى رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن .

(٥) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٧ رقم ١٨ وقال : رواه الطبراني في الكبير والبزار ورواه عنه عتج بهم في الصحيح ، ورواه أحمد من حديث عمر بن الخطاب .

انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٨ رقم ١٩ وقال : رواه الأصبهاني بإسناد فيه نظر .

عالم اللسان يقول ماتعرفون ، ويفعل ماتنكرون . رواه الطبرانى فى الصغير ، والأوسط من رواية الحارث (١).

- معنى (فيحجزه) : يمنعه . ومعنى (يقمعه) : يضربه بالقمعة كالمجن .

وعن الأغر بن مالك قال : لما أراد أبو بكر أن يستخلف عمر بعث إليه فدعاه فاتاه ، فقال : إني أدعوك لأمر متعب لمن وليه ، فاتق الله يا عمر بطاعته ، وأطعه بتقواه ، فإن التقى آمن محفوظ ، ثم إن الأمر معروض لا يستوجه إلا من عمل به ، فمن أمر بالحق ، وعمل بالباطل ، وأمر بالمعروف ، وعمل بالمنكر ، يوشك أن تنقطع أمنيته ، وأن يحبط عمله ، فإن أنت وليت عليهم أمرهم ، فإن استطعت أن تجف يدك من دمائهم ، وأن تضر بطنك من أموالهم وأن تجف لسانك عن أعراضهم فافعل ، ولا قوة إلا بالله . رواه الطبرانى

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه وينسى الجذع فى عينه »

رواه ابن حبان فى صحيحه (٢)

- معنى (الجذع) : جذع النخلة .

قوله - تعالى - : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ أى : من الأمور المعزوم عليها ، المرغوب فيها ، المحببة إلى قلوب المؤمنين .

قوله - تعالى - : ﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ أى : امش مقتصدا ، مشيا ليس بالبطىء المشبب ولا بالسريع المفرط ، بل عدلا وسطا بين بين . قال - تعالى - : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ (٣) . وقال - جل شأنه - :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ (٤)

وقال فى حق النساء : ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ فجاءته إحداها تمشى على استحياء ﴾ (٦) .

أى : لاتبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه .

﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ قال مجاهد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية من

(١) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٧ رقم ١٧ وقال : رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط من رواية الحارث - وهو الأعود - وقد وثقه ابن حبان وغيره .

(٢) انظر ابن حبان الحظر والإباحة باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من تفقد عيوب نفسه . . الخ ج ٧ ص ٥٠٦ رقم ٥٧٣١

(٣) الآية : ٣٧ من سورة الإسراء

(٤) الآية : ٦٣ من سورة الفرقان .

(٥) من الآية : ٣١ من سورة النور . .

(٦) من الآية : ٢٥ من سورة القصص .

رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفع ، ومع هذا هو بغيض إلى الله - تعالى - وتشبيه الصوت هنا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه ، وذلك كتشبيه العائد في هبته كالكلب الذى يعود في قيئه . قال - ﷺ - : ليس منا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يقىء ثم يعود في قيئه ^(١) .

روى النسائي بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ؛ فإنها رأت شيطانا » . ^(٢)

تعقيب طيب :

عقب الإمام الحافظ ابن كثير على تلك الوصايا اللقمانية تعقيبا مفيدا ، أسأل الله أن ينفع به . قال - رحمه الله تعالى - :

هذه وصايا نافعة جدا ، وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم ، وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أنموذجا ودستورا إلى ذلك ، قال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله - ﷺ - قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئا حفظه » .

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بني إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار » وقال لابنه : إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك . وقال أيضا لابنه : يا بني إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام ، يعنى السلام ، ثم اجلس فى ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم نطقوا ، فإن أفاضوا فى ذكر الله فأحل سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

فى فضيلة الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان - عليه السلام - لابنه ، وقد جمع فى ذلك الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتابا مفردا ، ونحن نذكر منه مقاصده ، قال :

حدثنا إبراهيم بن المنذر بسنده عن أنس بن مالك : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « رب أشعث ذى طمرين يصفح عن أبواب الناس إذا أقسم على الله لأبره » ^(٣) وروى أيضا عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا

(١) انظر صحيح البخارى (كتاب الهبة) ج ٣ ص ١٣١

(٢) انظر عمل اليوم والليلة لابن السنن (باب مايقول إذا سمع الديكة) ص ٩٧ رقم ٣١٢

وانظر سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب : ماجاء فى الديك والبهايم ج ٤ ص ٣٢٧ رقم ٥١٠٢

(٣) أخرجه الإمام أحمد بنحوه ج ٣ ص ١٤٥ وانظر إتحاف السادة المتقين (باب فضيلة الخمول) ج ١ ص ٢٣٤ و ٢٣٥

غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غرباء مشته (١) وفي رواية أخرى « قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غرباء مظلمة » وقال أيضا : حدثنا اسحاق بن إبراهيم بسنده عن سالم بن أبي الجعد قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن من أمتي من لو أتى باب أحدكم يسأله دينارا أو درهما أو فلسا لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأل الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » قال ابن كثير : حديث مرسل من هذا الوجه (٢) وعن عبد الله بن عمرو قال : « أحب عباد الله إلى الله الغرباء : قيل ومن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم » (٣) وقال الفضيل بن عياض بلغنى : أن الله - تعالى - يقول للعبد يوم القيامة : « ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترک ؟ ألم .. ألم .. ألم أجعل ذكرك ؟ » ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تعرف فافعل ، وما عليك الا يثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محبوبا عند الله ؟ ! . وكان ابن محيرز يقول : اللهم إني أسألك ذكرا خاملا . وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك واجعلنى فى نفسى من أوضع خلقك . وعند الناس من أوسط خلقك .

باب ماجاء فى الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصرى بالسند عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حسب امرئ من الشر - إلا من عصم الله - أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » (٤) . قيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟ فقال : إنما المراد : من يشار إليه فى دينه بالبدعة ، وفى دنياه بالفسق . وعن على - رضى الله عنه - قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، . وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب : ماصدق الله عبد إلا سره ألا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس . وكان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . ورأى طلحة قوما يمشون معه فقال : ذباب طمع ، وفراش النار . وقال ابن عون : عن

(١) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (باب فضيلة الخمول) ج ٨ ص ٢٣٦

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين (باب فضيلة الخمول) ج ٨ ص ٢٣٦

(٣) انظر تفسير بن كثير ج ٦ فى تفسير سورة لقمان ص ٣٤٥ فصل فى الخمول والتواضع .

(٤) انظر إتحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٢٣٢ باب بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت وقال العراقى هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرًا على الزيادة التى فى آخره ، وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ كفى بالمرء إثما .

الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني منكم رجلاً . وقال عبد الرازق معمر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كان في طول القميص ، واليوم في تشميره .

وقال إبراهيم النخعي : لاتلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ولا ما يزدريك السفهاء . وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتق فيها ويستذل دينه .

وقال الحسن - رحمه الله - : إن قوما جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه ما هم تفاقدا ؟ ! . وفي بعض الأخبار أن موسى - عليه السلام - قال لبي إسرائيل : مالكم تأتون عليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب ؟ ! البسوا ثياب الملوك وألبسوا قلوبكم بالخشية .

فصل في حسن الخلق

قال أبو النياح عن أنس - رضي الله عنه - : « كان رسول الله - ﷺ - من أحسن الناس خلقاً »^(١) وعن عطاء عن ابن عمر : قيل : يارسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقاً »^(٢) وعن أنس مرفوعاً : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد »^(٣) وعنه أيضاً مرفوعاً : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »^(٤) وعن عائشة مرفوعاً : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار »^(٥) وقال ابن أبي الدنيا بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - سئل رسول الله - ﷺ - : عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال : « تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال : « الأجوفان : الفم والفرج »^(٦) وقال أسامة ابن شريك : كنت عند رسول الله - ﷺ - فجاءته

(١) انظر مسند الإمام أحمد ٢٧٠١٣ (مسند أنس رضي الله عنه -) ومسلم في كتاب الفضائل باب : كان رسول الله - ﷺ - أحسن الناس خلقاً ج ٤ ص ١٨٠٥ رقم ٢٣١٠ / ٥٥

(٢) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب : ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٥٩ من رواية عطاء عن ابن عمر ، ونصه : عن ابن عمر أنه قال : كنت مع رسول الله - ﷺ - فجاء رجل من الأنصار فسلم على النبي - ﷺ - ثم قال : يارسول الله ؛ أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم لما بعده استعداداً ، أولئك الأكياس » .

(٣) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان ج ٦ ص ٣٤٦)

(٤) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان ج ٦ ص ٣٤٧) وانظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢٤ - ٢٥ باب ماجاء في حسن الخلق وقال الهيثمي رواه الطبراني عن شيخه المقدم بين داود وهو ضعيف . وقال بن دقيق العيد في الإمام : - أنه وثق . وبقية رجاله ثقات .

(٥) انظر مسند أحمد ٦٤ / ٦ ورواه أبو داود في (كتاب الأدب) باب في حسن الخلق ٥ ص ١٤٩ رقم ٤٧٩٨

(٦) انظر مسند أحمد (مسند أبي هريرة) ٢٩١ / ٢ وابن ماجه في (كتاب الزهد) باب : ذكر الذنوب ج ٢ رقم ١٤١٨ والترمذي (أبواب البر والصلة) باب : ماجاء في حسن الخلق ج ٣ ص ٢٤٥ رقم ٢٠٧٢ وابن ماجه (الزهد) باب : ذكر الذنوب ج ٢ ص ١٤١٨ رقم ٤٢٤٦

الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يا رسول الله : ماخير ما أعطى الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق » (١) وعن مكحول عن أبي ثعلبة مرفوعا : « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى منزلا فى الجنة مساويكم أخلاقا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » (٢) وعن أبي إويس عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعا : « ألا أخبركم بأكملكم إيمانا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يؤلفون ويألفون » (٣) .

وقال عبد الله بن إدريس عن أبيه عن جده عن أبي هريرة مرفوعا : « إنكم لاتسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق » (٤) وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل فى ذم الكبر

قال علقمة عن ابن مسعود رفعه إلى النبى - ﷺ - : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » (٥) . وقال إبراهيم بن أبي عيلة عن أبي سلمة عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على وجهه فى النار » (٦) وقال الحسن : عجا لآبن آدم يغسل الخرج بيده فى اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات والأرض ..

وقال الحسن عن يحيى عن أبي قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثلا للدنيا وأن قزحه وملحه . (٧) وقال محمد بن الحسين بن على - من ولد على رضى الله عنه - : مادخل قلب رجل من شىء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك . (٨) .

ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال فى مشيته - وذلك قبل الخلافة - فطعن طاوس فى جنبه بأصبعه وقال : ليس هذا شأن من فى بطنه خراء ؛ فقال له كالمعتذر إليه : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها . قال أبو بكر بن أبي الدنيا كان بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية .

(١) مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٧٨

(٢) مسند أحمد (حديث أبي ثعلبة الخشنى) ج ٤ ص ١٩٣

وانظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢١ باب ماجاء فى حسن الخلق وقال : - رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال صحيح .

(٣) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٧ .

(٤) انظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢٢ باب ماجاء فى حسن الخلق . وقال : - رواه أبى يعلى والبزار ، وزاد : - (وحسن الخلق) وفيه عبد الله بن سعيد المقبرى وهو ضعيف .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ١/ ٤١٢ ، ٤٥١ .

(٦) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٨ .

(٧) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ (ص ٣٤٨)

(٨) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ (ص ٣٤٩)

فصل في الاختيال

عن ابن أبي ليلى عن ابن بريدة ، عن أبيه مرفوعا إلى النبي - ﷺ - : « من جرثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » (١) .

وعن أبي هريرة مرفوعا : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره ، وبينما رجل يتبختر في برديه أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (٢) .
وبعد :

فهذه نصائح لقمانية تفيض حكمة وتشع ضياء ، فما أجدر كل والد أن ينصح بها ولده ، لقد وجه لقمان ابنه إلى رقابة الله عليه عندما قال له :

(يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) كما أمره بأداء الصلاة أداء مستقيما ، وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم أردف ذلك بالصبر على المصيبة : (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك) وإنما جاء الأمر بالصبر على المصيبة بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الأمر والناهي قد يتعرض لشدائد ، وقد يعتريه الألم من معاملة الناس له ، فلا بد أن يصبر ، وأن يوطن نفسه على ذلك ، كان عمر - رضي الله عنه - يقول : « يا حق لم تبق لي صاحبا »

وكان على يقول : « صدق المقال لم يبق لي صديقا »

قال - تعالى - : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ (٣)

فإن صبرك قاتله
إن لم تجد ماتأكله

اصبر على كيد الحسود
فالنار تأكل بعضها

وقال آخر :

طويت أتاح لها لسان حسود
ماكلن يعرف طيب عرف العود

وإذا أراد الله نشر فضيلة
لولا اشتعال النار فيما جاورت

وقال غيره :

وآبي أن أكون له مجيبا
كعود زاده الإحراق طيبا

يخاطبني السفیه بكل قبح
يزيد سفاهة فأزيد حلما

(١) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٩ وأخرجه الامام أحمد عن طريق سفيان ج ٥ / ص ٩ : ١٠ وانظر صحيح البخاري كتاب اللباس باب قول الله تعالى : - قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ج ٧ ص ١٨٢ (٢) انظر المصدر السابق .

(٣) الآية : ١٨٦ من سورة آل عمران .

وقال غيره :

إن يحسدوني فإنى غير لائمهم غيرى من الناس أهل الفضل قد

فتم لى ولهم مابى ومايهم حسدوا ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وقال غيره :

عداى لهم فضل على ومنة لاأذهب الرحمن عنى الأعاديا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها وهم نافسونى فاكسبت المعاليا

إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على المصيبة ، كل ذلك من عزم الأمور ، ومن أطيب الأخلاق ، ومن أحب الشرائع وأكرم السجايا .
وبعد هذا ينهى لقمان ابنه عن الكبر فى صورتين : عندما يلقى الناس لا يصغر خده ، ولا يميل بوجهه عنهم كبرا ، وعندما يمشى لا يمشى الخيلاء : ﴿ إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ (١)

« فتبسمك فى وجه أخيك صدقة » ، ولا تصغر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴿ أى : متكبر يترفع على الناس ويلوى وجهه عنهم ، فخور بما أوق من مال وجاه .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالمدخان يعلو بنفسه إلى طبقات الجو وهو ضيع

ثم يوجهه إلى المشى المحبوب لدى الله ، والصوت المرغوب فيه فيقول :
﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ﴾ وينفره من الصوت العالى فى غير حاجة إلى ذلك فيقول : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ فاللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وهب لنا علما ينفعنا ، وعملا يرفعنا .

نعم الله وآياته

قوله - تعالى - :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً

وَبَاطِنُهُٓ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
 اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ
 السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ
 الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
 الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
 السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ
 وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ
 بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا
 كَنَفْسٍ وَاحِدَةً ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ
 فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾
 ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ ءَايَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
 صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ
 فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

معاني المفردات

(سخر) : ذلل ، (أسبغ) : أكمل وأتم ، يجادل : يخاصم . (بغير علم) : بغير حجة .
 وهذا رجوع إلى ماضى قبل قصة لقمان من خطاب المشركين ، وتوبيخ لهم على إصرارهم على

ماهم عليه على مشاهدتهم لدلائل التوحيد .
 (ومن يسلم وجهه إلى الله) : يخلص عبادته إليه ، (محسن) الإحسان : الإتيان ،
 (نضطرهم) : نلجئهم ونسوقهم . (يولج) : يدخل الليل في النهار . (أجل مسمى) : أى :
 معلوم مقدر ، (الفلك) : السفن . (صبار) : كثير الصبر . (كالظلل) : جمع ظلة : وهى الجبال
 التى تظل من تحتها . (مقتصد) متوسط ، (ختار) : اختر : أسوأ الغدر ، (كفور) : جاحد لنعم
 الله كافر به .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أقام الأدلة - سبحانه - على التوحيد ، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة ، عاد إلى خطاب
 المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه من الشرك مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحة
 للعيان ، يشاهدونها في كل آن ، في السموات والأرض ، وتسخيرها لما فيه مصالحهم في المعاش
 والمعاد ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة ، المعروفة وغير المعروفة ؛ ثم أبان أن كثيرا من
 الناس يجادلون في توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلى على ما يدعون ، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه
 يناضلون ، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد ما يعتقدون ، وإذا هم أفحموا بالحجة والسلطان المبين ، لم
 يجدوا جوابا إلا تقليد الآباء والأجداد بنحو قولهم : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم
 مقتدون ﴾^(١) وماذاك إلا نزغات الشيطان ، والشيطان لا يدعو إلا إلى الضلال الموصل إلى النار ، وبش
 القرار .

وبعد أن ذكر - سبحانه - حال المشرك المجادل أردف ذلك ذكر حال المستسلم المفوض أموره إلى
 الله ، وبيان عاقبته وماله ، ثم سلى رسوله على ما يلقاه من المشركين من العناد والكفران ، وبين له أنه قد
 بلغ رسالات ربه وتلك وظيفة الرسل ، وعلى الله الحساب والجزاء . وبين - سبحانه - أن المشركين
 معترفون بأنه هو الخالق لهذه السموات ، وهذا يستدعى أن يكون الحمد كله له وحده ، ومن يستحق
 الحمد هو الذى يستحق العبادة ، فأمرهم عجب !! يعلمون المقدمات ثم ينكرون النتيجة التى
 تستتبعها ، فيعبدون من لا يستحق عبادة ، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا : من الأصنام والأوثان .
 ثم أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات لاحصر لها ، ولا يعلمها إلا خالقها ، ولما
 كانت تلك النعم لانهية لها ، وربما ظن أنها مبعثرة لا قانون لها ، أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها
 وتصريف شئونها كما يريد - دفع هذا بقوله : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾
 روى أنه لما نزل بمكة قوله - تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح . . ﴾ الآية وهاجر رسول الله -
 ﷺ - إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا : بلغنا أنك تقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾^(٢)
 أتعني أم تعنى قومك ؟

(١) من الآية : ٢٣ من سورة الزخرف .

(٢) من الآية : ٨٥ من سورة الإسراء .

قال : كُلاًّ عَنت . قالوا : « أَلست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء ؟ فقال - ﷺ - : هي في علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن عملتم به انتفعتم . قالوا : كيف تزعم هذا وأنت تقول :

﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾ ^(١) فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير ؟ فنزلت الآية : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾

التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ وهذا امتنان من الله - تعالى - على عباده ، وهو صاحب الفضل والمنة ، وهو مولى النعم ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ ^(٢) ألم تروا - أيها المخاطبون - رؤية بصرية وعلمية أن الله - تعالى - سخر لكم ما في السموات من نجوم وشمس وقمر وسحاب إلى غير ذلك ؟ كما سخر لكم ما في الأرض من بحار وأنهار ونبات إلى غير ذلك ؟ ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ ^(٣) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ^(٤) واقرأ قوله - جل شأنه - في سورة النحل أو سورة النعم :

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفس ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والنخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أ فمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ ^(٥)

(١) من الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية : ١٥ من سورة الملك .

(٣) الآية : ١٨ من سورة النحل .

(٤) الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ من سورة إبراهيم .

(٥) الآيات : ٥ - ١٨ من سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾

روى ابن النبی ﷺ قال لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : « الظاهرة : الإسلام وما حسن من خلقك ، والباطنة : ما ستر عليك من سوء عملك » وقيل : الظاهرة : الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل ، وقيل : الظاهرة : ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة : ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، وما يدفع عن العبد من الآفات .

ومع هذا التسخير وذلك الإسباغ فإن أكثر الناس لا يؤمنون ولا يشكرون ولا يعقلون ، بل تراهم في خوضهم يلعبون ، وفي طغيانهم يعمهون ، وفي رييهم يترددون ، بل يجادلون في الله بغير علم وعلى غير هدى ، وليس بين أيديهم كتاب منير يستندون إليه في جدالهم ، قال تعالى : ﴿ وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾^(١) وقال جل شأنه :

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾^(٢)

وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثانی عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾^(٣) .

ومما يزيد الطين بلة أن هؤلاء المجادلين بالباطل إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله- ﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾^(٤) وفي آية أخرى : ﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾^(٥) هذا هو التقليد الأعمى الذى لا يثبت أمام الحق ، ولا يصمد في مجال النور والبرهان ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾^(٦)

﴿ قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون : فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾^(٧)

وهنا يلقي الله عليهم باللائمة الشديدة فيقول في موضع : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ وفي موضع آخر : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾ وهنا في سورة لقمان يقول : ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾

فأنت ترى في تلك المواضع أنه لا عقل ولا هتداء ولا علم ، وحيث كان ذلك كذلك فلم يبق إلا

(١) من الآية : ١٣ من سورة الرعد .

(٢) الأيتان : ٣ ، ٤ من سورة الحج .

(٣) الآيات : ٨ - ١٠ من سورة الحج .

(٤) من الآية : ٢١ من سورة لقمان .

(٥) من الآية : ١٧٠ من سورة البقرة .

(٦) الأيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة الزخرف .

(٧) الأيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة الزخرف .

طريق الشيطان ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾^(١) ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾^(٢) ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴾^(٣) ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير . الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير . أقم زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾^(٤)

قوله تعالى : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور . نمتهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾

هذا إخبار منه - تعالى - عن الفريق الآخر ، وهو الذى لم يجادل فى الله ولم يتبع أسلوب تقليد الآباء والأجداد ، بل آمن بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً . ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾^(٥) إنه فريق المخلصين الذين اعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

لقد استمسكوا بالعروة الوثقى ، والصلة القوية . ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾^(٦) إنه الفريق الناجى ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾^(٧) أما الذين جادلوا فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وقلدوا الأجداد والآباء ﴿ أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾^(٨)

إن العروة الوثقى هى الميثاق الأكيد والصلة القوية ، هى الإسلام ، هى التوحيد ، هى كلمة الله العليا ، وإلى الله عاقبة الأمور ، فهو الذى يعلمها ، وهى التى تؤول إليه وترجع لا إلى غيره قال تعالى : ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾^(٩) أم من كفر وأدبر وتولى وعمى عن الحق فلا تذهب نفسك على هؤلاء حسرات ولا يحزنك كفره . ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾^(١٠)

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾^(١١)

﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء

(٦) الآية : ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٧) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٨) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٩) الآية : ١٢٣ من سورة هود .

(١٠) الآية : ٣٣ من سورة الأنعام .

(١١) الآية : ٣٤ من سورة الأنعام .

(١) الآية : ١٢٠ من سورة النساء .

(٢) من الآية : ١٩ من سورة المجادلة .

(٣) الآية : ٢٠ من سورة المجادلة .

(٤) الآيات ٥ - ٨ من سورة فاطر .

(٥) الآية : ١٣١ من سورة البقرة .

فتأتيتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ﴿١﴾

قال تعالى : ﴿ واصبر وماصبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (٢)

لا تحزن على هؤلاء فإن إلينا مرجعهم ﴿ إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾ (٣) ﴿ فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴾ (٤)

﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ (٥) ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (٦) ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ (٧) ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ (٨)

هؤلاء الكافرون الذى غرتهم الدنيا وغرهم المال والأولاد ﴿ نمتعهم قليلا ﴾ (٩) ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ (١٠) فالدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات .

﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ (١١) ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ (١٢)

﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ (١٣) ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم ﴾ أى : نلجئهم (إلى عذاب غليظ) أى : فظيع وشنيع . ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾ (١٤) .

(١) الآية : ٣٥ وبعض الآية ٣٦ من سورة الأنعام .

(٢) الأيتان : ١٢٧ ، ١٢٨ من سورة النحل .

(٣) الأيتان : ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية .

(٤) من الآية : ٦ من سورة المجادلة .

(٥) من الآية : ١١٩ من سورة آل عمران . ومن الآية : ٧ من سورة المائدة . ومن الآية : ٢٣ من سورة لقمان .

(٦) الآية : ١٩ من سورة غافر .

(٧) الآيات : ٢٧ - ٣٠ من سورة النبأ .

(٨) الآية : ٣٠ من سورة آل عمران .

(٩) من الآية : ٢٤ من سورة لقمان .

(١٠) من الآية : ٧٧ من سورة النساء .

(١١) الأيتان : ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة آل عمران .

(١٢) الأيتان : ٦٩ ، ٧٠ من سورة يونس .

(١٣) الآية : ٣ من سورة الحجر .

(١٤) الآية : ٥٦ من سورة النساء .

قوله تعالى :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . الله مافى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله ﴾ أى : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ الله مافى السموات والأرض ﴾ أى : هو خلقه وملكه ﴿ إن الله هو الغنى الحميد ﴾ أى : الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها .

قال تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾ قال أئمة التفسير فى هذه الآية الكريمة أقوالا جديرة بالاحترام والتوقير ، قال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما وجعل البحر مدادا ، وقال الله : من أمرى كذا ومن أمرى كذا لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام .

وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاما ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقته وعلمه . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ . . . الآية ، يقول : لو كان البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ، لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه ، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول .

قال الإمام الحافظ بن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنی وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقال تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام

والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ أى : لو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مدادا وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مددا ، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى :

﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾^(١) فليس المراد (بمثله) آخر فقط ، بل بمثله ، ثم بمثله ، ثم بمثله ، ثم هلم جرا ، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته .

وسبب نزول هذه الآية مارواه ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد ، أرأيت قولك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كلاهما » قالوا : ألسنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنها في علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم » وأنزل الله فيما سألوه عنه في ذلك ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفذت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أى : غالب قاهر ، لا يغلبه أحد ولا يقهره غيره ، حكيم متتزه عن العبث ، يضع الأمور في نصابها ، ويسمى الأشياء بأسمائها .

قوله تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾ ما خلقكم من العدم ولا بعثكم بعد الفناء إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾^(٢) .

﴿ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾^(٣)
 ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾^(٤)
 ﴿ والله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾^(٥)

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾^(٦)
 ﴿ فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾^(٧)
 ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ إن الله سميع بأقوال العباد ، بصير بشئونهم أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، تبارك سمع الله إذ يقول ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله ﴾^(٨) وجل بصر الله إذ يقول : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . هو الذى يصوركم فى الأحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾^(٩)

(١) الآية : ١٠٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية : ٤٠ من سورة النحل .

(٣) من الآية : ٤٧ من سورة آل عمران . ومن الآية : ٣٥ من سورة مريم .

(٤) الآية : ٨٢ من سورة يس .

(٥) الآية : ٧٧ من سورة النحل .

(٦) الأيتان : ٤٩ ، ٥٠ من سورة القمر .

(٧) الأيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة النازعات .

(٨) الآية : ١ من سورة المجادلة .

(٩) الأيتان : ٥ ، ٦ من سورة آل عمران .

وعظم علم الله إذ يقول : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾^(١)
قال الشيخ لتلمذه حيران :

إن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين : دعوة إلى الله وإرشاد إلى دلائل وجوده ، ووجدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته ، وعنايته ، ورحمته ، وجميع صفات كماله ، ووعد ووعد ، للترغيب في طاعته والتحذير من معصيته - وتوكيد ليوم البعث وحض على مكارم الأخلاق - وقصص يمت بسبب إلى هذه الأقسام الستة ولكن أهم هذه الأقسام ، وأعظمها عند الله ، هو القسم الأول ؟ لأن الإيمان بالله هو الأصل ، وهو الأساس لكل ماعداه ، ولذلك ترى - وأنت تتصفح القرآن - أن الآيات الدالة على الله ، لا تكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها أحيانا ، في السورة الواحدة .
يقول حيران بن الأضعف : وهنا ناولني الشيخ الدفتر الذي كان يكتب فيه الآيات وقال :
الشيخ : هذا هو الدفتر الذي جمعت لك به ، على ترتيب النزول أكثر آيات القرآن التي أراد بها الله تعالى إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، الباري ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم ، وأكثر فيها - سبحانه - من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والإحكام والإتقان والتقدير والاعتزان في : خلق السموات والأرض ، والشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنجوم ، والليل والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والجبال ، والأنهار ، والبحار والنبات ، والحيوان ، والإنسان ، والأسماع ، والأبصار والأفئدة ، وما ينطوي عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس . فتعال يا حيران نقرأ هذه الآيات ونستعرضها جملة واحدة ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من أسرار الوجود والخلق .

حيران : لماذا اختار مولاي إيراد الآيات على ترتيب النزول ، ولم يوردها على ترتيب السور ؟
الشيخ : لأنني أردت لك أن تتصور نفسك من أهل العصر الذي نزل به القرآن ، لترى كيف توالى الوحي ، وتتابع الهدى ، في خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله ، فإن ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات أبلغ أثرا في نفسك ، وأيسر في تفهم أسلوب الهدى الكريم ، الذي اتبعه القرآن .
يقول حيران : ثم دفع إلى الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ وأسمعني ، فقرأت الآيات الآتية :
﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ سورة العلق الآيات : ١ - ٥

﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى ﴾ سورة الأعلى : الآيات ١ - ٥

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ سورة الإخلاص
﴿ قتل الإنسان ما أكفره . من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره ﴾ سورة عبس - الآيات : ١٧ - ٢٠

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صبينا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا

(١) الآية : ١٩ من سورة غافر .

وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا ﴿ سورة عبس ، الآيات : ٢٤ - ٣١ ﴾
والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء
ومابناها . والأرض وماطحاها . ونفس وماسواها ﴿ سورة الشمس ، الآيات : ١ - ٧

﴿ ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ سورة التين : الآية : ٤
﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل
منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ سورة القيامة .

﴿ والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا .
عذرا أو نذرا ﴾ سورة المرسلات : الآيات : ١ - ٦

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويل
يومئذ للمكذبين . ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شاخات وأسقيناكم
ماء فراتا . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ سورة المرسلات : الآيات : ٢١ - ٢٨

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها
رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا
فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا
كذلك الخروج ﴾ سورة ق الآيات : ٦ - ١١

﴿ ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين ﴾ سورة البلد ، ﴿ إنا كل شئ خلقناه
بقدر ﴾ سورة القمر الآية : ٤٩

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار
يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾
سورة الأعراف : الآية : ٥٤

﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به
الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ سورة الأعراف : الآية : ٥٧
﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ﴾ سورة الأعراف ﴿ هو الذى
خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ سورة الأعراف ، ﴿ أيشركون ما لا يخلق
شيئا وهم يخلقون ﴾ سورة الأعراف : من الآية : ١٩١ .

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل
وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى
خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا
هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد
كالمرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك
يسبحون ﴾ سور يس ، الآيات : ٣٣ - ٤٠ .

﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ سورة يس ، الآيات : ٧١ - ٧٣

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ سورة يس ، الآيات : ٧٧ - ٨١

﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ سورة الفرقان ، من الآية : ٢

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا . ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ سورة الفرقان ، الآيات : ٤٥ - ٥٠

﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ سورة الفرقان ، الآيات : ٥٣ ، ٥٤ .

﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ سورة الفرقان ، الآيات : ٦١ ، ٦٢

﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ سورة فاطر ، الآية : ٣

﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ سورة فاطر ، الآية : ٩

﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ سورة فاطر ، الآيات : ١١ - ١٣

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ سورة فاطر ، الآيات : ٢٧ ، ٢٨

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾ سورة فاطر ، الآية : ٤١

﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ سورة مريم ، الآية : ٦٧
 ﴿ قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ سورة طه ، الآيات : ٤٩ - ٥٤ ﴿ نحن خلقناكم فلو لا تصدقون . أفأرأيتم ماتمنون . أنأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ سورة الواقعة ، الآيات : ٥٧ - ٥٩ .

أفأرأيتم الماء الذى تشربون . أنأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفأرأيتم النار التى تورون . أنأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ سورة الواقعة ، الآيات : ٦٨ - ٧٤ ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ سورة الواقعة ، الآيتان : ٧٥ - ٧٦ ﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ سورة الشعراء ، الآيتان : ٧ - ٨ .

﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ سورة النمل ، الآيتان : ٦٠ ، ٦١

﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ سورة النمل ، الآية : ٨٦

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾ سورة النمل ، الآية : ٨٨

﴿ وربك يخلق مايشاء ويختار ﴾ سورة القصص ، من الآية : ٦٨
 ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ سورة القصص ، الآيات : ٧١ - ٧٣

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ سورة الإسراء ، الآية : ١٢
 ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيم ﴾ سورة الإسراء : ٦٦

﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ سورة الإسراء : ٧٠

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ سورة الاسراء الآية : ٨٥

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ سورة يونس : ٥ ، ٦

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ . سورة يونس : ٣١ ، ٣٢

﴿ قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون . وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴾ سورة يونس ٣٤ - ٣٦

﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ سورة يونس : ٦٧

﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ سورة يونس : ١٠١

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليثوس كفور ﴾ سورة هود : ٩
﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ سورة يوسف : ١٠٥
﴿ والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ سورة الحجر : ١٩ - ٢٣

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ سورة الحجر : ٢٦
﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ سورة الحجر : من الآية ٨٥
﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴾ سورة الأنعام : ١ - ٢
﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ سورة الأنعام : من الآية ٣٨
﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم

يهدى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون ، إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴿ سورة الأنعام : ٧٥ - ٧٩

﴿ إن الله فلق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالتق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴿ سورة الأنعام : ٩٥ - ٩٩

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴿ سورة الأنعام : ١٠٢ - ١٠٣ .

﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿ سورة الأنعام : ١٤١ - ١٤٢

﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴿ سورة الصافات : ١١ ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴿ سورة لقمان : ١٠ - ١١

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ﴿ سورة لقمان : ٢٠ ﴿ ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴿ سورة لقمان : ٢٧

﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير . ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿ سورة لقمان : ٢٩ - ٣١

﴿ ويرى الذى أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴿ ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴿ سورة الزمر : ٥ - ٦ .

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفر ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولى الأبواب ﴾ سورة الزمر : ٢١
 ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ سورة الزمر : الآيات : ٦٢ - ٦٤
 ﴿ هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ سورة المؤمن أو غافر : ١٣

﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون . كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ سورة المؤمن : ٦١ - ٦٤
 ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذي يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ سورة غافر : ٦٧ - ٦٨

﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويرىكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ سورة غافر : ٧٩ - ٨١
 ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ سورة فصلت : الآية ٣٧

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ سورة فصلت : ٥٣

﴿ فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ سورة الشورى : ١١

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة ﴾ سورة الشورى : من الآية : ٢٩
 ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ سورة الشورى : الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ سورة الزخرف : ٩ - ١٢

﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما بث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ سورة الجاثية : ٣ - ٦

﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر

لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿ سورة الجاثية : ١٢ - ١٣

﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون .
قل أرايتم ماتدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴿ سورة الأحقاف : ٣ - ٤
﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴿ سورة الذاريات : الآيتان : ٢٠ ، ٢١
﴿ والسماء ببنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴿ سورة الذاريات : الآيات : ٤٧ - ٤٩

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكر إنما أنت مذكر ﴿ سورة الغاشية : الآيات ١٧ - ٢١
﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴿ سورة الكهف : ٣٧

﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴿ سورة الكهف : ١٠٩

خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴿ سورة النحل : الآيات ٣ - ٨

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرا لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسي أن تُميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإنه تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴿ سورة النحل :

١٠ - ٢٠ ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴿ سورة النحل : ٤٠
﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة . نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿ سورة النحل : ٦٥ - ٦٩

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء مايمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالة وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم ﴾ سورة النحل الآيات : ٧٨ - ٨٢

﴿ وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساتا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ سورة نوح : ١٤ - ٢٠

﴿ أفي الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ سورة إبراهيم ، من الآية : ١٠
﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ سورة إبراهيم : ٢٤ - ٢٦

﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ سورة إبراهيم : ٣٢ ، ٣٣

﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون . وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ سورة الأنبياء : ٣٠ - ٣٣

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للاكلين . وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ سورة المؤمنون : ١٢ - ٢٢
﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون . وهو الذي ذرأكم في الأرض - وإليه تحشرون . وهو الذي يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ سورة المؤمنون :

٧٨ - ٨٠

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ سورة السجدة : الآيات ٧ - ٩

﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ سورة السجدة : ٢٧

﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ سورة الطور : ٣٥ - ٣٦

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ سورة الملك : ١ - ٤

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ﴾ سورة الملك : من الآية ١٥
 ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ سورة الملك : من الآية ١٩
 ﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ سورة الملك : ٢٣
 ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بما معين ﴾ سورة الملك : ٣٠
 ﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لاتبصرون ﴾ سورة الحاقة : ٣٨ - ٣٩
 ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ﴾ سورة المعارج : ٤٠
 ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجاً . وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً . لنخرج به حياً ونباتاً . وجنات ألفافاً ﴾ سورة النبا : الآيات ٦ - ١٦
 ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاًها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها ﴾ سورة النازعات : الآيات ٢٧ - ٣٢
 ﴿ يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ سورة الانفطار : ٦ - ٨

﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى . . ﴾ سورة الروم : من الآية ٨

﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وإبتغائكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ سورة الروم : ١٧ - ٢٤
 ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ سورة الروم : ٤٦

﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾ سورة الروم : ٤٨ : ٥٠

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . . . ﴾ سورة العنكبوت : من الآية ١٠

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير ﴾ (١)

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعلقها إلا العالمون ﴾ (٢) سورة العنكبوت .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ (٣) . سورة العنكبوت

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ (٤) سورة العنكبوت

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (٥) سورة البقرة

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكم عليم ﴾ (٦) سورة البقرة .

﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (٧) سورة البقرة
﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٨) سورة البقرة .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ (٩) سورة البقرة

﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ (١٠) سورة البقرة .

(٦) سورة البقرة الآيتان : ٢٨ ، ٢٩

(٧) سورة البقرة الآية : ١١٧

(٨) سورة البقرة الآية : ١٦٤

(٩) سورة البقرة الآية : ١٧١

(١٠) سورة البقرة من الآية : ١٨٩

(١) سورة العنكبوت الآية : ٢٠

(٢) سورة العنكبوت الآيات : ٤١ - ٤٣

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٦١

(٤) سورة العنكبوت الآية : ٦٣

(٥) سورة البقرة الآيتان : ٢١ ، ٢٢

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (١) سورة آل عمران

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٢) سورة آل عمران .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ (٣) سورة آل عمران .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ﴾ (٤) . سورة آل عمران

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء . . . ﴾ (٥) سورة النساء .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . . . ﴾ (٦) سورة الحديد
﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ (٧) سورة الحديد
﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعتاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٨) سورة الرعد

﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ﴾ سورة الرعد .
﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾ (٩) سورة الرعد .
﴿ الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان ﴾ (١٠) سورة الرحمن .

(٦) سورة الحديد من الآية : ٦
(٧) سورة الحديد من الآية : ١٧
(٨) سورة الرعد الآيات : ٢ - ٤
(٩) سورة الرعد الآية : ١٦
(١٠) سورة الرحمن الآيات : ١ - ٥

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٦ ، ٧
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٨
(٣) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧
(٤) سورة آل عمران الآيتان : ١٩٠ ، ١٩١
(٥) سورة النساء من الآية : ١

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ (١) ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ (٢) سورة الطلاق

﴿ ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ (٣) سورة النور .

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البعث فإذا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم لنخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموت وأنه على كل شيء قدير ﴾ (٤) سورة الحج .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابه فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ (٥) سورة الحج .

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (٦) سورة الحج .

﴿ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وإن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة . إن الله لطيف خبير . له ما في السموات وما في الأرض وإن الله هو الغني الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم . وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾ (٧) سورة الحج .

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدر الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٨) ﴿ خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾ (٩) سورة التغابن .

(٦) سورة الحج الآية : ٤٦

(٧) سورة الحج الآيات : ٦١ - ٦٦

(٨) سورة الحج الآيتان : ٧٣ ، ٧٤

(٩) سورة التغابن الآية : ٣

(١) سورة الانسان الآيتان : ١ ، ٢

(٢) سورة الطلاق من الآية : ٣

(٣) سورة النور الآيات : ٤٣ - ٤٥

(٤) سورة الحج الآيتان : ٥ ، ٦

(٥) سورة الحج الآية : ١١

يقول جيران بن الأضعف ولما انتهيت من قراءة هذه الآيات قلت للشيخ الموزون : جزاك الله عنا خيرا يامولاي فقد والله ، قرأت الساعة آيات لا أتذكر أنها مرت على فى كل ما أتيح لى فى عمرى ، من التلاوات ، وما أظن ذلك إلا من ترك التأمل والتدبر ، فى التلاوة المعتادة للتبرك .
الشيخ : لا يكفى أن تقرأ هذه الآيات مرة أو مرتين ولكن يجب ان تصنفها أصنافا ليجتمع أمام عينيك ، فى كل شىء من خلق الله ، الآيات المشيرة إليه ، وقد يكون بعضها شاملا لعدة أشياء ، فلا بأس من تكرار ذكرها .

من آيات الله الكونية

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ (١) .
وتلك آية أخرى من الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته ، فالليل والنهار آيتان من آيات الله .
قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ (٢) وقال عز من قائل ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٣)
ومن آيات الله فى الليل والنهار انه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل . ألم تشاهد أيها الناظر ، بعينيك أن الله يزيد ما نقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، ويزيد ما نقص من ساعات النهار فى ساعات الليل .

والخلاصة : أنه يأخذ فى الليل من النهار ، فيقصر ذاك ويطول هذا ، وذاك فى مدة الصيف ، إذ يطول النهار إلى الغاية ، ثم يبتدىء النهار فى النقصان ، ويطول الليل إلى الغاية فى مدة الشتاء .
﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ لمصالح خلقه ومنافعهم .

﴿ كل يجرى إلى أجل مسمى ﴾ أى : كل منهما يجرى بأمره إلى وقت معلوم ، وأجل محدد ، إذا بلغه كورت الشمس والقمر .

﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ أى : وأن الله بأعمالكم من خير وشر خبير بها لا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو مجازيكم بها .

ثم بين الحكمة فى إظهار آياته للناس ، فقال : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ أى : إنما يظهر آياته للناس ليستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة ، وأن كل ما سواه هو

(١) سورة لقمان الآيتان : ٢٩ ، ٣٠

(٢) سورة الاسراء الآية : ١٢

(٣) سورة القصص الآيات : ٧١ - ٧٣

الباطل الذى يضمحل ويفنى ، فهو الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه .
﴿ وأن الله هو العلى الكبير ﴾ أى : وأنه تعالى المرتفع على كل شيء والمتسلط على كل شيء ، فكل شيء خاضع له ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ (١) .

وكما أن الليل والنهار آيتان من آيات الله يولج كلا منهما فى الآخر ، فكذلك تسخير الشمس والقمر من آيات الله ، والكل يجرى إلى أجل مسمى حدده الله تعالى . ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق . . . يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ . كذلك جريان الفلك فى البحر بنعمة الله حسب قانون الأجسام الطافية وما ركزه الله تعالى فى هذا الكون من نواميس آية آخر . ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح ﴾ ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ .

هذا الكون من نواميس آية آخر ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وقال جل جلاله : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب السفن وهى تسير فى البحر حاملة للأقوات والمتاع ، ومن بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر هو فى حاجة إليها لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس فى أيديهم .

وفى هذا دليل على عجيب قدرته التى ترشدكم إلى أنه الحق الذى أوجد ما ترون من الأحوال الثقيلة على وجه الماء الذى ترسب فيه الابرة فيما دونها .

ثم ذكر من يستفيد من النظر فى الآيات ، فقال : ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أى إن فيما ذكر لدلائل واضحات لكل صبار فى الضراء ، شكور فى الرضاء ، قال الشعبى : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ، ألم تر إلى قوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ وقوله ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : « الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر » .

ثم بين أن المشركين ينسون الله فى السراء ويلجئون إليه حين الضراء فقال : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أى وإذا أحاطت بالمشركين الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان . الأمواج العالية كالجبال ، وأحرق بهم الخطر من كل جانب حين يركبون السفن - فزعوا

بالدعاء إلى الله مخلصين له الطاعة لا يشركون به شيئا ولا يدعون معه أحدا سواه ، ولا يستغيثون بغيره .

﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحدون بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ أى فلما نجوا من الأهوال التى كانوا فيها ، وخلصوا إلى البر ، فمنهم متوسط فى أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء ، موف بما عاهد عليه الله فى البحر ، ومنه من غدر ونقض عهد الفطرة ، وكفر بأنعم الله عليه . سبحانك ربى كل ما فى الكون من صنعتك ، فأنت الخالق المدبر الحكيم المريد القدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، سبحه الطير فى وكره ومجده الوحش فى قفره ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير . ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ (١) .

ختم السورة

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازِعٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

معانى المفردات

اتقوا ربكم : أى خافوا عقابه ، لا يجزى : أى لا يغنى ، والغرور ، ما غر الانسان من مال وجاه . وشهوة وشيطان ، والساعة : يوم القيامة . ما فى الأرحام : أى ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله كالذكورة والأنوثة والحياة والموت ، وغيرها من الأعراض .

بعد أن ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة ، وأشكال متنوعة - أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم ، يوم يحكم الله بين عباده ، يوم لا تنفع فيه قرابة ، ولا تجدى فيه صلة رحم ، فلو أراد والد أن يفدى ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك ، وهكذا الابن مع أبيه ، فلا تلهينكم الدنيا

عن الدار الآخرة ، ولا يغرنكم الشيطان فيزين لكم بوساوسه المعاصي والآثام . ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه ، مما في الكائنات ، وهي الخمس التي اشتملت عليها الآية الكريمة ، مما لم يؤت علمها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ هذا خطاب للبشرية جمعاء فيه أمر بالتقوى ، والتقوى هي : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ أى : احذروا هذا اليوم الذى يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، فالوالد لا يملك أن يفدى ولده ، وكذلك المولود لا يستطيع أن يفدى والده ، بل إن الولد يلقي أباه فيقول له : يَا أَبَتِ لَقَدْ كُنْتَ بكَ بَرًّا وَإِلَيْكَ مُحْسِنًا وَعَلَيْكَ مَشْفِقًا فَهَلْ أَجِدُ لَدَيْكَ مِنْ حَسَنَةٍ يَعُودُ عَلَى خَيْرِهَا الْيَوْمَ ، فيقول له أبوه : يَا بَنِي لَيْتَنِي اسْتَطِيعَ ذَلِكَ إِنِّي أَشْكُو مِمَّا مِنْهُ تَشْكُو . وتلقى الأم ولدها فتقول له يا بَنِي : لَقَدْ كَانَ بَطْنِي لَكَ وَعَاءً وَكَانَ ثَدْيِي لَكَ سَقَاءً ، وَكَانَ حَجْرِي لَكَ وَطَاءً . فهل أجِدُ عِنْدَكَ مِنْ حَسَنَةٍ يَعُودُ عَلَى خَيْرِهَا الْيَوْمَ ؟ فيقول لها : لَيْتَنِي اسْتَطِيعَ ذَلِكَ إِنِّي أَشْكُو مِمَّا مِنْهُ تَشْكِين . . . اقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ . وكما أمر الله تعالى : عباده بالتقوى والخشية من يوم يجعل الولدان شيبا أخبرهم بأن وعده حق ، فهو الحق وقوله الحق ولقاؤه حق ووعدته حق والساعة حق واللجنة حق والنار حق والنيبون حق ومحمد حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا بزخارفها الخادعة ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ أُعْجِبَ الْكُفَّارُ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مَصْفُورًا . ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ ﴿ وَلَا يَغْنَمُ إِلَّا الْغُرُورُ ﴾ أى : الشيطان الذى قال الله فيه : ﴿ يَعْدهم وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدهم الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ . وقال ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فما طريق النجاة ؟ ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

هذه خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله : إن الله عنده علم الساعة فلا يعلمها أحد سواه ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، كما قال : ﴿ لَا يَجْلِيهَا لَوْقَتُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ .

(٢) ﴿ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ ﴾ فى وقته المقدر له ، ومكانه المعين فى علمه تعالى .

(٣) ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ أذكر هو أم أنثى ، أتام الخلق أما ناقصه ، أو نحو ذلك من

الأحوال العارضة له .

(٤) ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ﴾ من خير أو شر .
 (٥) ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ أى : لا يدرى أحد أين مضجعه من الأرض ؟ أفى بحر أم فى بر ، أم فى سهل أم فى جبل .
 ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أى : إن الله عليم بجميع الأشياء ، خبير ببواطنها كما هو خبير بظواهرها .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة (أن رجلا يقال له : الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد متى قيام الساعة ، وقد أجذبت بلادنا ، فمتى تخلص ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت ، فأى أرض أموت ، فنزلت الآية : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾^(١) الخ .

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : (مفاتيح الغيب خمس : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾^(٢) .
 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال الحافظ بن كثير رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآية :
 هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ، ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها وأخرها . ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان . . . لا علم لأحد بذلك ، وهذا شبيهه بقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى بريدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (خمس لا يعلمهن إلا الله - عز وجل - : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير)^(٣) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : (أوتيت مفاتيح كل شىء إلا الخمس : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب

(١) انظر الدر المنثور فى تفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ح ٦ ص ٥٣٠ ، ٥٣١ فى تفسير قوله تعالى : إن الله عنده علم الساعة الآية .

(٢) فى الدر المنثور فى تفسير المأثور فى تفسير سورة لقمان آية « إن الله عنده علم الساعة » الآية ح ٦ ص ٥٦١ وقال اخرج الفريابى والبخارى ومسلم وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر وذكر الحديث . . .

(٣) رواه الامام احمد فى مسنده (من حديث بريدة) ح ٥ ص ٣٥٥

غدا وما تدري نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير^(١).

وقال البخارى : بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يتمشى ، فقال : يا رسول الله ما الايمان ؟ قال ؟ « الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » قال : يا رسول الله ما الاسلام ؟ قال : « الاسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » قال : يا رسول الله ما الاحسان ؟ قال : (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) قال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رعوس الناس ، فذاك من أشراطها فخمس لا يعلمهن إلا الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ﴾ . الآية : ثم انصرف الرجل فقال : ردوه على فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا قال : (هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم)^(٢) روى الإمام أحمد بسنده عن حراش عن رجل من بنى عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « إخرجى إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : السلام عليكم أدخل ، قال : فسمعتة يقول ذلك ، فقلت السلام عليكم أدخل ؟ فأذن لى ، فدخلت فقلت : بم أتيتنا ؟ قال (لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ، وأن تصوموا من السنة شهرا وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم) . قال : فقال فهل بقى من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : (قد علمنى الله - عز وجل - خيرا وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله - عز وجل - : الخمس (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام)^(٣) الآية . وقد جاء فى الحديث : (إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له فيها حاجة)^(٤) .

جنس الجنين

ولد أو بنت

يقول الدكتور محمد على البار فى كتابه : خلق الانسان بين الطب والقرآن قضية تشغل بال الآباء والأمهات كثيرا .. ترى ماذا يكون الحمل ؟ ولد أو بنت .. ذلك سر مغلق بالنسبة للآباء والأمهات

(١) رواه الامام احمد فى مسنده (مسند عبد الله بن عمر) ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) انظر صحيح البخارى (كتاب الايمان) باب : سؤال جبريل النبى ﷺ عن الايمان والاسلام ، والاحسان وعلم الساعة .. الخ ج ١ ص ١٩ ، ٢٠ .

(٣) مسند الامام أحمد (من أحاديث رجال من أصحاب النبى ﷺ) ج ٥ ص ٣٦٩ .

(٤) الحديث فى فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٦٧ رقم ٤٠٤ وقال المناوى : أخرجه احمد والطبرانى فى الكبير وابو نعيم فى الحلية عن أبى عزة ، يسار بن عبدالله او ابن عبد او ابن عمر الهزلى له صحبة سكن البصرة ، وقيل : هو مطر بن عكافس لان حديثها واحد ، وهو هذا ، وقيل : غيره ، ورواه عنه الترمذى فى العلل ثم ذكر انه سأل عنه البخارى فقال : لا أعرف لأبى عزة إلا هذا انتهى قال الهيثمى : يعد عزوه لأحمد والطبرانى . فيه محمد بن موسى الخرشى ، وفيه خلف انتهى . ورواه عنه ايضا البخارى فى الأدب والحاكم وبالجمل : فهو حسن .

حتى يحين موعد الولادة . ولكن العلم الحديث توصل إلى معرفة ذلك السر ، إنه سر لا يباح كثيرا ، فليس من اليسير عمل الفحوصات الخاصة بمعرفة الجنين ، إذ أن ذلك يتطلب سحب كمية من السائل الأمينوسى (الرهل) المحيط بالجنين والمتناثرة فيه بعض خلاياه ويفحص هذه الخلايا ، وبالذات فحص أجسامها الملونة (الكروموسومات) يمكن تحديد نوع الجنين ذكر أو أنثى ، ولكن الأطباء لا يجرون مثل هذه الفحوص إلا إذا كانوا مشتبهيين بوجود تشوهات خلقية ، وفى أثناء ذلك يتعرفون على جنس الجنين ومن الناحية الطبية ليست هناك أى أهمية لمعرفة نوع الجنين المهم أن يكون سليما من التشوهات تام الخلقة . مكتمل الاعضاء . . . ومن المقرر علميا أن جنس المولود يتحدد فى اللحظة الأولى التى يلتقى فيها الحيوان المنوى بالبويضة فيلقحها ، فإذا ما التقى حيوان منوى يحمل شارة الذكورة (Y) بالبويضة ، فإن الجنين سيكون ذكرا بإذن الله . أما إذا كان الحيوان المنوى الذى سيلقح البويضة . يحمل شارة الأنوثة فإن الجنين سيكون أنثى بإذن الله . إذن فالحيوان المنوى أو نطفة الرجل هى التى تحدد نوعية الجنين : ذكر أم أنثى . ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذ تمنى ﴾^(١) والنطفة التى تمنى : هى نطفة الرجل بلا ريب . ويقول تعالى أيضا : ﴿ أحسب الإنسان أنه يترك سدى . ألم يك نطفة من منى ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه (أى المنى) الزوجين الذكر والأنثى . . . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾^(٢) .

وبالنسبة للأطباء فإنه لا يمكن معرفة الجنين إلا بعد مضي أربعة أشهر على الأقل عندما يمكن أن تغرز إبرة لسحب نقطة من السائل الأمينوسى لفحص خلايا الجنين . . . هل تحمل شارة الذكور ؟ (Y) أو تحمل شارة الأنوثة (X) أما فى الجنين ذاته فإنه لا يمكن تمييزه ولو نزل سقاطا ، ويشرح تشريحا كاملا حتى نهاية الاسبوع السادس الرحمى ، فعدد التناسل : الخصية (فى الذكر) والمبيض (فى الأنثى) تتشابهان تماما فى هذه المرحلة المبكرة من النمو . . . ولا يمكن التمييز بينهما . . . وفى نهاية الاسبوع السابع تبدأ الخصية بالنمو قبل المبيض ويظهر فيها نسيج خاص ، كما أنها تلف بغلالة بيضاء تدعى اللفافة البيضاء ويقول المصطفى - صلوات الله عليه - (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب ذكر أو أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء) وفى تلك اللحظة يعلم الملك نوع الجنين ذكر أو أنثى أما فى علم الله فهو معروف منذ الأزل . . . وعلى مستوى الصفات (الكروموسومات) يتحدد نوع الجنين منذ لحظة التلقيح . . . وإلتقاء الحيوان المنوى (ماء الرجل) ببويضة المرأة (ماء المرأة) وتنمو الخصية أو المبيض من الحدة التناسلية فى منطقة بين الصلب (العمود الفقرى) والتراتب (الأضلاع) ، ثم تنزل تدريجا إلى الحوض ابتداء من الاسبوع العاشر للحمل حتى تصل إلى الحوض فى الشهر السابع ، ثم تواصل الخصية نزولها فى الشهر التاسع إلى كيس الصفن خارج الجسم ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والتراتب ﴾^(٣)

(١) سورة النجم الايتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة القيامة الآيات : ٣٦ - ٤٠ .

(٣) سورة الطارق الآيات : ٥ - ٧ .

* الأعضاء التناسلية الظاهرة :

يصعب التفريق بين الذكر والأنثى من حيث الأعضاء التناسلية الظاهرة إلى بداية الشهر الرابع من الحمل . . ومن ثم يكون التمييز بينهما . . أما بداية تكون هذه الأعضاء فتبدأ في الأسبوع الرسمى السادس (٤٢ يوما) وتستمر في النمو . ولكن التمييز لا يظهر إلا في بداية الشهر الرابع وتبدأ الأعضاء الظاهرة برعما صغيرا فوق شق . . أما البرعم فيتحول إلى قضيب أو بظر (حسب نوع الجنين) وأما الشق فلما أن يبقى فيكون على جانبه الشفران كما هو في البنت أو يلتصق ويكون كيس الصفن كما هو في الولد ، ثم تنزل الخصية من كل جانب إلى كيس الصفن في الشهر التاسع .

ويبدأ التكوين الجنسى (في الأسبوع السادس) (٤٢ يوما) إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء) ويبدأ الملك عمله منذ تلك اللحظة في توجيه الأنسجة والخلايا الصماء إلى وظائفها وأماكنها المحدودة في وقتها المعلوم ، وعندما تكتمل مراحل النطفة والعلة والمضغة يؤمر الملك بالدخول مرة أخرى ليحدد الأعضاء الظاهرة هذا ذكر وهذه أنثى . هذا تقدير بعد تقدير وتصوير بعد تصوير . .

فقد قدر الله - سبحانه - أمر المخلوقات قبل خلقها في اللوح المحفوظ ، ثم قدرها وهى في عالم الذرحين قبض قبضة من اليمين فقال : هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون . وقبض الأخرى وقال : هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون . ثم قدر سبحانه - وتعالى - حيوانا منويا بعينه من بين بلايين الحيوانات المنوية التى يقذفها الرجل ليلقح بويضة واحدة ثم نموها من بين ملايين البويضات الموجودة في مبيض جنين الأنثى . . ثم اختارها من بين مئات البويضات التى تنمو كل شهر تحت تأثير هورمون الغدة النخامية وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شئ خلقه . وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ ^(١) والسلالة : هى الخلاصة . . ونسل الانسان من خلاصة الخلاصة . من الماء المهين (المني) . . الذى يختار الله منه حيوانا منويا واحدا فقط ليلقح البويضة المختارة من بين آلاف البويضات الموجودة في مبيض المرأة ، ويتحدد جنس الجنين على مستوى الصيفات (الكروموسومات) في لحظة التلقيح فإذا ما لقح البويضة حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة كان الجنين أنثى بإذن الله .

أما على مستوى الأنسجة فلا يتحدد جنس الجنين إلا في الأسبوع السابع بعد دخول الملك حينما تعلم الغدة التناسلية هل هى مبيض او خصية . . ثم تحدد بعد ذلك الأعضاء التناسلية الخارجية في الأسبوع الثانى عشر . . وقد لا يتطابق التكوين الجنسى الظاهرى للأعضاء التناسلية مع التكوين الجنسى للغدة التناسلية فقد يكون جنس المولود ذكرا في الحقيقة بينما اعضاؤه التناسلية توحي بأنه أنثى وقد يكون العكس . . وهذا ما تكتبه الصحف والمجلات من أن سعيدة قد أجريت لها عملية وتحولت إلى سعيد والواقع أن الجراح لم يغير جنس الجنين بل أعاده إلى وضعه الطبيعى ، وهناك حالات أكثر تعقيدا تركها

للاطباء . . ومن المعلوم أن الأعضاء التناسلية الخارجية إنما تنشأ من نتوءات بالجلد ولا يتم تكوين الجلد الا فيما بين الاسبوع العاشر والثانى عشر . . وحديث رسول الله ﷺ الذى اخرجه مسلم ، يقول : (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها . . ثم قال : رب اذكر أم أنثى ؟) (١) .

ومعنى ذلك أن الأعضاء التناسلية الخارجية لا تظهر إلا بعد ظهور السمع والبصر والعظام واللحم والجلد . . . ومن الإعجاز ههنا أن يُذكر تكون الجلد قبل ظهور أعضاء التناسل الخارجية ، لأن الجلد يسبق ظهورها . . بل ومنه تتكون الأعضاء التناسلية الخارجية . (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة فى ذلك مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله أشقى أم سعيد) (٢) .

قد يسأل سائل فيقول : أليس فى هذا معرفة للغيب . . والله قد استأثر بعلم الغيب عنده . . وذكر ان مفاتيح الغيب خمسة من المذكور فى الآية ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير ﴾ . وجاء فى تفسير ابن كثير عن هذه الآية ما يلى :

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله - تعالى - بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى . فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد ان يخلقه الله تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، شقيا أو سعيدا . علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها أو أخرها ، ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان . . لا علم لأحد بذلك .

وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب . قال ابن حجر : (وأما ما ثبت بنص القرآن ان عيسى - عليه السلام - قال إنه يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون ، وأن يوسف قال : إنه ينبئهم بالطعام قبل أن يأتى إلى غير ذلك مما ظهر من المعجزات والكرامات فكل ذلك يمكن أن يستفاد من الاستثناء إلا من ارتضى من رسول) فإنه يقتضى إطلاع الرسول على بعض الغيب . والولى التابع للرسول عن الرسول ليأخذ به يكرم ، والفرق بينهما أن الرسول يطلع على ذلك بأنواع الوحي كلها . والولى لا يطلع على ذلك إلا بمنام أو إلهام . والله أعلم . ونقول : إن الآية الكريمة جعلت التعبير مختلفا من جملة إلى أخرى . . ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ فهو المختص وحده بعلمها ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من

(١) جزء من حديث اخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب القدر) باب كيفية الخلق الأدمى فى بطن أمه . . الخ ج ٤ ص ٢٠٣٧

ذكرها إلى ربك متهاها ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها . قل إنما علمها عند ربي ﴾ ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴾ .

وعندما سئل عنها رسول الله ﷺ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) . فقد أخبر ﷺ عن أشراتها وعلاماتها وذكر كثيرا من هذه العلامات الصغرى والكبرى .

﴿ وينزل الغيث ﴾ فهو وحده الذى ينزل الغيث : ولكن الله تعالى لم ينف عن البشر أن يعرفوا مواقيت نزول الغيث بآمارات وإشارات .. تختلف قوة إدراكها من شخص لآخر ، ومن زمان لزمان .. حسب الخبرة وتجمع المعلومات ، ومع هذا فرغم الدقة العلمية ، التى بلغها الانسان فى هذا الزمان ، فإن التنبؤات الجوية كثيرا ما تخيب وتفشل .. وعلم نزول الغيث ظنى بالنسبة للانسان لا يقنى ، ولا شك أن هناك فرقا هائلا وبونا شاسعا بين علم الله .. سبحانه وتعالى : غير المحدود واللا نهائى .. والذى لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه ، والذى لا يمكن قط أن يخطئ .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وبين علم البشر المحدود القابل للخطأ وللنسيان وللتبديل والتخريف ، ومعرفة نزول الغيث معرفة إشارات وعلاماته . مثل أن ترى السحاب الكثيف من بعد مع خبرة بأنواع السحاب تصدق فى كثير من الأحيان ، وتخيب وتفشل فى معرفة بعضها استنادا إلى عوامل متعددة تدخل فيها خبرة الشخص ووسائله المتاحة له ، ومع وجود عوامل أخرى ، قد تأتى وتعارضها فجأة ، وكذلك علم ما فى الأرحام ، فالله وحده هو الذى يعلم علما محيطا شاملا بما فى الأرحام . ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام .. وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار ﴾^(١) ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ فعلمه سبحانه شامل كامل محيط يعرف كل صغيرة وكبيرة فى الرحم وغيره . ﴿ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير ﴾^(٢) ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو . ويعلم ما فى البر والبحر .. وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾^(٣) فعلم الله - سبحانه وتعالى - شامل لما فى الرحم من ذكورة وأنوثة ، ومن طول وقصر ، ومن صفات وملامح وشيات ، ومن طبائع موروثه ، وأخرى ستكتسب فيما يقبل من الأيام ، بل إن الملك الموكل بالرحم يعلم ذلك ويكتبه كما مر معنا فى الأحاديث النبوية الشريفة ويعلم ذلك مجملا فى نهاية الأربعين الأولى من عمر النطفة ، ثم يعلمها مفصلة فى نهاية مرحلة المضغة .. ويكتب ذلك بين عينيه حتى النكبة ينكبها ويكتب أربع كلمات : (رزقه - وأجله - وعمله - وشقى أم سعيد) .

تلك التفاصيل الهائلة سقط أم تمام مشوهة الخلق ، أم سليمها ناقص الأطراف مبتورها ، أم كاملها .. بعين واحدة أم بعينين ، بشفة مبتورة شرماء أم كاملة ، سقف حنكه تام أم ناقص . قلبه سليم التكوين أم أبه عيوب خلقية ، وما أكثرها . جهازه العصبى .. دماغه وأعصابه مساراتها المختلفة .. عضلاته .. واسرارها .. جلده وما يحمله .. شراينه وأوردته ومجاريها .. غدده

(١) سورة الرعد الآية : ٨

(٢) سورة لقمان الآية : ١٦

(٣) سورة الأنعام الآية : ٥٩

المختلفة .. إلى آخره .. حتى الجسيمات الملونة (الكروموسومات) وأسرار البروتينات وأسرار الأنوية ، وأسرار التكوين ، ثم بعد ذلك اسرار الروح .
 وأسرار النفخة الكريمة التى اختص بها الانسان ، ترى من يعلم كل ذلك .. من غير الله ... ؟ فإذا عرفنا نوعية الجنين ذكر أم أنثى فتلك معرفة ناقصة مبتورة ، ومع هذا يمكن أن تخطئ يمكن أن يكون الأعضاء الظاهرة لأنثى ، وتكون الغدد التناسلية للذكر ، ويحتاج الطفل بعد ولادته لعملية لارجاعه إلى جنسه الحقيقى ، وقد يكون العكس ظاهره ولد وحقيقته أنثى ولا يعلم ذلك إلا بعد الولادة ، وبعد فحوص طويلة ، وقد يكون الأمر أعقد وأغرب .. وهو خشى حقيقية تحمل صفات الذكورة وصفات الأنوثة .. تحمل الخصية والمبيض معا فمتى يدرك الانسان ذلك ، وهى لا تعرف إلا بعد إجراء فحوص وعمليات بعد الولادة لفترة من الزمان إذن : فعلم الانسان بما فى الأرحام ظنى لا يقينى ، وعلم الله - سبحانه وتعالى - شامل كامل محيط لا يتسرب إليه الشك ولا الخطأ .. علم الانسان على النقيض من ذلك كله .. علم ما فى الأرحام يشبه علم التنبؤات الجوية .. تصدق حيناً وتخطئ أخرى ، وقد يغلب الصواب فيها بناء على الخبرة والمعرفة والعلوم الحديثة ، واستخدام الوسائل التقنية البارة ، ولكن ذلك كله لا يخرجها إلى علم اليقين المطلق .. تظل كما هى فى حدود البشرية قابلة للخطأ .. قابلة للنقد .. قابلة للتحريف .. وكذلك علم ما فى الأرحام .

سورة السجدة

مقدمة : قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، سوى ثلاث آيات ، فإنها مدينة ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث : عدد آياتها تسع وعشرون عند البصريين وكلماتها : ثلاثمائة وثلاثون ، وحروفها ألف وخمسمائة وتسع وتسعون . ولها ثلاثة أسماء (سورة السجدة) لاشتغالها على سجدة التلاوة ، الثانى سجدة لقمان ، للتمييز عن (حم السجدة) ، الثالث المضاجع : لقوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ .

مقصود السورة :

تنزيل القرآن ، وإنذار سيد الرسل ، وتخليق السماء والأرض وخلق الخلائق ، وتخصيص الانسان من بينهم ، وتسليط ملك الموت على قبض الأرواح ، وتشوير العاصيين فى القيامة ، وملء جهنم من أهل الإنكار ، والضلالة ، وإسقاط خواص العباد فى أجواف الليالى للعبادة ، وإخبارهم بما ادخر لهم فى العقبى : من أنواع الكرامة والتفريق بين الفاسقين ، والصادقين فى الجزاء ، والثواب فى يوم المآب ، وتسليمة النبى ﷺ بتقرير أحوال الأنبياء الماضين ، وتقرير حجة المنكرين للوحدانية ، وأمر الرسول ﷺ بالاعراض عن مكافأة أهل الكفر ، وأمره بانتظار النصر ، بقوله : ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ وفي سأل سائل (خمسين ألف سنة) موضع بيانه التفسير . .
والغريب فيه ما روى عن عكرمة في جماعة : أن اليوم في المعارج عبارة عن أول أيام الدنيا إلى انقضائها ، وأنها خمسون سنة ، لا يدرى أحدكم كم مضى وكم بقى إلا الله - عز وجل - .
ومن الغريب أن هذه عبارة عن الشدة ، واستطالة أهلها إياها ، كالعادة في استطالة أيام الشدة والحزن ، واستقصار أيام الراحة والسرور ، حتى قال القائل : سنة الوصل سنة ، وسنة الهجر سنة .
وخصت هذه السورة بقوله : ألف سنة ، لما قبله ، وهو قوله : ﴿ في ستة أيام ﴾ وتلك الأيام من جنس ذلك اليوم ، وخصت : سورة المعارج بقوله : ﴿ خمسين ألف سنة ﴾ لأن فيها ذكر القيامة وأهوالها ، فكان هو اللائق بها .

قوله : ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ (ثم) ههنا يدل على أنه ذكر مرات ثم تأخر وأعرض عنها . والفاء يدل على الاعراض عقيب التذكير قوله : ﴿ عذاب النار الذي كُتِم به تكذيبون ﴾ ، وفي سبأ ﴿ التي كُتِم بها ﴾ لأن النار وقعت في هذه السورة موقع الكناية ، لتقدم ذكرها ، والكنايات لا توصف ، فوصف العذاب ، وفي سبأ لم يتقدم ذكر النار ، فحسن وصف النار . قوله : ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون ﴾ بزيادة (من) سبق في سورة طه .

قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ ليس غيره ، لأنه لما ذكر القرون والمساكن بالجمع حسن جمع الآيات ، ولما تقدم ذكر الكتاب - وهو مسموع - حسن لفظ السماع مختم الآية به .

مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

(١) اشتمال كل منها على دلائل الألوهية .

(٢) إنه ذكر في السورة السالفة دلائل التوحيد ، وهو الأصل الأول ، ثم ذكر المعاد ، وهو الأصل

الثاني ، وهنا ذكر الأصل الثالث ، وهو النبوة .

(٣) إن هذه السورة شرحت مفاتيح الغيب التي ذكرت في خاتمة ما قبلها ، فقوله : ﴿ ثم يعرج

إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ شرح لقوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ وقوله : ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ شرح لقوله : ﴿ وينزل الغيث ﴾ وقوله : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ تفصيل لقوله : ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ وقوله : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾ إيضاح لقوله : ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ﴾ وقوله : ﴿ أثذا ضللنا في الأرض ... الخ ﴾ شرح لقوله : ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ .

وقد عقد الامام ابن القيم فصلا عن خصائص يوم الجمعة ذكر فيه : وكان من هديه - صلى الله

عليه وسلم - تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره .

وكان ﷺ يقرأ في فجره بسورتي ﴿ ألم تنزيل ﴾ و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ويظن كثير ممن لا

علم عنده : أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة . ويسمونها سجدة الجمعة ، وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة ، استحب قراءة سورة أخرى فيها سجدة ، ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة ، دفعا : لتوهم الجاهلين ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيميه يقول : إنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة لأنها تضمنتا ما كان ويكون في يومها ، فإنها اشتملتا على خلق آدم ، وعلى ذكر المعاد ، وحشر العباد ، وذلك يكون يوم الجمعة ، وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون ، والسجدة جاءت تبعا ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها ، حيث اتفقت . فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٦﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٨﴾

معاني المفردات

لا ريب : لا شك ، افتراه : اختلقه ، أيام : جمع يوم والعرب تطلقه على جزء من اليوم . وقال النحاس اليوم في اللغة بمعنى الوقت ، العرش : الملك ، يدبر الأمر : أى أمر الدنيا ثم يعرج إليه : يرجع ويصعد ، نسله : ذريته وسميت الذرية نسلا لأنها تنسل منه أى : تنفصل مهين : أى ضعيف هو النطفة ، ثم سواه : أى سوى خلقه وأتمه .

روى البخارى في كتاب الجمعة : بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : كان النبي ﷺ

يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الم تنزيل﴾ السجدة و ﴿هل أتى على الإنسان﴾^(١).

التفسير

قوله تعالى : ﴿الم﴾ هذه بعض حروف الهجاء وفيها إشارة وتنبيه إلى إعجاز هذا الكتاب العربي المبين ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ .
﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أى : أن هذا الكتاب الكريم منزل من لدن حكيم عليم على وجه اليقين والقطع :

﴿قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾^(٢) .
﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾^(٣) .
﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾^(٤) .
﴿وبالحق أنزلناه وبحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا﴾^(٥) .

قوله تعالى : ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتتذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾^(٦) .

أم هنا : بمعنى (بل) (والهمزة) أى : بل يقولون افتراه ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليهم قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾^(٧) وقال تعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فيلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾^(٨) وقال جل شأنه : ﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق﴾^(٩).

وقد رد الله تعالى على فريتهم فقال : ﴿بل هو الحق من ربك﴾ فالله هو الحق وكتابه حق ، ولقاؤه حق ، ووعدته الحق ، والساعة حق والجنة ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق

(١) سورة السجدة الآيات : ١ - ٩

فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى فى (كتاب الجمعة) باب : ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة ج ٢ ص ٣٧٧ رقم ٨٩١

(٢) سورة الفرقان الآية : ٦

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٥١

(٤) سورة الفرقان الآية : ١

(٥) سورة الاسراء الآية : ١٠٥

(٦) سورة السجدة الآية : ٣

(٧) سورة الفرقان الآيات : ٤ - ٦

(٨) سورة هود الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٩) سورة الرعد الآية : ٣٧

﴿ يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾^(١)
 ﴿ لتندر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾^(٢) وتلك رسالة الأنبياء إنذار وخوف ورجاء ، ودعوة إلى الهداية لعلمهم يهتدون ، فالقرآن هو الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يبذل الله به غياهب الظلمات ، ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب والإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾^(٣) .

﴿ إن هذا القرآن يهدى للقى هى أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون : يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يهرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾^(٥) .

ومن آيات قدرته أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام : فقد خلق السموات فى يومين ، والأرض فى يومين ، وما بينهما فى يومين ، ولو شاء لخلق الجميع فى أقل من طرفة عين فأمره بالكاف والنون . ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾^(٦) سبحانه مالك الملك وملك الملوك . ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق بذاته فالاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى : كان ولا مكان وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿ ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ﴾ أى : ما لكم غير الله من ولى ، يلى أموركم ولا شفيع يشفع لكم ، فكل ما سوى الله باطل ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾^(٧) ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾^(٨) ﴿ ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾^(٩) أنسيتم فلا تتذكرون ، أغفلتم فلا تعلمون ، ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ أى يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا مسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة قال مجاهد وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة

(٦) سورة (ق) الآية : ٣٨
 (٧) سورة النور من الآية : ٤٠
 (٨) سورة الحج من الآية : ١٨
 (٩) سورة الكهف من الآية : ١٧

(١) سورة النور الآية : ٢٥
 (٢) سورة السجدة من الآية : ٣
 (٣) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣
 (٤) سورة الاسراء الآيتان : ٩ ، ١٠
 (٥) سورة السجدة الآيات : ٤ - ٦

عين ولهذا قال تعالى : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾ (١) أى : المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها ، وصغيرها ، وكبيرها ، هو العزيز الذى قد عز كل شيء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فهو عزيز في رحمته رحيم في عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

قوله تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ (٢) أى : وهو الذى أحسن كل شيء خلقه فالكل من خلق الله ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ والكل قد أحسن الله خلقه . ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ (٣) .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ (٤) فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والشمس وشعاعها ، والجبال ورسوخها ، والبحار ومعينها ، والأرض واتساعها ، والأفلاك ومدارها ، وإلى كل متحرك وساكن ، وظاهر وكامن ، الكل يشهد بجلال الله ، ويقر بكماله ، ويعلن بذكوره ، ولا يغفل عن شكره ، وبعد أن حدثنا سبحانه وتعالى : عن إحسان كل شيء خلقه حدثنا عن خلق الإنسان فقال سبحانه ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ﴾ (٥) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفةعلقة فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٦) .

وكما قال تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (٧) .

(١) سورة السجدة من الآية : ٥ ، ٦

(٢) سورة السجدة الآيات : ٧ - ٩

(٣) سورة الملك الآيات : ١ - ٥

(٤) سورة (ق) من الآية : ١ - ١١

(٥) سورة ص الآية : ٧١

(٦) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤

(٧) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ - ٢٣

قوله تعالى : ﴿ ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

حركات إرادية فى الجنين نفخ الروح

قال تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شئ خلقه .. وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار الأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾^(١)

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾^(٢) ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾^(٣)
وقال - ﷺ - فى الحديث الذى أخرجه الشيخان : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقه فى ذلك مثل ذلك ، ثم يكون مضغة فى ذلك مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح الحديث)^(٤) .

فإن قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة وإحساس أم لا ؟ قيل : كان فيه حركة النمو والاعتناء كالنبات . ولم تكن حركة نموه واعتدائه بالارادة ، فلما نفخت انضمت حركة حسيته وادته إلى حركة نموه واعتدائه .

الروح أمر مجهول لا نقول فيه إلا أنه من أمر ربي ، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلا ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - قد أخبرنا أنه كرم آدم بنفخ الروح فيه .

وكذلك كرم نبيه آدم حيث جعل نسله « من سلاله من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه .. »

والرسول الكريم ﷺ يوضح لنا متى ينفخ الروح فى الجنين فيقول : إن ذلك إنما يكون بعد مروره فى مراحل واطوار مختلفة .. النطفة أولا .. وقد شرحناها فيما سبق ، وقلنا ان المبيض إنما يفرز بويضة واحدة فى الشهر .. تمكث بعد ذلك يوما أو يومين على الأكثر ليتم تلقيحها بإذن الله بالحيوان المنوى (نطفة الرجل) ، وتتحد النطفتان لتكونا معا النطفة الأمشاج المختلطة من ماء الرجل (الحيوان المنوى) ، وماء المرأة (البويضة) ، وتنمو النطفة الأمشاج لتصبح مثل الكرة ، أو التوتة ، ثم تغلق فى الرحم بعد أسبوع من تكونها (أى النطفة الأمشاج) ، وتكون علقه بجدار الرحم ، ثم تكون مضغة

(١) سورة السجدة الآيات : ٧ - ٩

(٢) سورة الحجر الآية : ٢٩

(٣) سورة الاسراء الآية : ٨٥

(٤) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب القدر) باب : كيفية خلق الأدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه مع اختلاف فى بعض ألفاظه رقم ١٦٩٥ ص ٧١٥ .

يتخلق فيها الجنين ، وتتكون أعضاؤه وفي هذه الأثناء تتكون العظام ، ثم يكسوها اللحم (العضلات) وتتكون وتتكامل الأجهزة : القلب - الكبد - الاطراف - السمع - البصر - الدماغ - وتبدأ في الجنين حركات ارادية في نهاية الشهر الثالث ، يمص أصابعه - يمسك بالحبل السرى ويصبح كثير الحركة .. يتقلب في الرحم .. ينام ويصحو .. يسمع الأصوات .. تكتب على جبينه وترسم كتابة لا نظير لها مطلقا .. تتضح معالم شخصيته المتفردة عن جميع البشر الذين سبقوه أو عاصروه أو سيلحقونه ، بصمات أصابعه المتفردة تظهر في نهاية الشهر الثالث - الكتابة والرسم العجيب على جبينه يظهر في نهاية الشهر الثالث - المشيمة تستقل بوظيفتها في الشهر الثالث - الكبد والقلب والدماغ والاطراف والسمع والبصر يكتمل بناؤها الأساسى في الشهر الثالث .

وفي نهاية هذا الشهر أيضا ، تتميز الأعضاء التناسلية الباطنة والظاهرة ، ويمكن التفريق بين الذكر والأنثى ، كما ان فحص عينة من السائل الأمينوس (الرهل) تصبح ممكنة بعد الشهر الثالث ، وبفحص خلايا الجنين التى تسقط في السائل يمكن معرفة بعض الأمراض الوراثية ، كما يمكن معرفة نوعية الجنين ذكرا أم أنثى .

وفي هذه الفترة ايضا يتخذ وجهه الشكل الانسانى المميز .. أما قبل ذلك فشكله يشبه جنين السمك أو الطائر أو الأرنب .. لا فرق واضحا يمكن الاعتماد عليه لنقول هذا جنين دجاجة أو سمكة أو جنين إنسان عدا ان مراحل النمو تختلف من نوع إلى آخر ، ومن فصيلة إلى أخرى . وفي هذا الشهر تظهر السمات الانسانية ، ويكتمل نمو الوجه تقريبا ، وتكسى العظام بالعضلات ، وتكتمل تغذية العضلات وتبدأ العضلات الارادية بالتحرك ، بل إن عضلات الوجه تعبر عن حالة الجنين وما يعانیه .

في نهاية هذا الشهر الجنين يسمع .. الجنين يتحرك إراديا .. الجنين ترسم على وجهه علامات الرضا أو الضيق .. في نهاية هذا الشهر يعرف جنس الجنين .. وتظهر ملامح شخصيته المتفردة المتميزة عن بقية البشر .

أليست هذه كلها دلائل على نفخ الروح ؟ بلى ، ويؤكد الحديث الشريف (أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما .. ثم يكون علقه في ذلك مثل ذلك .. ثم يكون مضغة في ذلك مثل ذلك .. ثم ينفخ فيه الروح) .

وتدل عليه الآية الكريمة : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (من كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن د . محمد على البار)

قوله تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم

السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴿^(١)﴾ أعلمت مقدار هذه النعم ؛ نعمة السمع ونعمة البصر ونعمة الأفئدة .

تعالى معى لنستمع معا إلى صوت الحقائق العلمية تحدثنا عن بديع صنع الله الذى أتقن كل شيء ، وكيف تكونت هذه الحواس .

تكوين السمع

قال تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سمعيا بصيرا ﴾^(٢) وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة .. قليلا ما تشكرون ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾^(٣) .
﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾^(٤) .
﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾^(٥) .

جهاز السمع

فى كل الآيات القرآنية الكريمة يقدم الله - سبحانه وتعالى - السمع على البصر ، ولا تكاد تجد آية قدم فيها البصر على السمع .. ذلك لأن السمع أعظم وأهم من البصر ذاته على عظيم أهمية نعمة البصر ..

ويتعلم المولود بواسطة السمع بأضعاف أضعاف ما يتعلمه بواسطة البصر ، والأصم منذ الولادة لا يستطيع أن يتعلم اللغة ابدا ، فهو أبكم أيضا ؛ بينما المولود بدون نعمة البصر يستطيع أن يتعلم اللغة ، بل اللغات بكل يسر ، وتستطيع ان تعد مئات بل آلاف العباقرة من فاقدى نعمة البصر ، ولكنه من العسير ان تعد الأحاد من العباقرة الذين فقدوا نعمة السمع ، وخاصة اذا كان فقد السمع منذ الولادة او فى الطفولة الباكرة ؛ ولهذا جاء فى الآية الكريمة : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .
فقدم سبحانه ذكر السمع على البصر فى معرض سياق الطرق الاساسية التى بها يكتسب الانسان المعرفة .

ويتكون جهاز السمع العجيب الذى منحنا الله - تبارك وتعالى - إياه دون ان نقدره حق قدره ، ولا نشكره حق شكره ، يتكون هذا الجهاز من الأذنين ولكل أذن ثلاثة أجزاء .

(٤) سورة النحل الآية : ٧٨

(٥) سورة الاسراء الآية : ٣٦

(١) سورة النحل الآية : ٧٨

(٢) سورة الانسان الآية : ٢

(٣) سورة السجدة من الآية : ٩

(١) الأذن الخارجية : وتشكل صوان الأذن والقناة السمعية الخارجية ، وتنتهى عند طبلة الأذن ، ووظيفتها جمع الأصوات .

(٢) الأذن الوسطى : وهى قناة عظمية غضروفية بها غشاء الطبلة وعظام الأذن الثلاث : المطرقة - الركاب - السندان ووظيفتها نقل الاصوات إلى الأذن الداخلية .

الأذن الداخلية : وهى مكونة من جهازين مختلفين تمام الاختلاف : أولهما : جهاز السمع المستقبل للاصوات والذي ينقلها بواسطة العصب السمعى إلى المخ (الدماغ) .

والثانى : جهاز للتوازن ، وهو جهاز معقد أيضا ، ويواسطة قنوات هلالية متصلة ببعضها وبداخلها شعيرات تستطيع ان تميز أى حركة أو اهتزاز أو تغيير فى وضع الجسم ، وترسل بذلك اشارات إلى الدماغ ، حيث يستقبل هذه المعلومات ويسجلها ويستفيد منها ثم يرسل أوامره إلى الجسم والعضلات لتوائم هذا التغيير ، ولعل القارئ الكريم قد لاحظ أن الله - سبحانه وتعالى - وحد لفظ السمع بينما جمع لفظ الأبصار ، وذلك لأن هناك مركزين للابصار فى مؤخرة الدماغ ، بينما نجد ان مركزى السمع فى الدماغ (فى العضدين الصدغيين) مرتبطان ارتباطا وثيقا بحيث يمكن اعتبارهما مركزا واحدا .

تكوين الأذن الداخلية

تتكون الأذن الداخلية من الطبقة الجرثومية (جرثومة الشيء : أصله ومنبعه) الخارجية (الكتودرم) ويبدأ تكوينها مبكرا جدا إذ تبدأ فى اليوم الثانى والعشرين (أى : بداية مرحلة المضغة) كشخانة من سطح الطبقة الخارجية (الاكتودرم) على جانبى موقع المخ المؤخرى ، وتحول هذه الشخانة فى الأسبوع الرابع إلى حفرة ، ثم إلى حويصلة ، وتعرف عندئذ بحويصلة السمع .

وفى الأسبوع الخامس تنقسم هذه الحويصلة السمعية إلى قسمين : -

(١) قسم أمامى : ويتحول إلى كيس صغير وقناة القوقعة .

(٢) قسم خلفى : سرعان ما يصبح - العيبية (وهى تصغير عيبة أى : قرية) والقنوات نصف الدائرية (الهلالية) .

وتعرف هاتان المجموعتان المذكورتان أنفا بالنيه الغشائى ، ثم يحاط هذه التيه الغشائى بالعظام ، ويعرف عندئذ بالتية العظمى ، ويفصل بين التيه العظمى والغشائى باحتان ضيقتان بهما سائل لمغاوى .

وفى أثناء تكوين الحويصلة السمعية تنفصل منها (أى : من الحويصلة السمعية) مجموعة من الخلايا مكونة عقدة السمع ، وعقدة التوازن ، وتغذى عقدة السمع جهاز كورق للسمع الذى يتكون من القوقعة . كما تغذى عقدة التوازن جهاز التوازن الموجود فى القنوات نصف الدائرية ، والكيس والعيبية وفى الأسبوع السادس تستطيل قناة القوقعة ، ثم تنطوى على محورها إلى أن تكمل دورتين ونصف فى الأسبوع الثامن ، ويتكون شريط داخل قناة القوقعة يفصلها إلى جزئين : الجزء الدهليزى ، والجزء السمعى ، وذلك فى الأسبوع العاشر .

وعلى هذا الشريط والذي يدعى الغشاء القاعدى تتكون الشعيرات السمعية المتصلة بعقدة السمع .

وهذه الشعيرات السمعية وما يتصل بها من عصب ليست إلا امتدادا من الدماغ (المخ) المؤخرى تماما ، كما سنرى ان حويصلة الأبصار ليست إلا امتدادا من المخ المسمى . ويعرف جهاز السمع الداخلى هذا والمكون من الشعيرات السمعية وما يحيط بها من أغشية يعرف باسم عضو كورق على اسم مكتشفها .

ويتكون جهاز التوازن من القنوات الهلالية (نصف دائرية) والكيس (تصغير كيس) والعيبة أو الشكوه وتظهر القنوات الهلالية فى الأسبوع السادس ويظهر فيها جهاز التوازن فى الأسبوع السابع ، كما تظهر العيبة ، أو الشكوه والكيس بوضوح فى الأسبوع السادس ويظهر فيها جهاز التوازن فى الأسبوع السابع ، ويتصل كل من جهاز السمع وجهاز التوازن بالعصب السمعى الدهليزى ، وهو العصب الراسى الثامن ، والذي يصب فى المخ المؤخرى .

الأذن الوسطى : تتكون الأذن الوسطى من غشاء الطبلة وعظام الأذن الثلاث : المطرقة والركاب والسندان ، ووظيفتها نقل الأصوات إلى الأذن الداخلية ، ويتكون غشاء الطبلة الداخلية (الأنتودرم) كامتداد لجيب القوس البلعومى الأول . الذى يظهر فى الأسبوع الرابع ، ويلى هذا الغشاء طبقة رقيقة آتية من الميزودرم (الطبقة المتوسطة) المحيطة بالأقواس البلعومية ، ثم يليه غشاء مكون من امتداد الجلد أى من الطبقة الجرثومية الخارجية (الاكتودرم) وتتكون عظام الاذن الوسطى كما يلى :
(١) المطرقة والسندان : - وتتكونان من امتداد غضروف القوس البلعومى الأول أى قوس الفك السفلى .

(٢) الركاب : - ويتكون من غضروف القوس البلعومى الثانى أى القوس اللامى ، ويحيط بهذه العظام خلايا من الطبقة الداخلية (الأنتودرم) التى تبطن الجيب البلعومى الأول وقرب نهاية الحمل فى الشهور بعد الولادة يتسع التجويف الطبلى نتيجة امتصاص النسيج الضام المحيط بالعظام فتصبح العظام حينئذ قادرة على الحركة لدى أى اهتزاز .

ومع هذا فمن الثابت الآن أن الجنين يستطيع السمع فى الشهر الرابع .
الأذن الخارجية : تتكون الأذن الخارجية من صوان الأذن والقناة السمعية الخارجية ، ووظيفته تجميع الأصوات التى تنتقل عبر القناة السمعية الخارجية إلى طبلة الأذن ، فإذا ما اهتزت طبلة الأذن نتيجة الموجات الصوتية ، انتقلت هذه الذبذبات عبر عظام الأذن التى تنقلها إلى الغرفة السمعية فى الأذن الداخلية (فى قوقعة الأذن) ، حيث تؤثر على الشعيرات السمعية ، فتنتقلها عبر عصب السمع إلى الدماغ الذى وهب الله القدرة على تمييز هذه الأصوات ، ومعرفة مصدرها وصاحبها ، كما وهب الله القدرة على فهمها ، واستيعابها وتسجيلها ورصدها ، فمن من خلق وقدر .

صوان الأذن : - يتكون صوان الأذن من جملة نتوءات من الجيب البلعومى الأول والثانى ، وتبدأ هذه النتوءات بجانب فتحة الأذن الخارجية (الصماغ) فى الأسبوع السادس ، وتتحد هذه النتوءات وتستدير لتكون شكل صوان الأذن ، أو ما يعرف لدى العامة بالأذن .

وجميع هذه التتوءات مصدرها الطبقة الجرثومية المتوسطة (الميزدوم) الموجودة في القوسين البلعوميين الأول والثاني وتغطي بعد ذلك بالجلد وهو من الطبقة الجرثومية الخارجية الاكتودرم .
قناة السمع الخارجية : تصل قناة السمع الخارجية ما بين صوان الأذن وطبلة الأذن ، وتتكون من بطانة الشق البلعومي الأول الذي يمتد على هيئة قمع حتى يصل إلى غشاء الطبلة .
وفي البداية تكون هذه القناة مقفلة ومصمتة نتيجة امتلائها بخلايا مكونة ما يعرف باسم سدادة الصماخ ، ثم تمتص هذه السدادة وتزاح في الشهر السابع .

﴿ سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره ﴾^(١) .
وسياتى عندما نتحدث عن العين كيف تقفل الجفون ويلتصق الجفنان ، ثم في الشهر السابع تشق وتفتح ، وكل ذلك يؤكد معنى شق سمعه وبصره .. الذي وضعه حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وهو يناجى ربه في سجوده .. كما قد مر معنا كيف يصور الوجه في الصور المتلاحقة العجيبة حتى يخلقه الله في أحسن صورة . ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾^(٢) .

أفلا يكون بعد هذا كله حري بنا أن نسجد ونطيل السجود ، ونسبح فنطيل التسبيح ، ونشكر فنزيد في الشكر للذي خلق وصور وشق السمع والبصر ، إن ذلك هو أقل ما توجهه علينا هذه النعم المتتالية للخالق البارى المصور تباركت أسماؤه وعزت صفاته .

تكوين البصر

﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾^(٣) تبارك .
﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾^(٤) السجدة .
﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾^(٥) لا شك ان حاسة البصر من النعم التي لا تقدر بثمن .. بل لو وزنت أعمال العبد الصالح جميعا لما كانت كفاء لنعمة البصر التي أنعم الله بها على الانسان ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نعمة البصر مقترنة بنعمة السمع والفؤاد ، والسمع والبصر هما أهم الوسائل التي بها يتعرف الانسان على ما حوله وتشارك بعد ذلك بقية الحواس الخمس من اللمس والذوق والشم في إمدادنا بالمعلومات عن البيئة التي حولنا ، ولكنها جميعا لا ترقى إلى ما تدرك بواسطة السمع والبصر ، ولذا جاء

(١) في دعاء للدكتور محمد السيد طنطاوى من أدعية السجود (جزء من حديث رواه مسلم واصحاب السنن (ج ١ ص ١٤٤ رقم ١

(٢) سورة آل عمران من الآية : ٦

(٣) سورة الملك الآية : ٢٣

(٤) سورة السجدة من الآية : ٩

(٥) سورة النحل الآية : ٧٨

قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (١) .

يخرج الطفل إلى الدنيا وليس لديه من المعرفة شيء ، ولكنه يكتسب هذه المعرفة بالحواس الخمس وأهمها : السمع والبصر . فالمولود يسمع أى ضجة وينزعج لها ، ويستطيع أن يميز بسرعة صوت أمه ، بل إن الجنين فى بطن أمه يستطيع سماع الأصوات ، وذلك منذ الشهر الرابع بينما هو فى ظلام تام فى رحم الأم ، ولا يستطيع بأى حال أن يرى شيئا .

أما نعمة الفؤاد وما يعبر عنه بالقلب فهى : أتم النعم وأكملها إذ ليس المقصود بالفؤاد تلك العضلة الصنوبرية الشكل والمودعة فى الجانب الأيسر من الصدر ، فهو كما يقول الامام الغزالى فى الاحياء : موجود للبهائم فهو (قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر ، فضلا عن الأدميين ، ولكن المقصود بالفؤاد هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان ، وهو المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب . (أحياء علوم الدين كتاب عجائب القلب) ونعمة البصر : مرتبطة بالعين ، والعين تشبه الكاميرا حيث أنها تلتقط الصور التى تنعكس على العدسة فى الشبكية التى تشبه الفيلم ، ثم تنتقل عبر ملايين الأعصاب المتجمعة فى العصب البصرى الى مؤخرة المخ ، حيث يقوم المخ بتحريض الصور وطبعها ، والتعرف عليها ، وكل ذلك يتم فى جزء بسيط من الثانية ، إذ أن سرعة الارسال تبلغ ألف متر فى الثانية ، وكذلك تتم عمليات الطبع والتحريض ، والادراك بمثل هذه السرعة الرهيبة .

كما تقدم ترى : أن الجزء المبصر من العين هو فى الواقع امتداد للمخ ، وكذلك تنمو حويصلة الأبصار كامتداد من المخ المسمى ، ويبدأ أول ظهورها فى الأسبوع الثالث بعد التلقيح ، وفى الأسبوع الرابع تبدأ خلايا حويصلة الابصار تنفصل من المخ المسمى . وفى الأسبوع الخامس تتخذ شكل كوب مكون من طبقتين . والطبقة الخارجية تنشأ بها حبيبات ملونة تغطى شبكية العين فيما بعد : أما الطبقة الداخلية . فتكون الجزء الحساس المبصر والمتصل بعصب العين .

وتباين الطبقة الداخلية إلى جزئين :

(١) جزء خلفى : ويمثل أربعة أخماس الكوب ، وقوامه نسيج عصبى وهو الذى يكون شبكية العين بطبقاتها المختلفة ، وهو الجزء الحساس للضوء ويشبه فى ذلك الفيلم فى الكاميرا ، حيث تسجل عليه الصور وترسل عندئذ عبر العصب البصرى إلى المخ لتحريضها ، وإدراك ابعادها ومراميتها .

(٢) جزء أمامى : - ويمثل الخمس الأمامى من كوب الأبصار ، ويساهم فى تكوين القرنية والجسم الهدبى . والقرنية هى التى تعطى العين لونها الأسود أو العسلى أو الأزرق حسب ما فيها من صبغة ، كما أنها التى تتحكم فى لؤلؤ (فتحة) العين ، ويتحكم الجسم الهدبى بواسطة عضلاته فى تحذب

عدسة العين ، بحيث تتمكن العدسة من زيادة تحدبها أو انقاصه لنرى الأشياء القريبة (زيادة التحذب) أو البعيدة (اقلال التحذب) .

وعضلة الجسم الهدبي : هي العضلة الوحيدة في الجسم التي تتكون من الطبقة الجرثومية الخارجية (الاكتودرم) ، أما بقية عضلات الجسم الارادية ، وغير الارادية ، فتتكون جميعها من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) .

وفي الشهر الثالث : تنمو شبكية العين إلى أربع طبقات ، وفي تمام الشهر السابع يكتمل نمو الشبكية إلى طبقاتها التسع المعروفة في المولود ، كما يتكون الصلب البصرى ويتصالب في مساره المعروف بالتصالب البصرى ، حتى يصل إلى المخ المؤخرى .
العدسة البصرية :

يبدأ ظهور العدسة كثخانة في الطبقة الخارجية (الاكتودرم) والتي يتكون منها الجلد ايضا في المنطقة التي يظهر فيها الكوب البصرى ، وذلك في أواخر الاسبوع الرابع وأوائل الخامس ، وتترشح نواة العدسة من الطبقة الخارجية والتي تكون الجلد أيضا إلى داخل الكوب البصرى ، ثم تنفصل تماما عن الطبقة الخارجية (الاكتودرم) .

وتفقد خلايا العدسة أنويتها حتى تصبح شفافة مثل البلور وتدعى عندئذ العدسة البلورية البصرية تصور أن العدسة الشفافة ليست إلا نوعا من الجلد شاءت يد القدر المبدعة ان يكون مبصرا .
ويغطى العدسة محفظة من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) وتسمى عندئذ المحفظة العدسية الدعائية ؛ لأنها تتخللها الأوعية الدموية التي تضرر في الشهر السابع ، وتشق هذه المحفظة في وسطها مكونة فتحة وفرجة تعرف باسم حدقة العين أو « الثؤثؤ » وقد مر معنا في فصل السمع كيف يشق السمع عندما تزاح سداة الصماخ ، وتشق قناة السمع الخارجية في الشهر السابع ، وكذلك تشق محفظة العدسة لتكون الثؤثؤ أو حدقة العين ، ثم تشق الجفون وتفتح في الشهر السابع .
الصلبة والقرنية والغشاء المشهى

إن العين كالكرة ولكنها مكونة من ثلاث طبقات : الداخلية : وهي كوب الابصار الذى وصفناه ، وقلنا : إنه امتداد للمخ ، ويكون أساسا للشبكية بطبقاتها المختلفة كما يساهم الجزء الامامى في هذا الكوب في تكوين القرنية والجسم الهدبي وتحيط بهذه الكرة أو كوب الابصار كرة ثانية تسمى بالغشاء المشيمى للعين وهي كرة تكثر فيها الأوعية الدموية ، وتساهم مع الجزء الامامى من كوب الابصار في تكوين الجسم الهدبي والقرنية ، ومصدر خلايا هذه الكرة هي الطبقة المتوسطة (الميزودرم) وتلى هذه الكرة كرة أخرى من الخارج ، وهي ايضا من الطبقة المتوسطة ، وتحيط بالغشاء المشيمى مكونة من جزأين :

(١) الجزء الخلفى ويشكل $\frac{1}{6}$ من الكرة وهو من نسيج ليفى ثخين وقوى ابيض اللون ويسمى لذلك الصلبة ويمنع دخول الضوء .

(٢) الجزء الامامى ويشكل $\frac{1}{6}$ من الكرة وهو رقيق وشفاف ويسمح للضوء بالدخول ويسمى القرنية .

وتظهر الصلبة والقرنية فى الاسبوع السابع ، وكذلك تظهر مشيمة العين فى هذه الفترة وتتكون الرطوبة الزجاجية خلف العدسة ، وأمام الشبكية وذلك فى الشهر الثالث نتيجة امتصاص خلايا المزودرم .

الجفون :

يبدأ تكون الجفنين العلوى والسفلى فى الاسبوع السابع من الطبقة الخارجية (الاكتودرم) الموجودة فى منطقة الجبهة ، ويتكون رطب ذو طبقتين يتوسطهما نسيج من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) .

وتكون الطبقة الخارجية (الاكتودرم) (١) جلد الجفن (٢) رموش العين (٣) الملتحمة ويكتمل نمو الجفون فى الشهر الثالث ، ويلتصق الجفنان منذ ذلك الوقت إذ لا حاجة للجنين بالرؤية فى ذلك الظلام الدامس ، ولحماية العين مما يحيط بها من السائل الامنوسى (الرهل) ، وفى الشهر السابع تنفتق الجفون مرة اخرى استعدادا لخروج الجنين إلى الدنيا ومرة اخرى نقول : مع المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه فى سجوده (سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره)^(١) .

الغدة الدمعية

تتكون الغدة الدمعية من الجزء الوحشى من الحفرة الحجاجية ، ويبدأ ظهورها مبكرا جدا فى الاسبوع التاسع كامتداد من الملتحمة وتكون على هيئة ستة اعواد مليئة ، ولكنها سرعان ما تشق لتكون قنوات تفتح على الملتحمة ، وللدموع وظائف غير البكاء ، وتبريد لوعة الحزن ، وأهمها ترطيب العين وتعقيمها وتنظيفها مما يعلق بها من أتربة وغبار وميكروبات ، ففى هذه الدموع مواد مطهرة تقتل الميكروبات ، ومواد منظفة تزيل الأتربة .

وافراز الدموع مستمر لكننا لا نراه ، لأنه يندفع بيسر فى الملتحمة ليصب فى القناة الدمعية فى الأنف ، فيتبخر منها . . إلا إذا زاد الافراز ، فعندئذ تمتلأ المآقى بالدموع وتنسكب من العيون وتسيل من الأنف .

وكما أن للدموع وظيفة غسل العين وتنظيفها وتطهيرها ؛ فإن لها كذلك وظيفة غسل الأدران من القلب اذا كانت العين تبكى من خشية .

(لا تمس النار عينا بكت من خشية الله ولا عينا باتت تحرس فى سبيل الله) ولنترك إذن من حين لآخر لمآقينا أن تمتلئ بالدموع ولتسكب العبرات تتبعها الزفرات ، فإن فى ذلك تطهيرا للقلوب من أدرانها ، وللنفوس من كثافتها وطغيانها ، وليس هناك ما يجلى الصدا عن القلب مثلما تجلوه عين بكت من خشية الله .

من الذى خلق هذا ؟ ومن الذى قدر فهدى ؟ ومن الذى اتقن كل شئ ؟ الطبيعة الصماء أم الصدفة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

(١) انظر الدعاء للدكتور محمد سيد طنطاوى باب من ادعية السجود ج ١ وقال ص ١٠٠ رقم ١ رواه مسلم وأصحاب السنن .

انظر إلى المرء وقل	من شق فيه بصره
من ذا الذى جهره	بقـدرة مفتكرة
ذاك هو الذى	انعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقـدرة مقتدرة

إنكارهم للبعث

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١١﴾ * قُلْ
يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ
نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٣﴾
وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

المفردات :

ضللنا : العرب تقول ضل الماء في اللبن إذا ذهب ، وتقول للشئ غلب عليه غيره حتى خفى فيه
أثره ضل وتقول : لما غاب في الأرض ضل : والمراد هلكنا وصرنا ترابا . « يتوفاكم » : توفي العدد
والشئ إذا استوفاه وقبضه جميعا وقالوا : توفاه الله أى قبض روحه ، والتوفى والاستيفاء بمعنى واحد
والمراد : يقبض ارواحهم حتى لا يبقى احد منهم .
(ناكسوا رءوسهم) : مطأطئوها وخافضوها
(الجنة) الجن

التفسير

يقول تعالى : مخبرا عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾
أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض ، وذهبت ﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : أننا لنعود بعد
تلك الحال ؟ يستعدهن ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذى

بدأهم وخلقهم من العدم الذى إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ولهذا قال لنا : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره فى سورة ابراهيم وقد سُمى فى بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد : وله أعوان وهكذا ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت^(١) قال مجاهد : (طويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء)^(٢) ورواه ابن محمد عن النبى - ﷺ - مرسلًا . وقاله ابنه - رضى الله عنهما - وروى ابن أبى حاتم بسنده عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبى يقول : نظر رسول الله - ﷺ - إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبى - ﷺ - (ياملك الموت أرفق بصاحبى ، فإنه مؤمن) فقال ملك الموت : يا محمد طب نفساً وقر عيناً ، فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم ان ما فى الأرض بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر إلا وأنا اتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى إنى أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم^(٣) والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها . قال جعفر : بلغنى أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك : لا إله إلا الله محمد رسول الله فى تلك الحال العظيمة عن ابراهيم بن ميسرة قال : سمعت مجاهد يقول ، ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يطوف به كل يوم مرتين . . وقال كعب الاحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ينظر هل فيه أحد امر ان يتوفاه^(٤) رواه أبى حاتم .

قوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم . قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون . ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس وأجمعين . فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾^(٥) .

يخبر تعالى : عن حال المشركين يوم القيامة ، وحالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدى الله - عز وجل - حقيرين ذليلين ناكسى رؤوسهم أى : من الحياء والخجل يقولون : ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾

(١) انظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٢

(٢) انظر تفسير ابن كثير فى نفس المصدر والصفحة ص ٣٦٣

(٣) انظر تفسير ابن كثير نفس السورة السابقة ج ٦ ص ٣٦٣ وقال المحقق أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن أبى حاتم وأبى الشيخ : ١٧٤/٥

ولكننا وجدناه فى الدر المنثور للسيوطى عن أبى حاتم وأبى الشيخ عن أبى جعفر محمد بن على فى تفسير سورة السجدة الجزء الحادى والعشرين ج ٦ ص ٥٦٣ مع اختلاف فى بعض الفاظه وزيادة ونقص .

(٤) انظر تفسير ابن كثير سورة السجدة من الآية : ٧ - ١١ وقال : أخرجه ابن أبى حاتم .

(٥) سورة السجدة الآيات : ١٢ - ١٤

أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ وهكذا : هؤلاء يقولون • ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا ﴾ أى : إلى دار الدنيا ﴿ نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ أى : قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى : منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارا ، ويكذبون بآيات الله ، ويخالفون رسله كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ الآية .

وقال ههنا ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ﴾ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ أى : من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ، ولا محيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك . ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أى : يقال : لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أى : سنعاملكم معاملة الناس لأنه تعالى : لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة كما قال تعالى : ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ وقال تعالى ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم كما قال تعالى : فى الآية الأخرى ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . الا حميا وغساقا إلى قوله ... فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ (١).

المؤمنون وجزاؤهم

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِعَآيَتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّ هُم مِّنَ الْعَذَابِ الَّا ذُنُوبَهُم دُونَ الْعَذَابِ الْا كَبِيرٍ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

(١) سورة النبا الآيات : ٢٤ - ٣٠

(٢) الآيات من ١٥ - ٢٢ من سورة السجدة .

﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

المفردات (تتجافى) : التجافى : الابتعاد والارتفاع - « المضاجع » جمع مضجع وهو الموضوع الذى يضجع فيه بفرش للنوم .
« قرة أعين » : القرة اسم لما يحصل به القرير أى : الفرح والسرور .
« فاسقا » : أى كافرا .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى إنما يصدق بها ﴿ الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا ﴾ أى : استمعوا لها وأطاعوا قولاً وفعلاً ، (وسبحوا بحمده ربهم وهم لا يتكبرون) عن إتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهله من الكفرة الفجرة ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعنى : بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة . قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعنى : بذلك قيام الليل . وعن أنس وعكرمة ومحمد بن المنكدر وأبى حازم وقتادة هو الصلاة بين العشاءين وعن أنس ايضاً : هو انتظار العتمة (١) ،

رواه ابن جرير بإسناد جيد . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة وصلاة الغداة فى جماعة ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعا ﴾ أى : خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً فى جزيل ثوابه ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله - ﷺ - كما قال عبدالله ابن رواحه - رضى الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا أنشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع
يبيب يجافى جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال الإمام أحمد بسنده عن الهمداني عن ابن مسعود مسعود عن النبى - ﷺ - قال (عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولخافه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ، ورجل غزا فى سبيل الله تعالى : فانهزموا ، فعلم ماعليه من الفرار وما له فى الرجوع . فرجع حتى أهرىق دمه رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى فيقول : الله - عز وجل - للملائكة انظروا إلى عبدى رجع دمه رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهرىق دمه) (٢) وهكذا رواه أبو داود فى الجهاد عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به بنحوه (٣) .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرازاق ، أخبرنا معمر ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن أبى وائل

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٦٤

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده - مسند عبد الله بن مسعود ج ١ ص ٤١٦

(٣) وأخرجه أبو داود فى سننه (فى كتاب الجهاد) باب : فى الرجل الذى يثرى نفسه حديث رقم ٥٢٣٦ ، ج ٣ ص ٩ - ٢٠

عن معاذ بن جبل ، قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير فقلت : يا نبي الله ! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ، ويباعدني من النار : (لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل - ثم قرأ - ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ، ثم قال : أخبرك برأس الأمر وعموده ، وذروة سنامه ؟ - فقلت : بلى يا رسول الله : فقال : (رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ، ثم قال : (ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟) فقلت : بلى يا نبي الله : فأخذ بلسانه ثم قال : كف عليك هذا) فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم)^(١) ، رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، قال : سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل ، أن رسول الله - ﷺ - قال له : (ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تطفى الخطيئة ، وقيام العبد في جوف الليل ، وتلا هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾)^(٢) رواه أيضا من حديث الثوري .

وعن معاذ أيضا عن النبي - ﷺ - في قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : (قيام العبد من الليل) وروى ابن أبي حاتم بسنده عن معاذ بن جبل قال كنت مع النبي - ﷺ - في غزوة تبوك فقال : (إن شئت نبأتك بأبواب الخير ، الصوم جنة ، والصدقة تطفى الخطيئة ، وقيام الرجل في جوف الليل) ثم تلا رسول الله - ﷺ - ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾^(٣) الآية ، ثم قال : حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا علي بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن اسحق ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد ، قالت : قال رسول الله - ﷺ - (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق ، سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع - الآية ، فيقومون وهم قليل)^(٤) ، وقال لبزار بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال بلال : لما نزلت هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ كنا نجلس وناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ ثم قال : لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه وليس له طريق عن بلال غير هذا الطريق^(٥) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده مسند معاذ بن جبل ج ٥ ص ٢٣١

(٢) انظر أيضا في تحفه الاحوذى ابواب الايمان ، باب : ما جاء في حرمة الصلاة ، الحديث ٢٧٤٩ : ٣٦٢/٧ - ٣٦٥ وسنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب : كف اللسان في الفتنة الحديث ٣٩٧٣ ج ٢ / ١٣١٤ - ١٣١٥ .

(٣) وانظره في تفسير ابن كثير - تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٦

(٤) نظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٦

(٥) الحديث في مجمع الزوائد في كتاب التفسير - سورة السجدة ج ٧ ص ٩٠ وقال الهيثمي : رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف .

وقال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .
 فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها
 أحد ، لما أخفوا أعمالهم ، كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ، فان الجزاء من جنس
 العمل ، قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم يخطر على قلب
 بشر . رواه ابن ابى حاتم . قال البخارى : قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة
 أعين ﴾ حدثنا على بن عبد الله بسنده ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال :
 (قال الله تعالى : ﴿ أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
 بشر ﴾ ^(١))

قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ قال :
 وحدثنا عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، قال : قال الله مثله . قيل لسفيان رواية قال : فأى شيء ؟ ورواه
 مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عيينه به . قال الترمذى حسن صحيح ^(٢) ثم قال البخارى :
 بسنده عن أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - يقول الله تعالى : ﴿ أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين
 رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذخرا لمن بله ما أطلعتم عليه ﴾ ^(٣) ثم قرأ : ﴿ فلا
 تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ قال أبو معاوية : عن الأعمش ، عن
 أبى صالح قرأ أبو هريرة (قرأت أعين) انفرد به البخارى من هذا الوجه ^(٤) وقال الإمام أحمد : بسنده
 عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن الرسول - ﷺ - ، (إن الله تعالى قال أعددت
 لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) ^(٥) ،
 وقال حماد بن سلمة : بسنده عن حماد أحسبه عن النبى - ﷺ - قال : (من يدخل الجنة ينعم لا
 يئأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب
 بشر) ^(٦) رواه مسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه - يقول : شهدت من
 رسول الله - ﷺ - مجلسا ، وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : فى آخر حديثه (فيها ما لا عين
 رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) ثم قرأ هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع إلى
 قوله يعملون ﴾ ^(٧) أخرجه مسلم .

وقال ابن جرير : حدثنى العباسى بسنده عن عقبة بن عبد الغافر عن أبى سعيد الخدرى . عن رسول
 الله - ﷺ - يروى عن ربه - عز وجل - قال : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ١٤٥

(٢) أخرجه مسلم ، فى كتاب الجنة : ٨ / ١٤٣ وتحفة الأحوذى تفسير سورة السجدة الحديث ٣٢٤٩ : ٩ / ٥٦

(٣) فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٦٥ قال الخطابى كأنه يقول : دع ما استطعتم عليه فإنه سهل فى جلب
 ما ادخر لهم ويعقب ابن حجر بقوله : « وهذا لائق بشرح (بله) بغير تقدم (من) عليها ، وأما إذا تقدمت (من) عليها ،
 فقد قيل : هى بمعنى « كيف » .. الخ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة السجدة : ٦ - ١٤٥

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده - مسند أبى هريرة - ج ٢ ص ٣١٣ من حديث طويل .

(٦) أخرجه مسلم فى (كتاب الجنة) باب : فى دوام نعيم أهل الجنة ج ٨ / ١٤٨

(٧) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده - من حديث أبى مالك سهل بن سعد الساعدى ج ٥ ص ٣٣٤ وأخرجه مسلم فى صحيحة فى

ولا خطر على قلب بشر ﴿١﴾

وقال مسلم أيضا : في صحيحه بسنده عن المغيرة بن شعبة ، قال : سمعته على المنبر يرفعه إلى النبي - ﷺ قال : (سأل موسى عليه السلام ربه - عز وجل - ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعدم أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة : فيقول أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت ربى ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله معه ، ولك ما أشتيت نفسك ولدت عينك فيقول : رضيت رب قال : رب فأعلاها منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ، قال : ومصادقه من كتاب الله - عز وجل - ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ (٢) ،

ورواه الترمذى عن ابن عمر وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبي ، عن المغيرة ، ولم يرفعه والمرفوع أصح قال ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن المدائني ، حدثنا أبو بدر بن شجاع بن الوليد ، حدثنا زيادة بن خثيمة ، عن محمد بن حجازة ، عن عامر بن عبد الواحد ، قال : بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت ، فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد آن لك أن يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : قد آن لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا التي قال الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وقال ابن لهيعة : بسنده عن سعيد بن جبير قال : تدخل عليهم الملائكة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم ، وذلك قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ ويخبرون أن الله عنهم راض ، وروى ابن جرير بسنده عن أبي اليمان الهوزنى أو غيره قال : الجنة مائة درجة ، أولها : درجة فضة ، وأرضها فضة ، ومساكنها فضة ، وآنيتها فضة ، وترابها المسك ، والثانية : ذهب ، وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ، وآنيتها ذهب ، وترابها المسك ، والثالثة : لؤلؤ ، وأرضها لؤلؤ ، ومساكنها اللؤلؤ ، وآنيتها اللؤلؤ ، وترابها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم ﴾ (٣) الآية وقال ابن جرير : بسنده عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - عن الروح الأمين ، قال : (يؤتى بحسنات العيد وسناته ، ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة [واحدة] وسع الله له في الجنة ، قال : فدخلت على يزيد فحدث بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهبت الحسنة ؟ قال : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ الآية قلت : قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من

(كتاب الجنة) ١٤٣ / ٨٩ .

(١) انظر تفسير الطبرى : ج ٢١ ص ٦٧

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الايمان باب . أدنى أهل الجنة منزلة ج ١ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

انظر تفسير بن كثير ج ٦ ص ٣٦٩ تفسير سورة السجدة

(٣) انظر تفسير الطبرى : ٢١ / ٦٦

قرة أعين ﴿ قال : العبد يعمل سرا أسره إلى الله لم يعلم به الناس ، فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين ^(١) ،

وفى قيام الليل وفضلة : يحدثنا الرسول - ﷺ - فيقول : فى فضل قراءة القرآن فى قيام الليل : - (س قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القائمين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين ^(٢)) ، رواه ابو داود وابن خزيمة فى صحيحه .

- وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : القنطار اثنا عشر ألف أوقية ، الأوقية ، خير مما بين السماء والأرض) رواه ابن حبان وروى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائة آية كتب له قنوت ليل ، ومن قرأ مائتى آية كتب من القائتين ، ومن قرأ اربعماية آية كتب من العابدين ، ومن قرأ خمسمائة آية كتب من الحافظين ، ومن قرأ ستمائة آية كتب من الخاشعين ، ومن قرأ ثمانمائة آية كتب من المختبين ، ومن قرأ ألف آية أصبح له قنطار . والقنطار ألف ومائتا أوقية ، الأوقية خير مما بين السماء والأرض - أو قال) خير مما طلعت عليه الشمس ومن قرأ الفى آية كان من الموجبين ﴿ ^(٣) رواه الطبرانى

المعنى : الاخبات : زيادة التواضع والذلة لله . يقال : أخبت لله تعالى : أى زاد تواضعا . أربع خصال حازها المختبون .

أولا : خوف الله . ثانيا : الصبر عند المصائب . ثالثا إقامة الصلاة . رابعا : الانفاق فى الخيرات ﴿ يشترهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ . الموجب هنا : الذى أتى بفعل يوجب له الجنة .

قوله تعالى ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون . ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون . ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين متقنون ﴾ ^(٤)

التفسير

يخبر تعالى : عند عدله وكرمه ، أنه لايساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمنا بآياته متبعا لرسله ، بمن كان فاسقا . أى : خارجا عن طاعة ربه مكذبا رسل الله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ أم

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢١ / ٦٧

(٢) أخرجه ابو داود فى (كتاب الصلاة) باب : تحزيب القرآن ج ٢ ص ١١٨ وأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه فى (ابواب التطوع بالليل) باب فضل قراءة ألف آية فى ليلة . . . الخ

(٣) الحديث فى مجمع الطبرانى من حديث القاسم بن عبد الرحمن بن يزيد الشامى مولى معاوية عن أبى أمامة ، الخ ج ٨ ص ٢١٢ رقم ٧٧٤٨ وقال المحقق : قال فى المجمع : ٢ / ٢٦٨ .

(٤) سورة السجدة الآيات : ١٨ - ٢٢

حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴿١﴾ .

وقال تعالى ﴿٢﴾ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴿٣﴾ .

وقال تعالى ﴿٤﴾ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴿٥﴾ ولهذا قال تعالى : هنا ، ﴿٦﴾ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴿٧﴾ أى عند الله يوم القيامة ، وقد ذكر عطاء بن يسار والسدى وغيرهما : أنها نزلت في على بن أبى طالب وعقبة بن أبى معيط ، ولهذا فصل حكمهم فقال ﴿٨﴾ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿٩﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله ، وعملوا بمقتضاها وهى الصالحات ﴿١٠﴾ فلهم جنات المأوى ﴿١١﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿١٢﴾ نزلا ﴿١٣﴾ أى ضيافة وكرامة ، ﴿١٤﴾ بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا ﴿١٥﴾ أى خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها كقوله . ﴿١٦﴾ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴿١٧﴾ قال الفضيل بن العياض : والله إن الايدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم ، ﴿١٨﴾ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴿١٩﴾ .

أى : يقال لهم ذلك تقريرا توبيخا ، وقوله تعالى : ﴿٢٠﴾ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴿٢١﴾ .

قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتنا ، وما يحل بأهلها مما يتلى الله به عباده ليتوبوا به ، وروى مثله عن أبى بن كعب وأبى العالية .

وقال بن عباس فى رواية عنه : يعنى به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر ، وقال النسائى أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن اسراييل عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص وأبى عبيدة ، عن عبد الله ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴿٢٢﴾ .

قال : سنون أصابتهم ، وقال عبد الله بن الامام بسنده عن أبى بن كعب فى هذه الآية ﴿٢٣﴾ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴿٢٤﴾ قال : القمر والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام وقال عبد الله بن مسعود ايضا فى رواية عنه : العذاب الأدنى ما صابهم من القتل والسبى يوم بدر ، وكذا قال : مالك عن زيد بن أسلم ﴿٢٥﴾ قال السدى وغيره : لم يبق بيت بمكة الا دخله الحزن على قتيل لهم أو اسير فأصيبوا أو نرموا ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله تعالى : ﴿٢٦﴾ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴿٢٧﴾ أى : لا أظلم ممن ذكره

(١) سورة ص الآية : ١٨

(٢) سورة الحشر الآية : ٢٠

(٣) سورة السجدة الآية : ١٨

(٤) انظر تفسير ابن كثير ، سورة السجدة آية رقم ٢١

الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدتها واعرض عنها ، وتناساها كأنه لا يعرفها .
قال قتادة: إياكم والاعراض عن ذكر الله ، فإن من اعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة وأعوز
أشد العوز ، وعظم من اعظم الذنوب ولهذا قال تعالى : متهددا لمن فعل ذلك ﴿ إنا من المجرمين
منتقمون ﴾ سأنقم ممن فعل اشد الانتقام .

وروى ابن جرير ، حدثني عمران بن بكار بسنده : عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله
ﷺ يقول : (ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد لواء في غير حق ، أو علق والديه ، أو مشى مع
ظالم ينصره فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ (١) .

مواعظ وعبر

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ^ج وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً^ج يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن
الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً^ج أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ
الْمَاءَ إِلَى الْآرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زُرْعَاتًا كُلٌّ مِّنْهُ^ج أَنْعَمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

المفردات

مرية : شك

أئمة : جمع إمام أى: زعماء وقادة في الدين

أو لم يهد لهم : أو لم يتبين لهم .

القرون : الأمم السابقة

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير عن معاذ بن جبل وأخرجه ابن منيع.. أيضا انظره

(٢) سورة السجدة من الآية : ٢٣ - ٣٠ آخر السورة .

الجرز : هي الارض اليابسة التي جرز نباتها أى : قطع لرعى أو لعدم الماء فيها مع صلاحيتها للانبات وقيل : رجل جروز إذا كان لا يبقى شيئاً ، ألا أكله . وناق جروز : أى : تأكل كل شيء تجده ، وسيف جراز : أى ، قاطع ماض (متى هذا الفتح ؟) متى هذا الحكم ؟ إذ الفتح القضاء . وقيل : للحاكم فاتح وفتاح ، لأن الأشياء تفتح على يديه ، وتنفصل ، وعليه قوله تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ .

وهذا رجوع إلى أحد الأصول الثلاثة ، وهي الرسالة والتوحيد وإثبات البعث التي تعنى بها السور المكية ، وإنما اختار موسى لكثرة الشبه بينه وبين النبي محمد ﷺ ولكثرة أتباعه وقوة تأثيرهم في المجتمع العربى ، وكل من المسحيين واليهود يؤمنون به ، ومع هذا كثير من المواعظ والعبر .

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه في أول السورة : الرسالة والتوحيد والبعث - عاد في آخرها إلى ذكرها مرة أخرى ، وبعد أن أعاد ذكر الرسالة في قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أعاد هنا ذكر التوحيد مع ذكر البرهان عليه بما يروونه من المشاهدات التي يبصرونها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى : ولقد آتينا موسى أخاك الكتاب فأودى وكذب ، وناله ماناله من ألوان العذاب والسخرية ، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك مالمقيه من التكذيب والأذى ، إذ تلك سنة الكون ونظام الناس ، لا بد من اضطراع أهل الحق مع أهل الباطل ، وجعلنا الكتاب الذى أنزل على موسى هدى ونورا لبني اسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة وقادة ، وهم أنبياء بني اسرائيل يهدون الناس بأمرنا ، ويدعونهم ويعظونهم ، وكانوا بآياتنا يوقنون ، كل ذلك لما صبروا على أحكام الدين وتكاليفه ، وصبروا على البلاء وعلى متاع الدنيا الزائل .

إن ربك هو يفصل بين المؤمنين والكافرين المنكرين للرسالة ، ويقضى بحكمه العدل فيجازى كلا على عمله ، ويعطيه ما يستحق من ثواب أو عقاب .

وقيل المعنى : إن ربك يقضى بين الأنبياء وأممهم بالحق .

أغفلوا ولم يتبين لكفار مكة إهلاكنا كثيرا من الامم السابقة ؟ حالة كونهم يمشون للتجارة في مساكنهم فيعتبروا ويتعظوا بما حل بغيرهم ، إن في ذلك لآيات دالات على قدرة الله وحكمة العدل بين الكفار والمؤمنين أفلا يسمعون سماع قبول وتدبر بقلوبهم ؟

أعموا أنا يروا إن نسوق الماء الى الأرض الجرز التي لا نبات فيها بواسطة المطر أو الانهار والسيول ، فنخرج بالماء زروعا وثمارا تأكل منه انعامهم وانفسهم أفلا يبصرون !

ألم يروا إلى مثل مصر فإنها هبة النيل ، ولولا أن الله ساقه إليها لبقيت مصر قطعة من الصحراء
لاخير فيها ولا حياة ، وأن ربك على كل شىء قدير أفلا يبصرون ذلك فيعتبرون ويتعظون .
وكان المسلمون يقولون : غدا سيفتح الله علينا ويحكم بيننا بالحق وهو خير الفاصلين ، فكان
المشركون يقولون : متى هذا الفتح ؟ استبعادا وانكارا واستهزاء بالنبي وصحبه ! قل لهم : يوم الفتح
والقضاء الفصل هو يوم القيامة ، يومئذ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم بأنهم على باطل وأنهم تركوا
الصراط المستقيم ، واتبعوا سبل الشيطان فضلوا عن سواء السبيل ، ولا ينفعهم إيمانهم بأن النبي
والقرآن حق ، ولا هم ينظرون ، بل سيأخذون جزاءهم فورا .

فأعرض عنهم وانتظر ما يحل بهم من العذاب فى الدنيا والآخرة وانهم منتظرون بك حادث موت
أو قتل فيستريحون منك ، وما علموا أن الله عاصمك من الناس ومؤيدك ، حتى تؤدى رسالتك كاملة
غير منقوصة .

سورة الأحزاب

قال صاحب البصائر :-

السورة مدنية بالاتفاق . آياتها ثلاث وسبعون . كلماتها ألف ومائتان وثمانون . حروفها خمسة
آلاف وسبعمائة وستة وتسعون .

سميت سورة الأحزاب : لاشتغالها على قصة حرب الأحزاب فى قول : ﴿ يحسبون الأحزاب لم
يذهبوا ﴾ .

معظم مقصود السورة : التى اشتملت عليه : الأمر بالتقوى ، وأنه ليس فى صدر واحد قلبان ،
وأن المتبنى ليس بمنزلة الابن ، وأن النبى ﷺ للمؤمنين بمكان الوالد ، وأزواجه الطاهرات بمكان
الأمهات ، وأخذ الميثاق على الانبياء ، والسؤال عن صدق الصادقين ، وذكر حرب الأحزاب ،
والشكاية من المنافقين ، وذم المعرضين ، ووفاء الرجال بالعهد ، ورد الكفار بغيظهم ، وتخيير أمهات
المؤمنين ووعظهن ونصحهن ، وبيان شرف أهل البيت الطاهرين ، ووعد المسلمين والمسلمات بالأجور
الوافرات ، وحديث تزويج زيد وزينب ورفع الحرج عن النبى ﷺ وختم الانبياء به - عليه السلام -
والأمر بالذكر الكثير ، والصلوات والتسليمات على المؤمنين ، والمخاطبات الشريفة لسيدنا المصطفى
ﷺ - وبينان النكاح والطلاق والعدة ، وخصائص النبى ﷺ فى باب : النكاح وتخييره فى القسم بين
الأزواج ، والحجر عليه فى تبديلهن ، ونهى الصحابة عن دخول حجرة النبى ﷺ - بغير إذن منه ،
وضرب الحجاب ، ونهى المؤمنين عن تزويج أزواجه بعده والموافقة مع الملائكة فى الصلاة على النبى
ﷺ - وتهديد المؤذنين للنبي وللمؤمنين ، وتعليم آداب النساء فى خروجهن من البيوت ، وتهديد
المنافقين فى إيقاع الأراجيف ، وذل الكفار فى النار ، والنهى عن أذى الرسول ﷺ - والأمر بالقول
السديد ، وبيان عرض الأمانة (على السموات والأرض) وعذاب المنافقين وتوبة المؤمنين فى قوله :
﴿ أنا عرضنا الأمانة ﴾ (١) . إلى آخر السورة .

المتشابهات : ذهب بعض القراء الى أنه ليس فى هذه السورة متشابه . وأورد بعضهم فيها كلمات

وليس فيه كثير تشابه بل قد تلبس على الحافظ القليل البضاعة .
 فأوردناها ، إذا لم يخل من فائدة وذكرنا مع بعضها علامة يستعين بها المبتدئ في تلاوته .
 منها قوله : ﴿ ليسئل الصادقين عن صدقهم ﴾ ^(١) . وبعده ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾
 ليس فيها تشابه ، لأن الأول : من لفظ السؤال وصلته (عن صدقهم) وبعده ﴿ وأعد للكافرين ﴾
 والثاني : من لفظ الجزاء وفاعله الله ، وصلته ﴿ بصدقهم ﴾ بالياء وبعده ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ ومنها
 قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ ^(٢) .
 وبعده ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ ^(٣) . فيقال للمبتدئ : إن الذى يأتى بعد
 العذاب الأليم نعمة من الله على المؤمنين .

وما يأتى قبل قوله ﴿ هو الذى يصلى عليكم ﴾ .
 اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴿ شكرا على أن انزلكم منزلة نبى في صلاته وصلاة ملائكته عليه حيث
 يقول ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ﴾ ومنها قوله : يا أيها النبى قل لازواجك وبناتك ﴿ ليس
 من المتشابه ، لأن الأول : فى التخيير والثاني : فى الحجاب .
 ومنها قوله : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ﴾ [فى موضعين] .
 وفى الفتح ﴿ سنة الله التى قد خلت ﴾ ^(٤) التقدير فى الآيات : سنة الله التى قد خلت فى الذين
 خلوا ، فذكر فى كل سورة الطرف الذى هو أعم ، واكتفى به عن الطرف الآخر ، والمراد بما فى أول هذه
 السورة النكاح نزلت حين عيروا رسول الله بنكاح زينب ، فأنزل الله : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من
 قبل ﴾ ^(٥) أى : النكاح سنة فى النبيين على العموم . وكانت لداود تسع وتسعون ، فضم إليها التى
 خطبها أوريا ، وولدت سليمان . والمراد بما فى آخر هذه السورة القتل ، نزلت فى المنافقين والشاكين
 الذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفين فى المدينة ، على العموم وما فى سورة الفتح يريد به نصره الله
 لأنبيائه . والعموم فى النصره أبلغ منه فى النكاح والقتل ، ومثله فى حم ﴿ سنت الله التى قد خلت فى
 عباده ﴾ فإن المراد بها عدم الانتفاع بالإيمان عند البأس فلهذا قال : ﴿ قد خلت ﴾ .
 ومنها قوله : إن الله كان لطيفا خبيرا ﴿ وكان الله على كل شىء رقيبا ﴾ ﴿ وكان الله قويا
 عزيزا ﴾ ﴿ وكان الله عليا حكيما ﴾ وهذا من باب الاعراب ؛ وإنما نصب لدخول كان على الجملة
 فتفردت السورة ، وحسن دخول (كان) عليها ، مراعاة لفواصل الآى .

مناسبتها لما قبلها

ووجه اتصالها بما قبلها : تشابه مطلع هذه وخاتمة السالفة ، فإن تلك ختمت بأمر النبى - ﷺ -
 بالاعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت بأمره عليه - الصلاة والسلام - بالتقوى ،
 وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع ما أوحى اليه من ربه مع التوكل عليه .

(٤) سورة الفتح من الآية : ٣٣

(٥) سورة الاحزاب الآية : ٦٢

(١) سورة الأحزاب من الآية : ٨

(٢) سورة الأحزاب من الآية : ٩

(٣) سورة الأحزاب من الآية : ٤١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهَ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾
وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ
مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ
وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ ۚ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ
قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۚ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ
وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ
تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ
النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا
غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

معاني المفردات

- تظاهرون ﴿١﴾ أن يقول الرجل لامراته أنت على كظهر أمي قصدا إلى تحريمها أدعياءكم ﴿٢﴾
أجمع دعوى وهو من يدعى لغير أبيه على أنه إبنه وفي الواقع هو إبن غيره . ﴿٣﴾ أقسط ﴿٤﴾ : أعدل وأقوم
﴿٥﴾ ومواليكم ﴿٦﴾ : المراد هم بنو عموميتكم . ﴿٧﴾ وجناح ﴿٨﴾ : ذنب ﴿٩﴾ مسطورا ﴿١٠﴾ : مكتوبا .
﴿١١﴾ ميثاقهم ﴿١٢﴾ : الميثاق هو العهد المؤكد . ﴿١٣﴾ ميثاقا غليظا ﴿١٤﴾ : ميثاقا شديدا .

المناسبة وإجمال المعنى

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنهما.. قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعوا النبی - ﷺ - أن يرجع عن قوله : على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات (١) .
وبعد أن أمر سبحانه نبيه بتقواه ، والخوف منه ، وحذره من طاعة الكفار والمنافقين ، والخوف منهم - ضرب لنا الأمثال ليبين أنه لا يجتمع خوف من الله وخوف من سواه ، فذكر أنه ليس للانسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر ، وإذا لم يكن للمرء إلا قلب واحد ، فمتى اتجه لأحد الشيئين صد عن الآخر ، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه ، وأنه لا تجتمع الزوجية والأمومة في امرأة ، والبنوة الحقيقية والتبني في انسان .

روى الشيخان والترمذى والترمذى والنسائى في جماعة آخرين عن ابن عمر - رضى الله عنهما (أن يزيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - ما كنا ندعوه الا زيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ أدعوهم لأبائهم ﴾ الآية : فقال رسول الله - ﷺ - : أنت زيد بن حارثة بن شراحيل) (٢) .

وكان من خبره أن سى من قبيلته كلب وهو صغير ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمة خديجة ، فلما تزوجها رسول الله - ﷺ - وهبته له ، ثم طلبه أبوه وعمه ، فخير بين أن يبقى مع رسول الله ، وأن يذهب مع أبيه ، فاختار البقاء مع رسول الله - ﷺ - فأعتقه وتبناه .
وكانوا يقولون : زيد بن محمد ، فلما تزوج رسول الله - ﷺ - زينب ، وكانت زوجا لزيد وطلقها ، قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ، وهو ينهى عن ذلك ، فنزلت الآية لنفى أن يكون للمتبنى حكم الابن حقيقة في جميع الاحكام التى تعطى للابن .

وبعد أن ابان سبحانه : أن الدعى ليس ابنا لمن تبناه ، فمحمد - ﷺ - ليس أبا لزيد بن حارثة ، ثم أعقب ذلك بالارشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن في الدين ، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر : أنت اخي في الدين - أردف ذلك بيان أن محمدا - ﷺ - ليس أبا لواحد من أمته ، بل أبوته عامة ، وأزواجه أمهاتهم وأبوته أشرف من أبوة النسب ، لان بها الحياة الحقيقية ، وهذه بها الحياة الفانية ، بل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه ، فذلك لارتقائهم الروحى ، فإذا كيف يستأذن الناس آبائهم وأمهاتهم حين أمرهم - ﷺ - بغزوة تبوك ، وهو أشفق عليهم من الآباء ، بل من أنفسهم .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : إن رسول الله - ﷺ - قال : (مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس

(١) انظر الدر المنثور في تفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ج ٦ ص ٥٦٠ تفسير سورة الأحزاب .

(٢) أخرجه البخارى في تفسير الأحزاب : ج ٦ ص ١٤٥ ، ١٤٦ وأخرجه مسلم في (كتاب الفضائل) باب : فضائل زيد بن حارثة ج ٨ / ١٣٠ ، ١٣١ وفي تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى (تفسير سورة الأحزاب) ج ٩ ص ٧٢ رقم ٣٢٦٢ .

به فى الدنيا والآخرة ، إقرأوا إن شئتم ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيا مؤمن ترك مالا ، فليرثه عصيته من كانوا ، فإن ترك ديناً أو ضياعاً (عيالا) فليأتني ، فأنا مولاه ^(١) .
وفى الصحيح : أن عمر - رضى الله عنه - قال : (يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى ، فقال - ﷺ - : لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شيء ، حتى من نفسى ، فقال - ﷺ - : الآن ياعمر ^(٢)) وبعد أن أبان سبحانه أحكاماً شرعها لعباده ، وكان فيها أشياء مما كان فى الجاهلية ، وأشياء مما كان فى الاسلام ، ثم أبطلت ونسخت اتبع ذلك بذكر مافيه حث على التبليغ ، فذكر أخذ العهد على النبيين أن يبلغوا رسالات ربهم ، ولا سيما أولو العزم منهم ، وهم الخمسة المذكورون فى الآية ، كما ذكر فى آية أخرى سؤال الله أنبياءه عن تصديق أقوامهم له ، ليكون فى ذلك تبيكيت للمكذبين من الكفار فقال : ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ ^(٣) .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليهما حكيماً . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ .
قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله ، وقال على - رضى الله عنه - التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

تزود من التقوى فإنك راحل وسارع الى الخيرات فيمن يسارع
فما المال والأهلون الا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وقوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى اتق الله ﴾ أى : اثبت ودوام على تقوى الله ، وقد جاء مثل ذلك فى قوله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ ^(٤) أى اثبتوا وداوموا على ذلك . وفى قوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى ﴾ ونداؤه بعنوان النبوة تكريم له - ﷺ - وما ناداه ربه إلا بعنوان النبوة ، أو الرسالة . والله تعالى عندما يخاطب أنبياءه فى القرآن الكريم يخاطبهم بأسمائهم . يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ^(٥) ﴿ يانوح اهبط بسلام منا ﴾ ^(٦) ﴿ يابراهيم . قد صدقت الرؤيا ﴾ ^(٧) ﴿ ياموسى إني أنا

(١) أخرجه البخارى : فى تفسير سورة الاحزاب : ج ٦ ص ١٤٥
(٢) الحديث فى مسند الامام احمد من رواية زهرة بن معبد ج ٤ ص ٣٣٦ وفى صحيح البخارى - كتاب الايمان والندور - باب : كيف كان يعين النبى - ﷺ - ج ٨ / ١٦١
(٣) سورة المائدة من الآية : ١٠٩
(٤) سورة النساء الآية : ١٣٦
(٥) سورة البقرة من الآية : ٣٥
(٦) سورة هود من الآية : ٤٨
(٧) سورة الصافات الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥

ربك ﴿١﴾ ﴿يادادود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ ﴿٢﴾ ﴿يازكريا إنا نبشرك بغلام﴾ ﴿٣﴾ ﴿يايحيى خذ الكتاب بقوة﴾ ﴿٤﴾ ﴿ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلى﴾ ﴿٥﴾ فإذا أراد أن يخاطب نبيه ومصطفاه قال : ﴿ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا﴾ ﴿٦﴾ ﴿ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك﴾ ﴿٧﴾

ياسيد العقلاء ياخبر الورى	يامن أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعث بالقرآن فينا هاديا	وطلعت في الأكوان بدرا نيرا
والله ماخلق الاله ولا برى	بشرا يرى كمحمد بين الورى

قوله تعالى : ﴿ولاتطع الكافرين والمنافقين﴾ أى لاتسمع منهم ولا تستشركهم . ﴿إن الله كان عليا حكيما﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله ، ولهذا قال تعالى : ﴿واتبع مايوحى إليك من ربك﴾ أى : من قرآن وسنة ﴿إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية ، ﴿وتوكل على الله﴾ أى : فى جميع أمورك وأحوالك . ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ أى : وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأتاب إليه .

قوله تعالى : ﴿ماجعل الله لرجل من قلوبين فى جوفه وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدهى السبيل ، ادعوههم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم وكان الله عفورا رحيم﴾ .

يقول تعالى : موثنا قبل المقصود المعنوى أمرا معروفا حسيا ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ، ولاتصير زوجته - التى يظاهر منها بقوله : أنت على كظهر أمى - أماله ، كذلك لايصير الدعوى ولدا للرجل إذا تبناه ، فدعاه ابنا له فقال : ﴿ماجعل الله لرجل من قلوبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم﴾ كقوله : عز وجل ﴿ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا﴾ ﴿٨﴾ وقوله تعالى : ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ هذا هو المقصود بالنفى ، فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة - رضى الله عنه - مولى النبى - ﷺ - وكان النبى - ﷺ - قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى : أن يقطع هذا اللاحق ، وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿وماجعل أدعياءكم أبناءكم﴾ كمال قال تعالى : فى أثناء السورة ﴿ماكان محمد أبأ أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبیین . وكان الله بكل شىء عليا﴾ وقال ههنا : ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ يعنى : تبنيكم لهم قول لايقضى أن يكون ابنا

(٥) سورة آل عمران الآية : ٥٥

(٦) سورة الاحزاب الآية : ٤٥

(٧) سورة المائدة الآية : ٦٧

(٨) سورة المجادلة الآية ٢

(١) سورة طه من الآيتان : ١١ ، ١٢

(٢) سورة ص الآية : ٢٦

(٣) سورة مريم الآية : ٧

(٤) سورة مريم الآية : ١٢

حقيقيا ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

قوله تعالى : ﴿ والله يقول الحق وهو يهذى السبيل ﴾ للعلماء فى تفسير الحق أقوال : قال سعيد ابن جبير ﴿ يقول الحق ﴾ أى : العدل . وقال بعضهم : الحق : ضد الباطل وقال البعض : الحق هو طريق التوحيد وقالوا : الحق هو دعوة الله الخالصة ، له دعوة الحق . ﴿ وهو يهذى السبيل ﴾ قال قتادة : أى الصراط المستقيم . قال بعض المفسرين . وذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش كان يقال له ذو القلبين وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليه .

وروى الإمام احمد بسنده عن ابن أبى ظبيان قال : أن أباه حدثه قال : قلت : لابن عباس رأيت قول الله تعالى : ﴿ وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ ماعنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله - ﷺ - يوما يصلى فخطر خطر فقل المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم ، فأنزل الله تعالى ﴿ وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ ^(١) قوله تعالى : ﴿ ادعوههم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴾ هذا ناسخ لما كان فى ابتداء الاسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدياء ، فأمر تبارك وتعالى : برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر .

وروى البخارى بسنده : عن عبد الله بن عمر قال : أن زيد بن حارثة - رضى الله عنه - مولى رسول الله - ﷺ - ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن ﴿ ادعوههم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴾ قوله تعالى : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ أمر تعالى : برد انساب الأدياء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم فى الدين ، ومواليهم أى : عوضا عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله - ﷺ - يوم خرج من مكة عام عمرة ، وتبعته ابنه حمزة - رضى الله عنه - تنادى ياعم ياعم ، فأخذها - على رضى الله عنه - وقال لفاطمة - رضى الله عنها - : دونك ابنة عمك ، فاحتملها فاختصم فيها على وزيد وجعفر - رضى الله عنهم - فى أيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة . فقال على - رضى الله عنه - أنا أحق بها وهى ابنة عمى ، وقال زيد : ابنة اخى وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى وخالتها تحتى يعنى : أسماء بنت عميس ، فقضى بها النبى - ﷺ - لخالتها ،

وقال : (الخالة بمنزلة الأم) وقال : لعل - رضى الله عنه - : (أنت منى وأنا منك) وقال لجعفر - رضى الله عنه - (اشبهت خلقى وخلقى) وقال لزيد : - رضى الله عنه - : (أنت أخونا ومولانا) ففى هذا الحديث احكام كثيرة من أحسنها انه - ﷺ - حكم بالحق وأرضى كلا من المتنازعين وقال لزيد : - رضى الله عنه - ﴿ أنت أخونا ومولانا ﴾ ^(٢) كما قال تعالى : ﴿ فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ .

(١) مسند الإمام احمد ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨

(١) البخارى : تفسير سورة الاحزاب : ج ٦ ص ١٤٥ - ١٤٦

(٣) البخارى : (كتاب الصلح) باب : كيف يكتب : هذا ما صالح فلان ابن فلان . ج ٣ / ٢٤١ ، ٢٤٢

كلمة عن زيد بن حارثة

حب رسول الله - ﷺ - الذي قال في شأنه : (أنت مولاي ومنى وأحب القوم إلى) نشأته وشأنه ، ومكانته في الإسلام :

خرجت أمه (سعدى بنت ثعلبة) معه تزور قومها (بنى معن) فأغارت خيل لبنى القين بن جسر ، فمروا على أبيات (بنى معن) فأحتملوا زيدا - وقد كان يومئذ غلاما يافعا - ولم يعرف بعد شيئا عنه .

وكان موسم الحج قد أقبل « فحج قوم من « كلب » وأمام أعينهم دائما صورة هذا الرجل الباكي « حارثة بن شرحبيل » ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا « زيدا » فعرفهم ، وعرفوه وأقبل عليهم ، وعلموا منه ان خاطفيه وافوا به « سوق عكاظ » فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش محمد بن عبد الله - ﷺ - وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه ، فخرج حارثة وأخوه كعب لفدائه ، وقدا مكة ، فسألا عن النبي - ﷺ - فدخلا عليه وقالوا : يا ابن عبد الله ! يا ابن عبد المطلب ! يا ابن هاشم ! يا ابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العاني وتطعمون الأسير جثنا في ابنا ، فامتن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه ، فإننا سندفع لك الفداء ، فقال لهم الرسول - ﷺ - : (ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني) .

فدعاه النبي - ﷺ - وقال له : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هما ؟ قال زيد : هذا أبي وهذا عمي . فقال رسول الله - ﷺ - (فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك ، فأختارني أوفاخترهما) فقال زيد : ما أنا بالذي اختار عليك احدا ، أنت منى بمكانة الأب والأم .

فقالا: ويحك يا زيد! أختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك قال زيد : نعم إنى قد رأيت من الرجل شيئا ، ما أنا بالذي اختار عليه احدا ابدا فلما رأى رسول الله - ﷺ - ذلك أخرجه إلى الحجر ، وقال : (يامن حضر ، اشهدوا أن زيدا ابني : أرثه ويرثني) .

فلما رأى ابوه وعمه ذلك : طابت نفساهما وانصرفا ، ونزلت الرسالة على محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء . ولم يفارق النبي - ﷺ - لحظة فأحبه النبي حبا شديدا . وأذن النبي - ﷺ - في الهجرة لأصحابه ، وهاجر زيد ، ونزل في المدينة على سعد بن خيثمة . ولما هاجر الرسول الأعظم إلى « يثرب » وأخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد : أخوين في الله ، ثم أخى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير (١) .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدرا وأحدا ، واستخلفه رسول الله - ﷺ - على المدينة ، حين خرج إلى « المريسيع » « وشهد الخندق » و « الحديبية » و « وحنينا » وخرج زيد اميرا في سبع سرايا : أولها « القردة » واعترض لغير قريش

(١) انظره في أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ج ٢ ص ٢٨٠ - ٣٨٣ رقم ١٨٢٩ في ترجمة زيد بن حارثة

فأصابها ، وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر « زيد » فرات بن حيان العجلي «
وقدم بالبعير على النبى - ﷺ - وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .
قالت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - : « مابعث رسول الله - زيد بن حارثة فى جيش قط ،
إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعده : لاستخلفه » (١) .

وأراد رسول الله - ﷺ - ان يغزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه
على الأمراء الآخرين قائلا : (عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبى طالب ، فإن
أصيب جعفر : فعبد الله ابن رواجه » (٢) .

وتحرك الجيش الاسلامى بقيادة لواء الاسلام « زيد بن حارثة » أليس فى هذا المعنى ما يعطى
الدلالة الصادقة على أن رسول الله هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ؟
هذا « زيد » يقود جيشا فيه جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ، الشريف الكريم ، وفيه خالد بن
الوليد ، وخالد هو سيف الله المسلول ، ومن بعد زيد : قاد ابنه « اسامه » الحملة بعد وفاة رسول
الله - ﷺ - قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه ابو بكر الصديق وعمر الخليفة فاروق هذه
الامة ..

(أى : دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى : معنى أوضح من هذا المعنى ؟) .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الاسلام الذى كرم
البشرية ، وزكى النفوس وطهر القلوب !
سيدى أبا القاسم يارسول الله :

الدين والدنيا لنا جمعتهما لك شرعة قدسية غراء
والمسلمون جميعهم جسد إذا عضو شكا ، سهرت له الأعضاء
سار المسلمون ، وعلى رأسهم زيد ، حتى وصلوا إلى « مؤنة » وهناك علموا بتجمع جيوش الروم
فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلا .
ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدونها ؟ !
وتناولته السيوف بالطعن ، وهو يقاتل دون راية رسول الله - ﷺ - وأخيرا : استشهد الأمير .
أيتها النفس الكبيرة !

(١) الحديث اورده ابن كثير فى تفسير سورة الأحزاب : الآية ٣٧ وقال : أخرجه الامام احمد فى مسنده - مسند عائشة - رضى الله عنها .

(٢) انظره فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الاثير ج ٢ ص ٢٨٣

لقد عرف النبي الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة البنوة ، حيث قال : (زيد ابني)^(١) ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .
 وفي المدينة وقف النبي - ﷺ - يقول : (استغفروا لزيد : لقد دخل الجنة وهو يسعى) ثم أتى أهله ، فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبي - ﷺ - حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يارسول الله : ما هذا ؟ فقال له الرسول - ﷺ - : (يأسعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب) .
 يرحمك الله يا زيد بن حارثة يا من أثنى عليك رسول الله خيرا ، ويامن أنعم الله عليك بالاسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق . . يامن ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة ، فلقيته شهيدا ، وعشت في دار الكرامة في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾^(٢) . لقد حرم الاسلام التبنى ووضع الأمور في نصابها وسمى الأشياء بأسمائها ووضع النقاط على حروفها . جاء في الحديث الشريف : (ليس من رجل ادعى الى غير أبيه وهو يعلمه الا كفر)^(٣) وهذا تشديد وتهديد ووعد أكيد في التبري من النسب المعلوم ولهذا قال تعالى : ﴿ ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أي إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمهما كما أرشد اليه في قوله تبارك وتعالى آمرا عباده ان يقولوا : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)^(٤) وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - : قال : (قال الله - عز وجل - قد فعلت)^(٥) وفي صحيح البخاري عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ؛ (اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر)^(٦)

وفي الحديث الآخر (إن الله تعالى رفع عن أمتي الخطأ والنسيان والأمر الذي يكرهون عليه) وقال تبارك وتعالى هنا : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله عفورا رحيم ﴾ أي : وإنما الاثم على من تعمد الباطل كما قال عز وجل : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم ﴾^(٨)

وروى الامام أحمد بسنده عن عمر - رضي الله عنه - قال : إن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده ، ثم قال : قد كنا نقرأ : ﴿ ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم ﴾ وأن رسول الله - ﷺ -

(١) مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب فضل زيد بن حارثة ٤ / ١٨٨٤ رقم ٢٤٢٥ وأسد الغابة في معرفة الصحابة ٢ / ٢٨٢

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١٦٩ ، ١٧٠

(٣) البخاري - كتاب المناقب ٤ / ٢١٩

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٨٦

(٥) مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف الا ما يطاق آ ١١٦ رقم ٢٠٠

(٦) البخاري - كتاب الاعتصام - باب أجر الحاكم اذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ٩ / ١٣٢٩ .

(٧) ميتن ابن ماجه - كتاب الطلاق - باب طلاق المكره والناسي ج ١ ص ٦٥٩ رقم ٢٠٤٥

(٨) سورة البقرة الآية : ٢٢٥

قال : (لا تطرونى كما أطرى عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام - فإنما أنا عبد الله فقولوا عبده ورسوله ، وربما قال عمر (كما أطرت النصارى ابن مريم)^(١) ورواه فى الحديث الآخر (ثلاث فى الناس كفر ، الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم)^(٢))

قوله تعالى : ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا كان ذلك فى الكتاب مسطوراً﴾ .

جاء فى الصحيح : (والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين)^(٣) وفى الصحيح أيضا ان عمر رضى الله عنه قال : يا رسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى ، فقال - ﷺ - : لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال يا رسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسى ، فقال - ﷺ - : « الآن ياعمر »^(٤) . قال ابن مسعود : اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاختره لرسالته ثم اطلع على القلوب بعده فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد فاخترهم لصحبته فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن .

لقد شرح الله صدره ورفع ذكره وعلم أنه أرحم الناس بالناس فأمر بطاعته والرضا بحكمه . قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾^(٥) وقرن الله طاعته بطاعته فقال : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾^(٦) وجعل اتباعه شرطا فى محبة الله فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾^(٧) .

قال البخارى عند قوله تعالى : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ حدثنا ابراهيم بن المنذر بسنده عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (ما من مؤمن الا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة : إقرأوا إن شئتم : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيا مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا وان ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى فأنا مولاه)^(٨) .

(١) مسند الامام احمد - مسند عمر بن الخطاب ٤٧/١

(٢) رواه مسلم والامام احمد عن ابى مالك الاشعري انظر مسلم - كتاب الجنائز - باب التشديد فى النياحة ٦٦٤/١ رقم ٢٩ ومسند احمد ٣٤٢/٥

(٣) البخارى - كتاب الايمان - باب حب الرسول ﷺ ١٢/١

(٤) البخارى - كتاب الايمان والنذور - باب كيف كان يحين النبى ﷺ ١٦٧/٨

(٥) سورة النساء الآية : ٦٥

(٦) سورة النساء الآية : ٨٠

(٧) سورة آل عمران الآية : ٣١

(٨) البخارى تفسير سورة الاحزاب ١٤٥/١ وفى كتاب الاستقراض باب الصلاة على من ترك ديناً ١٥٥/٣

سیدی آبا القاسم یارسول الله

فإليك حتماً تنتهي الخطوات
وتعرضوا لمهالك خطرات
يتشدقون بأتفه الكلمات
ما غير دينك سلم لنجاة
يا صاحب الآيات والسورات
في كل ماض في الزمان وآت
تاج الزمان وغرة السنوات
وترد كل جديدة لموات
ويزيد في الاشرار والنفحات
ولك الكتاب الخالد الصفحات
للخير والتوفيق والبركات
من شهوة تغطي ومن نزوات
تيها من الأهوال والظلمات
ان ينقذ الدنيا من العثرات
فيضا من الأنوار والرحمات
وبسطته في حكمة وأناة
بالحق والأنوار والصلوات
ما كان ابعدهم من الخيرات
وأقمت بين إساءة وإذاة
أعناقهم في عزة وثبات
وأقمت دينك خافق الرايات
لا يستوى حق بغير حماة
نفسى وهامت بالسعادة ذات
في زحمة الدنيا وفي خلوات
ألقاك في صحوى وفي غفوات
في بسمتى تأتى وفي عبرات
ولأنت في شرى؟ تذود دعائى
وخواطرى ومشاعرى وحياتى

لو شرق القوم الكبار وغربوا
ضلت علومهم برغم نبوغهم
وتنكبوا سبل السلام وأقبلوا
لو ادركوا معنى السلام لأسلموا
القول فيك معطر الكلمات
أيام مولدك الكريم مضيئة
يوم أتى بك للوجود فإنه
تتعاقب الايام في دوراتها
وضياك يسطع كل يوم نوره
فالحق انت وأنت إشرار الهدى
علمتنا سر الحياة وقدتنا
جنبتنا الزلل الكبير وصتنا
من يقصد الدنيا بدونك يلقيها
لما أراد الله جل جلاله
أهداك ربك للورى ياسيدى
يا صاحب الحق الكبير عرفته
وطلعت في الليل البهيم مؤذنا
دعوت للخيرات قوما ضلوا
ودعوت حتى كنت اصبر من دعا
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت في
فحظيت بالنصر المبين مؤزرا
وضربته مثلاً لكل مكابر
ياسيدى لما ذكرتك أشرقت
الفاك في الحق المجلجل في دمي
ألقاك في الليل البهيم وفي الضحا
ألقاك من حولي وبين جوانحي
فلأنت في خيرى تزيد دعائه
ولأنت في قلبى وملء نواظرى

قوله تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أى في الحرمة والاحترام ، والتوقير والاكرام والاعظام ،

ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن واخواتهن بالاجماع ، وان سمي بعض العلماء

بناتهن اخوات المؤمنين كما هو منصوص الشافعى - رضى الله عنه - فى المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم .

قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى فى حكم الله ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ قال ابن عباس وغيره : كان المهاجرى يرث الانصارى دون قراباته وذوى رحمه للأخوة التى أخى بينهما رسول الله - ﷺ - وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف .

روى ابن أبى حاتم بسنده عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : أنزل الله - عز وجل - فىنا خاصة معشر قريش والانصار ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ وذلك انا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا فوجدنا الأنصار نعم الاخوان فواخيئناهم وورائناهم فأخى ابوبكر - رضى الله عنه - خارجة بن زيد ، وأخى عمر - رضى الله عنه - فلانا ، وأخى عثمان - رضى الله عنه - رجلا من بنى زريق : ابن سعد الزرقى ويقول بعض الناس غيره . قال الزبير - رضى الله عنه - وواخيت انا كعب ابن مالك فجئت فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى فوالله يا بنى لومات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيرى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فىنا معشر قريش والانصار خاصة فرجعنا إلى موارثنا . قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ أى ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والاحسان والوصية ،

وقوله تعالى : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ أى هذا الحكم وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول الذى لا يبدل ولا يغير . قال مجاهد وغير واحد وان كان تعالى قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم انه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى وقضائه القدرى الشرعى والله اعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقَتِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ونحو ذلك قولع تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ^(١) وقد أخذ الله تعالى الميثاق على الأنبياء ونص على خمسة منهم وهم أولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم أجمعين - وعطف هؤلاء الخمسة على النبيين من باب عطف الخاص على العام وقد صرح بهم سبحانه وتعالى فى آية اخرى قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة آل عمران الآية : ٨١ .

(٢) سورة الشورى الآية : ١٣ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ بسؤالهم عما فعلوا حين الارسال كما قال : ﴿ وَلِنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١).

وقد جرت العادة ان الملك اذا ارسل رسولا ، وأمره بشيء وقبله كان ذلك ميثاقا عليه ، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عما يقول ويفعل كان ذلك تغليظا للميثاق ، وحتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة ثم بين علة اخذ الميثاق على النبيين فقال :

﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقَتِهِمْ ﴾ أى وأخذنا من هؤلاء الانبياء كيما أسأل المرسلين عما اجابتهم به امهم ، وما فعل أقوامهم فيما ابلاغهم عن ربهم من الرسالة .
﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى ليسأل الصادقين عن صدقتهم ، وأعد لهم ثوابا عظيما ، ويسأل الكاذبين عن كذبهم ، وأعد لهم عذابا اليما .

غزوة الاحزاب وبني قريظة

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَإِلَهِهِمْ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا ذُبُرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْعُورًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا

(١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى
 عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادِ أَشْحَةً عَلَى الْخِيَرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا
 فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ
 الْأَحْزَابُ يَوْدُوا وَلَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا
 إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
 وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ
 فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ
 بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)
 وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
 وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

معانى المفردات

المراد بالجنود هنا . الأحزاب ، وهم قريش يقودهم ابو سفيان ، وبنو أسد يقودهم طليحة ،
 وغطفان يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل ، وبنو سليم يقودهم ابو الأعور
 السلمى ، وبنو النضير من اليهود ، ورؤساؤهم حى بن أخطب ، وأبناء أبى الحقيق ، وبنو قريظة من
 اليهود أيضا سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم وبين رسول الله - ﷺ - عهد فنبذه كعب بسعى حى
 وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف أو نحو ذلك ، « والجنود التى » لم تروها : هى الملائكة ،
 ﴿ من فوقكم ﴾ أى : من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا بنى غطفان ، ﴿ ومن أسفل منكم ﴾

أى : من أسفل الوادى من قبل المغرب ، وكانوا قريشا ومن شايعهم ، وبني كنانة وأهل تهامة ، ﴿ زأغت الأبصار ﴾ أى : انحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ يراد به فزعت فزعا شديدا ﴿ ابتلى المؤمنون ﴾ أى اختبروا وامتحنوا ، ﴿ وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ أى اضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وكثرة العدو ، ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم لقرب عهدهم بالاسلام ، ﴿ الا غرورا ﴾ أى وعد غرور لا حقيقة له ؛ ﴿ يثرب ﴾ من أسماء المدينة ، ﴿ لا مقام لكم ﴾ أى لا ينبغي لكم الإقامة ها هنا . ﴿ عورة ﴾ أى ذات عورة لأنها خالية من الرجال فيخاف عليها سرق السراق ﴿ والأقطار ﴾ واحدها قطر وهو الناحية والجانب ، ﴿ والفتنة ﴾ الردة ومقاتلة المؤمنين ﴿ آتوها ﴾ أى عطوها ، ﴿ وما تلبثوا بها ﴾ أى : وما أقاموا بالمدينة ، ﴿ يعصمكم ﴾ أى : يمنعكم ، ﴿ المعوقين ﴾ أى : المشبطين عن القتال مع رسول الله - ﷺ - ﴿ هلم إلينا ﴾ أى : أقبلوا إلينا ، ﴿ والبأس ﴾ الشدة ، والمراد به هنا الحرب والقتال ، ﴿ أشحة ﴾ واحدهم شحيح أى بخيل بالنصرة والمنفعة ، ﴿ تدور أعينهم ﴾ أى : تدبر أعينهم احداقهم من شدة الخوف ، ﴿ سلقوكم ﴾ أى : آذوكم بالكلام ، ﴿ بالسنة حداد ﴾ أى : ألسنة دربة سلطة تفعل فعل الحديد ، ﴿ أشحة على الخير ﴾ أى : بخلاء حريصين على مال الغنائم ، ﴿ أحبط الله أعمالهم ﴾ أى : أبطلها لإضرارهم الكفر ، ﴿ لو أنهم بادون فى الأعراب ﴾ أى : خارجون إلى العدو مقيمون بين أهله ، ﴿ أسوة ﴾ أى : قدوة والمراد به المقتدى به ، ﴿ قضى نحبه ﴾ أى : فرغ من نذره ووفى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استشهد كحمزة ، ومصعب بن عمير ، ﴿ والغيظ ﴾ أشد الغضب ، ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أى : وقاهم شره ﴿ عزيزا ﴾ أى : غالبا مستوليا على كل شيء ، ﴿ ظاهرهم ﴾ أى : عاونوهم ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أى : من بنى قريظة ، ﴿ من صياصبيهم ﴾ أى : من حصونهم واحدها صيصية وهى كل ما يمتنع به ، قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت نساء تميم يبتدرن الصياصيا

﴿ وقذف ﴾ أى : ألقى ، ﴿ والرعب ﴾ الخوف الشديد .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد ان امر سبحانه عباده بتقواه ، وعدم الخوف من سواه - ذكر هنا تحقيق ما سلف فأبان انه أنعم على عباده المؤمنين ، إذ صرف عنهم اعداءهم وهزمهم حين تألبوا عليهم عام الخندق . وتفسير هذا على ما قاله أرباب السير : أن نفرا من اليهود قدموا على قريش فى شوال سنة خمس من الهجرة بمكة ، فدعوهم الى حرب رسول الله - ﷺ - وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ، ثم جاءوا غطفان وقيسا وعيلان ، وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه ، فخرجت هذه القبائل ومعها قادتها وزعماءها .

ولما سمع رسول الله - ﷺ - بمسيرهم أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة بإشارة سليمان الفارسي ، وعمل فيه رسول الله - ﷺ - والمسلمون وأحكموه ؛ وكان رسول الله يرتجز بكلمات ابن رواحه ، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا^(١)

وفى أثناء^(٢) العمل برزت لهم صخرة بيضاء فى بطن الخندق فكسرت حديدهم وشقت عليهم ؛ فلما علم بها رسول الله - ﷺ - أخذ المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابيتها (جانبي المدينة) حتى كأنه مصباح فى جوف بيت مظلم ؛ فكبر رسول الله - ﷺ - تكبير فتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضيء وكان التكبير ؛ ثم قال رسول الله - ﷺ - : ضربت ضربتي الأولى فبرق البرق الذى رأيتم فأضياء لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت ضربتي الثانية ، فبرق البرق الذى رأيتم أضياء لى منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب . فأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذى رأيتم أضياء لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، فأبشروا ؛ فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ؛ فقال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يمنيكم ويعدكم بالباطل ، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، أنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون ان تبرزوا ، فنزل : ﴿ وإذ يقول المنافقون ﴾ الخ . ونزل : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾^(٣) الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الاحزاب الذين حزبهم اليهود ، وأتوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلا بينهم وبينها ، فقالوا : والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ووقعت مصادمات بين القوم كرا وفرا ، فمن المشركين من كان يقتحم الخندق فيرمى بالحجارة ، ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيهلك . ثم^(٤) إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله - ﷺ - فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك ، فقال - ﷺ - : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة ، فأتى قريظة وقال لهم : لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا اخذتم منهم رهنا من أشرفهم يكونون بأيديكم تقية لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا ، لأنهم رجعوا وسثموا حربيه ، وإنكم وحدكم لا تقدرون عليه ، وذهب إلى قريش وإلى غطفان ، فقال لهم : إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونها لمحمد ، فيضرب أعناقهم ، ويتحدون معه على قتالكم ، لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد وتابوا ، وهذا هو المخرج الذى اتفقوا عليه .

وحينئذ تخاذل اليهود والعرب ، ودب بينهم ديب الفشل . وما زاد فى فشلهم ان بعث الله عليهم ريحا فى ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفىء قدورهم ، وتطرح آنيتهم .

(١) البخارى - كتاب الجهاد - باب الرجز فى الحرب ٧٨/٤ وكتاب المناقب - باب غزوة الخندق ١٤٠/٥

(٢) تفسير الطبرانى ١٣٤/٢١

(٣) سورة آل عمران الآية : ٢٦

(٤) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٣٤٨/٥

وقد قام رسول الله - ﷺ - ليلة يصلى على التل الذى عليه مسجد الفتح ثم يلتفت ويقول : هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ فعل ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم رجل واحد ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فدعا حذيفة بن اليمان وقال : ألم تسمع كلامى منذ الليلة ؟ قال حذيفة : فقلت يا رسول الله معنى أن أجيبك الضر والقر ، قال : انطلق حتى تدخل فى القوم ، فتسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، حتى ترده إلى ، انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتيني ، فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله - ﷺ - يده يقول : يا صريخ المكروبين ، وباجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال اصحابى فنزل جبريل وقال : ان الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله - ﷺ - على ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتى ورحمت اصحابى ، وذهب حذيفة إلى القوم ، فسمع ابا سفيان يقول : يامعشر قريش ، انكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، واخلفتنا بنوقريظة ، وبلغناهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإني مرتحل ، فلما رجع أخبر رسول الله - ﷺ - فضحك حتى بدت انيا به فى سواد الليل .

بلغة العسكريين

ولنستمع الآن الى وصف دقيق لوقائع غزوة الخندق وبنى قريظة بلغة العسكريين كما يرويها لنا اللواء (محمود شيت خطاب) فى كتابه (الرسول القائد) كتب تحت عنوان (الخندق) فقال :

الموقف العام

١ - المسلمون : نجح المسلمون فى إعادة النظام إلى صفوفهم بعد « أحد » وتخلصوا من يهود بنى النضير ، وبذلك قوى مركزهم فى المدينة قاعدتهم الأمانة ، كما اثروا على معنويات قريش وكافة القبائل التى طمعت فى مهاجمة المدينة لقد استعادوا فى هذه الفترة سمعتهم ، وأصبح سلطانهم مهيبا فى المدينة وخارجها على حد سواء .

٢ - المشركون واليهود : -

لم تستطع قريش لقاء المسلمين فى (بدر) الصغرى ، لأنها قدرت أن قوة المسلمين اكبر من ان تستطيع القضاء عليها وحدها .

كما لم تستطع القبائل ان تهاجم المدينة كما ارادت ، اذ هاجمها المسلمون على انفراد فى عقر دارها وتغلبوا عليها بالتعاقب .

وكان اليهود اضعف من ان يفكروا فى التعرض وحدهم للمسلمين ، ولكنهم كانوا يترقبون

الفرص .

وكان لابد من تجمع قوى قريش والقبائل الاخرى واليهود فى صعيد واحد للقضاء على المسلمين ، إذ اصبح المسلمون بدرجة من القوة يصعب معها القضاء عليهم اذ لم تحتشد كافة قوى اعدائهم ؛ وفعلًا قام المتورون من يهود بنى النضير بمهمة تجميع قوات المشركين واليهود حول المدينة ، ونجحوا فى حشد اكبر قوة متفوقة للقضاء على الدين الجديد .

قوات الطرفين

- ١ - المسلمون : ثلاثة آلاف رجل بقيادة الرسول - ﷺ -
- ٢ - المشركون : عشرة آلاف عدا اليهود من بنى قريظة ، منهم أربعة آلاف من قريش وستة آلاف من بنى سليم وأسد وفزارة واشجع وغطفان . كانت قريش بقيادة ابى سفيان بن حرب بن أمية . وكانت غطفان بقيادة عيينة بن حصن والحارث بن عوف . وكانت أشجع بقيادة مسعود بن ربيعة وهم أربعمئة . وكانت سليم سبعمئة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية وكانت بنو أسد بقيادة طلحة بن خويلد الأسدى .

أهداف الطرفين

- ١ - المسلمون : الدفاع عن الاسلام .
- ٢ - المشركون واليهود : القضاء على المسلمين وانتهاك أموالهم وذرائعهم .

التوقيت

كانت غزوة الخندق فى شوال من السنة الخامسة للهجرة واستمر الحصار حوالى شهر واحد .

قبل المعركة

١ - المسلمون :

أ - قرر المسلمون البقاء فى المدينة وحفروا خندقا عميقا يحيط بشمال المدينة ويقع بين حرة المدينة وجبل « سلع » لان هذه المنطقة هى المنطقة الوحيدة المكشوفة ؛ إذ أن جهات المدينة الأخرى محاطة بالبساتين الكثيفة والعوارض الطبيعية الأخرى ، وذلك يحول دون إمكان إجراء القتال بقوات كبيرة فى أطراف المدينة عدا الشمالية منها ، حيث إنها مكشوفة كما أسلفنا ، لذلك أشار سلمان الفارسى بحفر الخندق فى هذه المنطقة ، ولم يكن حفر الخنادق للأغراض الدفاعية معروفًا عند العرب من قبل .

قسم الرسول منطقة الحفر على أصحابه : لكل عشرة منهم أربعون ذراعا ، واشتغل هو بالحفر أيضا ، كأي فرد منهم ، بل كان المسلمون يستعينون به عندما تصادفهم بعض العقبات أثناء الحفر كظهور الصخور فيحضر بنفسه لتفتيتها .

وكان العمل يستمر طيلة النهار ، ثم يأوى المسلمون ليلا الى دورهم ليأخذوا قسطا من الراحة ، وقد سيطر الرسول بنفسه على العمل . فلا يذهب احد لعمله الخاص إلا بموافقة .

ب - عسكر المسلمون الى سفح « سلع » وجعلوا « سلعا » خلف ظهورهم .

ج - جمع الرسول النساء والأطفال في بيوت قوية البنيان في منطقة أمينة داخل المدينة للإفادة من مناعتها لحمايتهم ، وهجروا البيوت الواهنة .

د - بعد انجاز حفر الخندق ، احتل المسلمون مواضعهم خلف الخندق واستفادوا من مناعة جبل « سلع » لحماية ظهورهم وجناحهم الأيسر من التفاف الأحزاب لقطع خط رجعتهم الى المدينة المنورة وضربهم من الخلف وتطويقهم .

٢ - المشركون واليهود :

أ - قصد نفر من اليهود قريشا في مكة منهم سلام بن أبي الحقيق وحيى بن أخطب ، فدعوههم إلى حرب الرسول ، ووعدوهم أنهم سيكونون معهم في القتال .

فلما وافقت قريش على قتال المسلمين ، قصد اليهود غطفان وغيرها من القبائل ، ودعوههم إلى حرب الرسول أيضا ، وأخبروهم ان قريشا معهم على ذلك ، فوافقت غطفان والقبائل الأخرى .

ب - لما وصلت قريش وغطفان والقبائل الأخرى الى ضواحي المدينة استطاع حى بن أخطب التأثير على اليهود من بنى قريظة ، فنكثوا عهدهم مع المسلمين وانضموا مع الأحزاب .

ج - كانت مواضع قتال الأحزاب في ضواحي المدينة كما يلي :

أولا : قريش في موضع مجتمع الأسيال من دومة بين الجرف وزغابة

ثانيا : غطفان وقبائل نجد في موضع ذنب نقي الى جانب « أحد »

ثالثا : بنو قريظة في حصونهم في ضواحي المدينة .

سير القتال

١ - تخرج موقف المسلمين كثيرا ، خاصة بعد انضمام بنى قريظة للأحزاب ، فقد كان بإمكان هؤلاء اليهود التسلل إلى داخل المدينة والتعريض بالنساء والأطفال خاصة أنهم يعرفون تفاصيل مسالكها لأنهم من أهلها ، مما يؤثر على معنويات المسلمين الذين يقاتلون في ساحة المعركة لأنهم أصبحوا غير مطمئنين على مصير عوائلهم وذرائعهم وأموالهم .

كما كان بإمكان اليهود القيام بحركة جريئة لقطع خط رجعة المسلمين إلى داخل المدينة ، وبذلك يفسحون المجال للأحزاب لاقتحام الخندق دون مقاومة تذكر .

لذلك كان وقع نكث بنى قريظة لعهدهم شديدا على نفوس المسلمين ، وقد ارسل اليهود رجلا منهم الى داخل المدينة ، فاستطاع التسلل إلى الدور التي تجمع بها النساء والأطفال ، ولكن هذا اليهودى لم يعد الى قومه ليخبرهم عن مواضع النساء والأطفال ، وعن درجة مناعتها وحمايتها ، لأن امرأة مسلمة رأته يستطلع المواضع ، فاستطاعت قتله مستفيدة من عمود خشبي .

إن هذا اليهودى كان دورية استطاع للحصول على المعلومات عن مواضع النساء والأطفال ، حتى يمهد بما يحصل عليه من معلومات لقيام اليهود بهجوم مباغت عليهم بعد التأكد من عدم تيسر الحماية لهم ، ليضطروا المسلمين إلى الانسحاب من مواضعهم الأصلية لنجدة أهلهم وإنقاذ أموالهم . إن قتل هذا اليهودى خلص المسلمين من خطر داهم ، إذ جعل اليهود يفكرون أن داخل المدينة حراسا أشداء من المسلمين ، وليس من السهل التغلب على هذه الحراسة الشديدة ، لذلك قبع اليهود في حصونهم لا يفكرون في الخروج .

٢ - تحركت مفرزة من فرسان قريش فيهم عمرو بن عبد ود ، وعكرمة بن أبى جهل ، ومروا ببني كنانة واستثاروا حميتهم للقتال ، فلما وصلت هذه المفرزة إلى الخندق استطاعوا منطقة ضيقة فيه ، فعبروها بخيولهم ، فخرج على بن أبى طالب في نفر من المسلمين للقائهم ، واتجهوا فورا إلى الثغرة التي عبر المشركون منها لقطع خط رجعة المشركين أولا ولمنع الامدادات من الأحزاب اليهم ثانيا ثم نازل على بن أبى طالب عمرو بن عبد ود فقتله ، كما قتل المسلمون رجلين من المشركين ، وعادت بقية فرسان قريش هاربة إلى قواعدها .

٣ - قامت مفرزة من المشركين بالهجوم على المسلمين باتجاه دار الرسول - ﷺ - فقاتلهم المسلمون النهار كله حتى الليل ، فلما حانت صلاة العصر تخرج موقف المسلمين لاقترب المشركين من منزل الرسول ، حتى لم يستطع المسلمون ان يصلوا ، ولكنهم استطاعوا مع الليل صد مفرزة المشركين خائبة على أعقابها .

٤ - حاول الرسول - ﷺ - ان يرد بعض الأحزاب عن المدينة لقاء ثلث الثمار ، وكاد أن يصل في مفاوضاته مع قادة غطفان إلى هذا الاتفاق ، ولكن سادات الأوس والخزرج اقترحوا الا يعطوا المشركين شيئا من ثمارهم ، فوافق الرسول - ﷺ - على اقتراحهم هذا .

٥ - اثر بقاء الاعراب مدة طويلة حول المدينة على معنوياتهم خاصة وان الموسم شتاء ، وان الاعراب لا يطيقون الصبر طويلا على الحصار ولا على قتال مديد بصورة عامة ، لذلك اخذوا يبدون تدميرهم من بقائهم مدة طويلة دون جدوى .

٦ - جاء نعيم بن مسعود الغطفاني الى الرسول وأخبره انه أسلم ولا يعلم قومه بإسلامه ، فقال له الرسول : (إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة)^(١) .

خرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان نديما لهم في الجاهلية ، فقال لهم : (عرفتم ودى إياكم ، وقد ظاهرتم قريشا وغطفان على حرب محمد وليسوا كأنتم . البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون ان تتحولوا منه ، وإن قريشا وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك

لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم حتى تناجزوا محمدا .

قالت بنو قريظة : « أشرت بالنصح ولست عندنا بمتهم » ثم خرج نعيم إلى قريش ، فقال لهم : « بلغني ان قريظة ندموا ، وقد ارسلوا إلى محمد : هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب اعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم ؟ فأجابهم ان نعم فإن طلبت قريظة منكم رهنا من رجالكم ، فلا تدفعوا لهم رجلا واحدا » .

وجاء نعيم غطفان فقال لهم : « أنتم أهلى وعشيرتى » . وقال لهم مثل ما قال لقريش .. وحذرهم !!

أرسل ابو سفيان وسادة غطفان إلى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فى ليلة سبت ، وطلبوا منهم الاستعداد للهجوم نهار السبت ، ولكن قريظة اعتذروا بأنهم لا يقاتلون يوم السبت ، ثم طلبت قريظة رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأى هجوم ! قالت قريش وغطفان : لقد صدق نعيم .

ولما رفض طلب قريظة بإعطائها رهائن من قريش وغطفان قالت :

لقد صدق نعيم ! وتفرقت قلوب الأحزاب وزالت الثقة بينهم .

٧ - أرسل الرسول - ﷺ - حذيفة بن اليمان ليلا ليستطلع اخبار الأحزاب ، فرأى قريشا تشد رحالها متجهة إلى مكة ، فلما علمت غطفان بارتحال قريش دون علمها ، عادت ادراجها مع القبائل الاخرى الى مواطنها .

وحينذاك علم الرسول - ﷺ - ببصيرته النافذة ان المشركين فقدوا فرصتهم الثمينة ، وأن مثل هذه الفرصة لن تعود اليهم مرة اخرى ، وإذا لم يستطع المشركون بعد تجمعهم الضخم هذا ان يقضوا على المسلمين فكيف يستطيعون القضاء عليهم بعد تفرقهم ؟

خسائر الطرفين

١ - المسلمون :

ستة شهداء

٢ - المشركون :

ثلاثة قتلى .

أسباب فشل الأحزاب

١ - قيادة غير موحدة : -

لم تكن للأحزاب قيادة موحدة تستطيع السيطرة على جميع القوات المتجمعة وتوجيهها للعمل

الحاسم فى الوقت الحاسم .

كان لكل قبيلة قائد بل عدة قواد ، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم على المسلمين ؛ وقد كان من المستحيل اتفاهم على قائد منهم لى سطر على الجميع لأن هذا القائد سىنال شرفا عظىما ىمتاز به على الآخرين ، ولا ىمكن للآخرىن ان ىرضوا بهذا الامتياز .

لقد كانت النعرة الجاهلىة لا الهدف المشرىك هى التى تسىطر على القىادة ، ولا ىمكن ان تنجح مثل هذه القىادة فى أى موقف بأى معركة حتى ولو كانت لها كل الظروف المؤاتىة كما فى غزوة الخندق بالنسبة للاحزاب والىهود .

٢ - المباغطة بالخندق :

لقد كان حفر الخندق مباغطة تامة للأحزاب ، فلم تكن العرب تعرف هذا الاسلوب ، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب للتغلب على مثل هذا الموقف .

لذلك بقى القتال مستكنا طول مدة الحصار ، عدا محاولات قليلة قام بها المشرىكون لمحاولة اجتياز الخندق باءت كلها بالفشل ..

٣ - الطقس ..

كان موسم القتال شتاء ، وكان الاعراب فى العراء ىعيشون فى غير مواطنهم التى ىستفیدون فىها من موادهم المتىسرة للتدفئة وللعاشة وللسكنى .

لذلك لم ىستطىعوا البقاء لحصار المدىنة مدة طويلة .

٤ - انعدام الثقة :

كانت الثقة بىن الاحزاب انفسهم من جهة وبىنهم وبىن الیهود من جهة اخرى واهنة جدا ، بل لم تكن هناك ثقة بىنهم على الاطلاق .

قرىش ترىد القضاء على المسلمىن بالافادة من جهود القبائل الاخرى ، والیهود والقبائل الاخرى ترىد الأسلاب بالدرجة الأولى من اى مصدر كان ، ولو وقعت اموال احلافهم بنى قرىظة بىدهم لأخذوها أىضا .

والیهود لا ىثقون فى الجميع ویرىدون القضاء على المسلمىن بدماء قرىش والقبائل الاخرى ، وهكذا انعدمت الثقة بىنهم لتفرق الأهداف والمقاصد .

٥ - الصبر على الحصار :

ىحتاج الصبر على الحصار الى قوات مدربة لها اهداف معلومة وقىادة مسيطرة ، أما القبائل فلا صبر لها على الحصار ، لأنها اعتادت على التنقل بىن فترة واخرى ، كما انها لا تطىق صبرا على فراق وطنها وأهلها مدة طويلة .

لذلك تذر الأعراب من طول مدة الحصار - على قصرها - وآثروا الارتحال على الصبر .

دروس من غزوة الخندق

١ - القىادة : عاجلنا أسلوب القىادة المرتبك عند الأحزاب والیهود ، مما كان له أسوأ الأثر على نتىجة

معركتهم .

وبقدر ما كانت قيادة الأحزاب واهنة ، كانت قيادة المسلمين قوية حازمة رشيدة قرر الرسول ﷺ - البقاء في المدينة ، وأمر بحفر الخندق ، وانتخب منطقة الحفر في السهول الكائنة شمال المدينة ، ووزع أعمال الحفر بالتساوي بين أصحابه ، وسيطر على العمل ، فلا يستطيع احد ترك واجبه إلا بأمر منه ، حتى أنجز أعمال حفر الخندق قبل وصول المشركين .

واشتغل هو بنفسه بالحفر كبقية أصحابه تماما ، بل استأثر دونهم بالمحلات الصلبة التي لم يستطع أصحابه التغلب عليها - كفلق الصخور القاسية !!

ثم قسم واجبات احتلال الموضع بين أصحابه ، بحيث لا يغفل احد عن شبر من الخندق ليلا ونهارا ، على الرغم من برودة الطقس ، وقد كان هو بنفسه لا يترك مقره الا ليقوم بتفتيش الحراس والمواضع الدفاعية وليشجعهم ويرفع من معنوياتهم ، وأهم من ذلك كله سيطرته على أصحابه عندما تأزم الموقف حين وصلت الأحزاب الى ضواحي المدينة بقوات متفوقة على المسلمين ، وحين نكثت قريظة عهدها ، فأصبح الخطر يهدد المسلمين من الداخل والخارج .

٢ - تعبئة جديدة : -

استفاد المسلمون من حفر الخندق للدفاع عن المدينة ، وهذا الأسلوب الجديد من أساليب القتال يدخل في أساليب العرب الحربية لأول مرة في التاريخ .

إن القائد العبقري هو الذي يستخدم اسلوبا جديدا او سلاحا جديدا في القتال ، والخندق هو الأسلوب الجديد الثاني الذي استخدمه الرسول ﷺ - في القتال ، بعد أن استخدم اسلوب الصفوف في معركة بدر .

لقد أخذ الرسول ﷺ - بفكرة حفر الخندق من سلمان الفارسي ، لذلك قال فيه كلمته الخالدة : (سلمان منا اهل البيت)^(١) ، ليشجع على التفكير المفيد ويشيد بالعاملين للمصلحة العامة ويقطع دابر العصبية .

٣ - الحرب خدعة : -

رأينا أثر الاشاعات التي بثها نعيم بن مسعود في تفريق كلمة الأحزاب ؛ ولا يمكن نجاح الاحزاب او غيرهم الا بجمع الكلمة ، فلما تفرقت كلمتهم ، فشلوا ، إن الحرب الحديثة تعتمد على بث الاشاعات المثيرة لتصديق الصفوف وبليلة الافكار ، وقسم بث الاشاعات من أهم أقسام شعب الاستخبارات في تشكيلات الجيوش .

وبقدر ما كانت الاشاعة تعمل عملها في صفوف الاحزاب ، فإن الاشاعة لم يكن لها أى أثر في صفوف المسلمين .

حاول المنافقون ان يثوا سموم اشاعتهم لتحطيم معنويات المسلمين ، ولكن محاولتهم فشلت . وعندما ارسل الرسول ﷺ - أصحابه لمعرفة موقف بني قريظة ، وعاد هؤلاء اليه بعد ان تأكدوا

(١) مجمع الزوائد - كتاب المغازي والسير - باب غزوة الخندق ١٣٠/٨

من صحة إشاعة نكت بنى قريظة بعهدوها ، حرصوا على ان يخبروا الرسول - ﷺ - بهذا الخبر بأسلوب من الكلام لا يفهمه غير الرسول - ﷺ - نفسه « بالرموز » حتى لا يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين .

لقد عرف المسلمون اثر الاشاعة على المعنويات قبل اربعة عشر قرنا .

٤ - المبادأة : -

غزوة الخندق هى المعركة الحاسمة الثانية بعد معركة بدر الكبرى ، فلو نجح المشركون واليهود فى هذه المعركة لتغيرت وجهة التاريخ الاسلامى .

لقد استطاع اليهود ان يجمعوا الأحزاب حول المدينة ، وعاونهم اليهود من بنى قريظة ، للقضاء على المسلمين ، وهذا التجمع فرصة لا تعود ابدا ، خاصة اذا فشلت الاحزاب .

إن معنى فشل الاحزاب بعد هذا التجمع الهائل ، انهم لن يجتمعوا مرة اخرى وانهم لا يستطيعون القضاء على المسلمين بعد ذلك منفردين بعد ان عجزوا عن القضاء عليهم مجتمعين ، ولهذا النتيجة اثر حاسم على انتشار الاسلام فيما بعد .

لقد انتقل المسلمون من دور الدفاع الى دور الهجوم فى اليوم الذى انتهت به غزوة الخندق ، لذلك قال الرسول - ﷺ - لأصحابه بعد انسحاب الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا » (١) .

وانتقلت المبادأة الى يد المسلمين بعد هذه الغزوة ، ولم يتركوها حتى شمل الاسلام شبه الجزيرة العربية كلها ، وارتفعت راية الاسلام شرقا وغربا فوق كل راية ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا ﴾ .

محاسبة الغادرين

الموقف العام

١ - المسلمون : استطاع المسلمون الثبات امام الأحزاب واليهود فى ظروف قاسية جدا ضد قوات العدو المتفوقة عليهم تفوقا ساحقا ، فثبتوا تجاه الخطر الداهم الذى يهددهم من خارج المدينة ومن داخلها . وهذا النجاح وهذا الثبات جعل معنويات المسلمين فى وضع ممتاز لم يسبق له مثيل من قبل .

لقد تخلصوا من الاحزاب ، وبقي امامهم بنوقريظة جيرانهم فى المدينة الذين لم يرعوا للجار حقا ولم يحافظوا على العهد ، وخانوا المسلمين فى أشد أوقات محنتهم ، فلا بد من تصفية الحساب معهم .

٢ - المشركون : انسحب الاحزاب وقريش إلى ديارهم يحملون معهم كل معانى الفشل ، فلم تستطع قريش القضاء على المسلمين ، ولم تستطع القبائل الاخرى نهب اموال المسلمين ، ولم يعودوا بأية فائدة يمكن ان تخفف عنهم ما بذلوه من جهد فى السفر والحصار ايام الشتاء ، ومن مال صرفوه لامداد قواتهم

بالمواد . والأرزاق قبل المعركة واثناءها وبعدها .

لقد اثر ذلك على معنويات المشركين ، وجعلهم يخافون المسلمين كل الخوف .

٣ - اليهود : بقى اليهود من بنى قريظة وحدهم بعد انسحاب الاحزاب ، وبقيت معهم غدرتهم الشنيعة التى فضحت طواياهم ، فأصبحوا كالمجرم الذى ثبتت ادانته فهو يرقب القصاص العادل . لقد كانت معنوياتهم منحطة للغاية ، إذ كانوا يتوقعون هجوم المسلمين عليهم ويعرفون نتيجة هذا الهجوم .

الهدف الحيوى

محاسبة الغادرين من اليهود على غدرهم بالمسلمين فى أشد اوقاتهم حرجا ، ومحاسبة القبائل التى غدرت بدعاة المسلمين .

غزوة بنى قريظة

١ - أسباب الغزوة : نكث بنى قريظة لعهدهم مع المسلمين عند تجمع الاحزاب حول المدينة .
قوات الطرفين :

أ - المسلمون : ثلاثة آلاف بقيادة الرسول - ﷺ - معهم ستة وثلاثون فارسا فقط .
ب - بنو قريظة : من ٦٠٠ - ٧٠٠ مقاتل بقيادة كعب بن اسد يعاونه حى بن أخطب رأس اليهود الذين حشدوا الأحزاب وجمعوها حول المدينة .

٣ - الهدف : القضاء على بنى قريظة لنكثها بعهودها ، مما جعل المسلمين مهددين بالابادة .
٤ - الحوادث : عاد الرسول - ﷺ - إلى المدينة صباح الليلة التى انسحب الأحزاب فيها إلى ديارهم وأمر أصحابه ظهر ذلك اليوم بالحركة إلى بنى قريظة والاسراع بالاطباق على حصونهم بحيث لا يصلون العصر إلا هناك ، وعلى الرغم من تعب المسلمين الشديد لبقائهم مدة طويلة محاصرين ، وعلى الرغم من برودة الطقس ، فقد أسرع المسلمون لتنفيذ امر الرسول - ﷺ - وانجزوا تجمعهم حول حصون بنى قريظة قبل ان يحل الظلام من ذلك اليوم ! واستمر الحصار خمسا وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا بعض المناوشات الطفيفة بالنبل والحجارة ، كان من اثرها استشهاد احد المسلمين مصابا برحى رمت بها امرأة يهودية من فوق سطح منزلها .

لم يجرؤ بنو قريظة على الخروج من حصونهم طيلة مدة الحصار ، وكانوا مترددين لا يستقر رأيهم على شيء من شدة الخوف . طلب منهم قائدهم ان يعتنقوا الاسلام ، فرفضوا ؛ فطلب منهم الخروج للقتال ، فرفضوا ايضا ، ويقوا فى حصونهم لا يفعلون شيئا .

واخيرا أرسل اليهود يعرضون الخروج إلى « أذرعات » تاركين وراءهم ما يملكونه ؛ فأبى الرسول الا أن يسلموا بدون قيد أو شرط .

وعاد اليهود يطلبون التسليم على أن يحكم سعد بن معاذ في مصيرهم ، وقد اختاروه لأنه سيد الأوس حلفائهم في الجاهلية ، لعل الرسول - ﷺ - يقبل من حلفاء الأوس ما قبل من يهود بنى قينثفاع حلفاء الخزرج .

ورضى الرسول - ﷺ - بنزولهم على حكم سعد ؛ وقبل سعد أن يقوم بالتحكيم بين المسلمين من جهة واليهود من جهة أخرى بعد أن اخذ الموائيق على الطرفين أن يرضى كلاهما بقضائه ، فلما أعطوه الموائيق ، أمر بنى قريظة أن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح ، ففعلوا ..

وكان حكم سعد فيهم : « أن يقتل المقاتلون ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ، لأن سعدا ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بنى قريظة لكان مصير المسلمين الابداءة من الوجود ، فجزاهم سعد بمثل ما عرضوا المسلمين له .

لم تكن حرب بنى قريظة حرب ميدان انما كانت حرب أعصاب ، فلم يستطع اليهود ان يتحملوا الحصار على الرغم من توافر المواد الغذائية لديهم وتوافر المياه والآبار ومناعة حصونهم وصعوبة اقتحامها ، فأثروا التسليم على مكابدة الحصار .

والحق ان الموقف العسكرى كان إلى جانبهم لتلك الأسباب كلها ولشدة تعب المسلمين ولبرودة الطقس ، ولكن معنوياتهم المنحطة انهارت ، فلم يقاوموا طويلا كما كان المؤمل وقتل مقاتلو بنى قريظة جميعا ومعهم حى بن أخطب الذى تزعم حركة تجميع الأحزاب ضد المسلمين ، إلا ثلاثة رجال من اليهود اسلموا ، ولم يقتل من الأطفال والنساء أحد عدا المرأة التى قتل الشهيد المسلم برحائها ، فقتلت بجرمها هذا .

سرية عبد الله بن عتيك

١ - الهدف : قتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق اليهودى الذى حرض الأحزاب مع حى بن أخطب ، ثم فر إلى يهود « خيبر » ليتخلص من العقاب .

الحوادث : بعد القضاء على بنى قريظة ، خرج من المدينة خمسة من الخزرج إلى خيبر ، للقضاء على أبى رافع بن أبى الحقيق وإلقاء الرعب فى قلوب يهود خيبر ، حتى لا يعيدوا الدور الذى قام به اليهود الآخرون ، وقد كانت هذه المفزة بقيادة عبد الله بن عتيك .

وصل المسلمون « خيبر » ليلا ، فأمر عبد الله بن عتيك أصحابه بالبقاء قريبا من الحصن حتى يستطلع لهم موضع ابن أبى الحقيق ، فلما وصل حصنه استطاع دخوله وكمن فى اسطبل الحيوانات .

وعندما آوى ابن أبى الحقيق إلى فراشه وهدأت الأصوات والحركة ، خرج عبد الله فأخذ مفاتيح الحصن من موضعها الذى كانت فيه ، ثم ذهب الى غرفة ابن أبى الحقيق فناداه ليعرف مكانه من صوته ، لان الظلام كان يغمر الغرفة التى كان بها ابن أبى الحقيق ، ثم هجم بالسيف عليه حتى قضى عليه ، وانسحب الى أصحابه بعد ان سقط من الدرج وانكسرت رجله .

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد أزالوا من طريق الدعوة عدوا لدودا ، وتسامع الناس بعاقبة من يؤلب الناس ضد المسلمين ، مما زاد هيبة المسلمين في النفوس وجعلهم يسيطرون سيطرة تامة على المدينة من كافة الوجوه ، فلم يبق أى صوت لليهود أو المنافقين .

غزوة بنى لحيان

١ - الهدف :

أ - عقاب بنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء الرجيع قبل عامين خلوا وهم ستة من الصحابة : اغتالت أربعة منهم وباعت الاثنين الباقيين لقريش ، فضربت قريش عنق أحدهما وصلبت الثاني .

ب - التأثير على معنويات قريش والقبائل الأخرى .

٢ - الحوادث :

علم الرسول - ﷺ - بمحاولة قريش التجمع مع حلفائها لغزو المسلمين ، ففكر في الحركة اليهم للتأثير على معنويات قريش والقبائل الأخرى والتعرض لبنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين . . . أظهر الرسول - ﷺ - أنه يريد الشام حتى يستطيع مباغته بنى لحيان دون ان يعرفوا بحركته اليهم ، فتحرك بقواته شمالا ، فلما أطمأن إلى انتشار أخبار حركته إلى الشمال باتجاه الشام ، عاد راجعا باتجاه مكة مسرعا في حركته حتى بلغ منازل بنى لحيان « بجران » ، ولكن بنى لحيان فروا إلى رؤوس الجبال ، واستطاعوا النجاة بأرواحهم وأموالهم . عند ذاك ترك الرسول - ﷺ - القسم الأكبر من قواته في « بجران » وسار على رأس مائتي راكب باتجاه مكة حتى وصل « عسفان » شمال مكة للتأثير على معنويات قريش ، فلم تخرج قريش للقاءه ، ثم عاد المسلمون إلى المدينة متحملين شدة الحر ، بعد ان أثروا على معنويات القبائل وجعلوهم يخافون المسلمين اشد الخوف .

غزوة ذي قرد

١ - الهدف : مطاردة عيينة بن حصن مع جماعة من غطفان لإعادة ابل المسلمين التي انتهبها المشركون .
الحوادث :

أغار عيينة بن حصن الفزاري على أطراف المدينة ، فوجد هناك بعض اللقاح ترعى بحراسة مسلم وامراته ، فقتل عيينة وأصحابه الرجل وهو ابن ابى ذر الغفاري ، وساقوا الابل واحتملوا المرأة . ولكن سلمة بن عمرو بن الأكوع الاسلمى بصر بالقوم وقد اقتادوا الابل فأنذر المسلمين فنادى : الفرع الفرع : فنودى : يا خيل الله اركبى ! وكان أول ما نودى بها ! وقام سلمة بمطاردة عيينة وأصحابه وحده ، حتى لحق به المسلمون الذين استطاعوا تخليص الابل والمرأة المسلمة بعد ان وصلوا بمطاردتهم ماء « بذي قرد » .

وجاء من يخبر المسلمين ان عيينة وأصحابه وصلوا موضعا بعيدا عن « ذى قرد » فنحروا لهم جزورا ، فلما كشطوا عنها جلدها رأوا غبارا ، فتركوا جزورهم في محلها وهربوا بسرعة ، لانهم ظنوا أن المسلمين اقتربوا من مواضعهم ولم يكذب هؤلاء الاعراب يصدقون انهم يستطيعون النجاة بأنفسهم !!!

سرايا توطيد الأمن وتشديد الحصار الاقتصادى

١ - الهدف : تأمين المدينة القاعدة الامينة للاسلام وفرض سيطرة المسلمين على القبائل التى حولها وتشديد وطأة الحصار الاقتصادى على قريش وحلفائها .

٢ - الحوادث :-

أ - سرية عكاشة بن محصن الاسدى الى الغمر :

وجه رسول الله - ﷺ - عكاشة بن محصن الاسدى فى شهر ربيع الأول سنة ست للهجرة الى « الغمر » فى أربعين رجلا ، فخرج سريعا يغذ السير ، ولكن الاعراب علموا بمسيره اليهم فهربوا وتركوا ديارهم خالية ، فاستاق المسلمون مائة بعير وعادوا الى المدينة دون ان يلقوا كيدا .

ب - سرية محمد بن مسلمة إلى « ذى القصة »

بعث رسول الله - ﷺ - محمد بن مسلمة فى ربيع الآخر سنة ست للهجرة الى بنى ثعلبة وبنى عوال من ثعلبة وهم (بذى القصة) فى عشرة نفر ، فوردوا عليهم ليلا ، ولكن الاعراب وهم مائة رجل استطاعوا قتل أصحاب محمد بن مسلمة وجرحه فبعث رسول الله - ﷺ - ابا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا إلى مصارع المسلمين فلم يجدوا احدا ووجدوا نَعْمًا وشاء فساقه ابو عبيدة ورجع إلى المدينة .

ج - سرية ابى عبيدة بن الجراح الى ذى القصة :-

بعث رسول الله - ﷺ - ابا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا فى شهر ربيع الآخر إلى (ذى القصة) إلى بنى محارب وأغار الذين اجمعوا ان يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى « بهيفا » فمشوا اليهم بعد صلاة المغرب حتى وافوا (ذا القصة) فى عماية الصبح ، فأغاروا عليهم ، فهرب الاعراب ، واصاب ابو عبيدة رجلا واحدا فأسلم وتركه وأخذ نَعْمًا من نعمهم فاستاقه كما اخذ متاعهم وقدم بذلك إلى المدينة .

د - سرية زيد بن حارثة إلى سليم بالجموم :-

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة فى شهر ربيع الآخر سنة ست للهجرة إلى بنى سليم فصار حتى ورد (الجموم) فأصاب نَعْمًا وأسرى ، ثم عاد بأصحابه إلى المدينة .

هـ - سرية زيد بن حارثة إلى العيص :-

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة الكلبي فى جمادى الأولى سنة ست للهجرة يتعرض لغير قريش فى طريق عودتها من الشام الى مكة ، فأخذ المسلمون العير وما فيها وأسروا ناسا من كان فى العير وعادوا الى المدينة .

و- سرية زيد بن حارثة إلى الطرف :-

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة الكلبي في جمادى الآخرة سنة ست للهجرة إلى الطرف فخرج إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلا فأصاب نعا وشاء ، وهربت الأعراب وصبح زيد بالنعم إلى المدينة بعد أن غاب أربع ليال دون أن يلقي كيدا .

ز- سرية زيد بن حارثة إلى حسمى

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة الكلبي في جمادى الآخرة سنة ست للهجرة إلى (حسمى) في خمسمائة رجل ، فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل من بني عذرة ، فلما وصل (حسمى) هجم على القوم مع الصبح فقتلوا فيهم فأوجعوا وأغاروا على ما شيتهم فأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاة خمسة آلاف شاة ومن السبي مائة من النساء والصبيان .

ولكن زيد بن رفاعة الجذامي رحل في نفر من قومه إلى رسول الله - ﷺ - فدفع إليه كتابه الذي كان كتب له ولقومه ليألى قدم عليه فأسلم ، فبعث على بن أبي طالب إلى زيد بن حارثة يأمره ان يخلى بينهم وبين اموالهم وحرمتهم .

وكان سبب هذه الغزوة أن دحية بن خليفة الكلبي اقبل مرة عند قيصر في طريق عودته الى المدينة ، فلقية الهنيد بن عارض وابنه عارض ابن الهنيد في ناس من جذام بحسمى ، فقطعوا عليه الطريق فلم يتركوا عليه إلا سمل ثوب ، فقدم دحية على النبي - ﷺ - فأخبره بذلك ، فبعث زيدا لاعطاء درس قاس لجذام حتى لا يعودوا لمثلها ابدا .

ح - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل :-

بعث رسول الله - ﷺ - عبد الرحمن بن عوف في شعبان سنة ست للهجرة إلى بني كلب في دومة الجندل ، وقبل أن يبعثه دعاه فأقعه بين يديه وعممه بيده وقال : (اغز باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله ! لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدا !)^(١) .

سار عبد الرحمن حتى قدم « دومة الجندل » فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الاسلام ، فأسلم الأصبع بن عمرو الكلبي وكان نصرانيا وكان رأسهم ، واسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقام من أقام على إعطاء الجزية .

ط - سرية على بن أبي طالب إلى بني بكر بفدك

بلغ رسول الله - ﷺ - ان جمعا من بني سعد بن بكر يريدون ان يمدوا يهود خيبر ، فبعث اليهم على بن أبي طالب في مائة رجل ، فسار الليل وكمن النهار حتى انتهى إلى « الهجع » فوجدوا به رجلا فسأله عن القوم فقال : أخبركم على أنكم تؤمنوني ، فأمنوه فدلهم ، فأغاروا عليهم ، فأخذوا خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد وقدم على المدينة ولم يلقي كيدا .

ي - سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادي القرى :

خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي - ﷺ - فلما كان دون (وادي القرى) لقيه ناس من بني بدر فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم .

وعاد زيد إلى المدينة فبعثه رسول الله - ﷺ - في شهر رمضان سنة ست للهجرة إليهم ، فكمناوا النهار

وساروا الليل ، وعلم بنو بدر بحركة المسلمين اليهم ولكن زيدا وأصحابه صبحوهم واخذوا منهم اسرى وعاد زيد الى المدينة وبشر رسول الله - ﷺ - بنصر الله .

ك - سرية عبد الله بن رواحة الى اسير بن زارم : -

لما قتل ابورافع سلام بن ابى الحقيق امرت اليهود عليهم أسير بن زارم . فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب المسلمين .

وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فوجه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر في شهر رمضان سنة ست للهجرة سرا فسأل عن خبر أسير فأخبر بذلك وقدم ابن رواحة على النبى - ﷺ - وأخبره خبر أسير ، فندب الناس فانتدب له ثلاثون رجلا ، فبعث عليهم عبد الله بن رواحة ، فقدموا على أسير وقالوا : إن رسول الله - ﷺ - بعثنا اليك لتخرج اليه فيستعملك على خير ويحسن اليك ، فطمع في ذلك ، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلا من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين حتى اذا كانوا « بقرقرة ربثار » ندم اسير واراد الغدر بالمسلمين ولكن المسلمين حملوا عليهم فقتلوا اصحابه جزاء غدرهم .

وعادوا الى المدينة فأخبروا رسول الله - ﷺ - بغدر اليهود ، فقال : (نجاكم الله من القوم الظالمين) .

ل - سرية كرز بن جابر الفهرى الى العرائين : -

قدم نفر من « عرينة » ثمانية على رسول الله - ﷺ - فأسلموا ، فأمر بهم إلى لقاحه وكانت ترعى في منطقة (قباء) على ستة أميال من المدينة ، فكانوا فيها حتى ضحوا وسمنوا فغدوا على اللقاح فاستاقوها ، فأدركهم يسار مولى رسول الله - ﷺ - ومعه نفر فقاتلهم فقتلوه ورجله وعرزوا الشوك في لسانه وعينه حتى مات .

وبلغ رسول الله - ﷺ - الخبر ، فبعث في اثرم عشرين فارسا واستعمل عليهم كرز بن جابر الفهرى فأدركوهم واحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم ثم اردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة ، فقتلوا .

م - سرية عمرو بن أمية الضمري : -

قال ابو سفيان لنفر من قريش « الا احد يغتال محمدا ، فإنه يمشى في الاسواق ؟ » فأتاه رجل من الأعراب متطوعا لقتل النبى الكريم ، فأعطاه ابو سفيان بعيرا ونفقة وقال : « إطو أمرك » فخرج ليلا حتى قدم المدينة بعد خمسة أيام .

ولما رأى رسول الله - ﷺ - هذا الأعرابي رابه امره فقال : « إن هذا ليريد غدرا » .

وحاول الاعراب اغتيال رسول الله - ﷺ - فجذبه أسيد بن الحضير فأسره من إزاره فوجد خنجرا لديه ، فقال له رسول الله - ﷺ - : - (أصدقنى ما أنت ؟) قال : وأنا آمن ؟ ، قال : « نعم » فأخبره بأمره وما جعل له ابو سفيان ، فخلى عنه .

وبعث رسول الله - ﷺ - عمرو بن أمية وسلمة بن أسلم إلى أبى سفيان بن حرب وقال : « إن أصبتما منه غرة فاقتلوه » ، فدخلوا مكة ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلا فرآه معاوية بن أبى

سفيان فعره ، فأخبر قريشا بمكانه ، فخافوه وطلبوه .
وهرب عمرو وسلمة ، وقتل عمرو في طريق عودته إلى المدينة رجلين مشركين .

دروس من غزوات محاسبة الغادرين

١ - الوقت :-

انسحبت الأحزاب عن المدينة ، وعاد المسلمون إلى ديارهم صباح ليلة الانسحاب ، واصر الرسول - ﷺ - امره الانذارى للحركة إلى بني قريظة ظهر ذلك اليوم نفسه ، على الا يصلح المسلحون العصر الا في ديار بني قريظة .

لقد ادرك الرسول - ﷺ - بثاقب فكرة أهمية الوقت في الحصول على نتائج باهرة في القتال ، فلو أن الرسول - ﷺ - أبطأ بحركته هذه ، لاستفاد اليهود من الوقت في الاستعانة بحلفائها أو إقناع اليهود الآخرين بمعاونتهم ، أو التشبث بالحصول على قوات من القبائل لتساند قوتهم ، ولكان بإمكانهم إكمال قضايهم الادارية التي يحتاجون اليها في القتال ، حتى يستطيعوا الصمود في حصارهم أطول مدة ممكنة .

ولكن إسراع الرسول - ﷺ - بحركة قواته لتطويقهم ، حالت بين اليهود وبين كل ذلك ، إذ لم يكن اليهود يعلمون بالموعد الأكيد لانسحاب الأحزاب ليسبقوا النظر في إعداد كافة متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين .

بل إن حركة المسلمين السريعة لم تترك لهم الوقت الكافي لليهود لتنظيم أى خطة على الإطلاق ، فقد ظهر لنا من سير الحوادث في غزوة بني قريظة ان اليهود لم يفعلوا شيئاً ، وكانوا مترددين في كل شيء ، وأكثر من ذلك فإن حركة المسلمين المبكرة شلت معنويات اليهود وقضت على روح المقاومة فيهم ، فلم يستطيعوا أن يستفيدوا من المحسنات العسكرية التي كانت بجانبهم والتي كان بإمكانهم - لو أحسنوا التصرف - الاستفادة من هذه المحسنات لكي يقاوموا المسلمين وقتاً غير قصير . حصونهم قوية ومنيعه وعددهم كبير ، وسلاحهم وفير ، والأرزاق والماء متيسران ، كل ذلك يساعد على الصمود ، ولكن هذه المحسنات العسكرية التي بجانب اليهود لا تفيد شيئاً مادامت معنوياتهم منهطة تماماً ، ولولا استفادة الرسول - ﷺ - من الوقت لتحسنت معنويات اليهود ولا استطاعوا ان يقوموا بدور أكثر حزمًا من الدور الذي قاموا به أثناء حصارهم .

ومما يزيد من قيمة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت ، ان ظروفهم لم تكن حسنة بعد انسحاب الأحزاب .

لقد كانوا منهوكي القوى لسهرهم على حراسة مواضعهم حوالى شهر في موقف عصيب يحطم اعصاب أشجع الشجعان .

وكان الطقس بارداً ، وقد تحملوا البرد في العراء وقتاً طويلاً أثناء حصارهم ، فلما انسحبت

الاحزاب آن لهم ان ينالوا بعض الدفء فى بيوتهم القرية . وكانت قضاياهم الادارية بشكل لا يحسدون عليه ، اذ ما هى إمكانيات اعاشتهم مثلا وهى اهم ما يديم قوة المقاتلين ؟ خاصة ان الجندى يمشى على بطنه كما يقولون .

إن عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل بغرض الاسراع بتطويق حصون بنى قريظة يدعو إلى الاعجاب والتقدير .

٢ - المباغته . . . -

تكون المباغته بالوقت والمكان والأسلوب .

المباغته بالمكان ، أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو . والمباغته بالزمان ان تقوم بحركة فى وقت لا يتوقعه العدو . والمباغته بالاسلوب ان تقوم بالقتال بأسلوب جديد او بسلاح جديد . والقائد العبقري هو الذى يحاول ان يباغت خصمه حتى يقضى عليه ماديا ومعنويا ؛ لأن المباغته ، الناجحة تشل حركة العدو وتقضى عليه كليا .

لقد طبق الرسول - ﷺ - أساليب المباغته ، لقد رأينا كيف باغت الأحزاب بأسلوب جديد فى القتال هو حفر الخندق ، كما رأينا كيف أنه باغت قريشا بالقتال بأسلوب الصفوف .

وفى غزوة بنى قريظة باغت اليهود بالزمان فى حركته بسرعة ما كانوا ليتوقعوها ، فشل من معنوياتهم واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة .

وفى غزوة بنى لحيان تحرك شمالا باتجاه الشام حتى لا يعرف بنو لحيان وقريش اتجاه حركته الحقيقية ، وبذلك باغتهم بالمكان إن المباغته أهم مبادئ الحرب قديما وحديثا ، وقد حرص المسلمون على تطبيق هذا المبدأ فى أكثر غزواتهم ، مما ساعدهم على النصر .

٣ - القصاص : -

القصاص العادل الذى أصاب بنى قريظة بعد تسليمهم ، يقره كل إنسان واقعى سليم التفكير والانصاف .

لقد طعن هؤلاء اليهود المسلمين فى اخرج وقت من أوقات محنتهم ، ولو لم يكن هناك عهد بينهم وبين المسلمين لكان الخطب ولوجدنا بعض العذر لهم ، ولكن أى عذر لهم وقد خانوا العهد فى مثل تلك الظروف ، وأحب ان اتساءل : لو نجح الأحزاب فى غزوة الخندق ، فماذا كانوا يفعلون بالمسلمين ؟ ألم تكن عاقبة المسلمين الابداء والتمثيل ؟ فلماذا لا يبيدون الذين حاولوا معاونة اعدائهم على إبادتهم ؟ لقد أفسح المسلمون المجال أمام بنى قينقاع وبنى النضير من اليهود للجلاء الى خير أو إلى ضواحي الشام ، فماذا كانت النتيجة ؟ أثار هؤلاء اليهود الاحزاب وحشدوهم أمام خندق المدينة للقضاء على المسلمين . ومع ذلك فالموقف جد مختلف بين هؤلاء اليهود وبين يهود بنى قريظة . إذ أن خيانة هؤلاء ونكثهم عهودهم كان فى أخرج الأوقات وأشداهم خطورة على مستقبل الاسلام والمسلمين .

فهل يبقى المسلمون سلما على بنى قريظة ليقوموا بدور اسلافهم بنى قينقاع وبنى النضير ؟ ..

﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾^(١) .
لقد كان بإمكان هؤلاء اليهود ان يتخلصوا من القتل لو أعلنوا إسلامهم كما فعل ثلاثة رجال منهم ، فنجوا بحياتهم وأموالهم .

ولم يقض المسلمون بالقتل إلا على الرجال الذين قاتلوهم فعلا بعد أن خانوا عهودهم وعرضوا المسلمين للابادة ، أما الأطفال والنساء فلم يصابوا بأذى ، كما أن الذين ثبتوا على عهودهم من اليهود لم يصابوا بسوء .

والمرأة الوحيدة التي قتلت من بنى قريظة هي التي قتلت مسلما بقذفه بالرحى من فوق سطحها ، وإنما كان قتلها على جريمتها هذه لا بسبب آخر . اما قتل أبي رافع بن أبي الحقيق ، فلأنه أحد رءوس اليهود الذين حرضوا الأحزاب ، وقتله عبرة لغيره من الذين يحاولون محاولته في المستقبل وحتى قوانين الحرب الدولية الحديثة تجيز القتل في مثل هذا الموقف ، فهذا اليهودي كان من بنى النضير الذين أرادوا اغتيال الرسول - ﷺ - فحاصروهم وتغلب عليهم واضطروهم الى الاستسلام ، ثم سمح لهم بالرحيل بعيدا عن المدينة على ألا يعودوا إلى قتاله أو التحريض عليه ، فإذا نكث هذا بالعهد وحرّض الأحزاب على تطويق المدينة ، وحرّض بنى قريظة على نكث عهدهم مع المسلمين ، إذا كانت هذه أعماله بعد أن أطلقه الرسول - ﷺ - مع قومه بعد استسلامهم ، فمن حق المسلمين ان يقتلوه كمجرم حرب لا كمحارب شريف .

وما يقال عند ذلك يقال عن سرايا القصاص التي بعثها الرسول - ﷺ - لمحاسبة الغادرين الآخرين .

لقد كان قصاص المسلمين من اليهود ومن غيرهم ضروريا وعادلا .

٤ - العقيدة : -

ظهر لنا في هذه الفترة من كفاح الرسول - ﷺ - ، أثر العقيدة في توحيد الصفوف للعمل للمصلحة العامة وحدها ، وأثرها في اندفاع المسلمين ، كل يسابق اخاه إلى الشهادة ، وأثرها في جعل المسلم يحاسب نفسه على ما اقترفه من ذنب لا يعلم به احد غيره من الناس .

طلبت بنو قريظة من المسلمين حضور أبي لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه ، وقد كان أبو لبابة حليفا لهم في الجاهلية وصديقا شريفا لا يشكون في إخلاصه ، فأرسله الرسول - ﷺ - فاستقبله الرجال والنساء والأطفال بالبكاء والعيول ، فأثر ذلك على نفسيته كإنسان . واستشاره اليهود : ايتزلون على حكم محمد؟ فقال لهم : « نعم » وأشار إلى حلقه كأنه ينبههم إلى أن مصيرهم الذبح .

ولكن أبا لبابة أدرك لفوره انه خان الرسول - ﷺ - « بإشارته » تلك وانه خضع لشعوره لا لعقيدته فيما وقع منه ، فمضى هائثا على وجهه نادما حتى وصل مسجد المدينة ، فربط نفسه إل سارية فيه ، وحلف لا يفك نفسه حتى يتوب الله عليه .

وبقى على حاله هذا متشفعا بالرسول - ﷺ - حتى تاب الله عليه ، لم يعرف احد بإشارة أبي لبابة

إلى حلقه حين استشاره اليهود فى التسليم ، ولم تكن اشارته هذه نتيجة تدبر وتفكير ، ومع ذلك لم يستر أبو لبابة فعلته هذه وأعلنها للناس جميعا وعاقب نفسه بنفسه عقابا صارما مما يدل على عقيدته الراسخة وإيمانه العظيم .

وحكم سعد بن معاذ على بنى قريظة بأن يقتل الرجال ونسبى الذرية وتقسم الأموال يدل على عقيدته الراسخة أيضا .

لقد كان سعد سيد الأوس حلفاء بنى قريظة فى الجاهلية ، وقد توقع اليهود ان تنفعهم هذه الصلة القوية عند الحكم عليهم ، كما توقع الأوس أيضا ان يتساهل سعد مع اصداقائهم الاقدمين ، بل استقبله الأوس حين قدومه للحكم هاتفين : يا أبا عمرو ! أحسن فى مواليك .

وقد أحسنت الخزرج قبل ذلك فى مواليتها اليهود عندما استسلموا للمسلمين ، فلماذا لا يحسن الأوس فى مواليتهم مثلما أحسن الخزرج ؟ ولكن سعدا صاح بقومه وقد اكثروا عليه الرجاء : « قد آن لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم » .

وأصدر سعد حكمه العادل غير متأثر بالأهواء بل بعقيدته الراسخة فقط وإيمانه العظيم : ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (١) .

وماذا يعنى دخول عبد الله بن عتيك وحده الحصن الذى يسكنه اليهودى ابورافع بن ابى الحقيق فى وسط اهله وعشيرته ، وتعرض عبد الله نفسه للخطر الداهم بينما ترك اصحابه خارج الحصن فى أمان ؟ !

هل يعنى هذا العمل الا استشار القائد لنفسه بالخطر دون اصحابه طمعا فى الشهادة ، فقد كان بإمكانه تكليف احد اصحابه بهذا الواجب ، ولكنه أثر ان يقوم بنفسه بهذا العمل كله ، فنجح فى القضاء على ابن ابى الحقيق ، والتحق بأصحابه ليلا بعد أن كسرت رجله أثناء نزوله من سطح الحصن . . هذه الأمثلة التى ظهرت لنا فى هذه الفترة من حياة المسلمين ومثلها كثير ، تدل بوضوح على رسوخ العقيدة فى نفوسهم ، مما جعلهم يستهينون بكل شئ فى سبيل عقيدتهم .

٥ - القضايا الادارية :

- الغنائم :

قسمت غنائم بنى قريظة على المسلمين : سهم للراجل وثلاثة اسهم للفارس منها سهمان للفارس ، وذلك تشجيعا للاكثار من الخيل لفائدتها الكبيرة فى القتال ، وبقي الخمس للرسول - ﷺ - لتوزيعه على المحتاجين ولتأمين اغاشة وركوب وسلاح المجاهدين الذين لا يجدون ما ينفقونه على انفسهم فى الجهاد .

لقد تحسنت الحالة الاقتصادية للمسلمين بهذه الغنيمة ، فاستطاعوا الاستغناء عن بعضها لشراء الخيل والاسلحة من نجد ! استعدادا للحركات المقبلة .

ب - الماء :

عندما وصل المسلمون إلى حصون بنى قريظة ، سيطروا على بئر تعود لبنى قريظة بسرعة خاطفة للاستفادة من مائها في أيام الحصار .

ولولا سرعة المسلمين في الاستيلاء على هذه البئر ، لكان من المؤكد ان تقوم قريظة بتدميرها حتى تحرم المسلمين من مياهها الضرورية لهم في القتال .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴾ .
رواية الامام ابن كثير : -

قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور ، وكان سبب قدوم الاحزاب ان نفرا من أشرف يهود بنى النضير الذين كانوا قد اجلاهم رسول الله - ﷺ - من المدينة إلى خيبر منهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مسكم وكنانة ابن الربيع خرجوا الى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب النبي - ﷺ - ووعدهم من أنفسهم النصر والاعانة فأجابوهم إلى ذلك ثم خرجوا الى غطفان فدعوههم فاستجابوا لهم أيضا ، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدها ابو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن ابن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف فلما سمع رسول الله - ﷺ - بمسيرهم امر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي - رضي الله عنه - فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله - ﷺ - التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريبا من أحد ونزلت طائفة منهم في أعالي ارض المدينة كما قال الله تعالى ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ وخرج رسول الله - ﷺ - ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف وقيل سبعمائة فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة ان تصل إليهم وجعل النساء والذراري في أطام المدينة ، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي في المدينة ولهم عهد من النبي - ﷺ - وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب اليهم حيي بن أخطب النضري فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالوا الأحزاب على رسول الله - ﷺ - فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال كما قال الله - تبارك وتعالى - ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ومكثوا محاصرين للنبي - ﷺ - واصحابه قريبا من شهر الا أنهم لا يصلون اليهم ولم يقع بينهم قتال ، إلا ان عمرو بن ود العامري وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين فندب رسول الله - ﷺ - خيل المسلمين إليه فيقال انه لم يبرز اليه احد ،

فأمر عليا - رضى الله عنه - فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله على - رضى الله عنه - فكان علامة على النصر . ثم ارسل الله - عز وجل - إلى الاحزاب ريحا شديدة الهبوب قوية حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين كما قال الله - عز وجل - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا ﴾ قال مجاهد وهى الصبا ، ويؤيد الحديث الآخر : (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)^(١) . وقال ابن جرير بسنده عن عكرمة قال : (قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقى نصر رسول الله - ﷺ - فقالت الشمال : إن الحرة لا تسرى بالليل قال : فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا)^(٢) ورواه ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فذكره . وقال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال أرسلنى خالى عثمان بن مظعون - رضى الله عنه - ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة فقال : (ائتنا بطعام ولحاف قال فاستأذنت رسول الله - ﷺ - فأذن لى وقال : (من أتيت من اصحابي فمرهم يرجعوا) قال : فذهبت والريح تسفى كل شيء فجعلت لا ألقى أحدا الا امرته بالرجوع إلى النبى - ﷺ - قال : فما يلوى احد منهم عنقه ، قال : وكان معى ترس لى فكانت الريح تضربه على وكان فيه حديد قال : فضربت الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى فأبعدها إلى الأرض^(٣)

وقوله ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلى فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء ، لما ألقى الله - عز وجل - فى قلوبهم من الرعب ، .

وقال محمد بن إسحاق بسنده عن محمد بن كعب القرظى قال : (قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة ابن اليمان - رضى الله عنه - يا أبا عبد الله رأيت رسول الله - ﷺ - وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن اخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال والله لقد كنا نجهد ، قل الفتى والله لو أدركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا قال : قال حذيفة - رضى الله عنه - يا ابن اخى والله لو رأيتنا مع رسول الله - ﷺ - بالخندق وصلى رسول الله - ﷺ - هوبا من الليل ثم التفت فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ - يشترط له النبى - ﷺ - ان يرجع - ادخله الله الجنة)^(٤) .

قال فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله - ﷺ - هوبا من الليل ثم التفت إليها فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله - ﷺ - هوبا من الليل ثم التفت اليها فقال : (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشترط له رسول الله - ﷺ - الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة) فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم احد دعانى رسول الله - ﷺ - فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال - ﷺ - (يا حذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ما

(١) البخارى - كتاب الاستسقاء - باب قول النبى - ﷺ - نصرت بالرعب ٤٠/٢

(٢) تفسير الطبرى ٨٠/٢١

(٣) تفسير الطبرى ٨٠/٢١

(٤) مسند الامام أحمد ٣٩٢/٥

يفعلون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا) قال فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله - عز وجل - تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قرارا ولا نارا ولا بناء فقام ابو سفيان فقال : يامعشر قريش لينظر كل امرئ من جلسه قال حذيفة - رضى الله عنه - فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى فقلت من أنت ، فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال ابو سفيان : يامعشر قريش انكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمك لنا بناء فارتحلوا فإن مرتحل ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله - ﷺ - : ألا تحدث شيئا حتى تأتيني لو شئت لقتلته بهم ، قال حذيفة - رضى الله عنه - فرجعت إلى رسول الله - ﷺ - وهو قائم يصلى في مرط لبعض نسائه مرحل فلما رآنى أدخلنى بين رجله وطرح على طرف المرط ثم ركع وسجد وإنى لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم . واخرج ابو داود في سننه منه « كان رسول الله - ﷺ - إذا حزبه أمر صلى » (١) .

قوله تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾ أى : الأحزاب . ومن أسفل منكم والمقصود بهم بنو قريظة ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ أى : من شدة الخوف والفرغ ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ وفيه أقوال : قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله - ﷺ - أن الدائرة على المؤمنين وأن الله سيفعل ذلك ، وقال محمد بن اسحاق في قوله تعالى : ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير اخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ، وقال الحسن في قوله - عز وجل - ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظنون مختلفة ظن المنافقون ان محمدا - ﷺ - وأصحابه يستأصلون . وأيقن المؤمنون ان ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقال ابن ابى حاتم بسنده عن ابى سعيد - رضى الله عنه - قال : قلنا يوم الخندق يارسول الله هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : - ﷺ - نعم ، قولوا ﴿ اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ﴾ (٢) قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح وكذا رواه الامام احمد بن حنبل عن أبى عامر العقدي .

قوله تعالى : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ . وهذا بيان لحال المؤمنين عندما حوصرت مدينتهم وحوصروا من الأحزاب لقد نزل بهم بلاء عظيم حتى زلزلت النفوس من الخوف والفرع زلزالا شديدا ولا عجب فإن النفس البشرية قد يعثر بها

(١) ابو داود في سننه - كتاب الصلاة - باب وقت قيام النبي - ﷺ - من الليل ٧٨٢ - ١٣١٩

(٢) مسند أحمد ٣/٣

الخوف والأمان والفرع والطمأنينة والرجاء والقلق وحيث نجم النفاق وتحركت آثاره فى قلوب المرضى حتى قال قائلهم : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ لا حقيقة لتلك الوعود وهكذا النفوس المريضة اذا تحركت فيها عقارب البغضاء وهاجت فى جحورها ثعابين الحقد فالمنافقون ومرضى القلوب فى كل زمان ومكان عالة على المجتمع فى السراء وسوس ينخر فى عظام الأمة فى البأساء والضراء وحين البأس قال تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتفون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ، وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهوؤ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم تكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا للصلاة قاموا كسالا يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا . إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب ﴾ المقصود بـ يثرب المدينة كما جاء فى الصحيح : (رأيت فى المنام دار هجرتكم أرضا بين حرتين فذهب وهلى أنها هجر فإذا هى يثرب) (٢) وفى لفظ المدينة . ويقال إنما كان اصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق يقال له يثرب بن عبيد بن مهلايل بن عوض بن عملاق بن لاوذين إرم بن سام بن نوح . قاله الهيلي ، قال وروى عن بعضهم أنه قال ان لها فى التوراة أحد عشر اسما : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجاهرة والمحبوبة والقاصمة والمجورة والعذراء والمرحومة .

وقوله : ﴿ لا مقام لكم ﴾ أى : لا إقامة لكم فى ميدان القتال مع رسول الله - ﷺ - فارجعوا إلى المدينة ثم بعد ذلك ابتدعوا من الأعذار ما يدل على سوء طويتهم وخبث نفوسهم وسواد قلوبهم . قالوا ﴿ ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنه - المراد بالطائفة بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق . قال ابن اسحاق ان القائل لذلك هو اوس بن قيطى يعنى اعتذروا فى الرجوع الى منازلهم بأنها عورة أى ليس دونها ما يحجبها من العدو فهم يخشون عليها منهم قال الله تعالى : ﴿ وما هى بعورة ﴾ أى ليست كما يزعمون ﴿ إن يريدون إلا فرارا ﴾ أى هربا من الزحف .

(١) سورة النساء الأيتان : ١٣٨ ، ١٣٩

(٢) البخارى - كتاب المناقب ٢٤٧/٤ وكتاب مناقب الأنصار - باب هجرة النبى - ﷺ - واصحابه الى المدينة ٧٧/٥ وكتاب التعبير - باب اذا رأى بقرأ تنحر ٥٢٨ ومسلم - كتاب الرؤيا - باب رؤية النبى - ﷺ - ١٧٧٩/٤ رقم ٢٢٧٢

قوله تعالى : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا .
ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن
فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تتمعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم
سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ .
يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾
أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سئلوا الفتنة وهي
الدخول في الكفر لكفروا سريعا وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف
وفزع ، هكذا فسرهما قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير وهذا ذم لهم في غاية الذم ، ثم قال تعالى
يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف : ألا يولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف ﴾ وكان عهد
الله مسئولا ﴾ أي : وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لابد من ذلك ، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا
يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم بل ربما كان ذلك سببا في تعجيل أخذهم غرة ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا
لا تتمعون إلا قليلا ﴾ أي : بعد هربكم وفراركم ﴿ قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ﴾ (١)
ثم قال تعالى : ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم من الله ﴾ أي يمنعكم ﴿ إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم
رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ أي : ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا
مغيث .

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منك والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا
قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت
فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك
على الله يسيرا ﴾ .

هذا إخبار عن علم الله المحيط بكل شيء وما علم الله تعالى علم هؤلاء المعوقين المعرقلين الذين
يمنعون غيرهم من الزحف المقدس جهادا في سبيل الله ويقولون لإخوانهم وعشائرتهم (هلم إلينا)
وأقبلوا علينا لنعيش في الظلال والثمار ﴾ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ أي : أنهم عازفون عن الجهاد
وحضور الغزو وشهود المعارك ، إن الله يعلم ما عليه هؤلاء ولن يقعد قوم عن الجهاد إلا ضربت عليهم
الدلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

قوله تعالى : ﴿ أشحة عليكم ﴾ أي : بالخير فهم بخلاء أنانيون ﴿ قد أهتمهم أنفسهم يظنون
بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما
لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب
عليهم القتال إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم إن الله عليم بذات
الصدور ﴾ . إنهم ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت

إن كنتم صادقين ﴿١﴾ فرد عليهم المولى الكريم بقوله ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون - فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالآيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب اليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴿٢﴾ .

إن هؤلاء المعوقين القائلين لاخوانهم : (هلم إلينا) المخلدين إلى الراحة والظلال والثمار قد اختلفت احوالهم سلما وحربا ، أمنا وخوفا إنهم اذا جاء الخوف واحيط بهم وسمعوا النفير يعلن الجهاد والرد على المعتدين رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى تتتابه غمرات الموت وسكراته إنهم جنباء رعاديد ، فإذا ما ذهب الخوف وجاء الأمن استأسد الحمل وتعملق القزم وسلقوكم بالسنه حداد فليس لهم سلاح إلا تلك الألسنة إذ قلوبهم واجفة خائفة إنهم لا يصمدون أمام الأحداث ولكنهم كما قال القائل :

أسد على وفى الحروب نعامه

إنهم (أشحة على الخير) لا يعرفون من الاسلام الا اسمه ومن المصحف إلا رسمه همهم بطونهم وقبلتهم نسائهم إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك

السنة عندهم بدعة والبدعة عندهم سنة يلقاك احدهم بوجه أبى بكر وقلب أبى لهب تحسبه ملاكا فى مظهره ولكنه شيطان رجيم فى مخبره .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً
يلقاك يقسم انه بك واثق
ان الكذوب يشين حرا يصحب
واذا توارى عنك فهو العقرب

(١) سورة آل عمران الآية : ١٦٨

(٢) سورة آل عمران الآيات : ١٦٩ - ١٨٠

يسقيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب
لقد حكم الله على هؤلاء بقوله : ﴿ أولئك لم يؤمنوا ﴾ (إذ الايمان ما وقر في القلب وصدقه
العمل وإن قوما غرتهم الدنيا وأهتهم الأمانى ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا لو
احسنوا الظن لأحسنوا العمل) (١) ﴿ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا
كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ (٢)
وإذا لم يؤمنوا فقد أحبط الله اعمالهم وابطلها ﴿ كالذى ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر
فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى
القوم الكافرين ﴾ (٣) .

وليس إحباط أعمال هؤلاء بالأمر العسير بل كان ذلك على الله يسيرا وسهلا ميسورا .
قوله تعالى : ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب
يستلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ .
وهذا ايضا من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ بل
هم قريب منهم وإن لهم عودة اليهم ، ﴿ وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون
عن أنبائكم ﴾ أى ويودون اذا جاءت الأحزاب انهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة بل في البادية
يسألون عن أخباركم وما كان من امركم مع عدوكم ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ أى : ولو
كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم الا قليلا لكثرة جنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله - سبحانه وتعالى -
العالم بهم .

قوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله
كثيرا . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا
إيمانا وتسليما ﴾

هذا بيان منه تعالى في أن الأسوة الحسنة تتمثل في الفرد والجماعة ، اما الفرد فهو المثل الأعلى
والانسان الكامل محمد - ﷺ - فهو الأسوة الحسنة والقُدوة الطيبة ، وأما الجماعة ففي محمد وصحبه قال
تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا
من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع
أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا
وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ (٤)

لمثل هذا فليعمل العاملون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، لقد اطلع الله على قلوب العباد فوجد
قلب محمد - ﷺ - خير قلوب العباد فاختره لرسالته ، ثم اطلع على قلوب العباد بعده فوجد قلوب
اصحابه خير قلوب العباد فاخترهم لصحبته فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن .

(١) أخرجه البخارى في التاريخ

(٢) سورة الجاثية الآيات : ٧ - ٩

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٦٤

(٤) سورة الفتح الآية : ٢٩

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرجال فلاح
هذه الاسوة الحسنة إنما يقربها ويعترف من كان يرجو لقاء الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا فكل
من كان يرجو لقاء ربه فإنه يعمل لهذا اللقاء والعمل إنما يتقبله الله بشرطين ان يكون صوابا وان يكون
خالصا ولن يكون صوابا إلا إذا كان على هدى - رسول الله - ﷺ - ولن يكون خالصا إلا إذا ابتغى به
وجه الله وقد اجتمع الشرطان في قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا
يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ (١).

وإنما جاءت آية الأسوة كاللؤلؤة بين آيات الغزوة لما كان عليه صلى الله عليه وسلم أثناء الغزوة من
الثبات والقوة والصبر والحلم لقد كان يعلم أصحابه ان يقولوا : ﴿ اللهم استر عوراتنا وآمن روعلتنا ﴾ (٢)
سيدى ابا القاسم يارسول الله :

أنت الذى قاد الجيوش محطما عهد الضلال وأدب السفهاء
وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فاتقوا سعداء
لقد كان حال المؤمنين وقت الشدة حال الواثق الثابت الموقن بوعد الله وصدقه : ﴿ ولما رأى
المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴾ أى من الابتلاء والشدائد ﴿ وصدق الله
ورسوله ﴾ الوعد ﴿ وما زادهم ﴾ هذا ﴿ إلا إيمانا وتسليما ﴾ إلا إيمانا وبقينا وتسليما وتفويضا ، ونحو
ذلك قوله تعالى : ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء
والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسل والذين امنوا معه متى نصر الله الا إن نصر الله قريب ﴾ (٣).
وقوله جل شأنه : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدو منكم ويعلم
الصاهرين ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من
دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون ﴾ (٥).

الأسوة الحسنة

لقد زكى الله عقل نبينا فقال سبحانه : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ (٦) ، وزكى لسانه فقال
﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (٧) وزكى شرعه فقال ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ (٨) وزكى معلمه فقال
﴿ علمه شديد القوى ﴾ (٩) وزكى فؤاده فقال ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ وزكى بصره فقال ﴿ ما زاغ
البصر وما طغى ﴾ (١٠) وزكى أمته فقال ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس
ويكون الرسول شهيدا ﴾ (١١) وزكاها مرة أخرى فقال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وزكى أهل
بيته ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ .

(٧) سورة النجم الآية : ٣
(٨) سورة النجم الآية : ٤
(٩) سورة النجم الآية : ٥
(١٠) سورة النجم الآية : ١١
(١١) سورة النجم الآية : ١٧
(١٢) سورة البقرة الآية : ١٤٣

(١) سورة الكهف الآية : ١١٠
(٢) مسند احمد : ٣/٣
(٣) سورة البقرة الآية : ٢١٤
(٤) سورة آل عمران الآية : ١٤٢
(٥) سورة التوبة الآية : ١٦
(٦) سورة النجم الآية : ٢

وزكى رسالته فقال ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (١) وزكاه كله فقال ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ (٢).

أنت الذى من نورك البدر اكتسى	والشمس مشرقة بنور جهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما	بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا	ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفض دين الشرك ياعلم الهدى	ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وما عسى	أن تجمع الكتاب من معناك
صلى الله عليك ياعلم الهدى	ما اشتاق مشتاق مثواك الى مساك

إن أجل الغايات وأشرفها ، وأكرم الأهداف وأسمها : أن تتعقد عزائمنا على اتباع رسول الله ، وإن تتأكد روابط قلوبنا على محبته ، والعمل بسنته ، وأن تتنافس فى الثامى به ، واقتفاء آثاره النبوية الشريفة ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ (٣).

والذى لا شك فيه ، أننا نحن الذين نستفيد من الاستقلال بلواء رسول الله - ﷺ - فقد غفر الله له ذنبه ، ورفع له ذكره ، وشرح له صدره ﴿ وأناه سؤله ، وهداه جهدي الأنبياء جميعا ، وجعله اماما وشهيدا .

﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ (٤) فهو إذن صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود .

وإذا كان الله عز وجل أكرم نبينا ومرشدنا بهذه المكارم كلها فنحن مع ذلك نسأل الله المزيد له رفعة درجته رفعة لنا ، بل للبشرية جميعا ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٥) .
وإذا كان من بلاغة القول أن يسلس البيان ، ويهذب الوجدان ويجعل العقول والأفئدة تتمايل تمايل الطروب النشوان .

فإن من البلاغة أيضا أن تنبهر فتعجز عن التعبير ، وأن تحاول الكلام فتعجز عن التصوير .
ومقام البلاغة الثانى هو الذى يلازمنا هنا وفى كل زمان ومكان ، كلما أردت عن النبى - ﷺ - كلاما ، أو فى الرسول مديحا .

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم	واحكم بما شئت قدرا فيه واحتكم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر	وانه خير خلق الله كلهم

لقد كانت عظمة الرسول - ﷺ - عظمة مستمدة من مكنون القدر ، وداخل النفس ، فهى عظمة غير مكتسبة بمال ، ولا جاه ، ولا سلطان ! وهى عظمة لا يزيد بها الرخاء ولا تنقصها الشدة ، ولا

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٠٧

(٢) سورة القلم الآية : ٤

(٣) سورة المطففين الآية : ٢٦

(٤) سورة النساء الآية : ٤١

(٥) سورة الأنبياء الآية : ١٠٧

يظهرها الغنى ولا يخفيها الفقر ، ولا يكبرها سلطان ولا يصغرها زواله ، ولا يقويها نصر ولا تضعفها هزيمة .

إنما هى عظمة ثابتة ثبات الأزل ، لأنها من الأزل نفسه ، السارية فى الكون سريان القوانين الالهية ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ولو جمعت كل أوصافه ﷺ ونظمتها بعضها إلى بعض واعتبرتها بأسرارها العلمية ، لرأيت فيها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الانسان الأعظم ، كما يقوم الكون الكبير بسنن وأصول الحكمة فيه ، ولأيقنت ان هذا النبی الكريم ، إن هو الا معجم نفسى حى ألفته الحكمة الالهية بعلم من علمها ، وقوة من قوتها ، لتخرج به الأمة التى تبدع العالم إبداعا جديدا ، وتنشئه النشأة المحفوظة له فى أطوار كماله .

فهو إنسان غرس فى التاريخ غرسا ليكون حدا لزمن وأولا لزمن بعده ، وما كانت حياته تلك الا طريقة غرسه ، وهو ابدا قائم فى مكانه الاجتماعى ، إذ كان الزمن كلما تقدم زاد فى إثباته . . . فلن يتغير أو يمحى الا اذا تغير او محى المشرق والمغرب (وحى القلم لمصطفى صادق الرافعى : ج ٢) . ونحن لا نريد بحب رسول الله - ﷺ - ذلك الحب البارد أو الفاتر الذى ينتهى بالصلوات والتسبيحات ، والهمهمات والتمنات إن هذا الحب لا يبنى فردا ، ولا مجتمعا ، ولا يقيم صرحا ولا عمدا إنما نريد الحب المشتعل ، والفؤاد المفعم الوثاب ، والعاطفة المشدودة الى مثلها العليا التى خطها لها النبی الأعظم - سيدنا محمد ﷺ - ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم ﴾ (١) ولذلك كان من صحة الايمان او كماله ، أن يكون هوى المؤمن تبعا لما جاء به نبيه وهاديه .

فيكيف نفسه بهداه ، ويربطها بسماه ، ويعبقها بشداه ، ويسخط بسخطه ويرضى لرضاه . ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأق الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ (٢) .

فالتجرد لهذا الحب هو ما يطالب به الاسلام ، وهو « بطاقة » الجنة ، وهو الذى يرسخ قدمك على الأرض ، ويمد قامتك إلى عنان السماء !

هل النبی يستحق هذا الحب ؟

ونضيف إلى هذا السؤال سؤالا آخر : وهل حبنا لرسول الله - ﷺ - أمر تعبدى أو وجدانى ، أو تملية الشخصية « اليتيمة » والافاضة الربانية غير المحدودة ؟ والجواب عندى أن حبنا مهما زاد ، وعملنا مهما اتصل ، فلن نقدر رسول الله قدره ، ولا ان نوفيه حقه ، ولا بعضا من هذا الحق الذى أصبح دينا مستكنا فى أعماق النفس البشرية لا يجحده إلا جهول

(١) سورة آل عمران الآية : ٣١

(٢) سورة التوبة الآية : ٢٤

ولا ينكره إلا مأفون ! وهو حب ممل من الأقدار ؛ لأنه نبي اجتمعت فيه خصائص الأنبياء ، وحب يفيض به الوجدان لأنه يجد فيه الانسان المفرد في مزاياه ، المنزه عن الشركة في طبائعه وسجاياه فهو حب هابط على القلوب ونابع عنها ، يزرعه الاله ، ويرويه الانسان وينميه الدين ، فهو حب من غير اكراه ، حب يقذف في اعماق النفس ، وهو حب يسمو به المحب ويعلو حتى يصل إلى درجات الصديقين ! !
والمسلمون اليوم ينقصهم الحب الذكى المتفاعل مع جوارح الانسان وعواطفه واذا كانت الامم تجتمع على زعمائها المخلصين لها ، فيتفانون في إرضائهم ويتسابقون في تقديرهم ..

أفلا نستمسك - نحن المسلمين - بعروة نبينا الوثقى ، ونتفانى في إرضائه ، ونحرص على الحنيفة السمحة التي بعث بها ﷺ ان زعماء الدنيا تتوقف زعامتهم بأيام معدودة ، وتنتهى بانتهائهم .
أما رسولنا العظيم ، فقد قادنا أيام حياته إلى أقوم صراط ، وسيقودنا في يوم الزحام ، إلى الخوض لشرب ، وإلى الجنة لننعم إلى المجتمع الذى لاغل فى صدره ، ولا تفكك فى صفوفه :
﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ (١) .

- لقد عاش سلفنا الصالح فى نبهم فسادوا وقادوا ، وفتحوا وعمرؤا فهل يعيش الخلف المعاصر عيشهم ليسودوا ويقودوا . ويفتحوا ويعمرؤا ؟

هذه هى الأمنية الوحيدة التى توقظ المسلمين من سباتهم العميق ، وتشعل عواطفهم التى ران عليها ما كسبه من الآثام والسيئات ان هذا « التجمع » حول نبينا - ﷺ - هو وحده الذى يجعلنا نقاوم طغيان الطغاة ، وعبث العابثين .

- وإذا كانت الأمم تجعل مثلها الأعلى نابعا من بيئتها وتفكيرها ، فبعض الأمم ينبع مثلها الأعلى من غريزتها ، فيكون امرأة جميلة وقدا مستقيما ، والبعض ينبع مثله الأعلى من بطنه فيكون فى أكلة - طيبة .. وشربة حلوة وكفى .

والبعض ينبع مثله الأعلى من طبيعته المتجبرة ، فيكون سلطانا واستعبادا واذلالا وإقهارا .
ولكن الله - عز وجل - أراد من الأمة المسلمة ان تجعل مثلها الأعلى هو رسول الله - ﷺ - فى كل شئ ! ! فى علمه وعمله ، فى ضحكه وبكائه ، فى نومه ويقظته ، فى قعوده وسيره ، فى حربه وسلمه ، فى مأكله ومشربه ، فى حلمه وغضبه ، فى جميع أفعاله وتصرفاته ، لانه ﷺ ، هو أكمل النماذج البشرية جميعا وأعظم المستويات جميعا .

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ .
- والأمة حين تتوحد فى عاداتها على عادات هذا النبى ، وفى هديها على هديه ، وفى سلوكها على سلوكه ، تكون سيدة الأمم هديا ورقيا وحضارة وسلوكا .

والحمد لله الذى جعلنا من أمة هذا النبى الذى طلعت شمسها علينا فأطفأت كل قنديل ، وهى شمس تملأ الدنيا حرارة وقوة ، ونماء واريجا ﴿ كتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون

عن المنكر وتؤمنون بالله ﴿١﴾ .

قال مصطفى صادق الرافعى رحمه الله :

كما تطلع الشمس بأنوارها ، فتفجر ينبوع الضوء المسمى بالنهار ، يولد النبى فيوجد فى الانسانية ينبوع النور المسمى بالدين وليس النهار الا بقظة الحياة تحقق أعمالها ، وليس الدين إلا بقظة النفس تحقق فضائلها .

والشمس خلقها الله حاملة طابعه الالهى فى عملها للمادة تحول به وتغير . والنبى يرسله الله حاملا مثل ذلك الطابع فى عمله للروح تترقى فيه وتسمو .

ورعشان الضوء من الشمس هى قصة الهداية للكون فى كلام من النور . وأشعة الروح فى النبى هى قصة الهداية لانسان الكون فى نور من الكلام والعامل الالهى العظيم يعمل فى نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين أجرام النور من الشمس والكواكب ، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء فليس النبى إنسانا من العظماء ، يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ومع المنطق الشك ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة . ولكنه إنسان نجمى يقرأ بمثل التلسكوب فى الدقة معه العلم ، ومع العلم الايمان ، ثم يدرس بكل ذلك على طبيعته النورانية وحدها . والحياة تنشئ علم التاريخ .

ولكن هذه الطريقة فى درس الانبياء - صلوات الله عليهم - تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة . فإنما النبى إشراق إلهى على الانسانية ، يقومها فى فلکها الاخلاقى ويوجد بها إلى الكمال فى نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية فى الكواكب . أ هـ .

إننا نطالب الأمة الاسلامية ونهيب بها ان تجتمع حول هذا النبى العظيم ، لتتوحد تحت رايته ولنرتبط به ، ونربط قلوبنا عليه !!

فالمسلمون اليوم تتوزعهم شعارات مختلفة ، وتفرقهم أهواء متبانية فلكل دولة شعار ، ولكل بلد تقاليد وعادات ، ولكل أمة سبيل ومنهاج فلماذا هذا الخلاف والصراط مستقيم ، والنبى واحد ، والقبلة واحدة ، والدين واحد .

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ ﴿٢﴾ .

قال الاستاذ أحمد عبد الجواد الدومى (رحمه الله) .

وفى هذه الأيام تتعرض الأمة الاسلامية للطواحين الطاحنة ، والأفكار المسمومة ، والثقافات الدخيلة .

ومما يؤسف له أن عاداتنا العربية ذابت فى تقاليد الغرب ، وإن فلسفتنا الشرقية انصهرت فى الفلسفة الغربية ، وإن حضارتنا العريقة انطمست معالمها على مرأى منا ومسمع ، وحييت الحضارات الملوثة ، والرطانات المخبولة .

إنك تدخل بيوت كثير من عظمائنا العرب وعظمائنا المسلمين ، فلا تشم الا رائحة التقليد

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٠

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٥٢

الغربي في المأكّل والمشرب ولا تنظر إلا الزرابي المبتوثة ، والنمارق المصفوفة ، ومع ذلك فلو سألت عن سجادة أو حصير للصلاة لا تجد شيئاً من ذلك في هذه البيوت الفخمة لأن الصلاة ليست في الحسبان ، ومع هذا فنحن عرب ونحن مسلمون . وتجلس على الموائد الممدودة ، فلا تجد مظهراً من مظاهر الاسلام ولا أدباً من آدابه .

لقد اختفى مظهر البساطة ، ومظهر غسل اليد قبل الطعام ، ومظهر الأكل مما يليك ، مع مضع اللقمة ، كما اختفى مظهر الحديث الهادئ الوديع ، وحل محل ذلك كله الأيدي القاطعة بالمدى ، والأعين الزائغة الطائرة ، والنفوس الطامعة المسعورة ، والحديث عن آخر المودات والتقاليع . كأن ذلك هو كل ما ورثناه ومع هذا فنحن عرب ونحن مسلمون .

وأصبح المسلم ابن المسلم يستحي أن يخرج من المسجد ولا يستحي حين يخرج من السينة ، ويمشي مع خليلته كما يمشي مع خليلته ، ومع ذلك كله فنحن نزع من اننا عرب وأننا مسلمون ! قوله تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ .

قال البخاري رحمه الله تعالى بسنده عن خارجه بن زيد بن ثابت عن أبيه قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت اسمع رسول الله - ﷺ - يقرأها لم أجدها إلا مع خزيمة ابن ثابت الانصاري - رضي الله عنه - الذي جعل رسول الله - ﷺ - شهادته بشهادة رجلين ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (١)

وقال الامام أحمد بسنده عن ثابت قال : قال أنس : عمي أنس بن النصر - رضي الله عنه - سميت به لم يشهد مع رسل الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهدته رسول الله - ﷺ - غبت عنه لئن اراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله - ﷺ - ليرين الله - عز وجل - ما اصنع . قال فهاب أن يقول غيرها فشهد مع رسول الله - ﷺ - يوم احد فاستقبل سعد بن معاذ - رضي الله عنه - فقال له أنس - رضي الله عنه - يا أبا عمرو أين ؟ واهل لريح الجنة إلى اجده دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل - رضي الله عنه - قال : فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية فقالت اخته عمتي الربيع ابنة النصر : فما عرفت أخى الا بينانه قال فنزلت هذه الآية ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ قال فكانوا يرون انها نزلت فيه وفر أصحابه - رضي الله عنهم (٢)

وأخرج مسلم والترمذي من حديث سليمان بن المغيرة وقال ابن أبي حاتم بسنده عن أنس - رضي

(١) البخاري تفسير سورة الأحزاب ١٤٦٦

(٢) مسند الامام احمد ١٩٣/٤

الله عنه - قال : ان عمه يعنى انس بن النضر - رضى الله عنه - غاب عن قتال بدر فقال : غبت عن أول قتال قاتله رسول الله - ﷺ - المشركين لئن اشهدنى الله - عز وجل - قتالا للمشركين ليرين الله تعالى ما أصنع ، قال فلما كان يوم احد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني اعتذر إليك بما صنعته هؤلاء - يعنى أصحابه - وابراً إليك مما جاء به هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم فلقية سعد - يعنى ابن معاذ - رضى الله عنه - دون أحد فقال : أنا معك قال سعد - رضى الله عنه - فلم استطع أن أصنع ما صنع فلما قتل قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم وكانوا يقولون فيه وفي أصحابه نزلت ﴿ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ﴾ (١)

وروى ابن جرير بسنده عن موسى بن طلحة عن ابن طلحة - رضى الله عنه - قال : لما أن رجع رسول الله - ﷺ - من أحد صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وعزى المسلمين بما أصابهم وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ثم قرأ هذه الآية ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ (٢)

قال مجاهد ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ يعنى عهده (ومنهم من ينتظر) قال : يوما فيه القتال فيصدق في اللقاء . وقال الحسن (فمنهم من قضى نحبه) يعنى موته على الصدق والوفاء ، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ومنهم من لم يبدل تبديلاً . وقال بعضهم : ﴿ نحبه ﴾ ﴿ نذره ﴾ ﴿ وما بدلوا تبديلاً ﴾ أى : وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله سؤلاً ﴾ .

إن هذه الآية الكريمة تعتبر برقية عزاء ربانية ظاهرة نزل بها أمين السماء وسفير الأنبياء وكبير امناء وحى صاحب العظمة والكبرياء ، نزل بها الروح الأمين على قلب أمين الأرض والسماء وقد شهد الله هؤلاء الطاهرين الطيبين في هذه الآية بثلاث خصال : شهد لهم بالايمان ، وهو العقيدة التى إذا تابشرت بشاشتها شغاف القلوب وتمكنت تكاد تجعل المستحيل ممكناً والملح الأجاج عذبا فراتا سلسيلاً ، كما شهد لهم بالرجولة ، والرجولة عملة نادرة وكلمة طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها إلى أعماق القلوب والاسلام صانع الرجال الذين جعلوا من البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان في ارض الإسلام قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال ﴾ وقال : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ (٣) وقال أصدق القائلين ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (٤) وقال تعالى :

(١) مسلم - كتاب الامارة - باب ثبوت الجنة للشهيد ١٥١٢/٣ رقم ١٩٠٣ والترمذى - كتاب التفسير سورة الاحزاب ج ٥ / ٢٨ رقم

(٢) تفسير الطبرى ٩٣/٢١

٣٢٥٣

(٣) سورة التوبة الآية : ١٠٨

(٤) سورة النور الآيات : ٣٦ - ٣٨

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج انى لك لمن الناصحين ﴾ (١)

﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يستلکم اجرا وهم مهتدون . وما لى لا أعبد الذى فطرني وإليه ترجعون . أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إني إذا لقي ضلال مبين إني آمنت بربكم فاسمعون قیل ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى وجعلني من المكرمين ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾ (٣) .

ان الاسلام يؤمن بالواحد ، إذ الكثرة قد تكون عبثا ثقيلا على كاهل الجماعة إذا كانت تلك الكثرة غناء كغناء السيل وكما شهد الله لهم بالايمان والرجولة شهد لهم بصدق العهد . فاعجب معى لقوم عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ثم نقضوا العهود ونكثوا العهود ، أما هؤلاء الأبطال الصناديد لقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وحسب الصدق شرفا أن يقول عنه رسول الله - ﷺ - كما جاء فى الصحيح « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى للفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (٤) فالؤمن إذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا اتّمن أدى والمنافق إذا وعد أخلف وإذا حدث كذب وإذا اتّمن خان ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر فستان ثم شتان ما بين هؤلاء واولئك ، ان الفرق بين الفريقين كالفرق بين الأرض والسماء ، والثرى والثريا ومسابع الاسماك ومدارج الافلاك ، وعليين وسجين ان فريقا المؤمنين اظهر من السحابة فى سمائها وأنصع من ماء الغمام ، انهم النور الذى يهتدى بهم من ضل السبيل (انهم مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء) .

وجل جلال الله إذ يقول فى هؤلاء : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيمًا ﴾ .

(١) سورة القصص الآية : ٢٠

(٢) سورة يس الآية : ٢٠

(٣) سورة غافر الآية : ٣٨

(٤) البخارى - كتاب الأدب - باب قول الله تعالى : ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ٣٠/٨

(٥) سورة التوبة الآية : ١٠٠

هذا حكم الله تعالى فى الفريقين والله - سبحانه وتعالى - اذ حكم عدل واذا قال صدق واذا اراد فلا راد لما اراد واذا قضى فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب فيظهر امر هذا بالفعل وأمر هذا بالفعل مع انه تعالى يعلم الشئ قبل كونه ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعلموا بما يعلمه منهم حتى قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ (١) فهذا علم بالشئ بعد كونه وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده . وكذا قال الله تعالى : ﴿ ما كان الله ليجزى المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطالعكم على الغيب ﴾ (٢) ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ أى : يصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظتهم عليه ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ولكن هم تحت المشيئة فى الدنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه وإن شاء تاب عليهم بان ارشدهم الى النزوع عن النفاق الى الايمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿ إن الله كان غفورا رحيمًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ﴾

وهذا إخبار منه تعالى عما أنزله بالمشركين من الهوان والخزى العظيم فقد ردوا الى بلادهم خائبين خاسرين يجرون أذيال الندامة بغيظهم وحنقهم وحقدهم ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ وهذه نعمة من نعم الله على عباده ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٣) ﴿ وكان الله قويا ﴾ لا يضعف ﴿ عزيزا ﴾ لا يغلب ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ وقال تعالى : ﴿ ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ (٦)

وقال سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (٧) فمن كان الله معه فمن عليه ! ومن وجد الله فماذا فقد ، كل شئ قائم به وكل شئ خاشع له ، عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف وغنى كل فقير ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم يسمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فاليه منقلبه .

(٥) سورة الحج الآية : ٤٠
(٦) سورة الحديد الآية : ٢٥
(٧) الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨

(١) سور محمد الآية : ٣١
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٧٩
(٣) سورة المائدة الآية : ١١
(٤) سورة المجادلة الآية : ٢١

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ ﴾ .

لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة نقض بنو قريظة ما كان بينهم وبين رسول الله - ﷺ - من العهد وكان ذلك بسفارة حيى بن أخطب النضرى لعنه الله فقد دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وقال له فيما قال ويحك قد جئت بك بعز الدهر اتيتك بقريش واحابيشها وغطفان واتباعها ، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فقال له كعب : بل والله اتيتني بذل الدهر ويحك يا حيى انك مشثوم فدعنا منك ، فلم يزل يقتل في الذروة والغارب حتى اجابه واشترط له حيى إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن فيكون له

اسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جدا فلما ايده الله تعالى ونصره وكبت الاعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ورجع رسول الله - ﷺ - إلى المدينة مؤيدا منصورا ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله - ﷺ - يغتسل من وعاء تلك المراقبة في بيت أم سلمة - رضي الله عنها - اذ تبدى له جبريل - عليه السلام - معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟

قال - ﷺ - : (نعم . . قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعى من طلب القوم ، ثم قال : ان الله تبارك وتعالى يأمرك ان تنهض إلى بني قريظة ، وفي رواية فقال له عذيرك من مقاتل اوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » قال لكنا لم نضع اسلحتنا بعد . انهض الى هؤلاء قال

- ﷺ - : وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال - ﷺ - : لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق وقالوا لم يرد منا رسول الله - ﷺ - الا تعجيل المسيرة ، وقال آخرون لا نصليها الا في بني قريظة فلم يعنف واحدا من الفريقين ، وتبعهم رسول الله ﷺ وقد استخلف على المدينة ابن

أم مكتوم - رضي الله عنه - وأعطى الراية لعل بن أبي طالب - رضي الله عنه - ثم نازلهم رسول الله ﷺ - وحاصرها خمسا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس - رضي الله عنه - لانهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية واعتقدوا انه يحسب اليهم في ذلك كما فعل عبد الله ابن أبي بن سلول في مواليه بني قينقاع حين استطلقهم رسول الله - ﷺ - فظن هؤلاء ان سعدا سيفعل

فيهم كما فعل ابن أبي في اولئك ولم يعلموا ان سعدا - رضي الله عنه - كان قد اصابه سهم في أكحله ايام الخندق فكواه رسول الله - ﷺ - في أكحله وأنزله في قبة في المسجد ليعود من قريب وقال سعد - رضي الله عنه - فيما دعا به : اللهم إن كنت ابقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها ، وإن كنت وضعت الحرب

بيننا وبينهم فافجرها ولا تمتنى حتى تقر عيني من بنى قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم ان نزلوا على حكمه باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله - ﷺ - من المدينة ليحكم فيهم ، فلما اقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون ياسعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ويرفقونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال - رضى الله عنه - ، لقد آن لسعد الا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا انه غير مستبقيهم فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله - ﷺ - قال رسول الله - ﷺ - : (قوموا الى سيدكم) فقام اليه المسلمون فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم فلما جلس قال له رسول الله - ﷺ - : إن هؤلاء - وأشار اليهم - قد نزلوا على حكمك فأحكم فيهم بما شئت . . فقال - رضى الله عنه - وحكمى نافذ عليهم ، قال - ﷺ - « نعم » قال وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال « نعم » قال وعلى من ههنا وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله - ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله - ﷺ - اجلالا وإكراما وإعظاما ، فقال له رسول الله - ﷺ - : « نعم » فقال - رضى الله عنه - انى احكم ان تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وأموالهم فقال له رسول الله - ﷺ - : « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة ارقعة »^(١) وفى رواية (لقد حكمت بحكم الملك) ثم امر رسول الله - ﷺ - بالاخاديد فخذت فى الأرض وجيء بهم مكتفين فضرب اعناقهم وكانوا ما بين السبعمائة الى الثمانمائة وسبى من لم يثبت منهم مع النساء ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ اى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله - ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ يعنى بنى قريظة من اليهود من بعض أسباط بنى اسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما طمعا فى اتباع النبی الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل . ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾^(٢) فعليهم لعنة الله ، وقوله تعالى : ﴿ من صياصيهم ﴾ يعنى حصونهم ﴿ وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ وهو الخوف لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبی - ﷺ - وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليخزوهم فى الدنيا فانعكس عليهم الحال ، وانقلب اليهم القال انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون . فكما راموا العز ذلوا ، وارادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، واضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة ان هذه هى الصفقة الخاسرة ولهذا قال تعالى : ﴿ فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة والأسراء هم الأصغر والنساء .

وقوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ أى : جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وأرضا لم تطئوها ﴾ قيل : خير وقيل : مكة وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون المراد الجميع ﴿ وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض فقد

(١) البخارى - كتاب المغازى - باب غزوة الخندق ١٤٣/٥

ومسلم - كتاب الجهاد - باب جواز قتال من نقض العهد ١٣٨٩/٣ رقم ١٧٦٩ ومسنده أحمد ١٤١٧٦

(٢) سورة البقرة الآية : ٨٩

هزم الأحزاب وحده ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيتهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ﴿ هؤلاء المؤمنون الذين ورثوا تلك الأرض والديار والأموال كانوا جديرين بهذا النصر لقد وقفوا عند قوله تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ (١) فقد اصطلحوا مع الله وكان تلك الآية معاهدة صلح استوفت كل الشروط ويوم نعود إلى الله ونعمل بما أمرنا به ونجتنب ما نهانا عنه يومها سنكون ممن قال الله فيهم : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ (٢) ومن قال فيهم ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ (٣) .

قصة التخيير

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يٰ نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

معاني المفردات

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها
فتعالين : أى : أقبلن باختياركن واخترن أحد الأمرين .
أمتعنكن : أعطكن المتعة وهى قميص وغطاء للرأس وملحفة - ملاءة - بحسب السعة والاقتار .
وأسرحكن : أى : أطلقكن
سراحا جميلا : أى : طلاقا من غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة
بفاحشة : أى : فعله قبيحة كنشوز وسوء خلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على الله ورسوله .
مبينة : أى : ظاهرة القبح من قولهم : بين كذا بمعنى ظهر وتبين .
ضعفين : أى : ضعف عذاب غيرهن أى : مثليه .
يسيرا : أى : هينا لا يمنعه عنه كونهن نساء النبى بل هذا سبب له .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نصر الله تعالى نبيه - ﷺ - فرد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير ظن أزواجه

(١) سورة الحج الآية : ٤١

(٢) سورة الحج الآية : ٤٠

(٣) سورة الروم الآية : ٤٧

- رضى الله عنهن - أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن : يا رسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحل والحلل والاماء والخول - الخدم والحشم - ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق وآلن قلبه الشريف بمطالبهن من توسعة الحال ومعاملتهن معاملة نساء الملوك وابناء الدنيا من التمتع بزخرفها من المأكول والمشرب ، ونحو ذلك فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل فى شأنهن .
- روى احمد عن جابر - رضى الله عنه - قال : (أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ - والناس يبابه جلوس والنبي ﷺ - جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر - رضى الله عنه - فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فدخلوا والنبي ﷺ - جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر لأكلمن النبي ﷺ - لعله يضحك ، قال : يا رسول الله ! لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة أنفا فوجأت عنقها . فضحك النبي ﷺ - حتى بدت نواجذه وقال « هن حولى يسألننى النفقة » فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول : تسألان النبي ﷺ - ما ليس عنده فنهاهما رسول الله فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ - بعد هذا المجلس ما ليس عنده وأنزل الله - عز وجل - الخيار فبدأ بعائشة - رضى الله عنها - فقال لها إني أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك . قالت ما هو ؟ فتلا عليها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ ﴾ الآية : قالت عائشة - رضى الله عنها - : أفيك استأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال - ﷺ - (إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعثنى معلما ميسرا ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها) رواه مسلم والنسائي^(١)

ثم وعظهن بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وخصهن بأحكام يجدر بمثلهن أن يستمسكن بها لما لهن من مركز ممتاز بين نساء المسلمين لأنهن أمهات المؤمنين ، وموضع التجلة والكرامة إلى أنهن فى بيت صاحب الدعوة الإسلامية وعنه انبعث نور الهدى والطهر والعفاف فأجدر بهن أن يكن المثل العليا فى ذلك ويكن قدوة يأتسى بهن نساء المؤمنين جميعا ويألها منقبة أوتيت لهن دون سعى ولا إيجاف منهن ، بل هى منحة أكرمهن الله بها ، فله الحمد فى الآخرة والأولى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ .

أى : يا أيها الرسول قل لأزواجك : اخترن لانفسكن إحدى خلتين : أولاهما ان تكن ممن يحببن لذات الدنيا ونعيمها والتمتع بزخرفها فليس لكن عندى مقام إذ ليس عندى شيء منها فأقبلن على أعطكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إيا هن بالطلاق ، تطيبا لخاطرهن

(١) مسند احمد ٣٢٨/٣

ومسلم - كتاب الطلاق - باب بيان ان تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية ١١٠٣/٣ رقم ١٤٧٥

وتعويضاً لمن عا لحقهن من ضرر بالطلاق وهى كسوة تختلف بحسب الغنى والفقر واليسار والافتار كما قال تعالى : ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾^(١) ثم أسرحكن وأطلقن على ما أذن الله به وأدب به عباده بقوله :

﴿ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾^(٢) وكان عند رسول الله - ﷺ - يومئذ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة ، وحفصة . وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة - رضى الله عنهن - ، وأربع من غير القرشيات . زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وصفية بنت حى بن اخطب النضيرية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية .

وحين نزلت هذه الآية عرض عليهم رسول الله - ﷺ - ذلك وبدأ بعائشة وكانت احب أهله إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ففرح رسول الله - ﷺ - ثم تابعها بقية نسائه .

ثم ذكر ثانية الخلتين فقال :

﴿ وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً ﴾ أى وإن كنتم تردن رضا الله ورضا رسوله وثواب الدار الآخرة فأطعنه فإن الله أعد للمحسنات منكم فى أعمالهن القولية والفعلية ثواباً عظيماً تستحقن الدنيا وزينتها دونه كفاء احسانهن . والخلاصة - انتن بين أحد أمرين : أن تقمن مع الرسول وترضين بما قسم لكن وتطعن الله وأن يمنعكن ويفارقكن إن لم ترضين بذلك .

وبعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله - أتبع ذلك بعظتهن وتهديدهن إذا هن فعلن ما يسوء النبى

- ﷺ - وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال :

﴿ يانسئ النبى من يأت منكم بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أى : من يعص منكم الرسول - ﷺ - ويطلب ما يشق عليه ويضق به ذرعاً ويغتم لأجله - يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين ، أى تعذب ضعف عذاب غيرها لأن قبح المعصية منهن أشد ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاصى أشهر منه للجاهل العاصى وكان ذلك سهلاً يسيراً على الله الذى لا يحابى أحداً لأجل أحد إذ كونهن نساء رسوله ليس بمغن عنهن شيئاً ، بل هو سبب لمضاعفة العذاب .

روى أن رجلاً قال لزين العابدين - رضى الله عنه - إنكم أهل بيت مغفور لكم فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى - ﷺ - من أن نكون كما قلت إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ولمسيئنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتى بعدها .

كلمة عن رسول الله وأزواجه

من قواعد الايمان الأساسية ان تحب رسول الله - ﷺ - حبا بينه نبى الله فى قوله الكريم « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »^(٣)

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٦

(٢) سورة الطلاق الآية : ١

(٣) مسلم - كتاب الايمان - باب وجوب محبة رسول الله ﷺ - أكثر من الأهل والولد ج ١ ص ٦٧

ورسول الله - ﷺ - جدير بهذا الحب . أليس هو النبى الذى رفع الله ذكره وأعلى قدره وقرن اسمه باسمه إذ يقول ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ (١) .

أليس هو الذى حذر الله من مخالفة أمره إذ يقول : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٢) .

- أليس هو الذى قرن الله طاعته بطاعته فقال ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفیظا ﴾ (٣) .

أليس هو الذى سيندم العصاة على مخالفته ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ .

- أليس هو الذى قرن الله محبته باتباع هديه والسير وراءه فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ (٤) .

أليس هو الذى أمر الله المؤمنين بالصلاة والسلام عليه وهو الذى يصلى عليه وملائكته ؟ ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ . صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمام .

كل القلوب إلى الحبيب تميل	ومعى بهذا شاهد ودليل
أما الدليل إذا ذكرت محمدا	صارت دموع العارفين تسيل
هذا رسول الله هذا المصطفى	هذا لرب العالمين رسول
ياسيد الكونين يا علم الهدى	هذا المقيم فى حماك نزيل

ماذا أقول عنك يا رسول الله وقد أخذ الله من النبيين ميثاقهم فى مشهد ربانى رائع فقال : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم واخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾

هذا النبى الهاشمى محمد	هذا لكل العالمين رسول
هذا الذى رد العيون بكفه	لما بدت فوق الخدود تسيل
هذا الذى شرف الوجود بهديه	منهجه للسالكين سبيل
هذا الغمامة ظللته إذا مشى	كانت تقيه إذا الحبيب يقيل
صلى عليك الله يا علم الهدى	ملاح برق فى السماء دليل

(١) سورة التوبة الآية : ٦٢

(٢) سورة النور الآية : ٦٣

(٣) سورة النساء الآية : ٨٠

(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٣١ ، ٣٢

(٥) سورة آل عمران الآية : ٨١

إن مثلى ومثلك يا رسول الله كمثل أعرابي ضل الطريق في الصحراء ولما طلع عليه القمر اهتدى بنوره ، فقال ماذا أقول لك أيها القمر ؟ أقول رفعك الله ، لقد رفعك .. أقول نورك الله ؟ لقد نورك ، أقول جملك الله ، لقد جملك وأنا ماذا أقول لك يا سيدى يا رسول الله ؟ أقول رفعك الله ؟ لقد رفعك ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .
 أقول نورك الله ؟ لقد نورك ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾^(١) .
 أقول جملك الله ؟ ﴿ يأيها النبی إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾^(٢) .

يا سيدى يا رسول الله معذرة	إذا كبافيك تبيان وتعبيرى
ماذا أوفيك من حق وتكرمة	وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالفجر وضاح الأسارير	تدعو إلى الله فى سر وتبشير
على جبينك نور الحق منبلجا	وفى يديك لواء العدل والنور

لقد أحبتك القلوب المؤمنة وعرفت لك قدرك وأجلت فيك إخلاصك وصفاءك ونقاء سريرتك .
 وهل ننسى يوم نزلت السوق فسمعت عبدا ينادى وسيدته يعرضه للبيع والعبد يقول : من أراد شرائى فلا يمنعنى من الصلاة وراء رسول الله - ﷺ - فاشتراه أحد الناس وظل العبد يواظب على الصلاة وراءك ولا تفوته تكبيرة الاحرام فى فريضة . ولما بلغك أنه مريض ذهبت بنفسك لتعوده . ولما توفى صليت عليه لتكون صلاتك شفاعا له فى الآخرة .
 أنت الذى أقمت ميزان العدالة ورفعت لواء الحق عندما قرأت على الوجود قول الله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾^(٣) .

نعم لا ننسى يوم دخلت على ثوبان ، ذلك الغلام المتواضع الفقير فرأيت يبكى فسألته ما يبكيك يا ثوبان ؟ قال : يا رسول الله إنك إذا غبت عنى اشتقت إليك فتبكي عيناي فإذا تذكرت الآخرة وأننى لن أكون معك فى الجنة حيث أنت فى أعلى درجاتها ازداد بكائى عندئذ هبط الأمين جبريل بقول الله - تبارك وتعالى - ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليا ﴾^(٤) .

صلوا على من تدخلون بهديه دار السلام وتبلغون المطلب

١ - الآية ١٥ من سورة المائدة

٢ - الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب

(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات

(٤) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة النساء

صلوا عليه وسلموا وترحموا	تردوا بها حوض الكرامة مشربا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما	أوفاك دين المذنبين وأحسبا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما	أحلاك ذكرا فى القلوب وأنسبا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما	أزكاك فى الرسل الكرام وأطيبا .

وهذا مشهد تمتلئ له النفس روعة وجلالا لصدق الخب الذى امتلأت به قلوب أصحاب الرسول - صلوات الله وسلامه عليه .

روى الامام مسلم عن ربيعة بن مالك الأسلمى قال : قال لى الرسول - صلى الله عليه وسلم (سل ، فقلت . أسألك مرافقتك فى الجنة . قال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فأعنى على نفسك بكثرة السجود)^(١) .

أسأل الله أن يجعلنا يوم القيامة تحت لوائك ، وأن يسقينا من كفك الشريف شربة ماء لا نظماً بعدها أبدا .

* المثل الأعلى فى الأنبياء *

جاء فى كتاب (المثل الأعلى فى الأنبياء) :

لما اصطفى الله رسوله محمدا للنبوّة كان أول ما نزل عليه فى غار حراء قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾^(٢) .

رسالة خلت من كل نزعة شخصية أو قبلية . ولكنها بلغت غاية العظمة والجلال ، لأنها دستور عام يهدف إلى النهوض بالانسانية . ثم يمضى المؤلف قائلا :

إن محمدا - ﷺ - جاء برسالة تختلف فى صبغتها عما تقدمها من كل الوجوه . وتسمو على كافة الأغراض الشخصية والجنسية وتعتبر الناس جميعا أمة واحدة . وتتحدث عن الهدف الأسمى الذى أعد الله الانسان له ، وعن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الغرض الأعظم وهى رسالة تتحدث كثيرا عن القراءة والكتابة كما يفهم عن قوله تعالى : ﴿ الذى علم بالقلم ﴾^(٣) كما تتحدث عن تعلم العلوم والتى كان الناس يجهلون وقت البعثة النبوية كما تدل عليه الآية ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ، وهى رسالة ذات صبغة عالمية تنتظم فى سلكها الجنس البشرى كله .

ومعلوم أن الانسان هو أكمل الكائنات نشأة إذ يبلغ النمو الجسمى غاية كماله فى هيكله الجسمانى ومع ذلك فقد نشأ كله من علقه ، كما تشير الآيات المذكورة واقتضت إرادة الخالق سبحانه - وهو الذى

١ - الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل السجود والحث عليه - ج (١) ص ٣٥٣ رقم ٢٢٦

٢ - الآيات ١ إلى ٥ من سورة العلق

٣ - الآية ٤ من سورة العلق

أنشأ ذلك المخلوق العجيب من علة أن يبلغ به غاية الكمال العقلي والخلقي والروحي .
فبلغ الانسان - عن طريق رسوله - هذا الغرض الأسمى وأبان له في أول وحى نزل عليه الوسائل الكفيلة ببلوغ هذه الغاية .

ثم يتحدث المؤلف تحت عنوان (المثل الأعلى في الأخلاق) فيقول : « نزل جبريل الأمين بالوحى على النبي - ﷺ - في غار حراء فأخذته رعدة شديدة فرجع إلى خديجة ترجف بوادره فقال (زملوني .. زملوني) فزملوه ، حتى ذهب عنه الروح فقال لخديجة وأخبرها الخبر : يا خديجة لقد خشيت على نفسي .

فقلت : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك تصدق الحديث ولا تجزى بالسيئة السيئة وتؤدى الأمانة وتصل الرحم وإن خلقتك لكريم ولست بصخاب فى الأسواق) .
ثم يسوق المؤلف هذا المشهد فيقول :

ويروى أنه بينما كان رجالات قريش جلوسا يتحدثون عرضوا لذكر رسول الله - ﷺ - فأعرضهم النضر بن الحارث وكان أعلمهم بشئون الدنيا فقال مسفها لرائهم ، يا معشر قريش . انه قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم به قلتهم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون لقد استمعت لما قاله محمد فلا والله ما هو بساحر ولا هو بكاهن ولا هو بشاعر ولا هو بمجنون ، يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكان أبو جهل عدو الرسول يقول : إنا لانكذبك ولكن نكذب ما جئت به) انتهى كلامه .
أجل يارسول الله .. أعد على سمع الناس هذه العبارة النبوية الشفافة الطاهرة (لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين)^(١) .

والذى نفسى بيده يارسول الله إنك جدير بهذا الحب حقيق بهذا التقدير . أهل لهذه المحبة . لا يجحدك إلا كل ظلم جهول ، ولا ينقص من قدرك إلا كل معتد أثيم .
وها نحن أولاء نذكر هذه الاشارات وتلك التنبيهات من حياتك الطاهرة بما تيسر من التقدير وتقدر من التيسير :-

لقد أصاب الشاعر إذ يقول :

لم يبق للبلغاء فضل بعد ما نطق بك الآيات من رب السما
كلا ولو جعلوا القوافى أنجما أيروم مخلوق ثناءك بعد ما

أثنى على أخلاقك الخلاق

١ - الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - باب وجوب محبة رسول الله - ﷺ - أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين
مسلم - كتاب الايمان - باب وجوب محبة رسول الله ﷺ - أكثر من الأهل والولد ج ١ ص ٦٧ رقم ٦٩ .

* مكانة النبى ﷺ *

وها نحن أولاء نسوق هذه الآيات الكريمة بين يدي القارئ ليتبين مدى فضل رسول الله ومدى مكانته فى القرآن الكريم وكيف تربع على مناط الرفعة وسلك مدارج الفخار والعزة الاسلامية : يقول تبارك اسمه :

﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (١) .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ (٢) .
﴿ يأياها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ (٣) .

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليا ﴾ (٤) .

﴿ قل يأياها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (٥) .
﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم عن الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (٦) .
﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٧) .
﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٨) .

وبالاشارة إلى الآيتين الأخيرتين قال رسول الله ﷺ :
(أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب من مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيا رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد

- ١ - الآيات ١ إلى ٤ من سورة القلم
- ٢ - الآيتان ١٢٨ ، ١٢٩ من سورة التوبة
- ٣ - الآيات ٤٥ إلى ٤٨ من سورة الأحزاب
- ٤ - الآية ٤٠ من سورة الأحزاب
- ٥ - الآية ١٥٨ من سورة الأعراف
- ٦ - الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة
- ٧ - الآية ٢٨ من سورة سبأ
- ٨ - الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبی يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة (١) . ويرحم الله الامام البوصيرى حيث يقول :

كيف ترقى رقيق الأنبياء	ياسماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد	حال سنا منك ونهم وسماء
تباهى بك العصور وتسمو	بك علياء فوقها علياء

نسبه صلى الله عليه وسلم

لقد اختار الله رسوله من أعظم القبائل شرفا ، وأعلاهم قدرا وحسبا ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الذى ينتهى نسبه إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام . إن الله تعالى اصطفى من ولد اسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفى محمدا - صلى الله عليه وسلم - من بنى هاشم فهو خيار من خيار ، عترته خير عترة وسيرته خير سيرة وشجرته خير شجرة نبتت فى حرم ويسقت فى كرم .

وأمه - صلى الله عليه وسلم - السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم فهى تلتقى مع نسبه من أبيه فى جده حكيم وكل منهما ينتهى إلى اسماعيل بن ابراهيم وكأن الله - تعالى - قد أراد أن يلتقى كل منهما إلى أمر قد قدر .

فما أشرف نسبه وما أظهر مولده . وما زال - ﷺ - يتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزاكية ، حتى استقر فى رحم آمنة .

أبان مولده عن طيب عنصره	ياطيب مبتدأ منه ومختتم
كالشمس تظهر للعينين من بعد	صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته	قوم نيام تسلاوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر	وأنه خير خلق الله كلهم .

* مولده الشريف *

سلام عليك يا رسول الله . أنت دعوة أليك إبراهيم ﷻ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم

آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴿١﴾
فكنت أنت هذه الدعوة ، وما أجملها وما أجملها !!
وأنت بشارة أخيك عيسى .

﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة
ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ ﴿٢﴾ .
يا رسول الله كنت أنت هذه البشارة .

البدر دونك فى حسن وفى شرف والبحر دونك فى خير وفى كرم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنت أحييت أجيالا من العدم
أنت رؤيا أمك آمنة
لقد رأت حين ولدتك كأن نورا سطع منها أضواء لها قصور الشام . فكنت أنت ذلك النور
يارسول الله

أنت مصباح كل فضل فما تصدر إلا عن ضوئك الأضواء
لم تزل فى ضمائر الكون تختار لك الأمهات والأباء

فى ليلة صفت سماؤها ، ورق ماؤها ، وطاب هواؤها ، وضعت آمنة بنت وهب خير خلق الله ،
وصفوة رسله ، محمداً (ﷺ) وأذاعت على الكون هذا النبا السعيد .

تجلى مولد الهادى وعمت بشائره البوادر والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب يدا بيضاء طوقت الرقابا
لقد ولدته وهاجبا منيرا كما تلد السموات الشهابا
فقام على سماء البيت نورا يضيء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكا وفاح القاع أرجا وطابا

ولما بشر جده عبد المطلب بمولده سماء (محمدا) .

١ - الحديث فى صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - ج ١ ص ٣٧٠ رقم ٣
وفى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان - ذكر الخصال التى فضل - ﷺ - بها على غيره - ج ٨ ص ١٠٤ رقم ٦٣٦٤ .
١ - الآية ١٢٩ من سورة البقرة
٢ - الآية ٦ من سورة الصف

يقول كتاب السيرة :

لما جاء عبد المطلب ليراه قيل له : ما سميت ابنك ؟ فقال : (محمدا) فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟
فقال : إني لأرجو أن يحمداه أهل الأرض كلهم .
ولقد كان ذلك كذلك .

هذه ثوية جارية عمه أبي هب عبد العزى بن عبد المطلب تبشر سيدها بمولده .
فيمتلأ فرحا وبهجة ، ويقول لها اذهبي فأنت حرة ، وتكون أول جرعة لبن تصل إلى جوفه الشريف بعد مولده من هذه الجارية ، فكان هذا تنبيها للعالم أجمع أن هذا المولود سيحرر العبيد ، ويجعل منهم سادة ، ومن المستضعفين قادة . والله تبارك وتعالى لن يضيع هذا العمل لأبي هب . فإن العذاب يخفف عنه كل يوم اثنين إكراما لهذا . وقد نظم بعضهم هذا الموقف في قوله :

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه	وتبت يداه في الجحيم مخلدا
الا أنه في يوم الاثنين دائما	يخفف عنه للسرور بأحدا
فما الظن بالعبد الذي كان عمره	بأحمد مسرورا ومات موخدا

ولقد أخبر الرسول (ﷺ) عن نفسه فقال :
﴿ إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا العاقب الذي لا نبي بعدي ﴾^(١) .
وفيهما رواه الامام أحمد :

﴿ أنا محمد وأنا أحمد وأنا نبي الرحمة ، ونبي التوبة والحاشر والمقفى ، ونبي الملاحم ﴾^(٢)
لقد كان في مولده عبرة لأولى الألباب .

هذا عبد المطلب يقدم لله نذرا إن رزقه الله بعشرة من الذكور أن يتقرب بذبح واحد منهم ، ويرزقه الله بهذا العدد ويأتى يوم الوفاء بالنذر ، ويجرى القرعة بين أولاده ، فتأتى القرعة على عبد الله ، ولكن عبد المطلب يجد في داخل نفسه ما يمنعه من الاقدام على ذبحه ، فيعيد القداح مرة أخرى ، فتأتى على عبد الله ، ولكنه يجد نفس المانع ، وتعاد القداح فلم تجاوز عبد الله وهنا يشير القوم عليه ان يجرى القرعة بين عشرة من الابل وبين عبد الله ، فكلما جاءت على عبد الله ذبح العشرة ، وأخذ العدد يتزايد إلى أن بلغت الابل مائة ، وبعدها فارقت القرعة عبد الله وذبح المائة ليأكل منها الانسان والحيوان والطير ، فكان في هذا عبرة لمن يعتبر . من الذي منع عبد المطلب أن يقدم على ذبح عبد الله ولماذا ؟ .
إن الذي منعه هو الله الذي منع السكين أن تذبح إسماعيل بن إبراهيم كان الخليل يريد أن

١ - الحديث رواه الامام احمد - حديث جبير بن مطعم - ج ٤ ص ٨٠
٢ - الحديث رواه الامام احمد - حديث حذيفة ابن اليمان - ج ٥ ص ٤٠٥

يذبح ، ولكن الجليل أراد الا يذبح ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى اى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ايت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلّه للجبين . ونادينه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾^(١) . كذلك حدث مع عبد الله بعد ما لزمته القداح ولما تفارقه ، ومن ثم يقول النبى (ﷺ) « أنا ابن الذبيحين »^(٢) .

لماذا منع الله عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله ؟ ، لأن فى صلب عبد الله خير خلق الله (عبدى : أنت تريد وأنا أريد ، ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ولا يكون إلا ما أريد) .

* عبرة أخرى *

وتلك عبرة أخرى . بعد ما دخل عبد الله بأمانة قضى معها أياما قلائل ، ونادى المنادى للخروج إلى رحلة الشام صيفا ، فكان عبد الله من الذين خرجوا فى هذه القافلة وترك عروسه آمنة فى أيامها الأولى ، وتمر الأيام سريعا ، وتعود القافلة وشوق آمنة يزداد إلى عبد الله ، لتزف إليه البشرى بجنين يتحرك فى أحشائها ، ولكن أهل القافلة عادوا جميعا ما عدا واحدا هو الذى تأخر . لماذا ؟ من الذى حجزه ؟ لقد جاءه الموت فى يثرب فمات عند أخواله من بنى النجار ، ولقيت آمنة ما لقيت من عناء الفرقة وفداحة المصاب ، ولكن ماذا تفعل ؟ .

مشيناها خطى كتبت علينا	ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض	فليس يموت فى أرض سواها

ومت مدة الحمل كما أراد الله .

﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾^(٣) .

وجاء هذا النبى إلى الكون يتيما حتى لا يقول : أبى أبى ، وإنما يقول : ربى ربى . وهل وجود الأبوين أو فقد أحدهما يغير من مقادير الله شيئا ؟ كلا . . هذا يوسف بن يعقوب عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ، نشأ فى كنف أب أكن له الحب ، وأفعم قلبه بالعطف عليه ، ولكنه ذات يوم يتلفت الوالد حوله فلا يجد ابنه بين يديه ، وتقع الفرقة بينهما . فهل أغنت حياة يعقوب بالنسبة ليوسف شيئا ؟ .

١ - الآيات ١٠٢ إلى ١٠٧ من سورة الصافات

٢ - الحديث فى تاريخ دمشق الكبير لابن عساکر - ذكر ما كان من أمر إبراهيم عليه السلام بعد ذلك - ج ٢ ص ١٥٠ ، وفى كشف الخفاء للعجلون ج ١ ص ٢٣٠ رقم ٦٠٦ .

(٣) سورة فاطر الآية : ١١

﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وأنا له لحاظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (١) .

فانظر وتأمل هذا المشهد . لقد ولد الرسول محمد - ﷺ - فلم يجد أبا على قيد الحياة . وسارت المقادير في مجراها كما أراد الله . وولد يوسف بن يعقوب ووجد نفسه في كنف أب يحبوه بالعناية ، ولكن وقعت العزلة بينها وأيضا سارت المقادير في مجراها كما أراد الله .

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبتن إلا خالي البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

* كان مولده بشير نصر *

كما كان مولد النبي - ﷺ - بشيرا لتحرير العبيد ، وجعلهم سادة وأساتذة وقادة عندما ارتشف أول جرعة من ثدى جارية أبي لهب . كذلك كان مولده بشير نصر ، فقد ولد في عام ٥٧١ ميلادية ، وهذا العام يعرف بعام الفيل ، وجدير بنا أن نركز على هذا المغزى ونؤكد هذا المعنى ، ماذا حدث هذا العام ،

قبل ميلاد الرسول - ﷺ - غزت الحبشة اليمن واستولت عليها ، وأصبح أبرهة الأشرم حاكما فيها ، له السلطة العليا ، والكلمة المسموعة ، والأمر المصحب بالهبة والقوة والنفاذ ، لكن أبرهة كان متعجرفا خسيسا ، فلم يرض لليمانيين أن ينقادوا إليه ، ويطيعوا أوامره ، ويتجنبوا نواهيهم ، ولم يرض

لهم ان يفرض عليهم ضرائب باهظة ، وإتاوات فادحة ، مست الزرع والضرع ، وقضت على التجارة والصناعة وما يدخرون من أموال وأقوات ، ولم يرض لهم هذه السخرية الممضة المؤلمة ، التى كان ينوء بها أهل اليمن حيناً بعد حين . لم يرض أبرهة بهذا كله ، ولم يقتنع به فراح يبغى أكثر ما يكون البغى ، ويفجر أشد ما يكون الفجور ، ويحاسب على الشبهة حساباً فادحاً عسيراً ، ويعاقب بقسوة على الهنات وصغائر الأمور .

وفى يوم سأل أبرهة وألح فى السؤال ، سأل عما يشغل اليمانيين فى هذه الأيام شغلاً دائماً مستمراً ، وسأل عن السر الكامن وراء هذه التجمعات والاستعدادات التى تفرض عليهم فرضاً إلى جهة معينة ، ومكان قصى بعيد . وسأل عن نتيجة هذا السفر الذى جعل اليمانيين يقضون ليلهم ونهارهم فى تأهب واستعداد للرحيل .

وعلم أبرهة - ويا ويل ما علم - علم أن اليمانيين وغيرهم من سائر بلاد العرب يذهبون فى هذا الوقت بالذات إلى مكة لزيارة البيت العتيق ، والتمتع بالشعائر والمناسك التى ورثوها عن أبيهم إبراهيم وعلم أن العرب يهرعون إلى البيت من كل فج عميق ، بأنهم يأتونه مشاة وركبانا ، ويقتحمون المشقات والأهوال ، ويرونها هينة فى سبيل رؤية هذا الحرم الذى يقدسونه ويعظمونه ، لأنه يربطهم بعالم السماء . ويزيل عنهم مغبة الذنب وثقل الفحش ، وينقى قلوبهم من الدغل والمظالم والآثام . وعلم أبرهة أن العرب فى هذه الأيام يكفون عن القتال ، ويضعون الأسلحة فى أغمادها ، فيلقى الخصم خصمه وذو الثأر قاتل أبيه أو أخيه فلا يشرع فى وجهه سيفاً ، أو يصبوب إليه نبلاً ، لا لعجز أو خوف ، وإنما تعظيماً لهذا البيت واحتراماً لأوامر الله .

وعلم أبرهة أن العرب يمجدون مكة ولها عندهم شعارات خاصة ، وامتيازات لم يسمع بمثلها لى بلد من البلدان .

سمع أبرهة هذا الحديث فتغيظ تغظياً أليماً ، وكره أن يحظى هذا البيت بتلك المزايا ، وينال هذه المكانة القصوى ، ثم سأل بمبنى هذا الحرم ؟ ف قيل له إنه بنى من الحجارة ، فأقسم بالمسيح ليينين كنيسة أفخم منه منظراً ، وأعظم شأنًا ، وأقسم ليجعلها مثابة للعرب وأمنا ، وبذلك ينصرفون عن مكة وما ورثوه عن أبيهم إبراهيم .

وتذكر روايات التاريخ أن أبرهة بنى كنيسة من الرخام الملون ، ورصعها بالجواهر ، وجعل لها أبواباً صفائحها من الفضة ، ثم جعل عليها سدة يطلقون فيها البخور المزوج بالكافور ، ولكن الله خيب ظنه ، فلم يجد من العرب من يهجر البيت الحرام ويذهب إلى كنيسة أبرهة ، فازداد حنقا ، وأقسم ليهدم الكعبة حجراً حجراً . ورفع أبرهة الأمر إلى قائده بالحبشة ، وطلب منه إمدادات حربية تعينه على غزو مكة ، فأرسل إليه أسلحة وجندا وبما شاء له أن يرسل من مؤن وعتاد وأفيال ، وخرجت قوات أبرهة تنهب الأرض نهباً ، فأوغلت فى الجبال والوهاد والقفار ، غير عابئة بما تتحمله من مكاره الطريق وضراوة الصحراء .

ومضى أبرهة بجيشه الجرار إلى أن وصل أرض تهامة اليمينية ، وعندما وجد جموعاً غزيرة من

العرب اعترضوا طريقه واستعدوا لقتاله ، هاجمهم هجوما عنيفا ، وبدد شملهم وأسر قائدهم .
وتقدم جيش أبرهة ، فلما اقترب من مكة ! استراح في الطائف ، فجاء عظماء العرب وساداتها
وعرضوا عليه مالا كثيرا في سبيل أن يترك بيتهم فأبى إباء تاما ، وأظهر العزم والحزم على هدم الكعبة ،
فتركوه وشأنه دون أن يمسه بسوء أو أن يفعلوا معه شيئا مذكورا .

وفي الصباح أمر أبرهة بالآغارة على مكة ونهب ما يمكن نهبه من متاع ، فأبدى جيشه كل
المساوىء من قرصنة وسلب ونهب ، وأخذ ما شاء له أن يأخذ من إبل وغنم وأبقار ، ومن بينها مائتان
من الابل لعبد المطلب سيد قريش وزعيمها المطاع .

لم يقف أبرهة عند هذا الحد ، بل أعطى أهل مكة إنذارا نهائيا قال فيه : إننى ما جئت غازيا
لبلدكم . ولا ناهبا لأموالكم ، ولا مزمعا لإذلالكم ، وإنما جئت لأهدم الكعبة حجرا حجرا ، فإن
رضيتم فيها ونعمت ، وإن لم ترضوا أجبرتم على الرضا ، وسلطت عليكم جندى وحل عليكم
غضبي ، وقهرتكم قهرا لا شفاعة فيه ولا تسوية .

عندئذ اضطربت مكة اضطرابا ، ولفها حزن عميق قاتم ، وبان على أهلها قلق وهم مريران ،
ورأى عبد المطلب أن يذهب إلى هذا الطاغية عسى أن يرده بالحكمة ويمنعه باللين ، ويعطيه ما سلبه
جيشه من أنعام .

ودخل عبد المطلب سراذق الملك ، وحين رآه أبرهة رأى شيخا مهيبا عظيما فيه نداوة باسقة وملامح
جليلة ، ووقار لم يره على رجل من قبل ، فسأل عنه فقيل له هذا شيخ قريش عبد المطلب بن هاشم أعز
العرب جاها ، وأكثرهم يدا ، وأعظمهم سخاء ، يحمل على الجياد ، ويعطى الأموال ، ويطعم ما
هبب الريح . فوقف له أبرهة إجلالا وحاول أن يجلسه بجواره ، لكنه خشى أن تنكر عليه الحبشة ذلك
فتزل من على سريره ، وجلسا معا على البساط ، ثم سأله عن حاجته ، فقال عبد المطلب : أن ترد على
إبلى التى أخذتها طلائعك . قال أبرهة - مستهزئا ساخرا - لقد أعظمتك حين رأيته ، أما الآن فإنك
أصغر شأننا وأقل خطرا ، كيف تحدثنى أن أرد إليك مائتين من الابل ، ولم تحدثنى فى أمر البيت الذى هو
دينك ودين آبائك ؟ قال عبد المطلب : أما الابل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه .

فأمر أبرهة برد الابل ، فأخذها عبد المطلب وأرسلها هديا للبيت وقربى لله لكى يذود عنهم
ويباعد بينهم وبين ما يخافون .

وأمر عبد المطلب المكيين أن يخرجوا من مكة ويتفرقوا فى الشعاب ، ويركبوا رعوس الجبال قبل
أن يحقق بهم مكر الغزاة ، ويضربوهم من حيث لا يشعرون فأذعنت قريش للأمر ، وخرجت متحصنة
بالمغارات والكهوف وما عسى أن يمنعها من هذا الأخطبوط اللعين . وقبل أن ينصرف عبد المطلب عن
مكة ، ذهب إلى البيت وامسك بحلقة بابه ومعه عدد قليل من أبناء عمومته رافعى الأكف ، حاسرى
الهامات ، داعين ربهم أن يحفظ أرض الحرم من الدمار ، ولا يعرض قبلتهم للهدم وسوء البلاء . ثم
برز صوت عبد المطلب قائلا فى نشيد حزين مكروب :

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم وعالمهم أبدا محالك

وزحف جيش العدو إلى البيت يريد هدمه حجرا حجرا كما أراد أبرهة ، وتقدم أمامه فيل لم يسمع بمثله قط ، ولم ير أضخم منه شكلا ولا أثقل وزنا ولا افظع منظرا ، بيد أن الفيل برك ولم يتقدم خطوة واحدة ، وكأنه أصيب بجاصب أثقله المشى والحركة والتوازن .

وكان أعجب من ذلك كله أن الفيل كان يمشى إلى أى جهة يريد لها ساسته شرقا وغربا وجنوبا ماعدا جهة البيت فإنه يعجز تاما ، رغم الضرب الذى يضربونه له بالسياط ، ورغم الاستنهاض الذى يستنهضونه إياه بوسيلة أو أخرى .

وفجأة ومن غير مقدمات جد ما لم يكن فى الحسبان ، فأرعدت السماء ، واكفهر الجو ، وأظلمت الأرض ، وإذا بطير يحلق فوق جيش العدو وإذابه يسقط حجارة صغيرة ودقيقة ، لكنها لاذعة ومبيدة ، وما وقعت على رجل إلا طحنته طحنا ، وما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وما أصابت جسما إلا تركته حصيدا كأن لم يغن بالأمس .

فارتعب الجيش ، وأخذت أفراده يموج بعضها فى بعض ، والطير يلاحقها بالهجوم ، ويقذفها بالموت الزؤام ، حتى هلكت جميعا إلا من شاء الله .
أى قوة أصابت هذا الجيش المتمرد على الله وعلى بيته العتيق ، وعلى العرب ذوى الكرم والوفاء والسخاء ؟ .

وأى نجدة أطلت على العرب من عل فبدلت هزيمتهم نصرا ، وعسرهم يسرا وكربتهم فرجا ؟ .
إنها قوة الله ولاشئ غير الله تلك التى أطاحت بجيش العدو وجعلت أبرهة المتبجح المنفوخ يرجع القهقرى وفى رأسه داء يغلى ، وفى قلبه بركان أوشك على الانفجار .

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾^(١) .

ودخل أبرهة صنعاء فى بقية صغيرة هزيلة لا حياة فيها ولا موت ، تثن من الهول ، وتتلوى من ثقل المرض ، وعلى الفور حمل أبرهة إلى داخل قصره وهو يصرخ صراخا ويهتز اهتزاز . وبعد لحظات انفجر قلبه ، واندلقت أمعاؤه ، ولفظ أنفاسه الأخيرة ، فوورى إلى مثواه الأبدى مشيعا باللعنة والهزيمة والطرده من ملكوت الله ورحمته ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾^(٢) .

وهكذا ولد الرسول فى هذا العام ، فكان مولده إيذانا بنصر هذا الحرم وبخاصة من أيدي الأثمين .

١ - الآيات ١ إلى ٥ من سورة الفيل

٢ - الآية ١٦٧ من سورة البقرة

سعدت بمولد أحمد الأزمان	وتعطرت بعبيره الأكوان
والشرك أنذر بالنهاية عندما	ولد البشير وأشرق الإيمان
ولدته آمنة النقية مشرقا	باهى المحيا صاغة المنان
تتلاها الأنوار في قسماته	وأتم حسن صفاته الرحمن
وبدت لمولده الكريم بشائر	قدسية وتزلزل الإيوان

* كان مولده إنذارا للظالمين *

ظهرت لمولد المصطفى أمارت وارهاصات كانت بمثابة انذار شديد للطغاة الظالمين ، والجبابرة المستبدين . انشق إيوان سرى الذى ملأ الأرض جورا وظلما . كان هناك استعباد واستبداد وظلم وفساد وشرك وإلحاد ، وأخذت نار فارس ، وكانت تعبد من دون الله ، فكان هذا إعلانا وتنبيها إلى أن الدنيا

قد تشرفت بمولد هذا الانسان الكامل والمثل الأعلى الذى سيغير مجرى التاريخ سيقود سفينة العالم الحائر إلى بر النجاة ، إلى طريق الله رب العالمين ، إنه سيد البشرية ، المبعوث رحمة للعالمين . سيدى أبا القاسم يارسول الله :

وعيا كالشمس منك مضيئا	أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذى كان للدين	سرور بيومه وازدهاء
وتوالت بشرى الهوائف أن قد	ولد المصطفى وحق الهناء
وتداعى إيوان كسرى ولولا	آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه	كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كان	لنيرانهم بها إطفاء
مولد كان منه فى طالع الكفر	ويال عليهم ووباء
فهنيئا به لآمنة الفضل	الذى شرفت به حواء
من لحواء أنها حملت أحمد	أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب	من فخار ما لم تنله النساء
وأنت قومها بأفضل مما	حملت قبل مريم العذراء
شمלתه الأملاك إذ وضعت	وشفتنا بقولها الشفاء
رافعا رأسه وفى ذلك الرفع	إلى كل سؤود إيحاء
رافعا طرفه السماء ومرمى	عين من شأنه العلو العلاء

* كان مولده تكريما لليتامى *

هكذا قال رسول الله ﷺ : (خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم) (١) .
وهكذا قال رسول الله ﷺ : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة) (٢) .
لقد أكرم الله هذه البشرية بمولد هذا اليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين وقد امتن الله عليه فقال له : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾ (٣) .

ووضع الاسلام السلوك السوى فى معاملة اليتامى فقال تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ (٤) .
وحذر من أكل أموالهم وتبديدها ، وعدم العناية بها ، بعد ما أمر بأن يؤتوا أموالهم كاملة ، فكان هذا أول أمر فى سورة النساء بعد الأمر بتقوى الله . قال عز من قائل : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا . وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ﴾ (٥) .

وأمر تعالى باستثمار أموالهم فى طرق الحلال حتى لا ينفد رأس المال بالنفقة فقال عز من قائل : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ﴾ (٦) وهذا هو سر التعبير بقوله تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ ولم يقل ﴿ وارزقوهم منها ﴾ حتى يكون الرزق من ربحها وثمره العمل فيها ، فإذا ما بلغ اليتيم رشده فإن الله تعالى أمر بدفع ماله إليه كاملا غير منقوص قال عز من قائل ﴿ فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تاكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ﴾ (٧) ووصى من يعمل فى مال اليتيم أن يستعفف عن أخذ الأجرة إن كان غنيا وأن يأكل بالمعروف إن كان فقيرا . قال سبحانه : ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾ (٨) .
وبين أن الاحسان فى معاملة اليتيم كثر مدخر لذرية المحسن بعد موته قال عز من قائل : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴾ (٩) .

وشدد الوعيد والانذار والتهديد لمن نزل فى جوفه مال اليتيم . قال تبارك اسمه : ﴿ إن الذين ياكلون أموال اليتامى ظلما إنما ياكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾ (١٠) .

١ - الحديث فى سنن ابن ماجه - كتاب الأدب - باب حق اليتيم - ج ٢ ص ١٢١٣ رقم ٣٦٧٩ .

٢ - الحديث فى سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب فى من ضم اليتيم ج ٥ ص ٣٥٦ رقم ٥١٥٠ .

٣ - الآية ٦ من سورة الضحى

٤ - الآية ٢٢٠ من سورة البقرة

٥ - الآيتان ١ ، ٢ من سورة النساء

٦ - الآية ٥ من سورة النساء

٧ - الآية ٦ من سورة النساء

٨ - الآية ٦ من سورة النساء

٩ - الآية ٩ من سورة النساء

١٠ - الآية ١٠ من سورة النساء

سیدی ابا القاسم یا رسول الله :-

ولد الیتیم لیتقذ الأیتام من	بؤس الحیاة إذا رمی الحدیثان
ولد الفقیر لیتقذ الفقراء من	ظلم الغنی فیواد الحرمان
ولد المنشأ نشأة أمیة	فسما بنور کتابه العرفان
وتعلم الحکماء من نفحاته	شقی المعارف وارتوی الظمان
ولد المؤسس للعباد حضارة	سجدت لها ما أسس الرومان
وبنی علی الأخلاق أعظم دولة	قانونها وعمادها القرآن
فازدانت الدنیا بأبهی حلة	من نسجها وخیوطها العمران
والکون أضحی مشرقا من بعد ما	عبدت به الأحجار والنیران
ولد ابن عبد الله أعظم مصلح	وأجل من دانت له التیجان
فهو الأساس لكل ملک خالد	لم یستقم من غیره سلطان
یاخیر من قصد الحجیج رحابه	وسعت إلی أعتابه الرکبان
کیف السبیل إلی مدیحک بعدما	أطری کریم خلالك الفرقان
والله أعلى فی المآذن ذکرك	مع ذکره مادامت الأزمان

* رضاعته ﷺ *

جاءت المراضع إلی مكة تطلب الموالید ، لكن هذا الیتیم كان من حظہ مرضعة تسمى حلیمة السعدیة . ولما أخبر عبد المطلب بذلك الشأن قال ستكون حلما وسعادة علیه . أخذته حلیمة وذهبت به إلی دیار بنی سعد بن بكر .

ولقد سبقته العناية الالهية إلی دیار بنی سعد ، فكان هو بشیر الیمن وحسن الطالع علی أهلها ، فقد أجمع رواة السيرة أن بادية بنی سعد كانت تعاني إذ ذاك سنة مجذبة ، قد جف فیها الضرع ، وبیس الزرع ، فها هو إلا أن صار محمد بن عبد الله فی منزل حلیمة ، واستکان إلی حجرها وثديها ، حتی عادت منازل حلیمة من حول خبائها ممرعة خضراء ، فكانت أغنامها تروح منها عائدة إلی الدار شباعا ممتلئة الضرع .

وإذا سخر الاله إناسا لسعيد فإنهم سعداء

وهل هناك أسعد فی هذا الوجود من رسول الله - ﷺ ؟
لقد كان قدومه علی بنی سعد خيرا وبركة حتی قال زوج حلیمة لها . ما رأيت نسمة أعظم بركة

من هذا الغلام . وقد صدق فإن هذا المولود هو الذى سيربىه الله ليربى به العرب ، ويربى بالعرب العالم أجمع ، يدعوهم إلى رسالته ، ويبين لهم منهاجه وصراطه المستقيم .
لقد قضى رسول الله فى هذه الديار خمس سنوات ، يستظل بسمائها الصافية ، وأرضها الفسيحة ، وجبالها الشاهقة التى تربى فى النفس قوة وصلابة ، وهكذا كان العرب يذهبون بأولادهم إلى هذه العرصات الفساح ، يخرجون بهم من ضيق المساكن التى ينعكس أثرها على النفس .
وجاء الرسول بعد ذلك إلى أمه آمنة سالما عزيزا .

* حادث شق الصدر *

جاء فى كتاب تهذيب السيرة ص ٣٦ ، وسيرة ابن هاشم الجزء الأول ص ١٦٤ ، وفى صحيح مسلم الجزء الأول ص ١٠١ ، ١٠٢ ، أنه ﷺ أثناء وجوده فى ديار بنى سعد ، وقع حادث شق الصدر .

روى الامام مسلم :

(بينما هو يلعب مع الغلمان أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه) .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى مرضعته - قائلين إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممثقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبا ، فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر .
فقد روى الامام أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن أبى بن كعب أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئا على أن يسأل رسول الله - ﷺ - عن أشياء لا يسأل عنها غيره فقال : يا رسول الله ما أول ما رأيت فى أمر النبوة ؟ فاستوى رسول - ﷺ - جالسا وقال : (لقد سألت أبا هريرة) .

(إنى لفى صحراء ، ابن عشر سنين واشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : (أهو هو) ؟ قال : نعم .

(فاستقبلانى بوجه لم أرها لخلق قط ، فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه فأضجعانى بلا قسر (اجبار) ولا هصر (ثنى العموم من رأسه ، والمعنى : لم يثينا ظهرى ولم يكرهانى) .
وقال أحدهما لصاحبه :

أفلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدرى ، ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له : أخرج

الغل والحسد ، فأخرج شيئا كهيئة العلقه ، ثم نبذها فطرحها .
فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هزا ابهام رجلى اليمنى وقال : أغد
واسلم .

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير .

إن حادث شق الصدر قد ينظر إليه الماديون نظرة إن دلت على شيء فإنما تدل على أنهم يقيسون
الأمور بمقياس غير قادر عن ادراك الحقيقة ، فيثيرون ، الجدل العقيم ، ويستعملون فى ذلك شتى
ضروب المراء المقوت .

والقضية فى حقيقتها دلالة صادقة على عناية الاله القادر بهذا الرسول الكريم فإن هذا القلب
وهذا الصدر ليس شيئا عاديا . إنه جهاز إرسال سيذيع على العالم أجمع برامج السماء فى شتى نواحي
الحياة ، فلا بد أن يكون ذلك الجهاز من القوة والصفاء والحكمة والرأفة والمحبة ، بحيث يؤدي ما أمر
الله ، ويبلغ رسالات الله ، ويخشى الله ولا يخش أحدا إلا الله .

﴿ قل إنما بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا
ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾^(١) .

فهو وإن كان بشرا إلا اننا يجب أن نراعى الحقيقة القائلة (يوحى إلى) وهى قضية الوحى .
فهو بشر يوحى إليه . وقضية الوحى تقتضى قوة فى القلب وحكمة وإيمانا ورحمة .
وفى حادث شق الصدر ما يشير إلى ذلك ، وإذا فليس هناك مجال لعبث المادية فى هذه القضايا
الالهية .

* وفاة أمه *

وهكذا تتحرك بنا الأحداث سراعاً متوالية ، فإن الرسول ﷺ بعد ما عاد إلى أمه ، وقد بلغ من
العمر ست سنوات ، رأت أمه من باب الوفاء أن تأخذه وتزور به قبر أبيه بيثرب ، إذ أنه قد دفن عند
أخواله من بنى عدى بن النجار .

وجلس اليتيم أمام قبر أبيه الذى لم يره .

وبينما هما فى طريق العودة ، وكان معها جارية تسمى (بركة الحبشية) وكيبتها (أم أيمن) وعند
قرية تسمى (الأبواء) بين مكة والمدينة وهى إلى المدينة أقرب ، شكت آمنة وجعا ألم بها ، ونظرت إلى
ابنها محمد الذى كان وقتئذ فى عمر الزهور ، فنظرت إليه نظرة الأم الراحلة ، وتلفت الرسول حواله
على امتداد الصحراء المترامية الأطراف . الليل موحش والجبال ممتدة الرؤوس والرمال كثيفة وليس معه

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف

إلا أمه وجاريتها ، لكن هذا الألم الذى شكت منه آمنة كان إيذاها بغروب شمس العمر .
أخذت تجذب محمدا إليها . هى لا تريد فراقه . لكن الموت أخذ يجذبها إليه .
وقالت له : يا محمد كن رجلا .
ولقد كان محمد كذلك . بل كان سيد الرجال .
كان رجلا فى طفولته ، فقد تقلب على بساط اليتيم ، كلما أوشك البساط أن ينطوى امتد من جديد .

وكان رجلا فى صباه .
وكان رجلا فى شبابه .
وكان رجلا فى رجولته .
وكان رجلا فى شيخوخته .
ولحق بالرفيق الأعلى وهو سيد الأولين والآخرين .

نعم :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت فى أرض سواها .

هذه حكمة الله .

يرجع محمد إلى مكة ، وقد أهيل التراب على أمه ، وهى الأم التى أنجبت أعظم مخلوق .. عاد مع أم أيمن ، وقد قال لها : (أنت أمى بعد أمى) .

سيدي يارسول الله :

ولدت بمولدك المكارم والندى والحلم عند الغيظ والاحسان
والرفق والصفح الجميل عن الأذى والعزة الشاء والغفران
فأقمت للخلق الكريم منارة وسما بعذب حديثك التبيان
فصل الخطاب لقد ملكت زمامه ونشرت مالم يستطعه لسان
وأبيت بالتوحيد صرفا خالصا لله لم يشرك به إنسان

* كفالة جده عبد المطلب *

بعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب ، وإمتلأ قلبه لليتيم رقة ورحمة ، لم تسبق له فى ولده ، لقد

كان يرى فيه عوضا عن عبد الله ، ولو اطلع عبد المطلب على صفحة الغيب لعلم أن هذا اليتيم سيكون له شأن عظيم يملأ به الأرض نورا وبركة ، ويخاطبه هذا الخطاب الالهي العظيم ﴿ يا أيها النبي إن أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾^(١) .

* وفاة عبد المطلب *

لما بلغ رسول الله ثمانى سنوات توفي جده عبد المطلب ، وهكذا امتد بساط اليتيم من جديد ، إن الموت فلسفة حارت فيها عقول المفكرين ، ووقفت واجهة حيالها عبقریات البارعين .
الموت لغز لا يحل وطلسم لا يفك ، لأنه متعلق بالروح ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾^(٢) .
وقد أخفى الله صفحة الأجل عن خلقه ، واستأثر بعلمه .

ذكروا أن الامام مالك بن أنس - رضى الله عنه - إمام دار الهجرة ، رأى في المنام ملك الموت فسأله : يا ملك الموت كم بقى من عمري ؟ فأشار له الملك بأصابعه الخمس . فسأل الامام أخمس سنوات ، أم شهور أم أيام ؟ ولكن الملك لم يجبه . واستيقظ الامام من نومه ، وذهب إلى أحد العلماء الذين يعبرون الرؤيا ، وقصها عليه ، فقال له العالم : ليست الخمسة أعواما ولا شهورا ولا أياما ، ولكن ملك الموت يريد أن يقول لك : إن سؤالك هذا فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ .
فسبحان من له العزة القائمة والمملكة الدائمة ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾^(٣) .

* كفالة عمه أبى طالب *

كان أبو طالب رجلا كثير العيال قليل المال ، لكنه بعد كفالته لابن أخيه محمد صار القليل فى يده كثيرا ، وشعر بتوسعة الله عليه فى رزقه ، ببركة هذا اليتيم ، الذى امتن به ربه عليه بقوله : ﴿ ألم يجعلك يتيما فأوى ﴾^(٤) .
كان أبو طالب إذا وضع الطعام لا يقربه أحد قبل محمد ، فإذا جاءت أقداح اللبن فإن محمدا يكون أول من شرب .

٣- الآيتان ١ ، ٢ من سورة الملك
٤- الآية ٦ من سورة الضحى

١- الآية ٤٥ من سورة الأحزاب
٢- الآية ٨٥ من سورة الاسراء

وهكذا أحاطه الله بالعناية فى كفالة عمه أبى طالب .
سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيد السادات يامن قدره	لا تستطيع له الورى إدراكا
ماذا يقول الناس فيك وريهم	بأتم تربية له رباك
حلاك بالخلق العظيم ، وفضله	الفضل العظيم عليك ما أعلاك
آواك من يتم وإعطاك الغنى	ولدينه الدين القويم هداك
شكرا لك اللهم أنت كفلته	نعم الكفيل تقدست أسماك

* سفره إلى الشام *

لما بلغ الرسول - ﷺ - اثنتى عشرة سنة سافر عمه أبو طالب إلى الشام فى ركب للتجارة . فأخذه معه ولما نزل الركب مدينة (بصرى) مروا على راهب هناك يقال له (بحيرى) وكان عليهما بالانجيل خبيرا بشئون النصرانية وهناك أبصر بحيرى النبى - ﷺ - فجعل يتأمله ويكلمه ثم التفت إلى أبى طالب وقال له ما هذا الغلام منك ؟

فقال : ابنى وكان أبو طالب يدعوه بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه - فقال له بحيرى : ما هو بابنك وما ينبغى أن يكون أبو هذا الغلام حيا .
فقال : هو ابن أخى
قال فما فعل أبوه ؟
قال مات وأمه حبلى به

قال بحيرى : صدقت فارجع به إلى بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه هنا ليبلغنه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .
فأسرع به أبو طالب عائدا إلى مكة
سيدى أبا القاسم يارسول الله

يا مبعث النور الذى عم الورى	فسار على مشكاته الحيران
أفسحت للفكر الصحيح سبيله	فسما الحجا واستعصم الوجدان
ودعوت للتفكير حتى أذعن	العلماء والأخبار والرهبان

لم يكن الرسول - ﷺ - يريد الحياة عالة على غيره ، كذلك لم يرد لها عبثا على أحد . خرج يستقبل

الحياة ويأكل لقمة عيشه بكدّ اليمين وعرق الحين فاستقبل فترة شبابه بالسعى للرزق وراح يشتغل برعى الغنم وقال عن نفسه فيما بعد (كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة)^(١) .
 إن في رعى الغنم حكمة بالغة فهي تعرس في النفس صفات القيادة الحكيمة وما من نبي إلا ورعى الغنم ففي رعيها يتعلم الانسان الحكمة والحلم والصبر وبعد النظر إذ أن فيها الشاردة والواردة ،
 وكأن في هذا العمل تدريبا عمليا على معاملة الناس والصبر على أذاهم والحلم مع سيئهم والحكمة مع سفهائهم .

إذا شئت ان تحيا سليما من الأذى	وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ	فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئا	فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى	وفارق ولكن بالتى هي أحسن

عناية الله به في شبابه

أحاطه الله بعنايته وحماه برعايته فحفظه عن التلبس بما تنبوعه الأذواق السليمة وتنفر منه الطباع المستقيمة .

فكان - ﷺ - في شبابه نظيف السمع والبصر والقلب والثياب واليدين والقدمين .
 قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه

(ما همت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبينه .
 ثم ما همت به حتى أكرمني الله بالرسالة
 قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما
 يسمر الشباب .

فقال : أفعل

فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا عرس فجلست أسمع
 فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبي فسألنى فأخبرته ثم قلت له
 ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ثم ما همت بعده بسوء^(٢)

١ - الحديث في صحيح البخارى - باب في الايجارة - ج ٣ ص ١١٦

٢ - الحديث في مجمع الزوائد - كتاب علامات النبوة - باب عصمته ﷺ - من الباطل - ج ٨ ص ٢٢٦

سيدى أبا القاسم يارسول الله

يامن لحضرته الشفاعة واللوا
لولا كتابك فى البرية لم يقم
فلك التحيات الزكيات العلى
والخوض قد أعطاكها المنان
للحق قسطاس ولا ميزان
ما هيئت للعاملين جنان

تجارته فى مال خديجة

يروى ابن الأثير وابن هاشم أن السيدة خديجة كانت تاجرة وكانت ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه .
فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ومعه غلامها ميسرة .
وقد قبل محمد بن عبد الله - عليه السلام - هذا العرض فرحل إلى الشام عاملا فى مالها ومعه ميسرة فحالفه التوفيق فى هذه الرحلة أكثر من غيره وعاد ١١ خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه فى أمانة تامة ونبل عظيم

شهادة ميسرة له

وجد ميسرة من خصائص النبی - عليه السلام - وعظيم أخلاقه ما ملأ قلبه دهشة له وإعجابا به .
رأى الصديق فى صورته الحقيقية ورأى الأمانة مجسمة فى معاملته . رآه سمحا إذا باع سمحا إذا اشترى سمحا إذا قضى سمحا إذا اقتضى رأى فيه الأمانة فى أسمى معانيها وقد صدق أبو حامد الغزالي - رحمه الله تعالى - إذ يقول : إذا اتى على الرجل جيرانه فى الحضر ورفقاؤه فى السفر ومعاملوه فى الأسواق فلا تشكوا فى دينه .

نعم ليس الاسلام خطبا رنانة ولا عبارات طنانة .

ولا فلسفات عقيمة .

إن الاسلام فى حقيقته عقيدة وعمل -

وقد صدق الرسول إذ يقول (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (١) .

أدلى ميسرة بهذه الشهادة
ميسرة على الحقيقة شيئا
وإنها لشهادة حق ومازاد
فأنت يارسول الله أهل لذلك

وأكثر من ذلك

القول فيك معطر الكلمات
أيام مولدك الكريم مضيئة
يوم أتى بك في الوجود فإنه
تتعاقب الأيام في دورانها
وضياك يسطع كل يوم نوره
يا صاحب الأخلاق والآيات
في كل ماض في الزمان وآت
تاج الزمان وغرة السنوات
وترد كل جديدة لمرات
ويزيد في الاشرار والنفحات

قصة زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها

أدلى مسيرة بهذه الشهادة البريئة إلى السيدة خديجة فوجدت في نفسها قلبا طهورا طيبا فتمكنت من القلب كل تمكن لقد أعجبت بصدقه وأمانته وكفى بهما . . . إنها رأس مال ضخمة ورصيد لا يلحق به ولا يشق له غبار .

الصدق أمانة والكذب خيانة وكل أمة تتصف بالصدق والأمانة فالسعد رائدها والتوفيق حليفها ويلبسها الله لباس العز والشرف وكل أمة تتصف بالكذب والخيانة فالذل رائدها والخذلان حليفها ويذيقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

لقد نالت خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبه تخطبه لنفسها ورأى الرسول في خديجة سيدة ذات خلق كريم وعقل راجح رعم فارق السن بينه وبينها كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة . ولم ينظر إلى مالها ولا إلى جمالها ولا إلى حسبها وإنما نظر إلى عقلها وخلقها وهكذا عظماء الرجال .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتعظم في عين الصغير صغيرها
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتصغر في عين العظيم العظائم

كلم الرسول أعمامه فوافقوا على هذا الزواج فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك .

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين: الأول منها (عتيق بن عائد التميمي) ثم خلفه عليها (أبو هالة التميمي) واسمه (هند بن زرارة) وبعد موتها طرق كثير من الرجال بابها لتكون لهم زوجا فلم تفتح لهم بابها ، لأنها رأت فيهم طلاب مال خديجة حتى إذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة .

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط كسماسرة الأسواق . لكنها رأت في محمد الانسان الصادق الأمين خطبته لنفسها ورأى فيها محمد السيدة العفيفة

الطاهرة فرضيها زوجا .

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقي خطبة الزواج وقف يقول :
الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعل لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما
وجعلنا الحكام على الناس . أما بعد/ فإن محمد بن عبد الله ابن أخى لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح
به برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا وإن كان فى المال قلا فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة وإن لمحمد
رغبة فى خديجة ولها فيه مثل ذلك وما طلبتم من الصداق فعلى .

دعوى باطلة

نعم إنها دعوى ، لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها ، وباطلة ، لأنها جاءت بدافع الحقد
والحسد على رسول الاسلام ونبتت من قلوب تفرز البغضاء كما يفرز الكبد عصارة الصفراء .
لذلك رأينا ونحن نتكلم عن زواج رسول الله - ﷺ - بالسيدة خديجة رضى الله عنها أن نعقب
بهذا البحث لنلجم السنة الحاسدين الحاقدين الذين يحاولون ان يثيروا غبار الشبهات الباطلة على
التعدد فى أزواج رسول الله - ﷺ - وهم بذلك يفضحون ما فى قلوبهم من زيغ .
فلو تحول الناس جميعا إلى كناسين لثيروا التراب على السماء فسيثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء
هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

ماضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة لا يرى نورها من ليس ذا بصر

نعم يا أعداء الله من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين وأدعياء الثقافة وأبناء الغزو الثقافى
إن الرسول لن يضيره أن تنبح عليه هذه الأصوات فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .
وما ضر الورود وما عليها . إذا المزكوم لم يطعم شذاها

نعم ثم نعم

هل عرفتم من هو ذلك الذى تحاولون أن توجهوا إليه هذه السهام الطائشة
إنه الرجل الذى بعثه الله شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .
ما يضر البحر أمسى زائحا أن رمى فيه غلام بحجر

وما نحن أولاء نسلط مدفعية الاسلام الثقيلة على هذه المواقع فنأتى عليها جميعا فنذرنا قاعا

صفصفا

إن قصة زواجه - ﷺ - من خديجة - رضي الله عنها - كما ذكرنا توضح للإنسان وضوحاً لا تلتبس معه الرؤية أن رسول الله - ﷺ - لم يكن في اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها فلو كان مهتماً بذلك كبقية أقرانه من الشباب لطمع فيمن هي أقل منه سناً أو فيمن ليست أكبر منه على أقل تقدير .

ويتجلى لنا أنه - ﷺ - إنما رغب فيها لشرفها ونبيلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

ولقد ظل الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً وقد ناهز النبي - ﷺ - الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأية امرأة أخرى . وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمداً - ﷺ - تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث : زوجة أو أمة ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الأماء دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج على مألوف أو عرف بين الناس هذا فضلاً عن أنه تزوج خديجة وهي أيم وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره وفي هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ينهقون بما لا يسمعون إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون إنهم يهرفون بما لا يعرفون ويحاولون أن يطاولوا السماء وإن يمدوا إلى الشمس يداً سلاء .

إنهم يعضغون الهواء ويفتلون من الرمال حبلاً لقد ظنوا أنهم واجدون في موضع زواج النبي - ﷺ - مقتلاً يصاب منه الإسلام ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى . ﷺ - وتحيلوا أنه بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس في صورة الرجل الشهواني الغارق في لذة الجسد العازف في معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح حاشا لله يارسول الله . والله ما علمنا عليك من سوء أنها فرية ما فيها مرية ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾^(١) .

للخير والتوفيق والبركات
من شهوة تطفى ومن نزوات
فإليك حتماً منتهى الخطوات
وتعرضوا لمهالك خطرات
يتشدقون بأجوف الكلمات
ما غير دينك سلم لنجاة

علمتنا سر الحياة وقدتنا
جنبتنا الزلل الكبير وصنتنا
إن شرق القوم الكبار وغربوا
ضلت علومهم برغم نبوغهم
وتنكبوا سبل السلام واقبلوا
لو أحسنوا فهم السلام لأسلموا

ما ثمة أدنى شك فى ان المستشرقين والمبشرين هم الخصوم المحترفون للاسلام . يتخذون القدح فى هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها . كما هو معلوم .
أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم فأكثرهم يخاصمون الاسلام على السماع والتقليد ، ولا يعنيه أن يفتحوا أذهانهم لبحث أو فهم ، إنما هو هواية التقليد والاتباع ، فخصامهم للاسلام ليس إلا من نوع الشارة التى قد يعلقها الرجل على صدره لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماءه لجهة معينة . ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز فخصومة هؤلاء للاسلام ليست سوى الرمز الذى يعلنون به عن هويتهم بين الناس .

إنهم ليسوا من هذا التاريخ الاسلامى فى شيء ، وإن ولاءهم ، إنما هو لهذا الفكر الاستعمارى الذى يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكرى من مبشرين ومستشرقين . فهذا هو اختيارهم من قبل أى بحث ودون محاولة أى فهم !!

أجل ، إن مخاصمتهم للاسلام ليست إلا مجرد شارة يسمون بها أنفسهم بين قومهم وبني جلدتهم ، وليس عملا فكريا لقصد البحث أو الحجاج .

والا فموضوع زواج النبى (ﷺ) من أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماما .

يريدون أن يلصقوا به (ﷺ) صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد !! . وموضوع زواجه (ﷺ) هو وحده الدليل الكافى على عكس ذلك تماما . فالرجل الشهوانى لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر فى بيئة مثل بيئة العرب فى جاهليتها عفيف النفس دون أن ينساق فى شيء من التيارات الفاسدة التى تموج من حوله . والرجل الشهوانى لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب . ضعف عمره . ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه الى شيء مما حوله وإن من حوله الكثير ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ويدخل فى مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة ، ثم من غيرها ، فإن لكل منهم قصة ، ولكل زواج حكمة وسبب ، يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد (ﷺ) ورفعة شأنه وكمال أخلاقه .

أيا كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة الرغبة الجنسية ، إذ لو كان كذلك لكان احرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية فى الوقت الطبيعى لهذه الرغبة وندائها خصوصا وقد كان إذ ذاك خالى الفكر ، ليس له من هموم الدعوة ومشاغلا ما يصرفه عن حاجته الفطرية والطبيعية . يقول بعض المحققين الباحثين فى الرد على هذه الفرية ما نصه . لقد طعن كثير من سفلة البشر من أراذل المحترفين لمهنة التبشير فى محمد عليه الصلاة والسلام ، واتخذوا من زواجه مذمة يعيونه بها ومنقصة يلصقونها به ، وقالوا : إنه رجل شهوانى يميل إلى النساء ككبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا (١) . فى حين ان زواجه (ﷺ) يسمو بانسانيته إلى الحد الذى لا يجاربه

فيها إنسان ولا يباريه فيها بشر .

فلو أراد ان يضم في بيته كرائم العقائل ونفائس الخدائد ، لكان له ما يريد من أسمى بيوت العرب ، وأجل الجوارى من سبايا فارس والروم ، يرفلن في حلل الدمقس ، ويتحلين بأفخر الجواهر ، ولكان سماطه كسماط . قيصر وكسرى .

كيف لا وقد كانت تحمل إليه الأموال حتى يضيق بها مسجده فلا يقوم وفي كفه منها شيء .

وما شبع هو وآله من خبز الشعير ، وحاله من الغنى والجاه ما قدمنا وما وصفنا .

ولم يضم في حريمه سوى المغتربات المكتهلات ، التي مات عنها زوجها ، فلم تجد مأوى ، والتي غز عليها العيش في كف غيره من الأزواج ، ولم تكن بينهن من فتاة عذراء سوى واحدة ، هي عائشة ابنة رفيقه وصديقه أبي بكر الصديق ﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾ (١) .

وعندما بلغت قسوة الحياة متتهاها ، وجاوزت الشدة مداها ، نزلت آية التخيير :

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزيتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾ (٢) .

وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق الى حسن الاختيار ، واخترن دار القرار وقلن جميعا : بل نريد الله ورسوله والدار الآخرة فتحت لهن بذلك السعادة ، وحزن الحسنى وزيادة .

وقد تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة خديجة - رضي الله عنها - ولها أربعون سنة وهو ابن خمس وعشرين ، ولم يدفعه لزواجها سوى انها خطبته لنفسها بنفسها ، وكانت من أعف النساء وأعرقهن نسبا وحسبا ، ولها بعد ذلك فضل السابقة في الاسلام ، فلم يتقدمها إليه رجل ولا امرأة ، وماتت وسنها خمس وستون سنة ، وكانت مدة مقامها معه (ﷺ) خمسا وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

ولم يكن وفاؤه لخديجة رضي الله عنها وفاء المتعة والحسن ، بل وفاء الروح والنفس ، فلقد فضلها بعد ذلك على عائشة وهي اصغر زوجاته واحبهن إليه .

فترى من هذا أنه (ﷺ) قضى عنفوان شبابه وزهرة حياته مع خديجة ولم يتزوج عليها وإنما تزوجها لعفافها وعقلها وطهرها ، ومعاونتها له ومناصرتها إياه .

فقل لي بربك أين الشهوة والميل الى النساء في هذا؟! •

* زواجه بالسيدة سودة رضي الله عنها *

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة - رضي الله عنها - وكانت زوجا للسكران بن عمرو ، وكان قد أسلم قديما وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ومات حين قدما مكة ، ولو عادت إلى أهلها - بعد

١ - الآية ٤٠ من سورة التوبة

٢ - الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب

موت زوجها - لعذبوها وفتنوها فى دينها ، فكفلها (ﷺ) ، وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ، وكانت مسنة ولم يكن معه غيرها ، ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة رضى الله عنها فى السنة الأولى من الهجرة . فترى من هذا أنه (ﷺ) لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيرا من زوجها الذى مات معها حريصا على إيمانه فارا بعقيدته وتألفا لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته (ﷺ) فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

* زواجه بالسيدة عائشة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها ، وكلنا يعلم من هو أبو بكر الصديق ، الذى كان معه ﴿ ثانى اثنين اذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾^(١) ولم يتزوج بكرا غيرها .

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة علمنا أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما ، وقد كانت رضى الله عنها واسطة فى نقل شتى الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الاسلامية ، خصوصا ما يتعلق منها بالنساء . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

* زواجه بالسيدة حفصة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب - رضى الله عنها - وكانت زوجا لخينس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته ببدر ، وتزوجها - ﷺ - مكافأة لها وحبا فى أبيها الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ، ورغبة فى إيوائها وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله ، وهويدافع عن الله ورسوله ودينه .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

* زواجه بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته ، وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير ، ويعلى من قدره ، ويجعله أصلا لمصاهرة بنى هاشم ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾^(٢) .

وقد تزوجها (ﷺ) بعد طلاقها من زيد بوحي من الله تعالى للتشريع ﴿ لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾^(٣) .

١ - الآية ٤٠ من سورة التوبة

٢ - الآية ١٣ من سورة الحجرات

٣ - ٣٧ من سورة الاحزاب

وقد كان زواجه إعفاء لها من إهمال يصيبها بعد طلاق يذللها ، فيقصي عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار ، فما بالك بمطلقات الأرقاء ؟
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!!

* زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة ، وكانت زوجا لعبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنها ، فقتل عنها يوم أحد فتزوجها (ﷺ) إيواء لها وجبرا لمصابها فى زوجها ، وحفظا لدينها .
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!!

زواجه بالسيدة أم سلمة رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة أم سلمة (هند بنت أبى أمية) وكانت زوجا لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد ، وكانا أسلميا قديما ، وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما مكة ، وهاجرا إلى المدينة ، فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد . فتزوجها (ﷺ) .
ويروى عنها أنها سمعت رسول الله (ﷺ) يقول (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع ويقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلفنى خيرا منها إلا أخلفه الله خيرا منها) فلما مات أبو سلمة تذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام وقالت فى نفسها : ومن خير من أبى سلمة ؟
رجل نال الصحبة ، وشهد المشاهد مع رسول الله (ﷺ) . ولكنها استرجعت وقالتها ، فأخلف الله تعالى لها رسول الله (ﷺ) فأواها وحفظها .
فترى من هذا أنه (ﷺ) تزوجها ليعوضها خيرا من زوجها الذى فقدته ، وكانت كثيرة الأولاد ، فأواها وآوى أولادها ، وقام بشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها .
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!!

* زواجه بالسيدة أم حبيبة - رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة أم حبيبة « رملة بنت أبى سفيان » وكانت زوجا لعبيد الله بن جحش ، وقد هاجر إلى الحبشة ، الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها ، ومات بالحبشة ، وثبتت هى على إسلامها ، وأبت أن تنصر معه وخالفته ، واختارت الاسلام عليه ، فأنتم الله تعالى لها : الاسلام والهجرة والصحبة ، وأكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ .

ويروى أن أباهـا - أبا سفيان - قدم المدينة فدخل عليها ، فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟
 فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ - وأنت امرؤ نجس .
 فقال : لقد أصابك بعدى شر . قالت : بل خير .
 وقد خطبها (ﷺ) من ملك الحبشة حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها ؟
 فقل لي بربك أين الشهوة والميل إلى النساء في هذا ؟!

زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية

رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها ، وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة ، وقد تزوجها لإيواء لها وتألفا لقومها . وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها منهم : ابن أختها : سيف الاسلام خالد بن الوليد فقل لي بربك أين الشهوة والميل إلى النساء في هذا ؟!

زواجه بالسيدة جويرة بنت الحارث

رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة جويرة بنت الحارث بن ضرار ، وكانت زوجا لمائع بن صفوان المصطلقى . وقد قتل كافرا يوم المريسيع . وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق . وكانت سيدة بنى المصطلق وبنت سيدهم . فأعتقها - ﷺ - وتزوجها ، فلما سمع المسلمون بذلك أعتقوا ما فى أيديهم من سبى بنى المصطلق ، وقالوا : هم اصهار رسول الله - ﷺ - فأسلم بسببها بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وحسن إسلامهم .

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها ، وقد أنقذها من الأسر ، وأعتقها من الرق ، وأعزها من الذل .

فقل لي بربك أين الشهوة والميل إلى النساء في هذا ؟!

زواجه بالسيدة صفية بنت حى بن أخطب

رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة صفية بنت حى بن أخطب سيد بنى النضير ، قتل أبوها مع بنى قريظة ، وكانت

زوجا لسلام بن مشكم القرظي ، ثم فارقتها ، فتزوجها كنانة بن أبي الحقيق ، وقتل عنها يوم خيبر ، فأخذت رضى الله عنها في السبي ، فخبرت بين العودة إلى قومها ، وزواجها بالرسول ، فاختارت الخيرة ، فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة في إسلام قومها (اليهود) وقد أسلم كثير منهم .
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

حكمة راشدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ﷺ - لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ، ومقاصد أخروية ، لا تمت إلى الشهوة بسبب ، ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة .
هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم ، وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء ، والتي لا يستطيع تبليغها الرجال ، كالطهارة ، والغسل ، والحيض ، والنفاس ، والولادة ، والرضاع إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها للنساء - على وجهها الأكمل - سوى النساء .
ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين - امرأة واحدة ، بل عدة نساء من عدة قبائل . وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من اظهار نوره ، وبسط شرائعه .

وقد ثبت أنهم أذعن عنه - ﷺ - علما وفضلا وفقها ، ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريد سائر الملوك والأمراء - من التمتع واللذة ليس غير ، لا نتخب الحسان الأبنكار ، والكواعب والأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات .

فهل بعد هذا لمبشر - غر سمج ، عتل زنيم أن يقول عنه ﷺ - إنه شهوانى يميل إلى النساء؟! فى حين أن فى دياناتهم ومعتقداتهم ما ننزه ألسنتنا عن ذكره ، وأقلامنا عن تدوينه ؟
فسبحان من هدانا للدين الحق ، دين النور ، دين الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

وفضلا عن ذلك ، فلم تكن علاقاته - عليه أفضل الصلاة وأتم السلام - بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا ، بأى زوجة مهما علت !

فقد عاشرهن السنين الطوال ، فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية ، بل الكلمة الرفيقة ولم تبد على سماته النظرة القاسية ، بل النظرة الحانية .

وما من رجل - بالغ ما بلغ من المروءة والرقوة وسعة الصدر - الا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعة ما ، وبدأ منه التذمر والتضجر إزاء تصرف ما وبدرت منه بوادر الشر ونذر السوء حيال عمل ما .
ولكن الرسول - ﷺ - الذى أوتى جماع الفضائل ، وبعث ليتم مكارم الأخلاق ..
الرسول الذى أرسل من البشر ليعلى من أقدار البشر . ويرفع من شأنهم ويسمو بنوعهم : لم يكن آنذلك .

ولم يكن هذا منه - ﷺ - جبنا أو ضعفا ، بل كان كمالا وجلالا .

فإن الضعف الاختيارى : أقوى من سائر القوى ، وأكمل من سائر الكمالات ، وهو خير مقياس للعظمة الانسانية فى أجمل صورها وأرفع مراتبها . فإن من يقهر نفسه باختياره ليتفرق بضعيف ، لا طاقة له باحتمال القهر ، ولا غنى له عن طلب اللين والرفق ، هو الشجاع الباسل القوى وننتقل بعد ذلك إلى موقف آخر يتعلق بزواج الرسول ﷺ ، وهو قصة التخيير ، فما هى تلك القصة ؟

قصة التخيير

قال تعالى :

﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾^(١) .
إن رسول الله - ﷺ - لم يرد الحياة متعة فانية ، ولا زخارف براقية ، لأن قلبه كان مليئا بالقناعة والرضا ، والايمان والحكمة ، لقد خيره الله بين أن يكون نبيا عبدا أو نبيا ملكا ، فاختار أن يكون نبيا عبدا ، وقال فى ذلك « أجوع يوما فأذكرك ، وأشبع يوما فأشكرك ، ورفض الحياة فى زخارفها ومباهجها ومفاتها ، ولو أرادها مملكة ونعيمًا وخداما وحشما وترفا . لكان له ذلك .

ورواده الجبال الشم من ذهب	عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته	إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته	قوم نيام تسلاوا عنه بالحلم

أيقال على هذا النبى الكريم إنه كان غارقا فى ملذات الحياة ، وكان شهوانيا إلى النساء ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

إن حياة هذا النبى كما أخبرت أم المؤمنين عائشة قالت : إن كنا لنمكث الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة بشهرين ولم يوقد فى بيت رسول الله - ﷺ - نار يطبخ عليها .

أعلمت كيف كانت حياة هذا الرسول فى بيته ؟

كان طعامهم فى معظم الأحيان التمر والماء ، ومع ذلك كانت العيشة راضية لا تسمع فيها لاغية .

(٢) إن السعادة مملكة قائمة بالنفس ، كما صورها السيد الجليل محمد - ﷺ - فى هذه الكلمات « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ،

١ - الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب

٢ - الحديث فى مسند أحمد - مسند أبى هريرة - ج ٢ - ص ٣١٠

وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .
ليست السعادة في انتشاء الكئوس المترعة ، ولا في الاستمتاع بالغيد الأماليد أنما السعادة في رضاك عن الله ؟ وفي رضا الله عنك ، وفي تزكية النفس واشراق العقل وانتصار الذهن واستعلاء النفس على مطالب المادة ، وسيطرة القيم والمبادئ التي تحقق في الانسان انسانيته . كيف يقال على هذا النبي إنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية وهو الذي كان يمكث في بيته شهرين ولم توقد في بيته نار يطبخ عليها ؟

لله درك يارسول الله

الحق أنت وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقيها تيهها من الأهوال والظلمات

إن الله تعالى خاطب نبيه - صلى الله عليه وسلم - بهاتين الآيتين في أمر عرض له من أزواجه عندما طلبن منه زينة الحياة الدنيا .

فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية ، وشهوة نسائية ، لوفر لهن هذه المطالب وأكثر منها ، كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ولكن ماذا حدث ؟

أسمع إلى العلامة ابن كثير ، يفسر هذا المشهد القرآني بما تيسر من التقدير يقول رحمه الله تعالى :
« هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله - ﷺ - أن يخير نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن - رضى الله عنهن وأرضاهن - الله ورسوله والدار الآخرة - فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها زوج النبي - ﷺ - أخبرته أن رسول الله - ﷺ - جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت ، فبدأ بى رسول الله - ﷺ - فقال : إني ذاكرك أمراً فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك ، وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : إن الله تعالى قال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ ﴾ .. إلى تمام الآيتين فقلت له : ففى أى هذا استأمر أبوى ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة . وروى الامام أحمد بسنده عن جابر رضى الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن رسول الله - ﷺ - والناس ببابه جلوس ، والنبي - ﷺ - جالس ، فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه ، فاستأذن ، فلم يؤذن له ، ثم اذن لأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فدخلا ، والنبي - ﷺ - جالس وحوله نساؤه ، وهو - ﷺ - ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبي - ﷺ - عله يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه - يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة أنفا فوجأت عنقها ؟ فضحك النبي - ﷺ - حتى بدت نواجذه وقال « هن حولي يسألننى النفقة » فقام أبو بكر رضى الله عنها إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله

عنه إلى حفصة - كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله - ﷺ - فقلن والله لا نسأل رسول الله ﷺ - بعد هذا المجلس ما ليس عنده قال . وأنزل الله - عز وجل - الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال « انى ذاكرتك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها (يا أيها النبى قل لأزواجك) الآية : قالت عائشة - رضى الله عنها - : أفليك أستأمر أبوى ؟ بل اختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ، لكن بعثنى معلما ميسرا ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها ، مسلم .

أرأيت يا أخا الاسلام لم كان التخيير وفيه كان ؟؟

لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرن بين الحياة الدنيا وزينتها والتسريح الجميل ، وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى (أمتعن وأسرحكن سراحا جميلا) أى أعطىكن حقوقكن وأطلق سراحكن . لو كان هذا الانسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعة وصاحب رغبة شهوانية هل كان يمانع فى أنه يأتى لهن بزينه الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة ؟ سبحانه ربى ، لقد بعثته أسوة حسنة وقدوة طيبة . إن هذا البيت بيت النبوة لقد قال الله - تعالى - لنساء هذا البيت ﴿ وأذكركن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ (١) .

بيت يهبط فيه الأمين جبريل ورفقاؤه من كبار الملائكة . بيت يتلقى الوحي من رب الماء . بيت قرآنى يفوح من أريج القرآن عطرا وريحانا . إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ (٢) .

بحث قيم

جاء فى كتاب (الاسلام والعلم الحديث) للأستاذ عبد الرازق نوفل بحث قيم فى زواج النبى - ﷺ - وقد أثرنا ان نشبه ونجن بصدد الكلام عن هذا الموضوع . وما هو ذا نسوقه بنصه قال المؤلف : « لم تظهر حكمة زواج الرسول - ﷺ - بمن تزوجهن إلا عندما اتسع أفق الفكر فى العصر الحديث . فإذا ما استعرضنا زواج النبى - ﷺ - نجد أن كل زواج انما كان يحقق غرضا ساميا أو كسبا للدين ، أو

١ - الآية ٣٤ من سورة الأحزاب

٢ - الآية ٣٣ من سورة الأحزاب

عملا بشريع جديد . وإن الرسول الأمين كان بعيدا كل البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوة أو مغنم .

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد ، كانت تزوجت عتيقا المخزومي ولما مات تزوجت أبا هالة التميمي فمات أيضا ، بذلك ورثت عنها مالا وفيرا علاوة على ما كانت تملكه . وقد كانت ذات شهرة كبيرة بين قومها ، لما امتازت به من جاه وحسب ونسب ، علاوة على مالها ، ولكنها كانت ترد كل طالب ، فقد كانت عازفة عن الزواج ، وكانت ترسل الرجال على تجارتها ، فأرسلت نبي الله ليشرّف على هذه التجارة لما سمعت عنه من أمانة واستقامة ، وعادت القافلة وقد حققت أرباحا لم تعهدها ، ورواجا لم تكن تتوقعه . فلما سألت غلامها ميسرة الذي صاحب الرسول - ﷺ - روى لها رقة شمائل محمد ، وجمال نفسه ، وصفاء قلبه ، وطهارة سريرته ، وحدثها عما شاهدته من أمانته المطلقة . ونزاهته وعفته . . فأرسلت له صديقتها (نفيسة بنت منبه) تقترح عليه أن يتزوجها - وتزوجها الرسول وهو شاب في ريعان شبابه ، إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره في حين كانت السيدة خديجة قد بلغت الأربعين من عمرها .

فهل كان سيدنا محمد رجل متعة ؟ وهل كان كما يقول أعداء الاسلام شغوبا بالنساء ؟ وما هو ذا يتزوج من سيدة تزوجت قبله مرتين ، وتكبره بخمسة عشر عاما ؟ لقد شدت خديجة أزر الرسول بمالها ورجالها وعصبيتها ، حتى إنه عندما جاء الوحي وخشى منه ، سألت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل ، الذي كان أول من بشر بنبوته ، وشجعه على إعلان الدعوة ، حيث قال له ، وقد قابله في طواف الكعبة ، (والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الذي جاء به موسى ، ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه » ثم قبله وشجع ذلك النبي على أن يدعو قريشا فيعلن لهم دعوة الله . كما أن السيدة خديجة شاركت الرسول في جهاده ، فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له وتدفعه إلى النضال والصبر - وعاشت معه خمسة وعشرين عاما أمضت منها خمس سنوات في جهاد الدعوة ، تقاسمه ما يلقي من عنت وشدة حتى لقيت ربها ولها من العمر خمسة وستون عاما - وبعد موت خديجة ازدادت قريش في اذائها للنبي - ﷺ - فخرج إلى الطائف يدعو إلى الاسلام فوجد من ثقيف التكذيب والاعراض ، وبعد عام من جهاده عاد إلى بيته بمكة فوجده قفرا . فلما أحس المسلمون بما شعر الرسول به من وحشة أو عزوا إلى خولة بنت حكيم حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه ، وتقضى حاجة بيته ، وتقوم على شأنه ، فعرضت العذراء عائشة بنت أبي بكر أو سودة بنت زمعة التي آمنت به وأسلمت وهاجرت ، إلى الحبشة مع زوجها الذي مات وتركها وحيدة ، فقبل الرسول العزيز الزواج من الأخيرة التي كانت كبيرة السن ضامرة الجسد ، ليس فيها مشتهى للرجال ، ولكنها كانت مؤمنة مجاهدة من الصابرات .

هذا هو زواج الرسول - ﷺ - إذ أن ما تم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى إلى تحقيق هدف أو كسب للدين ، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ما جد بعد ذلك من زواج . فالمشاهد في العصر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولون ان يرتبطوا مع وزراءهم وقوادهم

برباط المصاهرة ، بل إن قادة الأمم المختلفة يجعلون المصاهرة بينهم من وسائل التقريب بين الأمم بعضها ببعض ، وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم إلى تحقيقها . فلربط رجال المسلمين الأول بعضهم ببعض تزوج الرسول ﷺ - بعائشة بنت وزيره الأول أبى بكر ، ثم تزوج بحفصة بنت عمر عندما مات زوجها ، ولهذا السبب نفسه زوج بنته رقية لعثمان بن عفان فلما ماتت زوجه بعدها أختها أم كلثوم ، كما زوج ابنته فاطمة لعلى بن أبى طالب . وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمدا - ﷺ - برجاله الأوائل : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى - أقوى الرجال فى الاسلام وأول من أسلموا .

- وهناك هدف آخر هدف إليه الرسول بزواجه ، فقد كان من عادة العرب إذا مات الرجل ذهب اخواته وأصدقائه إلى أرملته يواسونها ويعرض أقربهم إلى زوجها مرتبة أن يتزوجها إكراما لزوجها ، وذلك للاشراف على شئون بيته .

وقد أبلى من المسلمين فى الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به فى سبيل الله ورسوله . ومن هؤلاء المسلمين من لقى حتفه فى سبيل دين الله ، فتزوج الرسول من بعض نساء قتلى المسلمين . فمن تحدث التاريخ عن جليل أعمالهم ، ولم يجدن أزواجا لهم ، إما لكبر سنهن أو لكثرة أولادهن ، فزاد تلك من تعلق المسلمين برسولهم ، ورفع من روحهم المعنوية ، وأصبح المسلم يعرف أنه لو قتل فى سبيل الله لم يعدم رجلا يشرف على بيته ، ولم يعدم أباً يحنو على أولاده ، ولو لم يجد من المسلمين لوجد نبي الله نفسه ، بل حُب ذلك الاسلام لغير المسلمين فأسلموا .

ولذلك تزوج الرسول من زينب أم المساكين زوجة عبد الله بن جحش أحد امراء المسلمين الذى قتل فى وقعة أحد ، وكان على رأس أول سرية خرجت للغزو فى الاسلام .

كما تزوج للسبب نفسه هنداً أم سلمة زوجة أبى سلمة أحد مهاجرى المسلمين إلى الحبشة ، الذى أبلى بلاء حسناً فى الدعوة ، فلما مات تقدم لخطبتها كبار العرب ، ومنهم أبوبكر وعمر ، فرفضت حيث قالت (إني امرأة مسنة وأم أيتام) وعز على الرسول ﷺ - أن تظل السيدة حزينة وحيدة فتزوجها .

وهناك تشريع هدف إليه الاسلام فى زواج الرسول ﷺ - يقول الله تعالى فى سورة الحجرات ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) وقد كان الرق منتشراً فى بلاد العرب . فدعا الاسلام إلى العتق وتحرير الرقيق وكان للسيدة خديجة زوجة النبی - عبد اسمه « زيد » وهبته لسيدنا محمد ، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوة وقربه الرسول إليه حتى كانوا يطلقون عليه اسم زيد بن محمد هذا العبد الذى تحرر .

هل من بين العرب من يجرؤ فيعتبره ندا له فيزوجه من قريته مثلاً ؟

لقد طلب زيد يوماً من الرسول - ﷺ - أن يزوجه زينب بنت جحش ابنة عمه الرسول فوافق عليه الصلاة والسلام ، ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها ومن ذويها . ولكن الله تعالى أمر

بإتمام هذا الزواج حيث قال ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلّالا مبينا ﴾^(١).

وتزوج العبد السابق من سيدة قريش سليلة المجد والحسب ، وكان ذلك تشريعا جديدا للمسلمين ، وعملا بقول الله تعالى في سورة البقرة ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾^(٢). ولم يدم ذلك الزواج طويلا ، فطلب زيد الطلاق من زينب ، فكان رد النبي كما في سورة الأحزاب ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾^(٣). وأراد الله تعالى تشريعا جديدا ، إذ كانت التقاليد لا تجيز للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمن ادعاه ، كما لا تجيز للمتبنّى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمتبناه ، ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة عبد .

فنهى عن ذلك الله تعالى إذ يقول في سورة الأحزاب :

﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذالكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾^(٤).

لذلك أمر الله تعالى بأن يكون الرسول القدوة للناس في ذلك ، وخشى في نفسه - ﷺ - أن يقول عنه الناس : تزوج من كانت زوجا لدعيه ، وكان يخفى في نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما لبعض حتى لا يتزوجها ، ولكن الله مبدى هذا ﴿ وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾.

هذه هي حكمة زواج الرسول من زينب بنت جحش ، وهي بعيدة كل البعد عما يرويه خصوم الاسلام من أن الرسول - ﷺ - كان قد ذهب لزيارة زوجها فاستهواه جمالها ، فطلب من زوجها ان يطلقها ليتزوجها .

وأين كان الرسول يوم أن كانت زينب عذراء وهي ابنة عمته ، والتي كانت يعرفها تماما؟؟ أو لم تستهوه محاسنها وهي عذراء ؟ ولكنه الحق على الاسلام ، ونبي الاسلام الذي يجعل الخصوم يفترون .

وهناك حكم من زواج الرسول . إذ حقق به أهدافا سياسية ، فعندما هزم المسلمون بني قريظة بعد حصار طويل ، كانت ريحانة بنت عمرو زوجة الحكم احد كبار بني قريظة من نصيب الرسول في الغنائم ، فعرض الرسول عليها الاسلام ، فأسلمت وتزوجها ، وكان لزواجه منها أكبر الأثر في نشر الدعوة الاسلامية بين قبائل اليهود الذين هدأت ثائرتهم ، وهز مشاعرهم إكرام الرسول لإحدى سيداتهم بزواجه منها .

١ - الآية ٣٦ من سورة الأحزاب

٢ - الآية ٢٢١ من سورة البقرة

٣ - الآية ٣٧ من سورة الأحزاب

٤ - الآية ٤ من سورة الأحزاب

وكذلك عندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق . كانت جويرية بنت الحارث بنت سيد قومها من نصيب ثابت بن قيس الذى طلب منها أن تفتدى نفسها فاستعانت بالرسول فى فك أسرها ، فعرض عليها الرسول الاسلام فأسلمت فتزوجها ، وكان لذلك أثره فى نفس بنى المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسول ، فدخلوا جميعا فى الاسلام .

- ولما انتصر المسلمون على يهود خيبر ، كانت صفية بنت حى بن أخطب ضمن الأسرى ، فأعتقها الرسول وتزوجها ، وهذا ما يفعله الفاتحون من ذوى الرحمة إذ يتزوجون من بنات الملوك والعظماء فى الدول المهزومة حفظا لكرامتهم ، وتخفيفا من وقع الهزيمة عليهم .

وبعد أن انتشر الاسلام فى جزيرة العرب ، أرسل الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة الذى أوى المسلمين المهاجرين وأكرمهم ، ليكون النجاشى رسوله فى طلب الزواج من أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش الذى كان قد أسلم ثم ارتد ، وبقيت زوجته مسلمة صادقة العقيدة ، وكانت لفتة كريمة لسيدة مسلمة ارتد زوجها المسلم وتمسكت بدينها ، تحافظ عليه ، وتقيم شعائره فى دولة غريبة كما كانت سياسية بارعة ؟ إذ أن أم حبيبة بنت أبى سفيان هدو الرسول الألد ، وأكبر مهاجى الاسلام ؟ وبزواجه منها انتصر على آخر معاقل الكفر والشرك فى قريش ، انتصارا دون إراقة دماء ، وبدون حرب أو اعتداء .

وعندما بدأ الرسول فى نشر الدعوة إلى الخارج ، أرسل رسله إلى الملوك والأمراء . منهم : هرقل ، وكسرى ، والمقوقس ، يدعوهم إلى الاسلام ، فكان من ضمن رد المقوقس عظيم القبط فى مصر أنه أرسل للرسول هدايا فيها جارىتان احدهما مارية القبطية التى تزوجها الرسول ، وسيرين التى اهداها إلى حسان بن ثابت .

ولما أحل للنبي الدخول إلى مكة وزيارة الكعبة الشريفة بعد صلح الحديبية دخل الرسول على رأس المسلمين فى عمرة القضاء وظلوا أياما ثلاثة هى ما اتفق عليه فى المعاهدة .

وكان المسلمون من الكثرة والقوة والخلق الكريم لا يشربون خمر ، ولا يأتون معصية ، ولا يتقاتلون على شراب أو طعام ، ولا يعبدون أحجارا أو أوثانا وإنما دعوتهم الله أكبر الله أكبر . زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار ، فأسلم ضمن من أسلم ميمونة بنت الحارث خالة خالد بن الوليد ، فخطبها الرسول وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها وأى تكريم ، وفتح لعائلتها التى كانت ومازالت على الكفر ، وقد صحت فراسة الرسول ﷺ - ، كما كانت تصح دائما ، فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذى هدم العزى ، وقتل سلاتتها ، وأسلم عمرو بن العاص الذى هدم سواغا . وكذلك أسلم عثمان ابن طلحة حارس الكعبة . وباسلامهم أسلم كثيرون من أهل مكة .

هذا هو زواج رسول الله ﷺ - فهل منه ما يشير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج لحبه النساء ؟ وهل فى أزواجه كلهن واحدة كان جمالها أو شبابها سببا فى زواجه منها ؟ وهذه هى الأهداف التى هدف إليها الرسول من زواجه لمصلحة الدعوة والدين .

لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره ، ولما تحقق الهدف ، وانتفت الأسباب التى من أجلها

أحل الله لنبه تعدد زوجاته نزل قول الله تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ .

هذا هو زواج الرسول - ﷺ - فهل فيه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج بأكثر من واحدة لجه للنساء ؟

وهل كان بين كل هذه الزوجات عذراء سوى عائشة ؟
أو ليس قول الخصوم بعد ذلك افتراء على النبى - ﷺ - وعلى الحق أى افتراء ، ، انتهى ؟؟

والى هنا نكون قد أتينا على الحكمة البالغة التى من أجلها تعددت زوجات الرسول - ﷺ -
سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

لما أراد الله جل جلاله	ان ينقذ الدنيا من العثرات
أهداك ربك للورى ياسيدى	فيضا من الأنوار والرحمات
يا صاحب الخلق الكبير عرفته	ويسطته فى حكمة وأناة
وطلعت فى الليل البهيم مؤذنا	بالحق والأنوار والصلوات
ودعوت للخيرات قوما ضللوا	ما كان أبعدهم عن الخيرات
ودعوت حتى كنت أصبر من دعا	وأقمت بين إساءة واذاة
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت فى	أعناقهم فى عزة وثبات
فحظيت بالنصر المبين مؤزرا	وأقمت حقك خافق الرايات
وضربته مثلا لكل مكابر	لا يستوى حق بغير حماة

الاسلام وتعدد الزوجات

رأينا من المناسب بعد الكلام عن أزواج سيدنا محمد - ﷺ - أن نعقب هنا بكلمة عن حكمة الاسلام البالغة فى إباحة تعدد الزوجات .
وقبل هذه السطور ، نود أن نبدا بهذه القواعد التى تنبنى عليها دائما الحكم البالغة ، والأهداف السامية لتشريعات الله أحكم الحاكمين وأعدل العادلين .

عالية الدعوة

القاعدة الأولى من تشريعات الاسلام أنه شريعته عالية ، وليس حكما إقليميا قال سبحانه وتعالى ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ^(١) وقال ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ ^(٢) .
 وقال ﷺ - (كل بنى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى كل أحر وأسود) ^(٣) .
 وإذا قد تقرر ذلك فلا بد أن يكون تشريع الاسلام شاملا لكل مقتضيات الزمن ومحيطا بكل نواحي الحياة .

عدالة الاسلام

القاعدة الثانية أن الاسلام دين العدالة ، فهو فى كل ما شرع لا يعرف الجور ، ولا يتطرق الجور إلى أى مسألة من سائله . ولذلك فإن العدالة هى السمة الحقيقية فى تشريعات الله . فليس لمكابر أو مجادل أن يقول إن فى تعدد الزوجات أو غير ذلك من القضايا الاسلامية جورا أو ظلما لأن الله تعالى أحاط تشريعاته بالعدالة والمودة والرحمة .
 قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ^(٤) .
 وقال ﴿ فإن خفتهم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ ^(٥) .
 وقال سبحانه ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شتان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ﴾ ^(٦) .
 وقال سبحانه ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾ ^(٧) .

الاسلام يخاطب العقل

القاعدة الثالثة : أن الاسلام فى تشريعاته منطقى وسديد ورشيد ، فهو لم يشرع ما تأباه العقول ، وتنبو عنه الأفهام ، وتمجه الأذواق ، بل جاء بشرع هو للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم .
 جاء ليوحد العقائد لا ليفرق القواعد . وقد قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته ما أمر ، ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى .
 وقد صدق الله تعالى إذ يقول ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها ﴾ ^(٨) وإذا يقول ﴿ قل إننى

١- الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

٢- الآية ٩ من سورة الصف

٣- الحديث فى تحاف السادة المتقين - صفة الشفاعة - ج ١٠ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨

٤- الآية ٢١ من سورة الروم

٥- الآية ٣ من سورة النساء

٦- الآية ٨ من سورة المائدة

٧- الآية ٢٣٧ من سورة البقرة

٨- الآية ٣٠ من سورة الروم

هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيا ملة إبراهيم حنيفا ومكان من المشركين ﴿١﴾ .
وإذ يقول ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا
ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (٢) .

وبناء على ما تقرر من قواعد كان كل تشريع إسلامى له حكمته البالغة وله هدفه الرفيع .
الاسلام : دين عالمى ، دين العدالة ، لا يجافى العقل الرشيد ولا المنطق السديد .
وقد جاءت حكمة الاسلام بالغة فى تعدد الزوجات .
إن إباحة تعدد الزوجات دواء لا بد من وجوده فى صيدلية الاسلام العالمية ، وإلا فما الذى يعالج
مشاكل العالم إذا كان الدواء الذى يعالج به الداء - هو غير تعدد الزوجات ؟ .
إن أحداث الحياة لا تثبت على حال واحدة ، فلا بد أن يعالج الاسلام جميع مشاكلها ، ويداوى
بالحكمة جراحها .

والاسلام كما عهدناه فى علاجه كالنسيم الهادى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار
المهذبة تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .
إن القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى على رسوله هدى وشفاء لم يدع شيئا لصالح البشرية إلا
بينه ، ولا أمرا فيه صلاح الدنيا والآخرة إلا فصله ، وقد كان أوائل هذه الأمة - رضى الله عنهم - حين
يخزيهم أمر أو تعترضهم مشكلة يهرعون إلى كتاب ربهم ، فيطيعونه فيما أمر وينتهون عما نهى عنه
وزجر .

ولن يرضى الله أن يؤول كتابه تأويلا يميل به إلى الهوى ، فإن هوى النفس شرداء تبتلى به
المجتمعات .

فقد صرح القرآن أنه لا اختلاف فيه ولا مجال لأصحاب الهوى فى فهمه قال سبحانه ﴿ أفلا
يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ (٣) .
الله جل جلاله أباح تعدد الزوجات بمقتضى قوله ﴿ فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث
 ورباع ﴾ (٤) .

وهذه الإباحة ليس فيها غموض : إذ الأمر فى هذه الآية دليل الإباحة كما فى قوله تعالى ﴿ يا أيها
الناس كلوا مما فى الأرض حلال طيبا ﴾ .
فالأمر هنا لإباحة الفعل .

ولما أورد الله تعالى قيد العدل فى قوله تعالى ﴿ فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة ﴾ (٥) علم أن هناك
صنفين من التعدد : أحدهما تعدد مع العدل وثانيهما تعدد مع الظلم .

١ - الآية ١٦١ من سورة الأنعام

٢ - الآية ١٢٣ من سورة طه

٣ - الآية ٨٢ من سورة النساء

٤ - الآية ٣ من سورة النساء

٥ - الآية ٣ من سورة النساء

والصنف الأخير هو المنهى عنه من مفهوم الآية الكريمة . أما الذين زعموا أن التعدد غير جائز ، لأنه مبنى على العدل ، والعدل منفى كما جاء فى قوله تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾^(١) فقد غاب عنهم أن هذا المعنى لو تحقق - كما فهموا - لكان تناقضا ولغوا ، والقرآن الكريم منزّه عن ذلك تنزيها كاملا . ألم يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾^(٢) . ألم يقرأوا قوله تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾^(٣) .

إذ ليس من المعقول ، ولا من المستساغ ولا من المقبول أن يقول الله تعالى تزوجوا من تحبون متى تشاءون فى حدود الأربع ، فإن خفتم الجور فواحدة فحسب وبعد ذلك يقول : الجور محقق فى كل واحد من راغبى التعدد .

تعالى الله من ذلك علوا كبيرا . وكان الأحرى والأجدر إذا كان هذا هو المعنى المقصود ألا يذكر العدد أصلا ، إباحة وحظرا . أما وقد ذكر التعدد فى القرآن ، وأجمعت عليه الأمة الإسلامية فى شتى العصور بالقول والعمل ، فقد وجب فهم الآية القائلة بعدم استطاعة العدل وهى قوله تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) .

وجب فهمها بما فهمه أئمة التشريع وأساطين التفسير الذين قالوا : إن المقصود بالعدل غير المستطاع إنما هو العدل فى الميل القلبي والمحبة القلبية ، إذ أن قلوب بنى الإنسان بين يدي الرحمن بصرفها ويقلبها كيف شاء . قال سبحانه ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾^(٤) . لذا كان - ﷺ - يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول (اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك) .

ولو أنهم قرأوا بقية الآية الكريم وهو قوله تعالى ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾^(٥) . لعلموا أن العدل منا قلبي . إذ أن الله لم يقل فلا تميلوا بعض الميل لأن بعض الميل قد يقع ، وإذن فالمنهى عنه هو الميل كله ، الذى يؤدى إلى كسر القلوب وعدم جبرها ، وإيجاد الجراح المؤلمة بها ولذلك عقب الله تعالى بعد ذلك بقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾^(٦) والمعلقة هى المرأة التى أساء زوجها معاشرتها فلا هى مزوجة ولا هى مطلقة .

وبناء على ما سبق فلا تناقض فى كتاب الله ولا اختلاف ، إذ أن العدل فى قوله تعالى ﴿ فإن خفتم

١ - الآية ١٢٩ من سورة النساء

٢ - الآية ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت

٣ - الآية ٨٢ من سورة النساء .

٤ - الآية ٢٤ من سورة الأنفال

٥ - الآية ١٢٩ من سورة النساء

٦ - الآية ١٢٩ من سورة النساء

الا تعدلوا فواحدة ﴿١﴾ المقصود به العدل فيما يملك الانسان من الأمور المادية المحسوسة . كالمساواة بين الزوجات في المسكن والكسوة والنفقة والمبيت . أما العدل في الآية الثانية وهو قوله جل شأنه ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ .

فالمراد منه العدل القلبي والمحبة القلبية وهذا عاجله القرآن بقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ وعلى هذا يستقيم الميزان في الفهم ويتفنى التناقض والاختلاف عن أحكام الله سبحانه وتعالى جلت حكمته وعظمت رأفته .

ونخلص مما تقدم إلى أن التعدد للزوجات مباح شرعا مادام ذلك قد شرعه الله وأباحه في قوله ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ (٢) .

وقد تأيد التعدد من سائر مصادر الشريعة فيها هو ذا صريح القرآن وها هو ذا الاجماع . فإذا مذهبنا إلى السنة النبوية نستهديها وجدنا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم) (٣) .

ومفهوم المخالفة يقتضى جواز الجمع بين من عداهن وقد جاء في قوله تعالى ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ (٤) جواز الجمع بين من عداهما .

وقد أمر ﷺ غيلان الثقفي حين أسلم وله عشر نسوة أن يستبقى أربعا منهن هذا يدل دلالة قاطعة لا تقبل الشك أو الجدل .

أن التعدد من بديهيات المباحات وأن التكلم في منعه أو تحريمه يدخل تحت طائلة تحريم ما أحل الله وهو جريمة ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ (٥) .

ليس في تعدد الزوجات أى مساس بمصلحة المرأة سواء كانت متزوجة على أخرى أو متزوجة عليها بأخرى فأما الحالة الأولى فلا يوجد عقد زواج إلا واحد طرفيه امرأة تملك زمام أمرها بيدها ففى وسعها ألا تتزوج بمتزوج وإن كانت فى عسر من أمرها ولا تستطيع أن تقوم بأودها فقد فرج الله عليها بالزوج الذى يرفع عن كاهلها عبء الفاقة وذل العوز وغائلة الجوع وأما الحالة الثانية : التى تعتبر أن الزواج عليها فاجعة لها فلا بأس من طلبها الطلاق لأن الاسلام لا يرضى بالضرر وشريعتنا السمحة تأبى ذلك . ومهما يكن من شىء فإن تعدد الزوجات لا يخلو من خير ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله

١ - الآية ٣ من سورة النساء

٢ - الآية ٣ من سورة النساء

٣ - الحديث رواه أبو داود - كتاب النكاح - ج ٢ ص ٥٥٣ رقم ٢٠٦٥ وأخرجه البخارى تعليقا فى النكاح باب وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف - ج ٦ ص ٩٨ .

والترمذى فى باب النكاح حديث رقم ١١٢٦

٤ - الآية ٢٣ من سورة النساء

٥ - الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس

ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴿١﴾
 فقل لهؤلاء المجادلين ﴿٢﴾ أنتم أعلم أم الله ؟ ﴿٣﴾
 ثم قل لهم ﴿٤﴾ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿٥﴾
 ويراعى الاسلام مراعاة دقيقة أن يكون التعدد بقصد الاستعفاف لا بقصد الاسفاف أو الاسراف
 إذ أن الاسلام لا يرضى بالضرر أو الضرر فقاعده الأولى « لا ضرر ولا ضرار » ﴿٦﴾ .
 وقد يكون فى التعدد ناحية انسانية أخلاقية قد تكون الزوجة مريضة مرضا لا يمكنها من أداء
 واجبها نحو زوجها من ناحية، المباشرة أو القيام بخدمته فهل الأولى والأفضل ان يرميها بعيدا ويقطع ما
 بينه وبينها من علاقة أم يبقى عليها مع زوجة تؤدي له حقوقه الشرعية ؟
 وقد تكون الزوجة عاقرا ولا تنجب والزوج يريد ولدا فهل الأفضل والأليق أن تطرد هذه الزوجة
 العاقر بعيدا عن كنفه بعد طول معاشرة أم يتزوج ويبقى على عسرتها فى حدود العدالة والمساواة الانسانية
 التى أمر الله بها فى قوله ﴿٧﴾ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفورا رحيمًا ﴿٨﴾ ما من شك فى أن جانب
 الانسانية يبدو واضحا فى التعدد الذى أباحه أحكم الحاكمين .
 وأما ما يدعيه البعض من أن التعدد يؤدي إلى إفساد العلاقات بين الأخوة غير الأشقاء فهى دعوة
 فاسدة فكم رأينا شقيقين يقتتلان وأخوين لأب متصافيين متحابين .
 هذا وقد غاب عن هؤلاء الطاغين أن البلدان التى حرمت التعدد نشأ فيها الفجور والمخادنة
 وملئت فيها الملاجىء بأبناء الزنا والبيوت بالأبناء غير الشرعيين إن خالق الناس ومن هو أدرى بالناس
 من الناس قال بالتعدد فهل يجوز لانسان مهما أوق من علم وفهم أن يأتى فيقول : لا . . . إن التعدد
 نظام بغيض يقضى على المجتمع ويشتت شمل الأسرة ؟

هذا ولا يخفى ما فى تعدد الزوجات من مصلحة عظيمة وحكمة بالغة فإن الرجال فضلا عن
 زيادة عدد النساء عليهم معرضون لنقصان مستمر بسبب قيامهم بشاق الأعمال وبأعباء الحروب وغيرها
 وتعرضهم للمهالك وليس من الحكمة فى شيء أن ندع جانبا كبيرا من بناتنا بدون إحصان .
 إن الأوربي يرفض تعدد الزوجات فى الوقت الذى يبيع لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات ويرى
 والد الفتاة مع ابنته عشيقها فيسر ويغبط بل ويمد لها جميع الوسائل وكافة السبل المؤدية لراحتها
 وطمانيتها .

أما ديننا القيم وشريعتنا الغراء التى تحرم على الرجل النظر إلى المرأة وتحرم المرأة النظر إلى الرجل
 فقد كان من العدالة أن توجد توازنا لهذه القاعدة فجعلت الزواج مكان السفاح ووضعت الحلال مكان

١ - الآية ٣٦ من سورة الاحزاب

٢ - الآية ١٤٠ من سورة البقرة

٣ - الآية ٦٦ من سورة آل عمران ، ٢٣٢ من سورة البقرة

٤ - الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ١ ص ٣١٣

٥ - الآية ١٢٩ من سورة النساء .

الحرام وإلا فمن للعوانس وربات الخدور؟ ألهن العهر والفجر ولنا العفاف والطهر؟ أم لهن الجحيم ولنا النعيم؟

وهل من المستحسن أن يكن ضرائر أم يكن فواجر؟

إن الاسلام شرع مبدأ تعدد الزوجات ليحمى المرأة من عدوان الرجل الظالم . فلم يقبل أن تكون في علاقاتها معه إلا على حالة واحدة وهي أن تكون زوجة لها ولأولادها حقوق مقررة لا يستطيع الرجل التنصل منها وفي الوقت نفسه حرم الزنا والمخادنة وجميع ما من شأنه الخط من مستوى المرأة وإنزالها من مرتبة الانسانية إلى مرتبة الحيوانية .

والآن يوجد أمامنا ضربان من السلوك أولهما يبيح تعدد الزوجات ويحرم ما وراء ذلك من العلاقات الأئمة ويضرب بيد من حديد على أيدي المتلاعبين بالأعراض الخائضين في ضروب الفحشاء والفساد .

وثانيهما يحرم تعدد الزوجات ويبيح سائر العلاقات الأئمة ويجيز التلاعب بالأعراض والخوض في ضروب الفحشاء .

بديهى أنه لا يوجد انسان عنده ذرة من عقل فيختار القسم الثانى ولا توجد نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه كحظ البهائم العجماء وفي أى دين أو أى نظام أو أى عرف تكون الخليفة أفضل من الخليفة؟

ويقولون أيضا : إن الرجل الذى يعقب أولادا من زوجتين يعتبر في نظر المجتمع آثما ، لأنه يخلق العداوة بين نسائه والبغضاء بين ابنائه فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولادا من امرأتين إحداها شرعية والأخرى غير شرعية لا يعتبر آثما ولا يكون خالقا للعداوة بين نسائه وابنائه وقد صدق الله تعالى إذ يقول ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون^(١) .

هذه شريعة الله شريعة الحق شريعة العدل وهذا منهاج الخالق البارئ المصور .
﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾^(٢) .

شهادات الخصوم لنبي الاسلام

لم تكن شهادات الخصوم لنبي الاسلام مقصورة على الفلاسفة أو المفكرين في القرن العشرين أو ما قبله من القرون العريية إنما سبقت ذلك شهادات له - ﷺ - من بنى قومه الذين لقبوه قبل بعثته

١ - الآيات ١ - ١١ من سورة المؤمنون

٢ - الآية ١٤ من سورة الملك

بالصادق الأمين لما رأوا فيه من كريم الخلق وحيد السجيا ورفيع الشماثل ونذكر هنا على وجه المثال لا الحصر هذا المشهد الذى شهد له فيه كبار القوم بالحكمة والذكاء والفطنة وسرعة البديهة وقوة الادراك ذلك المشهد هو اشتراكه - ﷺ - فى بناء الكعبة بعد ما تصدعت. ووقوفه بعد ذلك لحل مشكلة استعصى علاجها بين قومه ألا وهى وضع الحجر الأسود من الذى ينال هذا الشرف ويفوز بتلك الرفعة ؟ لقد أوشكوا أن تفصل السيوف بينهم وما أدراك ما السيوف إذا كانت هى الحكم فى الخلاف إذن فلتسفك الدماء ولتفصل الرؤوس فما الذى حدث ؟

ها نحن أولاء نذكر نبذة عن الكعبة شرفها الله وأبقاها كريمة عزيزة طاهرة تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس فى الجلاء

الكعبة أول بيت بنى على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ، بناه أبو الانبياء ابراهيم عليه السلام بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التى نصبت ، بناها بوحي من الله تعالى وأمره له بذلك ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴾ (١) .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (٢) وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادى التى أوهت بنيانها وصدعت جدرانها وكان من بين هذه العوادى سيل عرم جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها فلم تجد قريش بدا من إعادة تشييد الكعبة حرصاً على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظاً من شرعة ابراهيم عليه السلام بين العرب . ولقد شارك الرسول ﷺ - قبل البعثة فى بناء الكعبة وأعاد تشييدها مشاركة فعالة فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه إلا أزاره وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة فى الأصح . ولقد كان له - ﷺ - أثر كبير فى حل المشكلة التى تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذى أبداه حلاً للمشكلة علماً منهم بأنه الأمين المحبوب من الجميع .

لقد كان لهذا الحكم الذى وفق الرسول له عظيم الأثر لقد اختلفت قريش أيهم له الفخار بوضع الحجر فى هذا المكان واستمر الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببه .

تحالف بنو عبد الدار وبنو عدى أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم وأقسموا على ذلك جهد أيمانهم حتى قرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً وأدخلوا أيديهم فيها توكيداً لأيمانهم ولذلك سبوا (لعقة الدم)

فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومى ما صار إليه أمر القوم ، وكان أسنهم وكان فيهم شريفاً مطاعاً قال لهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا فلما رأوا محمداً أول من دخل

١ - الآية ٩٦ من سورة آل عمران

٢ - الآية ١٢٧ من سورة البقرة

قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه وقصوا عليه قصتهم وسمع هو لهم ورأى العداوة تبدو في أعينهم ففكر قليلا ثم قال : هلم إلى ثوبا فأق به فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ثم قال ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب فحملوه جميعا إلى ما يحاذي موضع الحجر من البناء ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه في موضعه وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر وأتمت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانى عشرة ذراعا ورفعوا بها عن الأرض هكذا وقف الصادق الأمين موقفا شهد له التاريخ فيه بالحكمة وبعد النظر فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ثاقب الفكر صائب الراى عبقرى الفؤاد ذكى القلب .

شهادات الفلاسفة والمفكرين

تولستوى

قال تولستوى الفيلسوف الروسى تحت عنوان (من هو محمد) ؟
(إن محمدا - ﷺ - هو مؤسس ورسول الديانة الاسلامية التى يدين بها فى جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس (يعنى فى حساب وزمان تولستوى)
ثم قال : ولد النبى محمد - ﷺ - فى بلاد العرب سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح عليه السلام من أبوين فقيرين وكان فى حداثة سنة راعيا يرعى الغنم وقد مال منذ صباه إلى الانفراد فى البرارى والأماكن الخالية حيث كان يتأمل فى الله وخدمته - أى طاعته - إن العرب المعاصرين له عبدوا أربابا كثيرة وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها فأقاموا لها أنواع التعبد وقدموا لها الضحايا المختلفة ومنها الضحايا البشرية ومع تقدم سن محمد كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب وأن ديانة قومه ديانة كاذبة وأن هناك إلها واحدا حقيقيا لجميع الشعوب .

وقد ازداد هذا الاعتقاد فى نفس محمد حتى اعتزم أن يدعو مواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الصحيح الراسخ فى فؤاده ثم دفعه إلى ذلك عامل داخلى وهو أن الله اصطفاه لارشاد أمته وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة وإنارة أبصارهم بنور الحق فأخذ من ذلك العهد ينادى باسم اعتقاده الراسخ .

وبعد ما وصف تولستوى الديانة الاسلامية وصفا صحيحا موجزا قال :
(وفى سنى دعوة محمد الأولى تحمل محمد كثيرا من الاضطهاد شأن كل نبي بعث قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تكن عزمه بل ثابر على دعوة أمته مع أن محمدا لم يقل إنه النبى الوحيد بل جاء متمما للرسالات السابقة ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضا) .

ومما يذكر أن هذا الفيلسوف قد نال خطاب ثناء وشكر من الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق .

(كارليل)

يقول الفيلسوف كارليل فى كتابه الأبطال : (وإنى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الراى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وإكبارا واعظاما وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله لقد كان فى هؤلاء

العرب جفاء وغلظة وكانوا حماة الأنوف وأبابة الضمير فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى خضعوا له واستفادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا في طاعتهم مقدار ما ناله في ثوبه المرقع بيده فكذا تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال .

دائرة المعارف البريطانية

جاء في دائرة المعارف البريطانية ما نصه :

(كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحا وتوفيقا) .

دينسون

يقول دينسون عنه - ﷺ - في كتابه (الحركات كأساس للحضارة) .

(وفي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها وكان يبدو إذذاك أن المدنية الكبرى التى قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية .
إذ القبائل تتحارب وتتناحر لا قانون ولا نظام وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم بأجمعه) .

جيمس متشيز

يقول عن رسول الله - ﷺ :

(إن محمدا هذا الرجل الملهم الذى اقام الاسلام ولد حوالى ٥٧٠ ميلادية فى قبيلة عربية تعبد الأصنام ولد يتيما محبا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة فى شبه الجزيرة العربية وفى الشرق كله فقد حطم الأصنام بيديه وأقام دينا يدعو إلى الله وحده وأرشد العالم إلى أنه بشر مثلهم أرسله الله بشيرا ونذيرا) .

البروفيسور جارسون دى تاس

قال فى كتابه (الاسلام) إن محمدا رسول الله - عليه الصلاة والسلام كان منذ نعومة أظفاره مجانبا للرديلة محبا للفضيلة حتى أطلق عليه بنو قومه الصادق الأمين .

البروفيسور كارادى فو

(إن محمدا أتم طفولته فى الهدوء ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود وقد عاش هادئا فى سلام حتى بلغ الأربعين من عمره وكان بشوشا تقيا لطيف المعاشرة وكان النبى والمهمل والمؤسس ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا التى كان عليها ومع ذلك فإنه لم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين إن شعور المساواة والاخاء الذى أسسه محمد بين أعضاء الكتلة الاسلامية كان يطبق عمليا حتى على النبى نفسه) .

(رأى المستشرق الأمريكى إدوارد ورمسى)

رأى المستشرق الأمريكي ادوارد ورس

قال : (كانت بلاد العرب غارقة قبل نبوة محمد - ﷺ - في أحط الدركات ، حتى يصعب علينا وصف تلك الخزعبلات التي كانت سائدة في كل مكان ، فالفوضى العظيمة التي كان الناس منهمكين فيها في ذلك العصر ، وجرائم الأطفال [يعنى قتلهم خشية الاملاق] وواد البنات وهن أحياء والضحايا البشرية التي كانت تقدم باسم الدين ، والحروب الدائمة التي تنشب آنا بعد آن بين القبائل المختلفة ، والنقص المستديم في نفوس أهل البلاد وعدم وجود حكومة قوية ، كل هذه كانت سببا في سيادة الهمجية بين الناس ، وازدياد الجرائم وانتهاك الحرمات ، وهذه حقيقة يحملها التاريخ ولا يمكن إنكارها) .
ثم قال :

(كانت بلاد العرب في حالة تشويش وبلبلة ، وفي فوضى متشرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ أمة من الأمم ، حتى أن بيت الله الحرام الذي بناه ابراهيم الخليل - عليه السلام - لاقامة الشعائر الدينية فيه قد حول إلى معبد يحتوى على أربعمئة صنم لكل قبيلة صنم يعبدونه) .
ثم يقول :

(كان العرب يعيشون في جو فاسد مملوء بالغبار والميكروبات الاجتماعية ، حتى أن مجرد ذكرى هاتيك الأيام تقشعر منها النفوس ، وهكذا كانت أحوال سكان شبه جزيرة العرب وتلك هي عاداتهم حينما جاء محمد - ﷺ - شارحا للعالم رسالة الواحد القهار حاملا بيده اليمنى الهدى والفرقان [يعنى القرآن] وبيده اليسرى نور المدينة الوضاء ، وإنما ذلك ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن (به - عز وجل -) .

ثم قال : (وهناك بزغ فجر عصر جديد كان يرى في الأفق ، وبشرت الأيام بسطوع شمس العرفان وانقشاع سحب الجهالة المظلمة التي أخفت النور السماوى عن أبصار الناس زمنا طويلا ، وأتى اليوم الذى أعادت فيه يد المصلح العظيم محمد - ﷺ - ما فقد من العدل والحرية والتسامح والفضيلة ، أتى الوحي من عند الله إلى رسوله الكريم ، ففتحت حججه العقلية السديدة أعين أمة جاهلة فانتبه العرب وتحققوا أنهم كانوا نائمين في أحضان الرذيلة المظلمة ، ولتصور سكان البادية حينما رأوا أصنامهم تكسر على مرأى ومسمع منهم ، وهم المشهورون بالشجاعة والصلابة فى الرأى وعدم الخضوع للغير ، أفلا يثور ثائره ويهبون لقتل محمد - ﷺ - ؟ ولكنه كان يتكلم بكلام الله ربه فقد كانوا يشعرون بذلك حيث يجدون فى نبرات صوته هدى وتأثيرا كبيرا ، ولهذا لم يستطيعوا القيام ضد تيار الحق ولم يجدوا بدا من السلوك فى النقاء الجديد ، لأنه اجتاحت كل الموانع والسدود كما يجتاح السيل الجارف كل شئ يقف فى طريقه ، وهكذا انتصرت الفضيلة على الرذيلة ، وأخذت قوة الله هاتيك الشرور والآثام ، وحررت الانسانية من قبضة الوحشة) .

وفى الختام قال :

(وبالإجمال أتى الوحي من عند الله العلى القدير إلى رسوله ونبيه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ففتحت حججه العقلية أعين تلك الأمة الغافلة) .

لويل توماس

وقال الكاتب الانجليزى الكبير لويل توماس : (قبل أن يكتشف كولب أمريكا بألف سنة أبصرت عينا الطفل القرشى محمد بن عبد الله النور فى مكة ، فكأن الله اختار هذا الطفل ليغير به تاريخ العالم ، وكان فى طفولته يرعى الماعز والغنم فيقودها إلى أعالي الجبال التى تحيط بمكة إحاطة السوار بالمعصم ، ولما شب وأينع راح يذهب إلى سوريا فى تجارة بمال إحدى نساء قریش - يشير إلى السيدة خديجة - وسرعان ما يشعر بأن قومه الذين يعبدون الأوثان كانوا على ضلال يتمسكون بدين منبعث من الأوهام والأساطير ، فبعث بدين متسامح رضى أن يقبله الانسان بدون مشقة ، وقد علم أصحابه حب آدم وإبراهيم وموسى وعيسى واعتبارهم أنبياء مرسلين) .

ثم قال توماس : (لقد كان محمد العربى القرشى النبى الهاشمى والرسول التهامى أول من وحد قبائل العرب المتنافرة فى تلك الجزيرة ، وأول من ألف قلوب شعوبها المتقاتلة ، وجمع كلمتها تحت راية واحدة جاء محمد وجمع كلمة العرب ووجد صفوف العرب ولكن لا باستعمال القوة والاعتماد على الشدة ، بل بكلام عذب حكيم ، أخذ منهم كل مأخذ ، فاتبعوه وآمنوا به وقد فاق فتى مكة جميع الرسل وقادة الرجال بصفات لم تكن معروفة لدى العرب ، فجمع بين القلوب المتفرقة وجعل منها قلبا واحدا .

ومات النبى محمد - ﷺ - وتدفقت بعده موجة فتوحات الاسلام فاجتازت الصحارى ودخلت المدن ، وذلك لتجعل ذكرا خالدا أبديا لذلك الرجل العظيم الذى انتجته وأنبتته صحراء قاحلة ، فأثمر ثمرا لم يحلم به العالم من قبل ، وامتدت هذه الموجة فعمت آسيا وافريقيا إلى أن استولت على أواسط أوربا ، تلك الموجة التى لم تلحق بها موجة الرومان فى إبان مجدهم وعهد عظمتهم) .

وفى الختام قال توماس :

(وفى ذلك العصر عصر الفتوحات الاسلامية قدم العرب للعالم أجمع أعلم رجال الاسلام وأكثرهم ثقافة ومعرفة وبذلك فإن الاسلام قد حل بالعالم وانتشر فى ربوعه بسرعة البرق .

ادوارد مونيتيه مدير جامعة جينيف

قال فى محاضراته التى ألقاها :

(ولقد انتشر الاسلام منذ نشأته بسرعة ، وقلما توجد ، بل لا توجد أبدا ديانات كانت تنتشر بمثل هذا الانتشار ، وإن ما صادفه الاسلام من أول عهده كان عظيما وباهرا ، حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التى وطدت سلطة نبى الاسلام - ﷺ - وإصلاحه بعيدا عن حدود بلاد العرب ، لقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن أن نجاح العقيدة الاسلامية يرجع إلى العنف وإلى قوة السيف فى عهد محمد - ﷺ - وعهود خلفائه الأولين (يريد الخلفاء الأربعة) ولكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع ، فإن الفكرة لا تضع موضع الاعتبار العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها والوقوف على حقيقتها) .

وقال مونتيه في محاضرة أخرى بجنيف ما ترجمته :

(الاسلام في واقع الأمر ينتشر نوعا ما من تلقاء نفسه ، أريد أن أقول : (إنه ينتشر بواسطة المسلمين انفسهم لأن كل مسلم في البلاد الوثنية رسول لدينه مبدئيا ، فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوى العقيدة ، تلك خاصية من خاصيات الدين الاسلامي أن يستحوذ تماما على نفس المؤمن بكليته وجزئيته ، وأنه إن وجد عدد من المسلمين فاترى العزيمة أو من غير المباليين فإن الحمية من الصفات المميزة للدين الاسلامي ، وإننى اكرر أن المسلم غالبا يحمل في جسمه أنسجة البشر ، فالاسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه ، فهو ينتشر بواسطة القوافل التي تذهب للتجارة إلى البلاد الوثنية ، أو الديار التي تعبد فيها الأصنام ، فرسل الاسلام تدفعهم الغيرة للتبشير إلى الالتجاء إلى الوسائل المختلفة الملائمة لكل حالة خاصة في البلاد وفي الشعوب التي يقومون فيها بأداء عملهم الديني ، وهنا نرى العامل الديني يعمل عمله بجانب العاملين : الاجتماعى والاقتصادى ، فالاسلام في البلاد الشاسعة التي ينتشر فيها ويمتد نفوذه ينم لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية في أرقى الحالات وتباعا يعتبر من أولى وسائل التقدم والرقى) .

الدكتور ليتز

يقول : (إننى لأجرؤ بكل أدب أن أقول : ان الله الذى هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها لو كان يوحى إلى عباده فدين محمد - ﷺ - هو دين الوحي ، ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوى ووسائل التمييز بين الخير والشر ودفع الباطل هي الشاهدة على الالهام فرسالة محمد هي هذا الالهام) .

البروفيسور بورسورث سميث

يقول : (عندما ألقى نظرة إجمالية أستعرض فيها صفات محمد وبطولته ، ما كان منها في بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة - وكم من البطولات المعجزة أحدثوا - أجده أقدم الناس وأعلاهم مرتبة حتى إن الانسانية لم تعرف له مثيلا) .

